كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء السابع

احمد محمد الشنوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

العنوان	كتب غيرت الفكر الإنساني - الجزء السابع
ترجمة العنوان	Books That Changed the Human Thought - Part Seven
المؤلفون	أحمد محمد محمود الشنواني
تاريخ النشر	1996
الناشر	الهيئة المصرية العامة للكتاب
الموضوعات	ثقافية
الكلمات المفتاحية	علم الاجتماع | العلوم الاجتماعية | الثقافة (تستخدم الصفة الدالة على الجنسية)
ISBN	2 - 5000 01- 977-
المستخلص	يتناول الجزء السابع من كتاب " كتب غيرت الفكر الانسانى " استعراض لخمسة عشر كتاب من الكتب الرائدة والتى اثرت تاثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر العصور والدهور والغرض من هذه الموسوعة توضيح القوة العاتية للكتب وتاكيد الدور الخطير للكتاب فى تغيير مجرى الاحداث تغييرا كليا وذلك عن طريق مناقشة امثلة معينة والهدف هنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها اعظم الاثر واعمقه على الفكر الانسانى منذ اقدم العصور الى يومنا هذا . ومن ابرز الكتب التي تضمنها هذا الجزء (ملحمة جلجامش - المعلقات السبع - الشعر الغنائي - البخلاء) وغيرها من الكتب الرائدة .
URL	www.askzad.com/Bibliographic?service=4&key=Books_Bibliographic&imageName=BK00022109-001

كتب غيرت الفكر الإنسانى

أحمد محمد الشنوانى

الجـزء السابع



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

كتب غيرت الفكر الإنسانى

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير
أحمد صليحة

سكرتير التحرير
عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى
محسنة عطية

الفهـــــرس

الموضوع	صفحة
● **الأورجانون الجديد والأوهام الأربعة :**	
فرنسيس بيــكن ١٦٢٠ م	٢٨٥
● **الحــــكايات :**	
لافونتين ١٦٩٤ م	٣٠٣
● **تحليل الجمــال :**	
وليم هوجارث ١٧٠٤ م	٣١٩
● **كوخ العــم تــوم :**	
هاربيت بيتشر ستو ١٨٥٥ م	٣٤١
الهـــوامش	٣٦١

المقـــدمة

يقول الجاحظ في وصفه للكتاب :

« الكتاب وعاء ملئ علمـــا ، وظرف حشى ظرفا ... وبستان يحمل فى ردن (١) ، وروضة تنقل فى حجر ، وناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ..

ولا اعلم رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية ولا أقل جناية ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا من كتاب ...

ولا أعلم قرينا أحسن موافاة ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ولا أخف مؤونة ولا شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتنى من كتاب ...

ولا اعلم نتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارب الحكيمة وأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب ... !! » .

★★★

سيظل الكتاب يتربع على عرش الثقافة والفكر مهما نافسته فى هذا المجال وسائل أخرى كثيرة ، خاصة وسائل الاعلام المرئية والمسموعة وأيضا مهما تفشت الأمية فى الأمم !!

وقد أضاءت الكتب طريق الانسان ، فقد عرف بها نور العلم والمعرفة باعتبار أن هذا الانسان يتميز بالعقل ، وباعتبار أنه يستفيد من ثقافته بقدر ما يستفيد من خبرته ، ولذلك فان الكتاب يعتبر تراثا انسـانيا لا تقف فائدته عند حدود •• ولا تتوقف عند جيل دون جيل •

ومنذ عرف الانسان التدوين بعد اكتشافه الورق ، بدأت رحلته مع الكلمة ، فبدأ يدونها فى مختلف فروع المعرفة ، وبين حين وآخر راحت تظهر عشرات الكتب كأوعية لعصارة فكر الانسان وخبرته •

ومع مر الأيام وكر الدهور تحولت هذه الكتب الى تراث انسانى •• وغدت مرجعا حيويا لكل من يريد الفكر والثقافة فى أى فرع من فروع المعرفـة •

ورغم الكم الهائل من المؤلفات التى تدفع بها المطابع كل يوم •• بل وكل دقيقة بمختلف اللغات وفى جهات الدنيا الأربع •• الا أن هناك نوعيات من هذه الكتب هى التى تستوقفك •• لأنها تمثل لكل مفكرى الانسانية محطات لابد من الوقوف عندها للتزود بما فيها من معرفة لا غنى للبشرية عنها لأجيال بعد أجيال •

فالكتب مثل الناس درجات • فهناك من يعيش حياته ، ثم يمضى دون أن يترك أثرا ، وهناك من يؤثر فى دائرة الحياة من حوله ، وهناك من يمتد تأثيره الى آفاق أبعد وأبعد ••

وعن هذا النوع الأخير من الكتب •• كانت موسوعة الفكر الانسانى والتى نقدم للجزء السابع منها تحت عنوان : «كتب غيرت الفكر الانسانى» •

لقد عرضنا فى هذه الموسوعة (الأجزاء السبعة) لمائة كتاب من الكتب الرائدة والتى أثرت تأثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر العصـور والدهـور ••

ان الغرض من هذه الأجزاء السـبعة من كتابنا هو توضيح القوة العاتية للكتب وتأكيد الدور الخطير للكتاب فى تغيير مجرى الأحداث تغييرا كليا •• وذلك عن طرق مناقشة أمثلة معينة (مائة كتاب) ••• ولم يكن فى تفكيرنا — كما قلنا — تقديم « قائمة » بأحسن أو أعظم الكتب ولكن كان هدفنا هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ••

ان القارىء العربى فى حاجة ماسة الى هذا المؤلف الضخم بأجزائه السبعة ، والذى يقدم عصيرا مفيدا لكل تلك الكتب العظيمة ، كما يقدم زبدة المعارف الانسانية التى لا غنى عنها فى تكوين المثقف الواعى ••

وبعـــد ..

فان الموسوعة ـ التى بين يديك ـ عزيزى القارىء ـ بأجزائها السبعة، هى خلاصة قراءات قضيتها بين الكتب .. عربية كانت أو غربية ، لفت نظرى اليها ما فيها من فكرة وخبرة .

لذلك أردت أن أضعها بين يديك لعلك تجد فيها ما وجدت ..

والله أسأل أن ينفع بها ، ويجعلها خالصة لوجهه ..

فما أردت الا الخير .. وعلى الله قصد السبيل ..

فانه نعم المولى ونعم النصير ..

المـــؤلف

ملحمة جلجامش

من ملاحم العصر البابلي

٣٠٠٠ ق.م

أســاطير العــالم القـديم

فى أذهان بعض الناس أن الأساطير ليست سوى « حواديت » تروى حول « المدفأة » فى ليالى الشتاء الباردة لا هدف من ورائها سوى التسلية والمتعة وقطع الوقت ...

ويخطىء هؤلاء اذ يأخذون الأساطير على أنها خرافة فحسب ليس فيها من الواقع أو الأهداف شىء سوى ما تضم من خيالات غريبة شاردة لا تصلح لغير الأطفال ..

فما كانت الأساطير شيئا من ذلك أبدا . والا لما استطاعت قط أن تكون هى العمد الخالدة التى قامت عليها أركان الأدب العالمى ولما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منها هذه الألوان المتباينة من الآداب والفنون .

فقد رافقت الأسطورة الانسان منذ نشأته وماتزال ترافقه .

وفى كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى اتحدت فى صراعها العنيف من أجل الحرية والخير والســـلام .

وما من أمة ارتفع شأنها أو هان الا ولها أساطيرها ، وهى فى كل ألوانها ــ سواء أكانت الهية أم بطولية أم غرامية أم خلقية أو فكاهية ــ انما تمثل جزءا ضخما من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلا بعد جيل ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا فى تكوينهم وحيواتهم .

ولا شك أن كل هذه الأساطير قائمة على أساس من الحقيقة ، غير أن الخيال الانسانى مع مر الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أردية ، جعلتها بعيدة عن المعقول وان تكن قريبة محببة الى النفوس .

ومع ذلك فأغلب الأساطير يدور حول انشـــاء حياة أفضل وهى محاولات نشأت مع نشوء الانسان يفسر بها أهم المشاكل التى واجهته فى بدء حياته على الأرض وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ويجتاز بوساطتها

الهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون الغامض الذى يحيط به ويحاول بها الوصول الى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ولماذا يقع الشر وكيف ينتصر الخير ٠

وبالرغم من أن الانسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هذه المحاولات، الا أنه في خضم غروره ينسى أن محاولاته الحالية للوصول الى الكواكب ومغالبة الفضاء ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون وهى ان كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة الا أنها لا تختلف في شيء عما كان يملأ ذهن الانسان القديم بالقياس الى المراحل الحضارية التى كان يعيش فيها ويترعرع بين أحضانها ٠

وكان أول ما ملأ رأســه من تلك الخوارق التى تحيط به ايمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل والعناصر والكائنـــات ٠

وبدأ الانسان يتأمل تلك القوى ويجسم كل شيء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول اليه فيجعله الها ، ويعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين ٠٠ فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد كلها آلهة طفق الانسان ينسج حولها القصص ويتناقلها خلفا عن سلف جيلا بعد جيل ٠

ولكن الانسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى ٠٠ كيف جاءت هى الأخرى ؟ لابد أن هناك شيئا خالقا شيئا أقوى من كل شيء ، استطاع أن يصنع وحده تلك كل الأشياء ٠٠٠

ومن هنا كانت أقدم الأساطير التى وضعها الانسان هى أساطير الخلق نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق وكيف أقام السماء والأرض وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها وأشكالها لتعمير الكون ٠

تصور الانسان الخالق الأول مصدرا رئيسيا للقوة والخالق يهيمن على كل شيء ويسيطر على أركان الكون الشاسع تصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ينظمون الحياة على الأرض ويبصرون أعمـــال الناس فيثيبون المحسن وينكلون بالمسيء ٠

وتباينت صــور هذا الخالق فى أذهان البشر ، حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد الذى يتمثل دائما فى رب الأرباب أو كبير الآلهة،وجعلوا الآلهة الأخرى أتباعا يكلفهم مساعدته ويكل لكل منهم مهمة معينة ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها تارة بارشاده وطورا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يكون فى ذلك مساس به أو تجريد لما له من ربوبية مطلقة وسلطان شامل على كل شيء ٠٠

وكان لابد للانسان بعد ذلك أن يتخيل ذلك المجتمع الالهى الذى يختلط فيه آلهة مختلفو النزعات والأهداف والمهام فيهم الذكر وفيهم الأنثى، وكان لابد أيضا أن تختلط تلك الصور فى ذهنه بالعالم الأرضى الذى يعيش فيه هو نفسه فنسج فى أساطيره كل ما تخيله لذلك المجتمع الالهى من صور الصراع والنزاع والحسد والطمع والجشع والخير والشر مما يراه كل يوم ويشهده فى العالم البشرى ٠

عندما تصور الانسان مجتمع الآلهة وتخيله بدأ يربط بينه وبين مجتمعه حيث كان لابد من اتصال الآلهة والبشر واشتباك أعمال هؤلاء بأعمال أولئك فنشأت صورة جديدة ترسم ذلك الاتصال ثم الاشتباك ثم الصراع الذى كان لابد أن يكون ! ٠٠

وهنا تصور الانسان قصة الطوفان ٠٠ قصة أول صراع بين الآلهة والبشر ، حين يمعن أهل الأرض فى الفساد والسخرية بالآلهة فتغضب الآلهة عليهم وينزلون بهم نقمتهم بغمر صاخب تنفجر له عيون السماء فيهبط طوفان هائل يقضى على البشر المفسدين الا واحدا تصطفيه الآلهة فينجو فى فلك يصنعه وعلى يديه تعود الحياة من جديد ٠ وبدت صورة الانسان الذى اصطفته السـماء فهو شمس نيشتين عند البابليين وتجتوج عند السومريين وكزيزوتروس عند الآشوريين ودوكاليون عند الاغريق ٠٠

عاد الانسان يطل على الأشياء الغامضة التى تحيط به ٠٠٠ فوهم أن لكل شيء حوله نفس الصفات التى له وافترض أن للجماد روحا وللنبات روحا وللآلهة روحا ، وأنها تتصرف تماما كالانسان : تحب وتكره وترضى وتغضب وتفعل كل ما يفعله هو نفسه ! ٠٠

واستمر الانسان فى صراعه مع الطبيعة ، ومع الحيوان ٠٠ صراع عنيف ينتصر فيه الانسان مرة والطبيعة والحيوان مرات فما كان لدى الانسان سوى رسائل بدائية بسيطة ساذجة للنزول بها فى معترك هذا الصراع الرهيب ٠

ولم تعد وسائل الحرب العادية البسيطة تكفى لذلك الانسان وهو يصارع قوى أشد منه وأقدر فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه ، ومن خلال خيالاته بدأ يستعين بأصحاب الخوارق فيما لم يستطع أن يفعله بنفسه ، فصور أنصاف الآلهة يستمدون قواهم من السماء وصور أبطالا خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ومظاهر الجبروت عند الآلهة ومن هنا ظهر جلجامش وأنجيدو عند البابليين ورسـتم عند الفرس وهرقل عند الاغريق وأمثـالهم كثيرون فى عالم الأسـاطير ٠

لم يكتف الانسان خلال بحثه عن مصادر القوة التي تساعده على الأعداء بمثل هؤلاء الأبطال ، فبدأ يتخيل من جديد كائنات أخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الاتيان به والوصول اليه ..

وهنا ظهر الجن في أساطير الانسان .. جن خيرون يستطيع بوساطتهم الوصول الى ما يجد نفسه عاجزا عن بلوغه بغير شيء خارق ، وجن شريرون يساعدونه في الانتقام من الاعداء عند تصور أقسى أنواع الشر في مجال الشر وجعل الانسان للجن من القوى والسمات الفائقة ما يقدمهم عليه هو نفسه مادام هو أدنى قوة وأقل من الجن سلطانا ..

تصور الانسان أن مجتمع الجن مثل مجتمع الانس من حيث التركيب .. ففيه حكام وأمراء وفيه أجراء وصعاليك وفيه خيرون وشريرون ولكن أهم صفات هذا المجتمع أنه يساكن الانسان ويعاشره .. يساكنه في جسمه وفي ثوبه وفي طعامه وفي تفكيره وفي علاقاته الجنسية وفي أخص خواطره ! ..

هكذا تخيل الانسان الجن الذين لا يراهم رأى العين ويتوهم دائما في الوقت نفسه . وأنشأ حولهم مجموعة غزيرة من الأساطير وأدخلهم دائما خلال صراعه بين الخير والشر وبين الشر والآلهة ، ونظم أسلوبا للتعامل بينه وبينهم وجعل عالمهم تصاعديا مطبوعا بالسلطة شأن المجتمع البشرى الاقطاعى ، وأضاف الى أشخاصهم صفات الشذوذ في الهيئة والمسكن والسلوك والصوت .. حتى يستطيع بذلك أن ينم عن صفاتهم الخارقة للمصطلح العام ويدل على التمييز البالغ حد التفوق .

غير أن أشياء أخرى في تفكير الانسان دفعته الى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ أهدافه ، وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبينها بنفسه في الوقت الذى لا يستطيع فيه أن يلمس ويتبين أشخاص الجن .. وهنا .. اتجه الانسان نحو السحر .. وفي كتاب الأدب الشعبي يقول مؤلفه الأستاذ رشدى صالح : « ونحن اذا نظرنا الى السحر الآن بتقديرنا الحديث رفضناه واعتبرناه أسلوبا من التصرف الساذج ولكنه كان في التاريخ القديم قائما على استخدام القوة الخفية للكلمة لأن اختراع اللغة — أى استبدال الصوت بالاشارة أو الرسم — كان انقلابا مذهلا بالنسبة للانسان البدائى فاعتقد أن في الصوت قدرة خارقة تستطيع اذا نظمت في بضع جمل — أى تعويذة — وتليت مرارا أن تفرض سلطانها على أية ظاهرة أو كائن أو اله .. ومن هنا اعتقد المصريون القدماء مثلا أن الكلمة هي الأداة الالهية في خلق العالم حتى ان آتون رع يقول في أسطورته : « خلقت كل الأشياء مما يخرج من فمى عندما لم تكن ثمة سماء ولا أرض » .

هذه القوة الخفية للكلمة هي قوة الالزام أو الربط .. وتتضح تلك القوة مما جاء في تعويذة ايزيس وهي تطرد الألم من جسد رع فتقول : « اخرج أيها السم اخرج من جسد رع ... اخرج من جسد رع المحترق لأني أقول التعويذة .. انى أنا التي آمر انى أنا التي أبعث الرسالة .. اخرج على الأرض أيها السم القوى .. ولتعلم أن الاله الكبير قد أسر في أذنى باسمه الكبير .. » .

وهكذا أصبح السحر في عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادة وتصور الانسان محاولات جديدة لاسترضاء الآلهة والقوى الخفية التي ظل يجهل طبيعتها وغاياتها فعمل على اجتلابها في صفه لمعونته ولم يجد سوى السحر سبيلا الى ذلك باعتباره القوة الجديدة التي يستطيع بها أن يقهر القوى المناهضة له أو الخارقة لكل مستطاع وهكذا ، شاع الاعتقاد بأن الرقية أو التعويذة أو القسم ، يجبر القوى الخفية على أن تطيع الانســـان حتى اننا نقرأ في ألف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة « افتح ياسمسم » يلزم هذه القوى على أن تشق الصخرة وتفتحها .. ولم يكن ذلك وحده ما تستطيعه التعويذة السحرية بل انها لتمكن الانسان من تسخير القوى الخفية أيضا في ربط أعدائه حتى ان البابليين كانوا حين يدعونى على أعدائهم يقولون : « ليقع عليكم حبل الله » فكأنما الله اذا أراد أن يقتل انسانا أو يشل حركته لزمه أن يستخدم حبلا ! وتقول أسطورة طمهورث الفارسية انه ربط أهرمان ليمنعه من انزال الشر بالناس وتصور أسطورة برميثيوس الاغريقية أن العقاب الالهى كان يربطه الى صخرة .. وهكذا استطاع الانسان وقف غرمائه وأعدائه ــ أى وقف الشر ــ بالرقية أو التعويذة السحرية وجعل السحر بذلك أساسا جديدا لصراعه مع العالم المجهــــول .

كان كل ذلك أصلا لأساطير الانسان في مختلف حضاراته وبيئاته .. تلك الأساطير التي جاءت في أغلبها متشابهة متفقة تثير الحيرة والتساؤل عن علة تشابه أساطير المصريين مثلا مع أساطير الهنود والفرس والصين والاغريق والأوروبيين أيضا . هذا التساؤل أجاب عنه بعض الدارسين بأن الجنس البشرى كله قد نشأ أول ما نشأ في مكان واحد ثم تفرق وارتحلت معه معتقداته وأساطيره ، ويذهب آخرون الى أن حياة الانسان لم تظهر في مكان واحد بل في أمكنة متفرقة ولكن قام بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت معها الأساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمة الى أمة ، وثم رأى ثالث يقول ان سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الانسانى عامة وانتقاله من حالات قامت في كل موطن الى حالات أخرى قامت في هذا الموطن نفسه .

ومهما يكن الأمر فالثابت برغم تشـــابه العناصر الأولى لكل هذه الأساطير أن ثم اختلافا وتباينا واضحا في تفاصيلها فكل أمة شـــكلت أساطيرها حسب ظروفها الطبيعية ذاتها .. فالمجتمعات التي استقرت في أرض زراعية تشكل أساطيرها في أهم ما يشغلها وهو الماء والنماء وخصوبة الأرض والمجتمعات التي عاشت على الصيد تشكل أساطيرها فيما يشغلها من الحيوان وأدوات الصيد وشياطين الغاب والمجتمعات التي يحيط بها البحر تشكل أساطيرها العواصف والأمواج والحور والجنيات .

وكما تباينت تفاصيل أساطير الأمم تباينت أيضا أشكال أساطير الأمة الواحدة فمع كل تلك المراحل من ظروف الحياة تنوعت الأساطير فكانت هناك الأساطير الالهية التي ترتبط بما وراء الطبيعة ارتباطا تفسر العلاقات المتبادلة بين الآلهة والبشر والتي ينتصر الآلهة فيها دائما ، والأساطير التي تتناول الخوارق التي تدور حول أنصاف الآلهة والأبطـال خارقي القوة المتمتعين بقدرة جسدية أو معنوية فائقة والأساطير التي تدور حول وسائل البشر في التخلص من مآزق البيئة التي تحيط بهم والأساطير التي تهدف الى وضع أسس خلقية يتباين فيها الصراع بين الخير والشر .

ومع كل ذلك يجب ألا تنسى أن هـذه الأساطير التي عاشت حتى بدأت الديانات السماوية فأخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الديني ... هذه الأساطير ماتزال لها بقايا في معتقد كل أمة حتى الأمم التي تعيش في ظل الصناعة والعلوم ، بقايا ماتزال مسيطرة على العـادات والتقاليد والثقافة الانسانية بوجه عام ..

من ذلك أن الفراعنة فسروا الفيضان في أساطيرهم بأنه فيض الدموع التي تسفحها ايزيس وهي تبكي أخاها أوزيريس الذي قتله ست . وعندما جاءت المسيحية مصر وأزالت عبادة ايزيس استمرت أسطورتها تعيش في معتقد الفلاحين في شكل أسطورة مسيحية جديدة تقول ان الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذي كان كلما حل ميعاد الفيضان يدخل على العرش الالهي يرجـو الله أن يرحم عبـاده المصريين فيأمر بزيادة النيل ، ويظل يتضرع ويبكي حتى يســتجاب دعاؤه ويفيض النيل من فيض دموعـه .

★★★

الملحمـــة

تعد ملحمة جلجامش أشهر الملاحم البابلية ، وتتألف فى أصلها من طائفة من القصص غء الوثيقـة الاتصـال ضـم بعضها الى بعض فى عهود مختلفة ترجع الى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام ٠

وتتنـاول هـذه الملحمة بعض الأمور الأرضية كالانسـان والطبيعة والحب والمغـامرة والصـداقة والصراع ٠٠ وهنـاك الصراع بين عوامل الطبيعة وصراع بطل الملحمة لتغير مصيره بادراكه سر الخلود من بطـل « الفيضان الأكبر » ولكن هذا الصراع ينتهى بالفشل ويصحب الفشـل الاحساس بالتسليم ٠ ولقد كان تأثير الملحمة قديما بالغا ، فنتشرت بمختلف اللغات أما اليوم فهى تأسر لب الدارس والشاعر معا ٠

وأما عنوانها بالأكدية فيعني « ذلك الذى شهد كل شيء » وهو فاتحة الملحمة وهى ملحمة شعرية فى اثنتى عشرة لوحة أطولها يحوى أكثر من ثلاثمائة بيت وهى المعروفة بـ « ملحمة الفيضان » وهى اللوحة الحادية عشرة وهى أكثر اللوحات حفظا وأكملها جميعا وأما بقية اللوحـات ففيها أجزاء كثيرة ضائعة ٠

ورغم أن كثيرا من النصوص الأكدية ، بل معظمها ، مصدره مكتبة « أشور بانيبـال » فى نينوى الا أن ملحمة جلجامش (بخـلاف ملحمة الخليقة) نلتقى بها فى فقرات ونصوص سابقة ترجع الى الألف الأولى قبل الميلاد ، بل ان الدينا منذ منتصف الألف الثانية من بوغاز كوى نصوص تشير الى ترجمتها الى اللغة الحيثية ، ولدينا كذلك من النصف الأول من الألف الثانية أجزاء من النص البابلى القديم للملحمة يمكن ارجاع اللوحات أرقام : ١ و٢ و٣ و١٠ اليها وأغلب الأمر أن الملحمة هنا منقولة عن نص قديم أقدم من العصر الذى كتبت فيه ٠

والعلاقة بين ملحمة جلجامش كما نعهدها فى صورتها الأكدية وبين نظائرهـا السومرية المتعددة أصبحت واضحة بعد دراسـات عديدة فى السنين الأخيرة ٠ وما تجدر الاشارة اليه أن اللوحة الثانية عشرة ترجمة

حرفية لنص سومرى أما الملحمة نفسها فبينما تستخدم بعض المراحل والمظاهر الواردة فى الأشعار السومرية ، الا أن التطور واضح فى ثناياها ومن الواضح كذلك أن الاحدى عشرة لوحة للنص الأكدى لملحمة جلجامش تشير الى خلق جديد للأسطورة يكاد يصل بها الى مرحلة الخلق المستقل الذى لا يستند الى الأصول السابقة بل يبدو وكأنما لا علاقة له بها ٠

★★★

وجلجامش من أبطال الأساطير العراقية والقديمة وقد ورد اسمه بين أسماء ملوك الوركاء (٢) ويقترن اسمه بالمغامرات والبطولة النادرة ٠

ويؤلف الطوفان فى الملحمة عنصرا مهما وقد وردت اشارات عنه فى الروايات السومرية وقد حدث الطوفان من غير شك فى العراق القديم فترك أصداء فى تراثهم الأول وقد عثر على آثار ترسيب فيضى بين عصر جمدة نصر وفجر الأسرات فى بعض مدن العراق القديم مثل كيش والوركاء وشروباك (موطن نوح الطوفان البابلى) : « أوتو — نبشتم » وقد ورد ذكر الطوفان كذلك فى سجلات الملوك السومريين التى يشار فيها الى أسرات ملوك ما قبل الطوفان وأسرات ما بعد الطوفان ، فحادثة الطوفان اذن حادثة حاسمة فى التاريخ ٠

وتبدأ الملحمة بوصف بطلها جلجامش وتشير الى حكومته ومعرفته بأحداث ماء قبل الطوفان ثم تصف أعماله فى الوركاء وبناءه لأسوارها ومعبدها المقدس « أى آنا » ولقد كان جلجامش رائع الصورة ولا غرو فهو من صناعة الآلهة الذين فتنوا فى ابراز قوته وجماله ٠٠٠ ثلثاه اله والثلث من البشر وكان جلجامش عنيفا ٠٠٠ لم يترك زوجة لزوجها ولم يترك ابنا لأبيه وبلغ عنفه حد أن ضج الناس منه فشكوه الى الآلهة واستمع الى شكايات الناس ووجه « أنو » الالهة « أرورو » التى خلقت جلجامش لتصنع نظيرا له ونفذت « أرورو » أمر « أنو » فغسلت يديها وعجنت طينا وبصقت فيه وصنعت منه بطلا هو « انكيدو » المارد الذى يغطى الشعر جسمه والذى يغطى رأسه شعر كشعر النساء وكان « انكيدو » لا يعرف حياة الناس فهو وحش يرعى الأعشاب ويطعم على النباتات وقد رآه أحد الرعاة فارتاع وذهب لأبيه يقص عليه ما شهده ونصحه أبوه أن يروى الأمر الى جلجامش ولمح له بطريقة اصطياده عن طريق امرأة يبعث بها جلجامش ٠٠٠ واستمع جلجامش الى الرأى الذى بعث به اليه أب الراعى فاعاده الى انكيدو فى صحبة بغى زودها بنصحه أن تتجرد من ثيابها حين يرد (انكيدو) الماء وأن تعمل على اغوائه ٠٠٠ وتم الأمر ووقع « انكيدو » فى حبائل البغى وعاش معها ستة أيام وسبع ليال وغيرت من طباعه ورققت منها فنفرت

منه الوحوش التى اعتادت أن تألفه ولم يعد فى استطاعته أن يجاريها فى العدو فعاد الى البغى ، فنصحته أن تعود به الى الوركاء حيث المعبد مسكن « أنو » و « عشتار » وحيث « جلجامش » رمز القوة والبطش وأسلم لها انكيدو قياده وفى نيته أن يصارع جلجامش الجبار ويغلبه ٠

وتجمهر الناس بعد وصوله ليشهدوا صراع الجبارين ولقاء البطلين ووقف أنكيدو عند بوابة المدينة يتحدى صاحبها جلجامش ونشبت المعركة وتصارعا وفوجىء « انكيدو » بتفوق جلجامش ولكن الواحد منهما أعجب بالآخر فصارا صديقين ٠

ثم اتجه الصديقان الى غابات الأرز سعيا وراء الشهرة والمجد ووصلا بعد سفر شاق الى مدخل الغابة التى يحرسها الغول « حمبابا » (٣) الذى عينه « انليل » لحراستها ثم أوغلا فى الغابة حتى بلغا موضع « حمبابا » فذعر جلجامش واستغاث بـ « شمش » الذى أرسل ريحا قوية سلطها على « حمبابا » الذى استسلم وتضرع الى « جلجامش » سائلا أياه أن يبقى على حياته ولكن « جلجامش » لم يرحمه بل قطع رأسه ٠٠٠ ثم عاد البطلان الى المدينة وهناك تهيآ للاحتفال بالنصر ولبس «جلجامش» حلله وصقل سلاحه ولما رأته عشتار أعجبت به وعرضت عليه أن يتزوجها فرفض سؤلها وحز ذلك فى نفسها وخاصة بعد أن عرض بعلاقاتها السابقة بعشاقها الذين جلب حبها عليهم الدمار ٠٠٠ « تموز زوج صباك الذى مات بسبب حبك له ! طير الشقران المرقش لطمته وكسرت جناحه وما يزال يندبه ! وشعرت « عشتار » بالذلة والمهانة فذهبت غاضبة الى أبيها (أنو) لتستعديه على « جلجامش » وألحت عليه أن يخلق لها ثورا يقضى به عليه ، وهددته ان لم يفعل أن تذهب لتحطيم بوابة العالم السفلى لتستعدى الموتى على الأحياء ٠٠ ورضخ « أنو » وخلق « ثور السماء » وأنزله الى الوركاء ففتك بأهلها ومات كثيرون ذعرا ، فانبرى له البطلان يصارعانه حتى غلباه على أمره ٠٠٠ فغضبت « عشتار » ولعنت جلجامش فضاق « انكيدو » بذلك وقطع فخذ الثور وقذف به فى وجهها وكان الثور الهيا قرنـاه من اللازورد وحزنت عشتار على موت الثور وأقامت المناحة عليه وشاركتها نسوة المعبد ٠٠٠ ومر موكب جلجامش فى زهو يسأل العذارى : من الممجد بين الأبطال ؟ فكانت الاجابة ٠٠٠ جلجامش ٠٠ !!

وكان لابد من ذلك أن يحل العقاب بالبطلين ٠٠ فـ « انكيدو » قتل « حمبابا » و « ثور السماء » ووقع حكم الآلهة عليه بالموت ومرض انكيدو وهو فى ريعان الشباب وبدأ ماضيه يمر أمام ناظريه،فادرك أن الصياد الذى صحب البغى اليه هو أصل مصائبه فلعنه ولعن المرأة ٠٠٠ « تعالى أيتها البغى لأخط مصيرك الذى ينتهى الى الأبد ليكن الشارع مأواك وظـل

الحائط مسكنك سيلطم السكران وجنتيك ... » ومات « انكيدو » وحزن عليه جلجامش وندبه كما تندب النساء ثم دفنه وظـل الحزن يلازمه من بعده وأخذ يخاف هو نفسه الموت ... وفكر : كيف السبيل الى اجتنابه ؟

هنا تذكر قصة جده « أوتو نبشتم » الذى يعيش فى بقعة نائية فى البحار البعيدة والذى استطاع أن يحصل على الخلود فعزم على التوجيه اليه ليسأله سر الخلود وبدأ سفرة طويلة ... وصل أولا الى جبال « ماشو » التى تمر الشمس من مدخلها فى مسيرها اليومى وتحرس المدخل مخلوقات غريبة مركبـة من انسـان وعقرب ... نظرتها موت محـتم . ولما رأى جلجامش « الرجل العقرب » وزوجته مادة الهية فسأله عن أهدافه فأخبره أنه يسعى وراء الوصول الى « أوتونبشتم » ليسأله سر الخلود ، فسمح له بالمرور وظل يسير فى ظلام حتى جاء بستانا عجيبا تحمل أشجاره الجواهر اللامعة ووصل أخيرا الى شاطىء واستقر عند حافة تقيم فيها احدى الالهات وشكا اليها حاله وطلب معونتها للوصول الى « أوتونبشتم » ، فنصحته أن يكف عن السـعى « فـالخلود للآلهة والموت من نصـيب البشر » ... « استمتع بالحيـاة وارقص وغن والعب واغسل وجهك واسبح فى الماء وافرح بالزوجة فى أحضانك ... هذا نصيب البشر » وألح فى سؤاله رغم ذلك فأرشـده الى « ملامح » « أوتو نبشتم » فسأله هذا عن سبب مجيئه وعجب من ملامح الأسى على محياه فرد عليه جلجامش أن ذلك بسبب موت رفيقه « أنكيدو » ومن فزعه من أن يحل به الموت مثـله فقـال « أوتونبشتم » هل يقوم بيت الى الأبد ؟ هل تبقى البغضـاء الى الأبد ؟ ليس خلود منذ القدم ما أشـبه النوم بالموت هكذا العبد والسـيد حين ينتهى أجلهما » فسـأله « جلجامش » كيف صـار هو خالدا فبـدأ « أوتونبشتم » يقص عليه قصة الطوفان الذى حصل من بعده على الخلود قال ...

سأنبئـك بسر من أسرار الآلهة ... كنت أعيش فى « شروباك » وعول الآلهة على احداث الطوفان كان « أيا » فى مجلسهم فنقل الحديث الى كوخ القصـب « مسكنى » وقال له « اسمع يا كوخ القصـب وتأمل يا حائط يا رجل شروباك قوض بيتك وابن سفينة وانج بحياتك وخذ معك بذرة كل كائن حى » . وقلت ل « أيـا » سـأفعل ولكن ماذا أقول لأهل المدينة ؟ قال لى : قل لهم ان « انليل » يكرهنى فلن أعيش معكم بعد اليوم سـأنزل الى « ابسو » وأعيش مع « أيا » الهى وأما أنتم فسينزل عليـكم المطـر وصنعت السفينة وأنشـأتها من ست طبقات بالاضافة الى أصلها فصـارت سبع طبقـات وقسمت كلا الى تسعة أقسام وزودتها بالمؤونة ووضعت فيها بذرة كل كائن حى وأدخلت فيها أهلى وأقربائى وحيوانات البر ووحوشه وكل الصناع وحل الوقت وأمطرت السماء ودخلت السفينة

وأغلقت بابها وأرعد « اد » وانقلب النور وهبت العواصف وانكسرت السدود ... ستة أيام وست ليال ... وذعر حتى الآلهة من الطوفان ففزعت الى سماء « أنو » وصرخت « عشتار » مثل امرأة في المخاض وانتحبت سيدة الآلهة قائلة : « تحولت الخليقة الى طين وصار البشر الذين ولدتهم مثل بيض السمك يملأون المياه » . وفي اليوم السابع خفت حدة الطوفان وسكنت العاصفة ففتحت كوة وتطلعت الى البحر وكان كل شيء هادئا وكان البشر قد استحالوا الى طين ... وبعد اثنتي عشرة ساعة استوت السفينة على جبل نصير مدى سبعة أيام وأطلقت حمامة لم تجد مستقرا فعادت ثم أطلقت سنونو فعاد كذلك ثم أطلقت غرابا فذهب وأكل ولم يعد فأطلقت كل شيء الى الرياح الأربع ، وقربت قربانا للآلهة اجتمعوا حوله كالذباب ولما جاء « انليل » وشهد السفينة غضب لأن بعض البشر نجوا ولامه « أيا » لانه تسرع فأحدث الطوفان وصعد « انليل » الى السفينة وأخذ بيدي وأخرجني مع زوجتي فسجدنا له ثم باركنا وقال « ليكن « أوتونبشتم » وزوجته الهين مثلنا سيعيش بعيدا » فأخذوني وأسكنوني هنا .

وأنت ياجلجامش ؟ من سيجمع الآلهة من أجلك ؟ وغلب النوم جلجامش ولما استيقظ حزن وتوسل الى « أوتونبشتم » أن يدله عما يفعله وأشفقت عليه زوجة « أوتونبشتم » وتشفعت له عند زوجها فأسر اليه بسر خفي : أرشده الى نبات ينمو في غور البحر يجدد الشباب والحياة .. وربط جلجامش حجرا في قدمه في الأعماق ووجد النبات وأخذه ، وفكر في استنباته في بلاده ... ثم نزل ليستحم في بركة ، وشمت الحية شذا النبات فاختطفته وحصلت عن طريقه على وسيلة تجديد الشباب والحياة ... وجلس جلجامش يبكي وعاد الى المدينة بعد أن آمن أن الخلود ميسور وقام بتجديد بناء المدينة واقامة أسوارها العالية .

وهاك بعض فصول الملحمة ...

اللوحة الأولى :

ان من شهد كل شيء حتى نهاية الأرض ومن جرب كل شيء ... شهد المخفي من الأمور وكشف المستور ... وقدم بذلك تقريرا أمام « الفيضان » أتم رحلة طويلة ، مضى مرهقا ونقش كل ما مر به من عناء على لوحة من الحجر وشيد سور « أوروك » (الوركاء) وبنى في « أيانا » هيكلها الطاهر ثلثاه اله والثلث آدمي .. لا نظير له حين يكتسح بأسلحته ... ويوقظ أعوانه بالطبول .. أما أشراف الوركاء فالأسى يجتاحهم في قاعدتهم « جلجامش » لايدع الأبن لأبيه نهارا وليلا ويطلق العنان لعجرفته ورغم ذلك فهذا هو جلجامش .. راعي الوركاء انه يحب أن يكون راعيا

قويا وفخما ورائعا وعاقــلا ! جلجامش لا تفلت منه الفتـاة فيدعها لأمها ولا ابنــه المحــارب أوروس الشريف ! وأصــغى آلهــة السماء لشكايتهم ولما سمع « أنو » شـكايتهم استدعى « أرورو » العظيمة وقال لها : « أنت التى خلقت جلجامش فاخلقى الآن صورته وليكن كفؤا لعاصفة قلبه ··· ليتصارعا حتى يحل السلام فى الوركاء ··· ولما سمعت « أرورو » ذلك حملت بصـورة من « أنو » فى داخلهـا ثم غسلت يديها والتقطت طينا وشكلته وبصقت وخلقت « انكيدو » ··· كان يغطى الشعر جسمه كله وكان شعر رأســه كشعر رأس المرأة ·· خصلات شعره تنبثق مثــل « نيسابـا » (٤) انه لا يعرف النـاس أو البـلاد انه فى لبـاس مثــل « سوموقان » (٥) ·· يرعى الأعشــاب مع الوعول ويزاحم الوحوش عند موارد الماء ··· ولقيه صياد عند مورد الماء يوما وآخر وثالثا ولما رآه الصياد جمد وجهه ··· ذهب مع وحوشه الى بيته وهو شديد الخوف لا يحير نطقا وقلبه منزعج والجهامة فى وجهه وقال لأبيه : « هناك رجل قدم من التلال ·· انه أقوى من فى الأرض ·· انه من موالى « أنو » ولذا فان قوته شديدة ··· انه يطوف فى التــلال وكالوحوش يعيش على الأعشاب وتطأ قدماه موارد الماء اننى أرهبه بحيث لا أجرؤ على الاقتراب منه انه ملأ الحفر التى حفرتها ومزق الفخاخ التى نصبتها انه جعل الوحوش وصيدى جميعا يهرب من بين يدى » ، وقال له أبوه : « يابنى جلجامش فى الوركاء هناك أقوى منه ·· وكمولى « أنو » هو الشديد فى قوته اتجه اذن الى الوركاء وتحدث اليه عن قوة هذا الرجل واسأله أن يعهد لك بعاهرة ثم اصحبها ودعها تسيطر عليه بفضل قوة أكبر ·· حين يرد الماء دعها تخلع ملابسها فحالما يراها متجردة سيعجب بنضجها ··· سيقترب منها ··· وعندئذ ستتخلى عنه وحوشه » ·· واستمع الابن لنصح أبيه وذهب الى جلجامش وأعاد عليه ما رواه لأبيه ··· واصطحب الفتى معــه عاهرة ووصلا الى البقعة المعهودة فى اليوم الثالث ·· ومر يوم ثم يوم آخر وهما جالسان الى مورد الماء وجاءت الوحوش لتشرب وجاء « انكيدو » الذى يعيش على الأعشاب مع الغزلان ويشرب الماء مع الوحوش شهدته الصـبية ·· شهدت الرجــل الوحش وقال لها الصياد : « أيتها الصبية هاهو ذا فاخلعى ثوبك ·· ليتعر صدرك حتى يسـتمتع بنضجك لا تخجلى رحبى بحماسـته انه حين يراك سيقترب منك نحى ثيابك جانبا حتى يستقر فوقك عاملى المتوحش بدهاء المرأة ولسوف تتجنبــه بعد ذلك الوحوش البريـة التى عاشـت معه من قبل ·· » ونفذت الصبية كل ما أوصاها به فى دقة وظل من مفاتنها توجه الى وحوشــه ولكن الغـزلان نفرت منه والوحوش ابتعدت عنه وجـزع « انكيدو » وشلت حركة ساقيه ولم يسـتطع أن يعدو كما كان يفعـل ، خانته ساقاه ولكنه أصبح أوسع ادراكا وأشد فهما ، فعاد ليجلس عند قدمى

العـاهرة وتطلع الى وجهها واستمع الى حـديثها وهى تقول : « أنت عاقل يا أنكيدو ٠٠ لقد صرت كاله فلم تجب المراعى مع الوحوش ؟ تعال معى الى أسوار الوركاء الى المعبد المقدس مسكن « أنو » و « عشتار » حيث يعيش جلجامش الذى يسود القوم كثور برى وحسن كلامها فى عينيه فقال لها : « قومى يا صـبية اصحبينى الى المعبـد المقـدس الطاهر مسكن « أنو » و « عشتار » حيث يعيش جلجامش هناك سأتحداه وسأصيح فى الوركاء قائلا : « أنا هو القوى أنا هو من يستطيع أن يغير المصائر ان من ولد فى المراعى قوى » ، فقالت له : « قم اذن ودعنا نذهب اليه حتى يرى وجهك سأريك جلجامش فأنا أعرف أين هو ٠٠ تعال معى اذن الى أسوار الوركاء حيث الناس فى زى الأعياد سأريك يا «أنكيدو » الرجل المرح « جلجامش » تطلع اليه انه يشـع بالرجولة والقوة جسمه وافر الكمال ٠٠ ان له قوة أكثر من قوتك وهو لا يستريح نهـارا أو ليلا تخل يا « أنكيدو » عن غطرستك ان « شمش » يعجب بـ « جلجامش » ان « أنو » و « انليل » و « أيا » قد زادوا فى حكمته ان « جلجامش » سيراك فى أحلامه فى الوركاء قبل أن تنزل من الجبال لان « جلجامش » استيقظ ليقص حلمه على أمه قائلا : « لقد رأيت حلما الليلة الماضية بديت النجوم فى السماء ٠٠ كولى ٠٠ لـ ٠٠ « أنو » نزلت واحدة على حاولت أن أرفعها فتعذر على ذلك حاولت زحزحتهـا فلم أفلح ٠٠٠ كانت أرض الوركاء مجتمعـة حولها والنـاس متجمهرون ورفاقى يقبلون قدميها ٠٠ لقد جذبت اليها كما يجذب المرء الى امرأة ٠٠ ثم وضعتها عند قدميك لانك جعلتها تنـافسنى » وفسرت أمه « ننسون » العاقلة الخبيرة بألوان المعرفة حلم جلجامش فقالت : « منافستك ٠٠٠ نجمة السماء » هذه الأوصاف التى قدمتها تعنى رقيقا قويا ينقذ صديقا ٠٠ انه أقوى من فى الأرض كولى لـ « أنو » يعنى شدة القوة والانجذاب له مثـل الانجذاب نحو امرأة يعنى انه سوف لا يهجرك ٠٠٠ هذا هو تفسير حلمك » ، فقال لأمه : « رأيت حلما آخر ٠٠ فى أسوار الوركاء بطة تجمع الناس وتجمهروا حولها وضعتها عند قدميك ٠٠٠ انجذبت اليها كانجذاب المرء الى امرأة لانك جعلتها تنافسنى » ٠

وفسرت الأم ننسون العاقلة الخبيرة بألوان المعرفة الحلم بقولها : « البطة التى رأيتها انها رجل وانجذابك نحوها كانجذاب المرء نحو امرأة لاننى أنا التى صنعتها لتنافسك ٠٠ يعنى هذا رفيقا ينقذ صديقا ٠٠ انه أقوى من فى الأرض ٠٠ كولى « أنو » قوته شديدة ٠٠٠ وفتـح جلجامش فمه وقال لأمه : « ألا ليكن لى كحظ كبير ٠٠ أن يكون لى رفيق قوى ٠٠٠ » ٠ هـكذا كشف جلجامش عن أحـلامه ٠٠٠ وبهذا تحدثت الصـبية الى جلجامش (٦) حين جلسا معـا ٠

اللوحة الثـانية :

مشوهــة في النص الآشورى والجزء الأول من نص اللوحة تـكرار للثلث الأخير من اللوحة الأولى لا نرى داعيا لسرده مرة أخرى ··· وبعد ذكر الحلمين وتفسيرهما ··· نرى « أنكيدو » يجلس أمام العاهرة وقد نسى موطن ولادته والفتــاة تروى له من جــديد أمــــر جلجامش ثم تطلب اليه أن يقوم : « هيا ·· سأقودك الى الوركاء ذات الأسوار العريضة ··· الى المعبد المقدس الى مسكن « أنو » قم يا « أنكيدو » سأقودك الى « أيانا » مسكن « أنو » حيث يعيش «جلجامش » البــاهر الفعال وأنت ستحبه كذلك ·· قم ·· عن الأرض ·· فراش الراعى ! وأصــــغى الى كلماتها ووافق على حديثها وملأت نصيحة المرأة قلبه وخلعت دثارها وألبسته اياه ··· كسته بثوب وارتدت هى الآخر وأمســكته من يده وكما تقود الأم فتاها قادته الى أماكن الرعى وتجمع حوله الرعاة ··· كان قد اعتــاد أن يرضــع لبن الوحــوش البرية فوضعوا أمامه طعاما ولم يستسغه ، بل لم يعرفه كما لم يكن يعرف طعم الشراب القوى · وقالت له العــاهرة : « كل طعاما يا « أنكيدو » فهو من مستلزمات الحياة واشرب شرابا قويا كعادة أهل الأرض » وأكل « أنكيدو » الطعام ، حتى شبع وشرب سبع قنينات من الشراب القوى فملأه المرح والتمع وجهه لحك شعر جسمه وضمخه بالزيت، وأصبح كالرجال ثم ارتدى ثيابا وتزود بسلاح لصيد الأسود حتى يقضى الرعاة ليلتهم فى طمأنينة وأمسك بالذئاب وقبض على الأسود واستطاع حارس القطعان أن يرقد فقد غدا « أنكيدو » حارسهم الرجل القوى ··· البطل الوحيد ···

ورفع عينيه فرأى رجلا واستدعى الصبية وقال لها : « ايتينى بالرجل· لم جاء الى هنا ؟ ما اسمه ؟ » واستدعت العاهرة الرجل وسألته لماذا يسرع فقال الرجل لـ « أنكيدو » : « انه اقحم نفسه فى بيت اللقــاء المخصص للناس انه يهيل العــار على المدينة انه يفرض على المدينة التعسة أمورا غريبة انه بالنسبة لملك الوركاء ذات الأسواق الواسعة تصبح «طبل» (٧) النــاس مطلقة بالنســبة للاختيــار الزوجى ··· بالنسبة لجلجامش ملك الوركاء ذات الأســواق الواسعة تصــبح « طبل » الناس مطلقة بالنســبة لاختيار العروس حتى يلتقى بالزوجات الشرعيات ··· انه يأتى أولا ثم من بعده الزوج ··· ان ذلك كتب له فى لوح القدر منذ قطــع حبله السرى » وعند هذه الكلمات اصفر وجهه ·

وسار « أنكيدو » ومن خلفه الصبية ولما دخل الوركاء ذات الأسواق الواسعة تجمعت الجماهير من حوله ، وحين توقف فى الشارع تجمعوا حوله قائلين : « انه يطابق جلجامش لولا أنه أقصر قامة··انه قوى بنيانا ··

انه أشد الناس بأسا ·· انه اعتاد أن يرضع من لبن الوحوش البرية ··· سيكون فى الوركاء صراع بالأسنة » وفرح النبلاء وقالوا : « لقد ظهر بطل بدا واحد مساويا لجلجامش الذى يشبه الاله ··· ووقف « أنكيدو » فى الطريق معترضا جلجامش الذى بدا فى شدة البأس ·

التقيا فى سوق الأرض ··· واعترض « أنكيدو » البوابة بقدمه وهو لا يسمح لـ (جلجامش) بالدخول وتماسكا وتناطحا كثورين وكسرا عارضة الباب واهتز الحائط ··· وحين حنى جلجامش الركبة وقدمه على الأرض ··· انفثأ غضبه وحين استدار قال له « أنكيدو » : « كواحد مفرد حملتك أمك « ننسونيا » البقرة الوحشية رفعت رأسك فوق الرجال ··· (انليل) منحك الملك على الناس » ·

اللوحـة الثـالثة :

النص مشوه بها فى اللوحة الأشورية وغير كامل ، والنصوص فى اللوحات الأقدم عهدا تتابع سير الأسطورة ويبدو أن جلجامش عول على المضى ضد « خواو » الوحش الرهيب (وهو « خومبابا » فى الأشورية) الذى يقطن غابة الأرز ويحاول « أنكيدو » أن يثنيه عن عزمه ولكنه لاينجح « أم تريد أن تفعل ذلك ؟ » واعتنق الواحد منهما الآخر وتصادقا ·

(وتلى ذلك فقرة تعدل ٢٥ سطرا مشوهة) ··

ثـــم ···

وامتلأت عينا أنكيدو بالدموع وسقمت نفسه ومرض قلبه وتنهد فى أسى وقال له جلجامش : « يا أخى لم ترفع عينيك ؟ ولم يمرض قلبك ولم تتنهد فى أسى ؟ » وفتح « أنكيدو » فمه وقال لجلجامش : « يا صديقى : صرخة تتحشرج فى حلقى ذراعاى كليلتان وقوتى انقلبت الى ضـعف » وقال له جلجامش : « فى الغابة يقيم « خوواوا » المتوحش ··· لنذهب اليه ونذبحه حتى يطرد الشر من الأرض » وفتح « أنكيدو » فمه وقال له : « لقد عرفته فى التلال يا صديقى حين كنت أجول بين الوحوش بالخوواوا ان زئيره هو عاصفة الفيضان وفمه نار وأنفاسه الردى ·· لم تريد أن تفعل ذلك ؟ ان الصراع غير المتكافىء هو الاشتباك ضد « خوواوا » وفتح جلجامش فمه وقال لأنكيدو : « سأخترق جبال الأرز » ···

وقال « أنكيدو » : « كيف نستطيع أن نذهب الى هناك وحارسها محارب قوى ··· لا يعرف طعم الراحة ·· ان « انليل » عينه لحراسة غابة الأرز ··· ليكون رعبا للناس » ·

(ومن هذه المرحلة يمكن متابعة النص الأشورى) :

خومبابا ··· زئيره عاصفة الفيضان فمه نار أنفاسه الردى يستطيع أن يسمع البقر الوحشي في الغابة على مبعدة ستين فرسخا ··· من هو ذلك الذى يستطيع أن يذهب الى الغـابة التى أحله فيهـا « انليل » ليحرسها ··· ليرعب الآدميين ؟ ان الضعف يعتور من يذهب اليها » ·

(ومن هنا يستمر النص البابلى) :

وفتح جلجامش فمه وقال لأنكيدو : « يا صديقى من يغلب الموت ؟ ان الآلهة وحدهم هم الخالدون أما البشر فأيامهم معدودة ··· ان ما يحصلونه ليس سوى الريح حتى هنا نرهب الموت ··· فماذا عن بطولتك ؟ اذن فلا تقدمك وليقل لى فمك « تقدم ولا تخف » فان سقطت خلفت من ورائى اسما ··· سيقولون « جلجامش سقط فى صراعه ضد خوواوا » وذلك بعد أن تكون ذريتى قد تكاثرت فى بيتى انك أحزنت قلبى ··· اننى سأقطع الأرز وسأخلد اسمى ··· يا صديقى سأجعل الحداد يصنع لى أسلحة » وصنع الحداد أسلحة حادة السنان وكانت البلطة تزن ثلاث وزنات ·· وزنة السلاح وزنتان ··· وكان يحمل كل من جلجامش وأنكيدو ما زنته عشر وزنات ··· وتجمع الناس عند بوابة الوركاء ذات السبعة مزاليج ·· وفى شوارع أسواقها العريضة ··· وتحدث جلجامش الى كبار القوم منذرا بهزيمة ذلك الذى فى غابة الأرز وبقطع أشجار الأرز وقال له كبار القوم ··· « انك ما زلت صغيرا وما تدرى ما سيحل بك اننا سمعنا عن خوواوا ان مظهره عجيب فمن يستطيع أن يجابه أسلحته ؟ وان غابته تمتد لعشرات الآلاف من الفراسخ فمن يستطيع أن يوغل فيها ؟ وان زئيره كعاصفة الفيضان وان فمه نار وان أنفاسه الردى ··· فلم تريد أن تفعل ذلك الأمر ؟ ·· ان الصراع غير متكافىء فى الاشتباك مع خوواوا » فلما سمع جلجامش ما قاله مستشاروه ابتسم لصديقه وقال :

« ليحمك الهك وليردك سالما الى وطنك الوركاء » وركع جلجامش أمام « شمش » وقال : « أى شمش اننى أذهب يداى مرفوعتان للصلاة ألا لتحسن الى روحى ولتسمح بأن أعـود الى وطنى الوركاء أسبغ على حمايتك » ···

وجرت الدموع على وجه جلجامش وجىء له بأسلحته ودعا له القوم بأن يعود سالما وقدم له الولاء كبار القوم وهم يقولون له : « لا تثق فى بأسك واحرس نفسك ليتقدمك أنكيدو فانه يعرف الطريق لأنه سار فيه من قبـل وليخترق ممرات خوواوا وليعدك الينـا سالما ليمنحك شمش سؤلك ··· ليفتح أمامك المغلق من الطرق ··· ليقف الى جانبك « لوجال باندا » لتغسل قدميك فى نبع خوواوا احفر بئرا فى وقت الراحة ليلا···

ليكن الماء في سقائك نقيا ليمنحك « شمش » ماء مبتردا ! وقال له « أنكيدو » مادمت قد عزمت فتقدم ··· لا تخف اتبعنى أنا أعرف مسكنه والطريق اليه وحين سمع الشيوخ ذلك شيعوه داعين له بالتوفيق ·

وقال جلجامش ل « أنكيدو » : « لنذهب الى ايجالما » ··· الى حضرة الملكة الكبرى « ننسون » العالمة بكل شيء ··· ذهبا اليها ··· ولبست « ننسون » ثيابها ووضعت حليها المناسبة وصعدت السلالم الى السقف وقدمت البخور الى « شمش » ورفعت اليه يداها وقالت : « لم يمنحنى جلجامش ابنا بقلب قلق ثم تدفعه ليقوم برحلة الى قصر خومبابا ليدخل معركة مشكوك فيها ليسافر فى طريق غير مأمون حتى يذهب ويعود حتى يصل الى غابة الأرز حتى يذبح الوحش خومبابا حتى يمحو الشر الذى تكرهه من الأرض ألا فلتذكرك « آيا » عروسك بغير خوف ولتعهد به الى حراس الليل » ·

ووضعت البخور وتلت الرقية ثم طلبت الى « أنكيدو » أن يحمل هذه الرسالة « أى أنكيدو القوى أنت يا من لست بثمرة رحمى ··· اننى بهذا أعينك مع الكاهنات والمنذرين ونساء العبادة ومكرسى جلجامش ! ··· ثم وضعت حول عنقه ··· « ليحم أنكيدو صديقه ويحرس صاحبه ويحمل جسده فوق الحفر ·· اننا ·· المجمع ·· نعهد لك بالملك » وقال أنكيدو لجلجامش ···

اللوحة الرابعة :

النص فيها قلق وغير مؤكد وهو مشوه فى كثير من أنحائه وفى نصوصه الحيثية والأشورية والأكدية ولا يستقيم النص الا بين حين وآخر وهو يشير دائما الى قطع عشرات الفراسخ فى الطريق الطويل حتى يقطعوا فى ثلاثة أيام ما قطعه غيرهم فى مائة وخمسين يوما ··· حتى يبدو أنهما وصلا الى بوابة الغابة التى يحرسها حارس من أتباع خومبابا ويظهر ان جلجامش كان فى حاجة لتشجيع أنكيدو ويظهر ان الخوف أقعده بعض الوقت عن المضى لملاقاة المجهول حتى شجعه أنكيدو على التقدم ·

اللوحة الخامسة :

توقفا وتأملا فى الغابة وتطلعا الى ارتفاع الأرز ومدا ببصرهما الى مدخل الغابة ··· كان هناك طريق حيث اعتاد « خومبابا » أن يسير ·· كانت الدروب مستقيمة والطريق سهلا ورأوا جبل الأرز ·· مسكن الآلهة ··· عرش « ايرنينى »(٨) ··· ومن واجهة الجبل ارتفعت أشجار الأرز وكانت ظلالها رائعة ···

واحتضينا بعضهما ليأويا الليل ... وغلبهما النوم عند منتصف الليل تيقظا وقص على صديقه « أنكيدو » حلمه : « اذا لم تكن قد أيقظتني فلم أنا يقظـــان يا أنكيدو يا صـــديقي لابد أنني شهدت حلما .. ألم يوقظني ؟ .. الى جانب حلمي الأول شـهدت حلمـا آخر .. وفي حلمي يا صديقي انكفأ جبل ألقاني أرضا وأمسك بقدمي .. وظهر رجـل .. أجمل من في الأرض وشـدني من تحت الجبل وأعطاني ماء لأشربه فهدأ قلبي .. وأقر قدمي على الأرض ..

وقال أنكيدو يفسر لصاحبه حلمه : « الجبل يا صاحبي هو خومبابا انا سنقبض على خومبابا ونقتله وسنلقي بجثته الى السهل » ... ثم سار عشرين فرسخا ثم ثلاثين فرسخا وحفر بئرا أمام « شمش » وجاء الجبل بحلم لأنكيدو ووضع جلجامش ذقنه على ركبته وغلبه النوم ثم تيقظ فجأة وسأل صاحبه : « أناديتني ؟ لم استيقظت ؟ ألم تلمسني ؟ أمر بي اله ؟ لم يرتعد جسدي ؟ يا صاحبي لقد رأيت حلما ثالثا ... مزعجا السماء صرخت والأرض دوت وخبـا ضوء النهار وحلت الظلمة والتـمع البرق وأما السحب فأمطرت الموت ... ثم خبت النار وتحول كل شيء الى رماد لتنزل ...ولنتشاور خارجا » ولما سمع أنكيدو الحلم قال لجلجامش ...

(وهنا تختفي اجابة أنكيدو لجلجامش من النص) .

وأمسك جلجامش بالبلطة في يده واجتث شجرة أرز فلما سمع خوواوا الجلبـة غضـب وقال : « من جاء اليجتث الشجرة التي نمت في جبالي ؟ » وعندئذ جاءهما صوت «شمش» من السماء : « اقتربا ولا تخافا.. تقدما الى بيته وادخلا » .

(ويضيع جانب من النص) ثم يلي ذلك :

وجرت دموعه وقال جلجامش لـ « شمش » : « لقد جئت الى شمش واتخذت طريقي المرسوم لي » واستمع « شمش » الى دعاء « جلجامش » وارتفعت ضد « خوواو » الرياح القاسية ... ثمانية من الرياح هاجمته وصوبت الى عينيه فلم يستطع حراكا فقال لـ «جلجامش» : « أطلقني ستكون مولاي وسأكون خادمك ... » ولكن أنكيدو قال لجلجامش : « لا تصغ الى ما قاله لك ... قطعوا رأس « خومبابا » ...

اللوحة السادسة :

ومسح شعره ونظف أسلحته وألقى بأسماله وارتدى زيـا جديدا نظيفا ولما وضع جلجامش تاجا على رأسه وشهدت عشتار جماله قالت له : « أقبل يا حبيبي .. امنحني من قطافك ! ستكون زوجي سأجهز لك عربة

من اللازورد والذهب ·· عجلاتها من الذهب وأبوابها من الالكتروم ··· ستكون لك بدلا من البغال القوية ··· جن من العواصف ·· ستدخل بيتنا تحت عبق الأرز ··· وحين تدخل ستقبل قدميك عتبة الباب وسيتضع أمامك الملك والسادة والأمراء وسيقدمون لك منتجات البلاد والسهول اتاوة··ستنتج معزك ثلاثة أضعاف وأغنامك توائم ·· حمارك سيفوق بغلك في قوة حمله ستكون لخيل عربتك شهرة في السباق وسوف لا يكون هناك منافس لثورك تحت النير ! » وفتح جلجامش فمه وقال لعشتار : « ماذا في وسعى أن أقدم لك كهدية عرس ؟ أأقدم زيتا لجسدك وملابس ؟ أخبزا وخضرا ؟ أطعاما يليق بالآلهة أم شربا يليق بالملوك ؟ ··· اذا تزوجت منك فلن أكون سوى مستوقد يخبو في البرد وباب خلفي لا يذود الريح العاصفة ·· قصر يحطم الشجاع ··· غمامة تغطى ·· قار يلوث حامله ·· قربة ماء ينقع ماؤها على حاملها ·· نعل يضيق به لابسه ·· من ممن أحبك دام حبك له ؟ من من رعاتك استطاع أن يبقى على ارضائك ؟ تعالى فأعدد لك من أحبوك : ··· « تموز » حبيب شبابك ··· لقد قدر له النحيب عاما بعد عام ··· أحببت طائر الراعي المرقش فقربته وكسرت جناحه

انه يجلس في الأحراش صارخا « وى أين جناحي ؟ »

ثم أحببت السبع ··· الكامل في قوته ·

فحفرت له سبعا من الحفر وسبعا ·

ثم أحببت فحلا من الخيل ··· له شهرته في المعارك

وزودته بالسوط والمهماز ··· وسمحت له أن يقفز سبعة فراسخ

ثم قدرت له أن يشرب الماء الكدر

وقدرت لأمه « سيليلى » العويل

ثم أحببت حارس القطيع الذى جعل أكوام الكعك طعاما لك

وذبح حملانا كل يوم ··· ومع ذلك ضربته فحولته الى ذئب حتى طرده صبيانه وعضت كلابه فخذيه

ثم أحببت « أيشو للانو » بستاني أبيك الذى طالما حمل لك سلال البلح

وكان كل يوم يضيء مائدتك

وارتفعت عيناك له ··· وذهبت اليه قائلة :

« أى ايشوللانو » لنتذوق قوتك ···

امدد « يدك » والمس « رقتنا »

وقال لك « ايشوللانو »
« ماذا تريدين مني ؟ »
ألم تخبز أمي ؟ أو لم آكل
حتى أطعم الاثم واللعنة ؟
أيحمى القصب مع الصقيع ؟ »
وحين سمعت حديثه ضربته وحولته الى عنكبوت
واحللته في وسط ...
فلا يقوم ولا يجيء ...
اذا كان لك أن تحبيني ... فستعاملينني بالمثل » .

ولما سمعت « عشتار ذلك غضبت وصعدت الى السماء .. وذهبت الى « أنو » أبيها والى « أنتوم » أمها وقالت : « أبي ان جلجامش قد أهال على الاهانـــات !

ان جلجامش قد عـدد لى ســوءاتى ! ســوءاتى ولعناتى ! « وفتح » « أنو » فمه وقال لعشتار : « حقا انك دعوت ... وهكذا عدد لك جلجامش سوءاتك ... سوءاتك ولعناتك » ، وقالت «عشتار» لأبيها «أنو» أى أبى ! اجعل منى ثور السماء الذى يضرب جلجامش وأملاء جلجامش ... ان لم تجعلنى ثور السماء فسأحطم أبواب العالم السفلى وسأقيم الموتى ليأكلوا الأحياء حتى يزيد عددهم عليهم « وفتح » « أنو » فمه وقال لعشتار : « اذا انفذت ما تطلبين فستكون هنـاك سبع سنين عجاف .. أفجمعت حبوبا للنـــاس ؟ أفستنبت الحشــائش للأغنـــام ؟ وفتحت عشـتار فمها تقول ل « أنو » أبيها : « لقد خزنت الحبوب للناس والحشائش للأغنام » .

« ويلى ذلك بعض سطور لابد أنها تعنى أن « أنو » استجاب لها ، لأن الثور ينزل ويقتل المئات من الرجال بنخزتيه الأوليين » .

وأما نخزته الثالثة ... على أنكيدو ... وتفادى أنكيدو هجمته وقفز أنكيدو وأمســك بثور السماء من قرنيه ونثر ثور السماء زبده فى وجهه وضربه بجماع ذيله وقال أنكيدو لجلجامش : ياصديقى لقد مجدنا ... (ثم يلى ذلك ١٦ سطرا ضائعة جاء بعدها) :

ودفن سيفه بين العنق والقرنين ولما تم لهما ذبح الثـور مزقا قلبه ووضعاه أمام « شمش » وانسحبا وقدما الخضوع ل « شمش » .

واعتلت عشـــتار أســوار الوركاء وفاهت بلعنتها : « ويل لجلجامش لانه أهاننى بقتله ثور السماء » ولما ســمع أنكيدو قول عشتار فصـل

الفخـذ اليمنى لثور السماء ورمى بهـا في وجهها قائلا : « لو استطعت الوصول اليك لفعلت بك ما فعلته به ولعلقت أمعاءه الى جوارك » وعندئذ استدعت عشتار المنذورين وبنات الهوى وعاهرات المعبد وأقامت مناحة الى جانب الفخذ اليمنى لثور السماء ، ودعا جلجامش الصناع والمحاربين وأعجب الفنـانون بسمك قرون الثـور وكل منها زنته ثلاثون مينـا من اللازورد ويكسوه ما سمكه أصبعان وبمقدار زنة الاثنين قدم سـتة مكاييـل من الزيت ... كعطر لربـه « لوجال باندا » ثم جاء بهما وعلقهما في غرفة نومه ... وغسلا أيديهما في ماء الفرات واحتضنا بعضهما وسارا راكبين في أسواق الوركاء وتجمع القوم ليشهدوهما وقال جلجامش لعـازفات الجنك في الوركاء : « من اللامع بين الأبطال ؟ من الرائع بين الرجال ؟ » فقلن : «جلجامش هو اللامع بين الأبطال،وجلجامش هو الرائع بين الرجال»، وأقام جلجامش في قصره حفلا ونام البطلان في سريريهما في الليل ونام أنكيدو وشهد حلما وقام أنكيدو ليحكي حلمه قائلا لصديقه : « أى صاحبي لم اجتمع مجلس الآلهة ؟ » .

اللوحة السابعة :

(هناك عمودان مفقودان من هذه اللوحة في النص الأشوري) والنص الحيثي ويروي قصة الحلم أو جانبا منه على الأقل :

ثم بدأ النهار وأجاب « انكيدو » « جلجامش » : استمع الى ما رأيت في حلمي الليلة : اجتمع « أنو » و « انليـل » و « أيا » و « شـمش » السماوى في مجلس .. وقال « أنو » ل « ايا » : « لأنهما قتلا ثور السماء وقتلا «خوواوا» فان من عرى الجبال من أرزها يجب أن يموت ولكن «انليل» قال : «يجب أن يموت أنكيدو ومع ذلك فان جلجامش سوف لايموت» عندئذ أجاب « شمش » السماوى « انليل » الشجاع : « ألم يكن بناء على طلبتي (طلبتك في نص آخر) انهما قتلا ثور السماء و « خوواوا » أفحتم اذن ان يموت الآن انكيدو البرىء ؟ واستدار « انليل » في غضب الى « شمش السماوى وقال : « ألانك تتردد عليهما وتنزل اليهما كل يـوم كواحد من أصحابهما ؟ » .

ومرض أنكيدو ورقد أمام جلجامش وجرت دموعه وقال : « أى أخي أى أخي العزيز سوف يضحون بى في سبيل أخى ... بل ... أيجب ان اجلس بالروح لدى باب الأرواح ولا أعود فأشهد بعيني أخي العزيز ؟ » ..

(وتلي ذلك فقرات ضائعة من النص ويظهر أن أنكيدو يبكى فيها بسبب الأحداث التى أدت الى ما صار اليه ... وواحدة من لعناته — في النص الأشورى — موجهة ضد البوابة التى سببت عجز يده) .

رفع « انكيدو » عينيه وتحدث الى الباب كأنما هو آدمي وقال — : يا باب الغابات الذى لا تفهم ‥ ليس هناك مماثل لأخشابك ‥ ارتفاعك ٧٢ ذراعا وعرضك ٢٤ ‥‥ لو دريت أن ذلك قدر له أن يكون وأن جمالك هذا ‥ كنت رفعت البلطة و ‥‥

(وتلى ذلك فقرة طويلة ضائعة ‥‥ نفهم من النص من بعدها أن « أنكيدو » يلتمس من « شمش » أن يصب لعنته على الصياد) ‥

بدد ثروته ‥ وحطم قوته ‥ ليكن طريقه أمامك كريها ‥ لتهرب من أمامه الوحوش التى ينصب لهـــا فخاخه ‥ لاتدع للصـــياد الجـرأة أو السيطرة على قلبه ‥ ثم استدار قلبه ليلعن فتاة اللذة ‥ العاهرة : أقبلى أيتها الفتاة ‥ سأقرر لك مصيرك ! مصيرا سوف لا ينتهى الى الأبد ‥ سألعنك لعنة كبرى ! قسما ستجتاحك لعناته على الفور ! ‥ سيرمى الى بيتك ‥ سيكون الطريق مأواك ‥ سيكون ظل الحائط مقرك سيلطم خدك السكير والعطشان ‥ لأنك ‥ لى ولأن ‥ على ‥ ولما سمع «شمش» هذه الكلمات من فمه ناداه من السماء قائلا : « لم تلعن يا أنكيدو الصبية العاهرة التى جعلتك تأكل طعاما يصلح للآلهة وسقتك شرابا يليق بالملوك وألبستك ثياب النبلاء وجعلت من جلجامش النبيل صديقا لك ؟ ألم يجعلك صديقك الحميم جلجامش ترقد فى مخدع نبيل ؟ إنه جعلك ترقد على وسادة شرف وأحلك فى مقعد الراحة ‥ المقعد الذى الى اليسار حتى يقبل أمراء الأرض قدميك سيجعل أهل الوركاء يبكون عليك ويحـزنون وسيملأ الفرحين من الناس بالأسى وحين ترتحل سيحوم كأسد بشعره على جسمه كلبدة الأسد فى المراعى » .

فلما سمع انكيدو كلمات شمش الشـــجاع هدأ قلبه المغتاظ ‥ (وتلى ذلك فقـرة ضائعة ويبـــدو أنه يعود فيوجه الحـديث الى الصبية فيقول) : « سيحبك الملوك والأمراء والنبلاء وسوف لايضرب واحـد منهم بسببك فخذه الرجل المسن سيهز لحيته عليه ‥ و ‥ سيفك زناره ‥ الا فليرد من لوثك ‥ ليخرب بيته ومخزنه ‥ سيقودك الكاهن الى حضرة الآلهة من أجلك ستهجر الزوجـة ولو كانت أما لسبعة) فى تلك الليلة كانت نفس « انكيدو » مرة ونام وحيدا وأفضى الى صاحبه بمشاعره قائلا : « أى صديقى لقد شهدت الليلة حلما ‥ أنت (بتشديد وفتح النون) السماء ‥ ورددت الأرض ‥ كنت وحيدا ‥ اسود وجهه ‥ كانت مخالبه كمخالب النسر غلبنى ‥ قفز ‥ حولنى حتى أصبحت ذراعاى ‥ ك ‥ طائر ‥ وحين شهدنى قادنى الى بيت الظلام مسكن « اركالا » الى البيت الذى لا يغادره من يدخله ‥ الى الطريق الذى لا رجعة فيه ‥ الى البيت الذى لا يشهد سكانه النور حيث التراب نصيبهم والطين طعامهم

انهم يلبسون كالطيور دثارهم أجنحة ولا يرون الضوء بل يعيشون في الظلام ‥ في بيت التراب الذى دخلت شهدت حكاما نزعت تيجانهم وشهدت أمراء ولدوا للتاج وممن حكموا الأرض في سالف العصور ‥ كان صنو من « أنو » و « انليل » يقدمان اللحم والشواء ويصبان الماء البارد من السقاء الجلدية ‥ في بيت التراب الذى دخلته يعيش كبير الكهنة والسادن ‥ يعيش من يتلو الرقي والهيمان المستغرق في غيبوبته ‥ يعيش مطيبو العطور لكبار الآلهة ‥ يعش « ايتانا » (٩) و « سوموقان » ‥ هناك تعيش « الارشكيجال » ملكة العالم السفلى وتركع « بعلة سرى » مسجلة العالم السفلى أمامها وتمسك بلوحة تقرؤها لها ‥ ورفعت رأسها ورأتني وقالت : « من جاء بهذا الى هنا ؟ » « وتلى ذلك فقرة ضائعة في النص الآشورى يليها » : تذكر كل رحلاتى من معه شهد صاحبى حلما تفسيره غير مرض انتهى اليوم الذى شهد الحلم فيه ومضى يوم آخر و « أنكيدو » يتألم في سريره وآلامه تزداد ثم يوم ثالث ورابع وألمه يتزايد ‥ ثم خامس وسادس وسابع وثامن وتاسع وعاشر وألمه يزداد ‥ أنكيدو مريض في سريره يتألم وأخيرا نادى جلجامش وقال له : « يا صاحبى ‥ ان ‥ صب علىّ لعنته ‥ سوف لا أموت كمن سقط في معركة ‥ لأنى خشيت المعارك ‥ ان صاحبى الذى قتل في معركة مبرر ، أما أنا ‥

اللوحة الثامنة :

وعندما لاحت أول أضـــواء الفجـــر قال جلجامش لصاحبـــه ‥ (ولا ندرى ما قاله ولكن يلى ذلك حديث جلجامش الى شيوخ الوركاء عند سرير موت أنكيدو) : أصغوا الى واستمعوا أيها الشيوخ اننى أبكى من أجل صديقى انكيدو ‥ اننى أنوح في مرارة كالنائحة الثكلى ‥ البلطة في جانبى والقوس في يدى ‥ الخنجر في حزامى والدرع أمامى ‥ ثوب الأعياد فرحي الكبير شيطان سوء قد سرقه منى ‥ يا صديقى الصغير أنت يامن طاردت الحمار الوحشي في التلال وفهد المراعى ‥ انكيدو ياصديقى الصغير ‥ يا من تغلبت على كل شيء وجبت الجبال ‥ وقبضت على الثور وذبحته يا من سبب الأسى ل « خومبابا » الذى كان يعيش في غابة الأرز ‥ ما هذا اذن ذلك السبات الذي حل عندك ؟ لقد دهمك الظلام فلم تعد تستطيع أن تسمعنى انه لا يرفع عينيه ! حين يلمس قلبه ولا يضرب ثم وضع نقابا على صاحبه كعروس ‥ انه يرفع صوته كأسد ! كلبؤة حرمت من أشبالها ‥ انه يروح أمام المخدع وهو يشد شعره ويمزق ملابسه ‥

فوق وسادة المجد وسيدتك

فوق مقعد الراحة ·· المقعد الى اليسار ·· أحللتك
حتى يقبل أمراء الأرض قدميك
سأجعل أهل الوركاء يبكون وينوحون عليك
سأملأ قلوب الفرحين بالأسى عليك
ومادمت قد ذهبت فسأكسو جسدى بشعر لايقص
وسأرتدى جلد أسد وأجوب الفيافى

وعند بزوغ الفجر فك جلجامش أربطتـــه ·· وجاء بمائدة من خشب « ايلاماقو » وملأ اناء من العقيق بالعسل ، وملأ اناء من اللازورد باللبن المختثر ··

اللوحة التاسعة :

جلجامش يبكى بحرقة أخاه انكيدو ·· وهو يجوب الفيافى « حين أموت أسوف لا أكون ك « انكيدو » ؟ ان الحسرة حلت فى داخل ·· اننى أجوب الفيافى مرتاعا من الموت ·

اتخذت طريقى الى « أوتنابشتيم » (١٠) بن « أوبارتوتو » فى أقصى سرعة وعند وصولى ليلا الى ممرات الجبال رأيت أسدين فاشتد الخوف بى ورفعت رأسى الى « سن » داعيا ··· وارتفعت دعواتى الى الآلهة ملتمسا أن تحفظنى ·· وبعد أن نام الليل استيقظ على حلم ·· رفع بلطته فى يده وسحب الخنجر من حزامه وكسهم نزل فى وسطهم وضربهم وطاردهم (وبقية العمود ضائع وحين نصل الى العمــود الثـانى نجد أنفسنا مع جلجامش أمام جبل) ·· اسم الجبل « ماشو » ·· حين وصل الى سلسلة جبال ماشو تلك التى ترقب الشمس مشرقة وغاربة والتى تصل قممها الى قبة السماء والتى يتدلى صدرها الى العالم السفلى يحرس الرجـــال العقارب بوابتها والخوف منها يثير الرعب والنظرة اليها تعنى الموت ·· لما شهدها « جلجامش » اعتــوره الخوف واســود وجهه رعبـا واستمسك بحواسه وانحنى أمامها وقال رجل عقرب لزوجته : « ان القادم الينا جسده لحم الآلهة » فأجابته زوجته : « ثلثاه اله وثلثه آدمى » ونادى الرجل العقرب زميله قائلا لسلالة الآلهة : « لم قدمت فى هذه الرحلة الطويلة ؟ ، لم جئت أمامى مخترقا البحار التى يصعب عبورها؟ ·· أريد أن أعرف سر مقدمك» ·

« جئت بسبب « أوتنابشتيم » أبى الذى التحق بمجمع الآلهة بحثا وراء الحياة ·· وأنا وراء مشكلة الموت والحياة » وقال الرجل العقرب لجلجامش ليس هناك بشر ياجلجامش استطاع تحقيق ذلك وليس هناك واحد استطاع أن يرتحل فى مسارب الجبل ·· انه يمتد للداخل مدى اثنى عشر فرسخا ·· الظلمة كثيفة وليس ضوء ··

« فى أسى أو ألم فى البرد والحر بالتنهد أو البكاء ·· سأذهب والآن افتح بوابة الجبل » وقال الرجل العقرب لجلجامش : « اذهب يا جلجامش ·· جبال ماشو ·· لعله فى سلام ·· انه بوابة الجبل تنفتح « فلما سمع جلجامش ذلك ذهب فى طريق الشمس ولما قطع فرسخا أحس بالظلام يلفه لم يكن هناك ضوء ولم يستطع ان يميز ما أمامه أو ما وراءه ·· وحين قطع فرسخين ·· ولما قطع أربعة فراسخ لم يكن هناك ضوء كانت الظلمة سائدة ولم يكن يستطيع أن يميز ما أمامه أو ما وراءه ولما قطع ستة فراسخ كانت الظلمة دامسة ولم يميز ما أمامه مما وراءه ولما قطع سبعة فراسخ لم يكن هناك ضوء ·· كانت الظلملة دامسة ولم يكن يستطيع أن يرى شيئا أمامه أو خلفه ·· وقطع ثمانية فراسخ واستغاث حيث لم يكن هناك ضوء بل ظلام دامس لا يرى المرء فيه شيئا من أمام أو من وراء وقطع تسعة فراسخ بريح الشمال تهب على وجهه وكان الظلام دامسا وليس ضوء وليس ما يرى من خلف أو من قدام ·· وحين قطع أحد عشر فرسخا أشرق الفجر وحين قطع اثنى عشر فرسخا سطع النور ·· ولما رأى حرش الأحجار اتجه نحو ·· كان العقيق يحمل ثمارا وكان معلقا فى كرم يسر الناظر ، كانت للازورد أوراق كأوراق الشجر وكان يحمل كذلك ثمارا يرضى النفس أن تشهدها ·

اللوحة العاشرة :

(أ) النص البابلى القديم

« ·· وكسا نفسه بجلودها وهو يأكل لحمها ·· أى جلجامش ·· مما لم يحدث بمدى ما ساقت ريحى الماء ·· » وذهل «شمس» حين شهده وقال له : ؟ أين تجول ؟ ··· ان الحياة التى نشهدها سوف لا تجدها » ، فقال جلجامش للبطل « شمش » بعد تجولى فى السهوب ·· أفحتم على ان أريح رأسى فى قلب الأرض كل السنين ؟ ألا لتشهد عيناى الشمس حين أنال ملئى من الضوء ·· الظلمة تقترب بيننا ما يزال هنا ضوء : ألا ليت من مات موتا يشهد اشعاع الشمس » ··

ذلك الذى مر بالمحن معى ، انكيدو ، من أحببت كثيرا من قاسى المشاق معى ·· ذهب الى مصير البشر بكيته ليلا ونهارا ·· ثم ترددت فى أن أقوم بدفنه ·· فربما صحا صاحبى على لوعتى ·· سبعة أيام وسبع ليال ·· حتى سقطت دودة من أنفه ·· منذ موته لم أحس طعم الحياة ·· رحت أتجول كصياد فى السهوب ·· أى « زوجة الجعة » مادمت قد شهدت وجهك فلا تدعينى أشهد الموت الذى أرهبه ·· فقالت له « زوجة الجعة » . « أين تتجول يا جلجامش ؟ أنت سوف لا تعثر على الحياة التى تنشدها حين

خلق الآلهة البشر قرروا الموت للبشر مستبقين الحياة فى أيديهم وأنت يا جلجامش املأ بطنك وافــرح يومك وليلك وابتهج كل يــوم ارقص والعب نهارا وليــلا لتكن ملابسك قشيبة مزركشــة ولتغســل رأسك ولتستحم فى الماء .. اهتم بالصغار الذين تمسك بهم فى يدك دع زوجك تسعد فى صدرك فهذا من سمات البشر !

وحين عاد ذهب اليه .. وشــهده « سورسونبو » وقال لجلجامش : « خبرنى ما اسمك أنا «سوسونبو» تابع «أوتانابشتيم» فقال له جلجامش : « اسمى جلجامش الذى قدم من « أوروك ــ ايانا » واخترق الجبال فى رحلة طويلة من حيث تشرق الشمس أى « سورسونبو » مادمت قد شــهدتك فأرنى أوتانابشتيم .

(ب) النص الآشورى

« سيدورى » زوجة الجعة التى تسكن بجوار البحر العميق وتجلس .. صنعوا لها ابريقا .. اناء من الذهب .. وتنقبت .. جاء اليها جلجامش وهو يتدثر بالجلود لحم الآلهــة فى جسده ، وبلية فى أمعائه ووجهه كوجه عابر قادم من بعيد .. وتأملت زوجــة الجعة ومدت ببصرها الى بعيد وتحدثت الى نفسها قائلة « لابد أن هذا قاتل ترى الى أين هو ذاهب ؟ » وحالما رأته أغلقت بابها ووضعت المتاريس خلف بوابتهــا وحين سمع جلجامش هذه الأصوات أمسك بعصاه المدببة..وقال لها : « ترى ماذا دفعك لاغلاق الباب ووضع المتاريس فى البوابة .. اننى سأحطم الباب وأدمر البــوابة .. » .

وقال لها جلجامش : « ذبحت حارس الغابة وجئت بالكوارث على « خومبابا » الساكن فى غابة الأرز وذبحت الأسود فى ممرات الجبال » فقالت له زوجة الجعة : « ان كنت أنت جلجامش فلم ذبحت حارس الغابة وجئت بالكوارث على « خومبابا » الساكن فى غابة الأرز وذبحت الأسود فى ممرات الجبال ثم قبضت على الثــور القــادم من السماء وذبحته ؟ .. لم ذبل اذن خداك وأصبح وجهك حزينا ؟ .. لم يحزن قلبك ولم يبدو الاجهاد على سحنتك ؟ لم يحل فى أمعائك ولم يبدو وجهك كعابر سبيل من بعيد ؟ لم ذبلت سحنتك بوطأة البرد والحر وكأنما تسعى وراء سراب تجوب بسببه السهوب ؟ فقال لها جلجامش .. « ان ذلك بسبب صديقى الصغير الذى كان يطارد الحمير الوحشية فى التلال والفهود فى السهوب .. صديقى الصغير « أنكيدو » الذى قهر كل شىء وجاب الجبال .. ذلك الذى أمســك بثور السماء وذبحه وأنزل البــلاء ب « خومبابا » الساكن

في غابة الأرز .. صـــديقي الذي أحببته كثيرا .. الذي قاسى معي كل المحن .. ذلك الذي رضخ لحكم القـدر على البشر .. بكيته سـتة أيام وسبع ليال حتى سقطت الدودة من أنفه .

وهاأنذا أجوب السهوب خائفا من الموت .. ان أمـر صديقي يثقل على .. ان أمـــر صديقي « انكيدو » يثقل على قلبي .. كيف أستطيع السكوت ؟ أني لي الاستقرار صديقي الذي أحببته قد صار طميا .. أفحتم على أنا أيضا أن أرقد فلا أقوم ثانية .. الى الأبد ؟ ثم سألها جلجامش عن الطريق الى « أوتنابشتيم » : عن معالمه ! عن البحر الذي عليه أن يعبره وعن السهوب التي عليه أن يقطعها فقالت له : « لم يحدث من قبل أن عبرها انسان لم يحدث أن عبر انسان البحـر منذ بدء الزمان سوى « شمش » « الشجاع » .. انه هو الذي يعبر البحر .. ومن سوى شمش يستطيع عبوره ؟ ان مكان العبور مجهد .. ومجهد كذلك الطريق اليه .. عميقة هي « أمواه الموت » التي تقوم أمام من يقترب منها .. فأين اذن تستطيع يا جلجامش أن تعبر البحر ان وصلت الى « مياه الموت » فماذا تنوى أن تعمل ؟ أى جلجامش هناك ! «أورشانابي» (١١) مراكبي «أوتنابشتيم» ومعه ثلاث قطع حجـرية .. انه يلتقط في « الغـابات » أفاعي أورنـو » .. دعه يراك فان وافقه الأمر عبر بك وان لم يرقه عـــدت » فلما سمع جلجامش ذلك رفع بلطته في يده وسحب الخنجر من حزامه واندفـع الى الغابة واندس فيها كسهم .

وقال له «أورشانابي» : « ما بال خديك ذابلان ووجهك هضيم وقلبك كسير وسحنتك مجهدة وأمعاؤك مرهقة .. وجهك كعابر سبيل طال به المطاف وملامحك قد أضناها الحر والبرد وما بالك تجوب السهوب كأنما تسعى وراء سراب ؟ فأجابه جلجامش بمثل ما أجاب زوجة الجعة من قبل ثم سأله عن طريق الى « أوتنابشتيم » ومعالمه .. وعن البحر الذي عليه أن يعبره والسهوب التي يخترقها فأجابه « أورشانابي » قائلا : « ان يديك ياجلجامش تعوقان التقدم .. لقد كسرت الأشـــياء الحجرية والتقطت « أفاعي أورنو » فالأشياء الحجرية مكسورة وال « أورنو » ليست في الغابة » اذهب ياجلجامش حاملا بلطتك الى الغابة واقطع ١٢٠ عمودا طول كل منها ٦٠ ذراعا ثم ايت بالقار وارجمعها الى بعضها وائتني بها، فلما سمع ذلك جلجامش فعل ما طلب منه وصعد بعـد ذلك مع « أورشانابي » فوق القارب ودفعا به الى الأمواج وأبحـرا وقطعا في ثلاثة أيـام ما يعدل رحلة شهر وخمسة عشر يوما .. وهكذا وصل « أورشانابي » الى « مياه الموت » وقال لجلجامش : « استمسك بأحد الأعمدة ولكن لا تلمس مياه الموت .. خـــذ عمودا ثانيـــا وثالثا ورابعـــا وخامسا وسادسا وسابعا وثامنا

وتاسعا وعاشرا وحادى عشر وثانى عشر ·· واستنفد جلجامش العيدان المائة والعشرين ثم فك ماحول حقويه ونزع ثوبه وأمسكه فى يده كشراع ·· وتطلع « أوتنابشتيم » الى بعيد وقال فى قلبه « لم كسرت الأشـــياء الحجرية الخاصة بالقارب ولم يمتطيه من ليس بصاحبه ؟ ان القادم ليس من رجالى ·· اننى أتطلع ولكننى لا ··

وقال جلجامش له ·· الـ « أوتنابشتيم » : هأنذا أشـــهد الآن « أوتنابشتيم » لقد تجولت فى كل البلاد وعبرت الجبال الوعرة والبحار جميعا ·· لم أذق النوم بل قيدت نفسى باليقظة وملأت مفاصلى آلاما ·· أنا لم أكن قد وصلت الى بيت « زوجة الجعة » حين كانت ثيابى قد بليت ·· لقد ذبحت الدب والضبع والأسد والفهد والنمر والوعل والوحوش البرية وزواحف السهوب ·· أكلت لحومها ولففت بدنى بجلودها ·

أنشيد مساكن للأبد ؟ أنختم عقودا للأبد ؟ أيقتسم الأخوة أنصبتهم للأبد ؟ أتبقى الكراهية فى الأرض للأبد ؟ أيظل النهر أبدا يرتفع ويجلب الفيضان ان اليعسوب يترك شرنقته حتى يشهد وجهه الشمس ·· منذ سالف العصور لم يكن هناك دوما الذين يستريحون والموتى ·· ما أشبه الواحد بالآخر ! أليسا يرسمان معا صورة للموت ؟ الرجل من العـامة والنبيل ·· يتقاربان عند مصيرهما ··

ان الـ « انوناكى » كبار الآلهة ·· اجتمعوا من قبـــل ·· ومعهم « ماميتوم » صانع القدر ·· وأقروا الموت والحياة أما الموت فلم يكشفوا عن موعده ·

اللوحة الحادية عشرة :

وقال جلجامش لـ « أوتنابشتيم » :

اننى حين أتطلع لا أرى وجهك غريبا عنى ·· انك مثلى ··

ان قلبى قد نظر اليك كأنما أنت على أهبة معركة ·· ومع ذلك فأنت ترقد على ظهرك متراخيا ·· خبرنى كيف تم لك الاتصال بمجمع الآلهة سعيا وراء الحياة ؟

فقال « أوتنابشتيم » ل « جلجامش » :

سأكشف لك ياجلجامش عن أمر مخبـوء ·

سأميط اللثـام عن سر الآلهة ·

« شوريباك » ·· مدينة تعرفها على ضفاف الفرات ·

كانت تلك المدينة القديمة ·· قدم الآلهة الذين كانوا بها ·
وانتوى كبار الآلهة أن يصنعوا الفيضان :
كان « أنـو » أباهـم ·
و « انليل » الشجاع مستشارهم ·
و « ننورتا » بشيرهم ونذيرهم ·
و « أينوجى » مفتش القنوات ·
وكان معهم كذلك « ننيجيكوايا » ·
وكرروا كلماتهم الى كوخ القصب ·
« ياكوخ القصب ياكوخ القصب يا حائط يا حائط ·
أصغ يا كوخ القصب استمع يا حائط » ·
أيها الرجل من « شوروباك » يا ابن « أوباتوتو » ·
اهدم هذا البيت واصنع لك سفينة ·
تخل عما تملك واسع وراء الحياة ·
احتقر المتاع ودع الروح حية ·
خذ على ظهر السفينة بذرة كل شيء حي ·
السفينة التى سوف تبنيها ·
ستقيس أبعادها ·· عرضها كطولها ·
ستجعل سقفها مثل الـ « ابسو » !
ووعيت ما قيل وقلت لـ « أيـا » ·
« ان ما أمرتنى به يا الهى سيسرهم أن أنفذه ·
ولكن كيف أجيب المدينة الناس والشيوخ ؟
وفتح « أيا » فمه وقال لى ·· لخادمه
ستقول لهم : علمت أن « انليل » يعادينى
وهكذا لا أستطيع أن أقيم فى مدينتكم ؟
أو أضع قدمى فى أملاك « انليل » ·
سأذهب اذن الى الأعماق لأسكن مع الهى « أيا »
وأما لكم فسيوفر فى كثرة الخير ·· خير الطيور وأندر الأسماك ·
ستكون للأرض وفرة محاصليها ···
ومع انبثاق الفجر تجمعت الأرض حولى ·

حمل الصغار القار وجاء البالغون بما أحتاجه .
وفي اليوم الخامس صنعت هيكلها .
كانت مساحة سطحها فدانا كاملا .
كان ارتفاع كل حائط من حوائطها ١٢٠ ذراعا .
وصنعت شكل جوانبها وربطتها إلى بعضها .
وجعلتها من ستة طوابق .
وهكذا كانت من سبعة أجزاء .
وقسمت أرضيتها الى تسعة أقسام .
ودققت مسلميها وعملت اللازم لسطحها .
وأوقدت النار على ستة « سار » من القار .
كما صببت ثلاثة « سار » من الأسفلت .
وحملوا الى ثلاثة « سار » من المزيت .
بخلاف « سار » الزيت للقلفطة .
و ٢ « سار » الزيت الذى دسه المراكبي .
وذبحت ثيرانا للنـــاس .
وماشـــية كل يـــوم .
أعطيت العمال نبيذا أحمر وزيتا ونبيذا أبيض ليشربوا .
حتى يحتفلوا بعيد رأس السنة .
وأكملت السفينة في اليوم التاسع .
وكان انزالها للماء بالغ المشقة .
حتى انهم اضطروا لدفع ألواح الأرضية من أعلى ومن أسفل .
حتى أمكن انزال ثلثي هيكلها الى الماء ..
وحملتها بكل ما أملك .
حملتها بكل لدى من فضـــة
حملتها بكل ما لدى من ذهب .
حملتها بكل ما أملك من كائنات حية .
كل أسرتي وأقاربي صعدوا الى ظهرها .
دواب الحقل والحيوانات البرية .
وكل الصـــناع .

وقد حدد لى « شمش » وقتا محددا ·

« حين يسقط مطرا ذلك الذى يسبب القلق ليلا اصـــعد الى ظهر سفينتك وأغلق بابها » ! ·

وجـــاء الوقت الموعود ·

وأخذت أرقب وجه السماء ·

وكان منظر الجو مخيفا ·

دخلت السفينة واغلقت بوابتها ·

وعهدت الى « بوزور ــ أمورى » الملاح بقيادتها بكل ماتحوى ·

ولمــا أضــاء الفجــر

خرجت من الأفق سحابة داكنــة ·

زأر « ادد » من داخلها ·

وتقدمها « شولات » و « هانيش » ·

كمنادين فوق التل والسهل ·

ومزق « ايراجال » القوائم ·

وجعل « نينورتا » السدود تتبعها ·

وحمل الـ « أنوناكى » المشاعل ·

وجعلوا الأرض تشتعل نارا ·

وصل الذعر من « ادد » عنان السماء ·

وتحول الى الظلمة كل ما كان مضيئا ·

انصدعت الأرض كما تنصدع الجرة ·

وظلت عاصفة الجنوب تهب يوما ·

تجمع السرعة وهى تهب وتغمر الجبال ·

وتجتاح الناس كانما هى معركة ·

فلم يعد الأخ يرى أخاه ·

ولم يعد الناس يعرفون من فى السماء ·

وخشى الآلهة الطوفان ·

فتراجعوا وصعدوا الى السماء « أنــو » ·

أقعى الآلهة كالكلاب وربضوا على الأسوار الخارجية ·

وصرخت عشتار وأنت كأنين امرأة جاءها المخاض ·

عشيقة الآلهة ذات الصوت الجميل ناحت بصوت عال .
الأيام الخوالى .. واحسرتاه ! .. تحولت الى طمى .
لانني نطقت شرا فى مجمع الآلهة .
فامرت بالمعركة لاهلاك قومى .
بينا أنا نفسى التى تلد شعبها .
انهم يملأون البحر كبيض الأسماك » .
وبكى معها آلهة الـ « انوناكى » .
وجلس الآلهة جميعا يبكون فى ذلة .
وشفاههم جميعا مشدودة .
ستة أيام وست ليال .
وريح الفيضان تهب ، وزوبعة الجنوب تكتسح الأرض .
فلما كان اليوم السابع
هدأت زوبعة الجنوب التى تحمل الفيضان .. هدأت فى المعركة .
التى كانت تحاربها كما لو كانت فى جيش .
وهدأ البحر وسكنت العاصفة وتوقف الفيضان .
وتطلعت الى الجو .. كان السكون قد حل .
وكان البشر جميعا تحولوا الى طين .
وكان سطح الأرض مستويا كسقف مستو .
وفتحت كوة وسقط الضوء على وجهى .
وانحنيت .. ثم جلست وبكيت .
وجرت الدموع على وجهى .
وبحثت فى الحر الشاسع عن خطوط شواطىء .
وفى كل من الأقاليم الأربعة عشرة .
كان يبرز اقليم جبلى .
وتوقفت السفينة عند جبل نصير .
واستمسك بها جبل نصير .
ولم يسمح لها بالحراك .
يوم ثم يوم آخر وجبل نصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكا .
ويوم ثالث ثم رابع وجبل نصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكا .

ويوم خامس ثم يوم سادس وجبــــل نصـــير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكا ٠

فلما كان اليوم السابع أطلقت حمامة ٠

فانطلقت ثم عادت ٠

لم يكن لها ما تستقر عليه فحومت وعادت ٠

ثم أطلقت « ســـنونو » ٠

فانطلق ثم عـاد ٠

لم يكن له ما يستقر عليه ، حوم وعاد ٠

ثم أطلقت غرابا ٠

وانطلق الغراب ولما رأى الماء قد تناقص

أكل وحوم ونعق ولم يعـد ٠

فاخرجت الجميع الى الرياح الأربع

وقدمت قرابين ٠

وسكبت سكائب على قمة الجبل ٠

وأقمت سبعا ثم سبع أوان عبادة ٠

وعلى صحاف قوائمها كومت القصب وخشب الأرز والآس ٠

وشم الآلهة العبق

شـم الآلهة الأريج العبق ٠

وتكاكأ الآلهة كالذباب حول المضحى ٠

وحالما وصلت الآلهة العظيمة (يقصد عشتار) ٠

نزعت الحلى العظيمة التى كان « أنو » قد صاغها طبقا لمشتهاها :

« أيتها الآلهة هنا كما اننى سوف لا أنسى حقا هذا اللازورد حول عنقى ٠

ساذكر دائما هذه الأيام ولا أنساها ٠

لتتقدم الآلهة الى القرابين ٠

الا « انليل » فلا يتقدم ٠

لأنه ــ بغير تعقل ــ قد ساق هذا الفيضان ٠

وحكم على شعبى بالهلاك » ٠

ولما جاء « انليل » وشهد السفينة غضب ٠

ملأه الغضب ضد آلهة ال « اجيجى » وقال :

« أأفلتت نفس حيـــة ؟
كان يجب ألا يفلت انسان من الهلاك » •
وفتح « نينورتا » فمه وقال له « انليل » البطل :
من – غير « أيا » – يستطيع ان يرسم الخطط ؟
انه « أيا » وحده ذلك الذى يعرف كل الأمور ! » •
وفتح « أيا » فمه وقال لـ « انليل » البطل :
أنت يا أعقل الآلهة أيها البطل •
كيف استطعت – بغل تعقل – أن تأتى بالفيضان !
المذنب عليه وزر ذنبـــه •
والمعتدى عليه وزر تعدياته •
ومع ذلك فكن رحيما ! حتى لايقطع •
كن صبورا حتى لايشرد •
بدلا من أن تأتى بالفيضان •
ألم يكن هناك أسد ترسله ليجتاح البشر ؟
بدلا من أن تأتى بالفيضان ؟
ألم يكن هناك ذئب تجعله ينقص من البشر ؟
بدلا من أن تأتى بالفيضان ؟
ألم يكن من الممكن احداث مجاعة تستذل بها البشر وتجعلهم يتناقصون
بدلا من أن تأتى بالفيضان ؟
ألم يكن من الممكن نشر وباء يضرب البشر ؟
انه لست أنا من أفشى السر لكبار الآلهة •
لقد جعلت «اتراها سيس» (أي البالغ العاقل يعنى أوتنابشتيم) يشهد
حلما وهو أعلن السر للآلهة •
والآن فاره أمره ! » •
وعندئذ صعد « انليل » الى ظهر السفين
وأمسكنى بيدى وأصعدنى الى ظهرها
وأخذ زوجتى وأصعدها وجعلها تركع الى جانبى
ووقف بيننا ولمس جباهنا ليباركنا :
حتى الآن لم يكن أوتنابشتيم سوى بشر •

منذ الآن سيكون أوتنابشتيم زوجه مثلنا من الآلهة ٠
سيعيش أوتنابشتيم بعيدا عن مصيب الأنهار ! » ٠
وأما الآن فمن سيدعو مجمع الآلهة من أجلك
حتى تجد الحياة التى تسعى وراءها ؟
قم ولا تضطجع لتنام مدى ستة أيام وسبع ليال »
وبينما هو يجلس هناك على قعيدته
كان النوم يداعبه يلفه كالضباب ٠
وقال « أوتنابشتيم » لزوجته :
« انظرى الى هذا البطل الذى يسعى وراء الحياة ٠
ان النوم يلفه كالضباب » ٠
فقالت له زوجته :
ألا لتلمسه حتى يستيقظ ٠
حتى يعود سالما من حيث جاء ٠
حتى يمر من البوابة عائدا الى الأرض التى قدمنا منها »
فقال أوتنابشتيم لزوجته :
« مادام الخداع من صفات البشر فانه سيسعى وراء خداعك ٠
قومى اخبزى له فطير رقاق وضعيه عند رأسه
وضعى علامات على الحائط بقدر ما نام من أيام ٠
وجفت الفطيرة الأولى ٠
وتجلدت الثانية وأما الثالثة فتغير لونها ٠
وأما قشرة الرابعة فابيضت ٠
وأما الخامســـة فبدت عفنة ٠
وأما السادسة فكانت لا تزال بلونها النضير ٠
وحالما لمس السابعة استيقظ الرجل ٠
وقال « جلجامش » ل « أوتنابشتيم » :
لم يكد النوم يغلبنى حين لمستنى وأيقظتنى ٠
فقال له أوتنابشتيم :
اذهب يا جلجامش احص فطائرك
حتى تعرف مدى مانمت من أيـام ٠

لقد جفت الفطيرة الأولى وتجلدت الثانية وتغير لون الثالثة ٠
وابيضت قشرة الرابعة وتعفنت الخامسة ٠
أما السادسة فلا تزال نضرة ٠
وأما السابعة فأنت قد تيقظت لتوك » ٠
فقال له جلجامش :
فماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟
ان الموت يربض فى حجرة نومي ٠
وحيثما تخطر قدمي فهناك الموت » ٠
فقال له أوتنابشتيم ٠٠ قال للمراكبى ٠٠ أورشانابى :
« أى أورشانابى ألا لا تفرح بك الموساة !
ألا ليحتقرك مكان العبور ٠
لتنكر شواطئه فلا يعرفها منك من يجول بها ٠
ان الرجل الذى جئت به الى هناك ٠٠ ذلك الذى يغطى جسده القذر ٠
ذلك الذى شوه الجلد جمال أعضائه ٠
خذه فاحمله الى مكان الاغتسال ٠
وليغسل قذره فى الماء حتى يصبح نظيفا كالثلج ٠
ولينزع جلده فيحمله البحر بعيدا ٠
حتى يبدو جمال جسمه ٠
ليجدد العصابة على رأســـه ٠
وليتدثر فيغطى عــريه ٠
حتى يصل الى مدينته وحتى يستكمل رحلته ٠
ألا لا يكون لثوبه مظهر البلى ٠٠ ليكن جديدا تماما » ٠
وأخذه أورشانابى الى المغسل ٠
فاستحم فى ماء نظيف كالثـلج ٠
وألقى بجلده فحمله البحر بعيدا حتى بدا جمال أعضائه ٠
ثم جدد العصابة حول رأسه ولبس ثوبا غطى به عريه ٠
حتى يصل الى مدينته ويكمل رحلتـــه ٠
وركب جلجامش السفينة مع أورشانابى ٠
ودفعا القارب على الأمواج وأبحر ٠
وقالت زوجة أوتنابشتيم له :

« لقد جاء جلجامش الى هنا مكدودا مجهدا
فماذا تعطيه ليعود الى بلاده ؟ »
وعندئذ رفع جلجامش المدراة ليقترب بالقارب الشاطىء ،
وقال له أوتنابشتيم : « أى جلجامش !
لقد جئت الى هنا مكدودا مجهدا فماذا أعطيك حتى تعود الى بلادك ؟
سوف أكشف لك يا جلجامش عن سر خبىء •
وسأرشدك الى نبـــات
ستخز أشواكه يديك كالوردة •
ان استطعت الحصول عليه فانك ستحصل على الحياة » •
فحالما سمع جلجامش ذلك •
فتح « قربة الماء » وربط حجرا ثقيلا الى قدميه •
جذبه الى الأعماق وشهد النبات •
وأخذه رغم أنه وخزه فى يده •
ثم حل الحجر الثقيل من قدميه
والقى به البحر على شاطئه •
وقال جلجامش ل أورشانابى المراكبى :
ان من يحصل على هذا النبات من البشر •
يحصل على نسمة الحياة •
سآخذه الى « الوركاء » ذات الأسوار •
سيكون اسمه « الرجل يرجع صبيا فى شيخوخته »
سآكل منه أنا
وهكذا أرتد الى الشـــباب » •
وبعد ثلاثين فرسخا أعدوا أنفسهم لليل •
وشهد جلجامش بئرا ماؤها باردة •
فنزل ليستحم فيهـــا •
واشتم ثعبان عطر النبـــات •
فخرج من الماء واختطفه وعاد الى جحره •
فجلس جلجامش يبكى •
وجرت دموعه على وجهه •

وأمسك بيد المراكبى أورشانابى وقال له :

« لمن يا أورشانابى جهدت يداى ؟

لمن بذلت دماء قلبى ؟

أنا لم أنل منحتى لنفسى ٠

لقد أعطيت المنحة لأسد الأرض !

وسيحملها المد الآن عشرين فرسخا ٠

حين فتحت قربة المـاء ٠

وجدت ما وضع بها كعلامة لى :

اننى سانسحب وأترك القارب على الشاطىء ! » ٠

وبعد عشرين فرســـخا ٠٠

وبعد ثلاثين فرسخا استعدوا لليل ٠

وحين وصلوا الى الوركاء ذات الأسوار

قال جلجامش لـ أورشانابى المراكبى :

« اذهب يا أورشانابى وسر على أسوار الوركاء

وافحص البهو السفلى واختبر المبنى ٠

وتحقق من أنه من الآجر ٠

وتحقق من أن « السبعة العقلاء » وضعوا أساسه ٠

المدينة مساحتها « سار » وبساتينها « سار » ٠

حد الأرض « سار » ٠٠ ثم فناء معبد عشتار ٠

ثلاثة « سار » والبهو ٠٠ هذه هى الوركاء » ٠

اللوحة الثانية عشرة :

يبدو أنه بعد خلق العالم نمت شجرة على ضفة الفرات ولكن ريح الجنوب اقتلعتها ، فأخذت « اينانا » (عشتار) الجذع الطافى وزرعته فى حديقتها فى الوركاء وعولت على استخدامه فى الوقت المناسب لتصنع منه سريرا لها وكرسيا ٠ ولما تدخلت بعض كائنات معادية لتحول دون انفاذ خطتها تقـــدم جلجامش لمساعدتها وعرفانا لجميله صنعت له من قاعدة الشجرة أى من طرفها السفلى « بوكو » (ربما طبل سحرى) ومن رأسها « مكو » (ربما عصا يضرب بها الطبل) وأعطتهما له ٠٠ وذات يوم سقط الطبل والعصا الى العالم السفلى فجهد فى الحصول عليهما ولم يفلح وراح

يبكي خيبته مولولا : « يا لـ « بوكو » ويا « مكو » اللذين لي أسفي عليهما ! » .

في ذلك الوقت حين كان لدى حقا الطبل في بيت النجار .
وكانت زوجة النجار مثل أمي التي ولدتني .
وابنته مثل أختي الصغرى .
ترى من يجيء بالطبل من العالم السفلي ؟
من يجيء بالعصا من العالم السفلي ؟
قال « انكيدو » لـ « جلجامش » سيده :
« مولاى : لم تبكي ولم يحزن قلبك ؟
سآتي لك بالطبل من العالم السفلي
وسآتي لك بالعصا من العالم السفلي » .
فقال جلجامش لانكيدو تابعه :
« اذا ذهبت الى العالم السفلي
فسأقول لك كلمة تنبه لها جيدا والتفت لتحذيري .
ســـوف ترتدي ثوبا نظيفا .
كمغترب ســـوف لاتضع علامة .
بزيت طيب من الوعاء سوف لا تدهن نفسك .
لأنهم سيجتمعون حولك على رائحته .
عصا رمادية سوف لاتقذف بها في العالم السفلي .
فان من تلقيها عليهم سيحيطون بك .
عصـا بيدك ســوف لا تمسك .
فالأرواح ستضطرب بسببك .
نعلا بقدمك سوف لا تربط .
صوتا بالعالم السفلي سوف لا تنبس .
الزوجة التي تحبها سوف لا تقبلها .
الزوجة التي تكرهها سوف لا تضربها .
الابن الذي تحبه سوف لا تقابله .
الابن الذي تكرهه سوف لا تضربه .
صراخ العام السفلي سيحتجزك » .

« المستقرة ــ المستقرة ! أو نينازو ــ المستقرة !
لا يغطى كتفيها المقدستين ثوب ·
ثدياها على شكل الوعاء لا يلفهما قماش » ·
ولم يصغ انكيدو لتحذيرات مولاه ·
فارتدى ثيـــابا نظيفة ·
ووضع من الشارات ما يلفت النظر اليه
ودهن نفسه بزيت طيب من الوعاء ·
تجمعوا على رائحة عطره ·
ثم ألقى بعصا الرماية فى العالم السفلى ·
فأحاط به من ألقى العصا بينهم ·
وأمسك بعصا فى يده ·
ارتعدت بسببها الأرواح ·
وانتعـــل نعـــلا ·
وأخرج صوتا ضد العالم السفلى ·
وقبل زوجته التى يحبها ·
وضرب زوجته التى يكرهها ·
وقبل ابنه الذى يحبه ·
وضرب ابنه الذى يكرهه ·
فاحتجزه صراخ العالم السفلى ·
وأما المستقرة ! المستقرة !
أم نينازو المستقرة ! عارية الكتفين والصدر الذى يشبه الوعاء ·
فلم تسمح لانكيدو أن يصعد من العالم السفلى ·
« نامتار » لم يقبض عليه ، الحمى لم تقبض عليه ·
العالم السفلى قبض عليه ·
قاطع الطريق من أتباع نرجال لم يقبض عليه ·
ولكن العالم السفلى قبض عليه ·
انه لم يسقط فى ساحة الوغى ·
ولكن العالم السفلى قبض عليه ·
عندئذ ذهب مولاى ·· ابن « ننسون » (أى جلجامش) ·

باكيـــا انكيدو خادمه ..
ذهب وحده الى « ايكور » معبد « انليل » :
أبى « انليل » .. سقط طبلى الى العالم السفلى .
سقطت عصا طبلى الى العالم السفلى .
نامتار لم يقبض عليه ! الحمى لم تقبض عليه !
العالم السفلى قبض عليه .
قاطع طريق لنرجال لم يقبض عليه .
العالم السفلى قبض عليه .
فى ساحة الوغى لم يسقط .
العالم السفلى احتجزه .
ولم يتدخل الأب « انليل » فى الأمر .
فذهب الى « أور » .
أيها الأب سن .. سقط طبلى فى العالم السفلى .
وسقطت عصا طبلى فى العالم السفلى .
فقبض العالم السفلى على انكيدو الذى أرسلته لاحضارهما .
لم يقبض عليه نامتار ولم تقبض عليه الحمى .
بل قبض عليه العالم السفلى .
لم يقبض عليه قاطع طريق لنرجال .
ولكن العالم السفلى قبض عليه .
فى ساحة الوغى لم يسقط .
ولكن العالم السفلى قبض عليه .
ولم يتدخل الأب « سن » فى الأمر .
فذهب الى « اريدو » .
أيها الأب « أيا » .. سقط طبلى فى العالم السفلى .
وسقطت عصا طبلى فى العالم السفلى .
فقبض العالم السفلى على انكيدو الذى أرسلته لاحضارهما .
لم يقبض عليه نامتار ولم تقبض عليه الحمى .
بل قبض عليه العالم السفلى .
لم يقبض عليه قاطع طريق لنرجال .

ولكن العالم السفلى قبض عليه ٠
فى ساحة الوغى لم يسقط ٠
ولكن العالم السفلى قبض عليه ٠
فتدخل الأب « أيا » فى الأمر ٠
وقال لنرجال البطل الشجاع :
« أيها البطل الشجاع ! نرجال !
افتح ثقبا فى الأرض ٠
حتى تخرج منه روح انكيدو ٠
من العالم السفلى ٠
حتى ينبىء أخاه بطرق العالم السفلى » ٠
واستمع « نرجال » لـ « أيا » ٠
وفتح ثقبا فى الأرض ٠
وخرجت روح انكيدو كهبة روح من العالم السفلى ٠
وتعانقا وقبل كل منهما الآخر ٠
وتبادلا النصح وكل يقول لصاحبه :
« خبرنى ياصاحبى ٠ خبرنى يا صاحبى !
صف لى أمر العالم السفلى الذى شهدته » ٠
« سوف لا أقول لك ٠ سوف لا أقول لك !
لأنى اذا وصفت لك أمر العالم السفلى الذى شهدته ،
فانك ستجلس وتبكى » ٠
« ٠٠٠ سأجلس وأبكى » ٠
« جسدى ٠٠ الذى كنت تلمسه فيسعد قلبك ٠٠ تنهشه الحشرات كالثوب الخلق » ٠
« جسدى الذى كنت تلمسه فيسعد قلبك ٠٠ يملؤه التراب » ٠
فصاح ٠٠ ويلاه ! وألقى بنفسه فى التراب ٠
وصاح جلجامش ويلاه ! وألقى بنفسه فى التراب ٠
« ٠٠٠ أرأيت ؟ » ٠٠ « نعم قد رأيت ! » ٠

★★★

ســـانــوهــي

٢٠٠٠ ق.م

الأدب والحياة لأمة من الأمم بمثابة نسيج هما لحمتـــه وسداه ، والحياة شعور يتملاه المرء فى نفسه ثم يتأمل آثاره فى الكون وفى نفوس غيره وأما الأدب فذلك الشعور ممثلا فى القالب الذى يلائمه من الكلام ٠ وكما لا يكون هناك أدب بغير حياة فليست هناك حياة بغير أدب فلكل حياة أدب كما لكل أدب حياة ، والمقياس الذى يقاسان به واحد ٠٠ لا يختلف فى دلالته وان اختلف فى وسيلته : ذلك أن الحياة لا تكون حياة بغير تعاطف ومودة ووسيلة التعاطف التعبير ٠٠ والتعبير لون من ألوان الأدب وليس الأدب تلهية ومسلاة فان أصبح كذلك ، فهو كفيل بأن يصرفنا عن الجاد من الأمور وهو بهذه الصفة سخف يخفى البطالة والفراغ ويحوى المغالاة والأكاذيب ويتحول الى صيغ وأساليب تلتمع فيها الألفاظ وتكثر فيها المغالطات وتفشو المحسنات اللفظية ، فالتزويق والتمويه يبلغان غايتهما اذا كان الهدف فارغا أو لم يكن هناك هدف ومن ثم يتعرض الأدب للأسفاف فينحط حين يجنح للغلو والعبث وتشويه المعانى ويكلف كلفا شديدا بمحسنات الصناعة وغيرها من ضروب الزيف ٠ ويستطيع الأدب على ذلك أن يكون مرآة لحياة الأمة ، فلئن بدأ الناس ينظرون اليه بعين لاهية فان ذلك يعنى أن حياتهم خالية من الجد وان نفوسهـم خائرة ، ذلك لأن الأدب ترجمان صادق للحياة فان جدت جد وان هزلت هزل ٠٠ ورغم ذلك فقد يجد والأمة هازلة ولكنه لا يهزل أبدا فى أمة جادة ومن ثم كان خير أدب يظهر فى أمة ما يسجله أدباؤها فى أعقاب ثوراتها أو نهضاتها أو فترات كبواتها ليرفع راية الكفاح عالية ٠٠ وأما حين تميل الدولة للرخاوة وتركن للترف فان مظاهر أدبها ودوافعه ومراميه تختلف جد الاختلاف فهى فى الحالة الأولى لاتميل للهزل أو الملق كما فى الحالة الثانيـة وانما تحس بالأدب يغلى فى مشاعر المترنمين به وتجيش به صدورهم من فخر تتطاول به أو غضبة تعلنه أو غزل تترنم به أو تاريخ يسجل أنباءها وكفاحها ويستوعب خلاصة حكمتها وتجاربها ٠٠ وهكذا نرى نوعين من الأدب : أدب يدفع اليه البطالة والرخاوة وأدب تمليه الحيـاة ويخاطب الفطرة السليمة ويتجاوب معها [illegible]

ان البعض يرون ان الأمم بحاجة الى العلوم والمخترعات وليست بحاجة الى الآداب تطالعها وتتفقهها بحسبان أن الأدب الغو وأحلام وأن الأمم لا ترقى بالأحاديث والأوهام ٠٠ وواقع الأمر ان فى ذلك تضليلا وسوء فهم وتقدير فيقدر حظ الأمة من الأدب يقدر حظها من الحياة ٠ والأمة قد تصل الى المجد العلمى ولكنها لا تستكمل مقوماتها بغير الأدب ولا يعد شعبا ناجحا ذلك الشعب الذى لا يعنى بالأدب فحين تضـــل فى يديه مقاييس الأدب ، فان ذلك يعنى أنه فقد مقاييس الحياة ، ذلك لأن الأدب فى جسم الأمة بمثابة الدم الذى يجرى فى عـــروقه ويغذى كيانه ويمنحه النـــور والصفاء ٠

ومقاييس الأدب متشعبة تشعب الحيـــاة نفســـها ، وليس هذا مما يعيبه ، وهو يختلف فى هذا عن العلوم الأخرى فالقضية العلمية تعرف على حقيقتها الأخيرة المقيدة التى لا تتغير ٠ أما الآداب فانها تتجدد تجدد الحياة فهى دائمة النمو والحركة والتحول فى نظام الحياة نفسها ، بل ان فيها أكثر مما فى الحياة ٠٠ فيها عنصر الخلود الذى تفتقر اليه ، وفيها الروحية المطلقة أحيانا وهى التى تكبلها قيود الجسد فى الحياة ، وفيها الحرية التى تطلقها من عقال المادة ، والأدب بهذه الصـــورة يتسامى على العلوم التى توقف على خدمة المادة وحدها بينما يشتمل كل ما تشتمل الحياة من حاضر ومستقبل ومن واقعية وأمل ٠ والأدب الصحيح هو الأدب الذى يوقظ فى النفس الشعور بالحياة والتطلع الى الحرية ٠٠

***

ولقد كانت مصر القديمة أول شعب من شـــعوب العالم استطاع ان يدرك هذه المعانى مجتمعة ، وأن يفيد منها ويبرزها فخرج جيل له روح أدبية خالصة للأدب ذاته٠ونستطيع بمطالعة آدابه أن ندرك أنه لم يستهدف بها نفعا تجاريا أو مصلحة مادية بل غذاء للروح واشباعا لنوازع النفس وكانت له أنواعه وأساليبـه ، ومن أنواعه الأدب العاطفى والأدب القصصى والأدب الخاص بالحكم والأمثال والتأملات ثم الأدب الفلسفى وكلها من مصدر مصرى خالص فكانت فخر الكاتب وموضع تقدير القارىء ٠ والأدب الصحيح كما يشير « بتـاح حتب » هو « الأقوال المصوغة فى أســلوب جميل ، والتى تحدث بها الوزير عندما كان يثقف بالمعرفة ويعلم مبادىء الحديث الطريف » ٠ وكان الأدب فى أول الأمر واقعيـا يميل الى التعبير الدقيق السليم بعيدا عن المحسنات ولكن تطور الظروف السياسية غير من أساليبه حتى ليستطاع وضع حد فاصـــل بين ألوان الأدب فى مختلف العصور ، مما يشير الى ما طرأ على البلاد من انحلال سياسى أو نهضة أو رغبة فى لم الشمل أو ثورة تستهدف الخلاص من نير المستعمر ٠٠ أو الركون

الى الدعة بعد الاطمئنان الى قيام دولة تستطيع أن تفرض رأيها على غيرها . ولقد وصل الاسلوب الأدبي الى قمته قبيل الدولة الحديثـــة في عهود الكفاح ثم ركن من بعد ذلك الى المحسنات اللفظية فأضاع قوام وبدها .. وأما الأدب العاطفي والغنائي فقد لونه الترف بلونه فجدد من شبابه وجدله الى جانب ذلك الاتصال بالعناصر الأجنبية ودخول الأجانب الى الحيـــاة المصرية . ولقد ظل أدب الدولة القديمة نموذجا يحتذى في مختلف العصور حتى لنرى القوم في عهـد الدولة الحـديثة يتمثلون به ويقلدونه حين احسوا بأنهم لا يستطيعون أن ينحوا نحوه أمام واقعيـة الحيـــاة التى يحيونها ، وان أفسدوا بمحسناتهم التى ظنوا أنها تغطى عيوب اسلوبهم ومراميه . ولقد بلغ تطور الأدب المصرى مداه فى الفترة المظلمة في عصر الانتقال الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطى .. ومخلفات هذا الأدب هى ما نطالعه بعد ذلك بحوالى خمسمائة عام وهو ما دأبـــوا على تقليده ومحاكاته ولم يستطيعوا أن يتحولوا عنه أو يتناولوه بالتغيير من ناحية اللغة أو الأسلوب .

مصر القديمة هى موطن القصة القصيرة !!

وما يزال أكثرنا تشـــغله آثار مصر القديمـــــة من أهرامات ومعابد ومسلات وتماثيل ، وصور ومناظر شيقة على جدران المعابد والمقابر ، عن التفكير في آدابها ، بل منا من ما يزال يدهش ان سمع أن مما خلفته مصر من آثار أدبية مالا يقتصر على النصوص التاريخية والدينية ، وانما يشمل كذلك أعمالا أدبية جليلة . وما من ريب في أنه يزداد دهشا اذا علم أننا ان استبعدنا تلك النصوص مما وصـــل الينا من آداب المصريين لتبقى بعد ذلك ما يكفي للدلالة على أنهم ضربوا بسهم وافر فى الأدب ، وأنهم لم يكونوا شعبا متدينا فحسب ، وانما كانوا كذلك شـــعبا أدبيـــا ، كما كانـــوا شـــعبا فنيـــا .

ويدل ما حفظ لنا من آدابهـــم على أنهـــم عالجوا نواحي مختلفة في الآداب ، فقد كتبوا في المواعظ وآداب السلوك وما ينبغى التخلق به فى الظروف المختلفـــة . وضمنوها الأمثـــال والحكم الخالدة على الزمان . وأنشأوا المقالات فى الاصلاح السياسى لعلاج ما تفشى من مساوىء وما حل بالمجتمع من نكبات . وصنفوا الرسائل فى المناسبات والأغراض المختلفة ، فى التهانى والتواصى ، والتمنيات ، والتفاضـــل والمفاخرة ، وفى هجاء الحرف الا حرفة الكاتب وغير ذلك من مطالب الحياة ومقاصدها . وحاكوا القصص القصـــيرة المختلفة ، حتى ليعتقـــد أن مصر هى موطن القصة القصيرة ، وأن المصريين أول من أنتجها لذاتها جيلا فى روايتهـــا وترجمة

للوقت • وصاغوا الأناشيد يرتلونها لمعبوداتهم وملوكهم ، ويمجدون بها بعض مظاهر الكون والطبيعة وخاصة الشمس والنيل ، وصنعوا الأغاني يرقصون عليها ، ويتغنون بها لأحبابهم ، بل وزادوا على ذلك كله بأن ألفوا التمثيليات الدينية يمثلونها في أعيادهم لآلهتهم وملوكهم ، كما لم يفتهم أن يكتبوا في مسرات صيد السمك والطير •

وقبل أن نتعرض للكلام عن قيمة الأدب المصري يحسن أن نتعرف متى بدأ المصريون يصطنعون الأدب • ان أقدم ما حفظ لنا مما كتب من آدابهم انما هو من عهد الدولة القديمة ، فقد بقيت لنا من ذلك العهد نصوص دينية ، هي ما تعرف بمتون الأهرام ، ثم تراجم مختصرة لبعض الأشخاص• على أنه ينسب الى الدولة القديمة أيضا قصة خلق الاله بتـــاح للعالم ، ومواعظ بتاح حتب وكاجمني ، وقصص السحرة ، وبرديتا ادون سمث وايبرز الطبيتان ، أن كانت جميعها وصـــلت الينـــا مكتوبة بخط من الدولة الوسطى أو الحديثة أو العهد الأثيوبي • ويعتقد أيضا ان الروايات التي كانت تمثل في الأعياد انما ترجع في جوهرها الى الدولة القديمـــة • وهنا يصح التساؤل عما اذا كانت كل هذه الآثار من عمل الدولة القديمة حقا ، وعما اذا كانت عصور ما قبل الأسرات في مصر خلوا من كل أثر أدبي •

ذهب بعض الباحثين الى أن من متون الأهرام ومن القصص والأساطير ما يمكن أن يرجع الى عصور ما قبل الأسرات ، بيد أن منهم من ذهب أخيرا الى أن الأدب المصرى لم ينشأ الا فى العهد التاريخي ، أى فى عهد الأسرات معتمدا فى ذلك على ان الكتابة الهيروغليفية فى بداية الأسرات كانت لاتزال فى مراحـــل تطورها ، وأن كتابات ذلك العهـــد تكاد تقتصر على الأسماء والألقاب ، وأن المصريين اذ ذاك كانوا يسجلون الأحـــداث متفرقة فى ألفاظ قليلة ، اذ لم يكونوا يعرفون بعد كيف يؤلفون بينها فى رواية متصلة الحلقات وهو أساس القصص والأخبار ، وأنهم لم يبدءوا ذلك الا فى أواخر الأسرة الثانية •

ولكن ألا يكون أدب الا أن يكون مكتوبا ؟ لقد بدأ المصريون حياتهم جماعات متفرقة ، ومن ثم أخذوا يكافحون قرونا وأجيالا طويلة ، حافلة أيامهم بالأحداث العظيمة ، ومتدرجين من ثقافة الى أخرى ، حتى تم لهم فى مطلع تاريخهم توحيد البلاد فى ظل حكومة رشيدة قوية ، فهل يمكن أن نتصور أن يتم ذلك كله دون أن يحيكوا القصص والأساطير عن أبطالهم ومعبوداتهم ، يروونها جيلا عن جيل ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد اهتدوا الى الكتابة بعد ؟ وهل يمكن أن نتخيل أنهم بعد أن قضوا الأجيال العديدة ممتنعين عن اصطناع القصص والأساطير انتفضوا فجأة فاصطنعوا الأساطير

العديدة التي تشير اليها في إقتضاب متون الأهرام ، وذلك بعد أن وفقوا الى الكتابة .

اننا بهذا ننسى أن الكتابة حدث متأخر في تاريخ الانسانية ، وأن الانسانية لا تنتظر حتى تهتدي الى الكتابة لتتخيل وتفكر وتفلسف ، كما ننسى ما كان للرواية والقصص من شأن في الأزمنة الأولى .

لقد كان للكتابة شأنها ، ولكن ذلك لم يكن يعدو في أول نشأتها التسجيل والنشر أما التصور والتخيل ، والخلق والابتداع ، والرواية والحديث فلا علاقة أصيلة لها بها . لذلك لابد وأن يكون المصريون في عصور ما قبل التاريخ قد حاكوا من القصص والأساطير ما كانوا يروونه جيلا لجيل قبل أن يهتدوا الى الكتابة . واذا كان لم يحفظ لنا من هذه الأساطير شيء في بداية عهدهم بالكتابة ، فذلك لأن هذه لم تكن قد استكملت بعد أصولها لتستطيع تسجيل مثل هذه الأساطير ، في وقت كان لايزال للرواية سلطانها ، ولأن المصريين شغلوا بها اذ ذاك في تسجيل مطالب الحكومة المتحدة بقدر ما وسعته معرفتهم بها .

وهكذا يكون الأدب المصري نتاج فترة طويلة استغرقت قرونا وأجيالا تزيد كثيرا على ثلاثة آلاف عام ، اختلفت فيها طرزه وأساليبه من عهد الى عهد ، وهو يتميز في مجموعه ببساطته ووضوحه ، وواقعيته وقصر جمله وسداده وأحكامه ، وهدوئه واتزانه ، وأنه أدب هادف عملي على صلة بالدين لا يرمي الى التسلية الرخيصة . وفي هذا كله يتردد صدى البيئة التي نشأ فيها وطبيعة منشئيه ، اذ يصور طبيعة مصر ، وعادات المجتمع المصري وأخلاقه على اختلاف طبقاته ، وذلك في صورة حية صادقة ، وبتفاصيل شيقة تكشف عن الروح المصرية وما تتميز به من دعابة وفكاهة . وفيه تتراءى كذلك أحداث كل عصر ، وتتمثل صفاته وأفكاره بما لا يدع مجالا للشك في أنه في ظاهره وجوهره مصري النشأة والأصل ، لم يؤثر فيه عنصر أجنبي دخيل عليه ، فأخيلته وأفكاره ، وأساليبه ومعانيه تنم على تصورات المصريين وعقائدهم ، وتشف عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، وتنبيء عن تجاربهم وأحداثهم وتحكي عن مخاوفهم وآمالهم ، على نحو ما تفعل ذلك فنونهم وصناعاتهم .

فهناك تراجم الأشخاص في مقابرهم من الدولة القديمة ما زالت تتطور حتى غدت تصور حياة صاحبها ، وتبرز في فخر واعتزاز أهم أخباره . وحديث الملك له ، أو ما كتبه اليه من رسائل ومن أهم ما حفظ منها تراجم أوني وحرخوف وبي نخت وسابني . كما أن مواعظ بتاح حتب وكاجمني انما تترجم عن أفكار ذلك العهد الفني ، فهي توحي بالثقة بالنفس وحب

التقدم اذ « لا حد للفن · وما من فنان بلغ غاية مواهبه » ، وذلك ما يتفق أحسن ما يكون وروح الخلق والابداع التى سادت عصر بناة الأهرام ·

وما هي القطع الأدبية من عهد الفوضى والاضطراب فيما بين الدولتين القديمة والوسطى ، تصور في أصدق صورة ما انتاب المجتمع المصرى اذ ذاك من نكبات قلبت أوضاعه ظهرا على عقب بعد ذلك الاستقرار المكين الذى كان فى الدولة القديمة ، مما أشاع التذمر واليأس بين المفكرين فانقسموا طائفتين : طائفة تؤثر العاجلة فتدعو الى انتهاب اللذات ، وأخرى تؤثر الحياة الفاضلة فتنادى بأسباب الاصلاح · وقد اختار الكتاب على اختلافهم أطرا متعددة صاغوا فيها أفكارهم ، ووصفوا فيها حالة البلاد فى صورة حية قوية بما لا يدع مجالا للشك فى أن هذه الآثار انما هى وليدة عصرها ، تحمل طابعه ، وتنطق بلسانه ، وتفكر بوحيه فى قوة وجلاء ·

منزلة الأدب فى نفوس الأجداد

كان المصريون يقدرون الأدب حق قدره ويعجبون بالكلام الجيد والقول البليغ وكانوا يرون فى اجادة التعبير والتصرف فى فنون الحديث فضلا يمتاز به المرء ومثلا ينبغى أن يتخلق به الكريم ، ويرون فيه كذلك ثروة تعين على المنزلة الرفيعة والدرجة السامية ، فقد كان بتاح حتب يحض على بذل الجهد والاستقصاء فى نيل العلم والبلاغة ، ويقول ان الكلام الجيد أخفى من الحجر الكريم ، ومع ذلك فقد يجده المرء عند الاماء ·

ولقد أدرك المصريون ما يكون للكلمة من القوة والأثر وما تتيحه البلاغة والفصاحة من التسلط على الناس وحسن سياستهم والسيطرة عليهم ومكان ذلك من مقومات القيادة القوية والزعامة النافذة · ولنا فى ذلك شاهد من قول أحد ملوك اهناسيا (١٢) لابنه مريكارع وهو يعظه فيقول : « كن للكلام صانعا حتى تكون شديد البأس ، لأن قوة الرجل فى لسانه ، ولأن القول أمضى من أى قتال » · وفيما ورد فى قصة البحار الغريق قول التابع : « ان منطق الرجل ينقذه وحديثه يكف عنه (غضب) الوجوه » ·

ونستطيع كذلك الوقوف على مبلغ حب المصريين للأدب وشغفهم به مما أوردوه لنا فى قصة الفلاح الفصيح ، وما كان من شكايته للحاكم مما وقع عليه من الحيف والجور ، وذلك فى أسلوب مبين وقول عذب طرب له الملك ، فأمر الحاكم بالتراخى فى اجابة الفلاح والتلكؤ فى رفع الظلم عنه استزادة من بيانه ، كما أمر بتدوين ما يقول ورفعه اليه (١٣) ·

وقصة الفلاح الفصيح كما كتبها المصريون انما قصد بها امتاع القارئين والسامعين بما أوردته من البيان والبديع ، وهى تكاد تشبه المقامات فى الأدب العربى ، فلا تكاد شخصية الفلاح لتختلف عن شخصية عيسى بن هشام التى اخترعها بديع الزمان الهمذانى أو شخصية أبى زيد السروجى التى اخترعها الحريرى ، ثم أجريا على لسانيهما ما شاءا من البيان .

كذلك ورد فى بعض آداب المصريين أن الملك سنفرو دعا رجاله يوما فسألهم أن يجدوا له من بينهم واحدا فيه من الحكمة والمقدرة ، فيحدث جلالته بالأقوال البليغة والأحاديث المختارة التى تسر قلب جلالته .

ولقد أدرك الملوك والكهان حب المصريين للأدب واقبالهم عليه وأثرهم به ، فكان أن استخدم فى الدعاية الدينية والسياسية ، فكانوا يستغلون شغف الناس بالقصة والرواية فيتحدثون اليهم بالقصة الشيقة التى تثير الشغف والانصاف ، وهم فى أثناء ذلك يبثون فى تضاعيفها ما شاءوا من الدعاية ، ويوحون للناس بما يجرون على لسان أبطالهم من النبوءات والكهانات كان ذلك مثلا أواخر الأسرة الرابعة ، حين طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم ويدعون لدولتهم التى يقبض زمامها فيما رووا ملوك زعموا أنهم ولدوا لاله الشمس من امرأة من الشعب ، وتكرر ذلك أيام الدولة الوسطى فى نبوءة نفرو حو ، التى بشر فيها بحكم أمنمحات الأول وفى الدولة الحديثة عن مولد حاتشبسوت الالهى .

ومن الخطر أن تخضع الآداب القديمة لما عندنا اليوم من المقاييس والمعايير ، وأن نعيب على المصريين الأقدمين أدبا أنتجوه ولم يحقق لنا كل الذى نريده من آدابنا منذ اليوم ، فنقفز بذلك هوة سحيقة من الزمان ونسقط من تقديرنا عشرات من القرون فى حساب التطور الفكرى والأدبى ، ولذلك فينبغى أن نصدر فى حكمنا على الأدب القديم على أساس من تقدير العصر الذى أنشىء فيه والثقافات التى أخذ عنها وأسهمت فى انشائه .

ومع ذلك فقد وضع المصريون القدامى الأسس الأولى فى بناء الفكر الانسانى والانتاج الأدبى الرفيع ، وأنتجوا لنا أدبا مازال يؤثر فينا ونجد له فى نفوسنا شعورا بالرضى والاعجاب .

ومهما يكن من شىء ، فقد ملك المصريون ناصية المعانى والأفكار ، وكانوا حريصين فضلا عن ذلك على تجويد الكلام والوصول به الى أقصى ما استطاعوا من الجمال الفنى والتأثير الأدبى ، بما حفل به من ضروب البيان والبديع ، وما اصطنعوا فيه من التشبيه والاستعارة والكناية والتورية والجناس وحسب الذين ينظرون فى أدب المصريين القدامى أن

يعلموا أنهم أخرجوا للناس كثيرا من الصــــور والتعبيرات التى فرضت نفسها على آداب من جاورهم من الأمم والشعوب ، ثم وجدت سبيلها الى كتبنا المقدسة التى أثرت فى آداب العالم القديم والحديث ، وقد كان طبيعيا أن تتحدث الكتب المقدسة الى الناس بما كانوا قد ألفوا من قبل من الصور والأخيلة والتعبيرات ٠

ونعرف مما وصل الينا أنهم كتبوا فى المديح والرثاء والغزل والغناء ، بل كتبوا فى أكثر من ذلك من أغراض الأدب وفنونه ، واستطاعوا وصف المشاعر الانسانية من الحزن والفرح ، والغضب والرضـــا ومن اللذة والألـــم ٠

ولعل أبرز أنواع الأدب المصرى القديم جميعا — اذا تجاوزنا عن الأدب الدينى — هو الأدب القصصى الذى يعد أبعدها اصولا وأثبتها قدما ، وهو يمتاز بحسن الصياغة ودقتها ثم متابعة الفكرة وتطورها وأخيرا بأنه أدب هادف له مراميه وأغراضه ٠

ولم يعرف الأدب القصصى على وجه التحقيق الا منذ عهـــد الدولة الوسطى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد أو قبيل ذلك بقليل ، ولدينا قصص للعامة والخاصة من مختلف العصور التالية ، وأما من عهد الدولة القديمة فلم يصلنا شيء من الأدب القصصى وان دارت القصص حول بعض أحداث هذا العهد البعيد أحيانا فتناولت بعض شخصياته كما نفعل اليوم حين نتناول شخصيات تاريخية فنروى عنها قصصنا ٠ وليس من شك أن هذه القصص ألفت ثم تناقلها قوم استهوتهم أحداثها فضخموا فى بعض نواحيها أو غيروا منها بما يتفق وظروف زوايتها ٠٠ وقد لحقت بها الأساطير الدينيـــة كما ثبتت بها بعض التقاليد المتعارف عليها ٠٠ ولكنها كانت تستهدف دائما ارضاء السامع من العـــامة وكانت صيغت لتغذى ميوله وتشبع رغباته وتتمشى مع أهوائه ٠

والقصص التى وصلتنا منذ عهد الدولة الوسطى تشير الى نضج ينم عن وجـود مرحلة سـابقة لمعالجة هــذا اللون من الآداب قد نستطيع أن نستشف وجوده من معالجة الأساطير فى متون الأهرام من عهد الدولة القديمة ٠٠ ومهما يكن من أمر ، فان غياب القصة فى عهد الدولة القديمة لا ينهض دليلا على عدم وجودها فقد يكشف يوما عن عناصرها الأولى فى هذه العهود البعيدة وعلى أية حال ، فان أدب القصة فى عهد الدولة الوسطى لا يمثل مرحلة تطور فحسب بل يمثل مرحلة كمال نسبى ، بل انه يمثل ذروة الأدب القصصى فى مختلف عصور الحضارة المصرية القديمة ٠

واشهر ما وصلنا من هذا العصر قصة سانوهى ٠

قصـــة سانوهى

أتيح لهــذه القصـــة من الذيوع والانتشار ما يدل على أنها كانت من أحب القصص الى قلوب المصريين منذ الأسرة الثانية عشرة ، لما حظيت به من التداول والانتشار ، ولقد أجمع العلماء على أنها مثال راق لأروع ما ورد من آداب المصريين ، بل منهم من رفعها الى فوق ذلك . ولم تكن وقائع هذه القصة كلها من ضروب الخيال ، ولكنها كانت تعبر عن وقائع وأحـداث من التاريخ الذى لا خيال فيه ، فقد كان سانوهى أميرا ، وما ندرى لعله اتهم فيما كان من صراع على العرش تعرض فيه الملك أمنمحات للاغتيال ، فى مؤامرة لعلها فشلت ولكنها أنتجت لنا على كل حال أدبا جميلا جرى على لسان الملك وهو يعظ ولى عهده وقد صدمه الجحود والغدر .

القصـــــة

(تبدأ بمقدمة يذكر فيها سانوهى ألقابه ووظائفه ثم يقول) :

فى العام الثلاثين ، فى الشهر الثالث من فصل الفيضـــــان ، اليوم السابع ، ذهب الرب ملك الشمال والجنوب سحتب ايب رع الى أفقه وصعد الى السماء حيث اتحد مع قرص الشمس واختلطت أعضاؤه بمن خلقها ، فاذا القصر قد ران عليه الصمت والقلوب فى حزن ، واذا البابان قد أغلقا حيث جلس رجال الحاشية وقد انحنت منهم الرؤوس على الركب ، على حين طفق الناس من حولهم يبكون .

وكان جلالته قد وجه جيشـــــا الى بلاد التمحو وجعل على رأسه بكر أبنائه الاله الطيب سنوسرت ، وقد أرسل ليضرب البلاد الأجنبية ويسحق هؤلاء الذين كانوا من التحنو ، فلما عاد ساق معه الأسرى من التحنو مع الماشية التى لا حصر لها من كل نوع .

وأرسل الموظفون من ســـمار الملك بالقصر من البر الغربى لينقلوا للملك ما حدث فى القصر فكان أن لقيه الرسل فى الطريق ولحقوا به وقد جن الليل ، فلم يبطىء لحظة واحدة ، واذا بذلك الصقر الملكى يطير عائدا مع أتباعه دون أن يعلم جيشه ، ولكن رسولا آخر كان قد بعث خلسة الى سائر أبناء الملك ممن كانوا معه فى الجيش فهرعوا الى هناك .

ولقد كنت قائما هناك عن قرب حين أقبل الرسول فسمعت صوته وهو يحدثهم . فاذا قلبى يضطرب وذراعاى تتراخيان ، والفزع يدب فى

أعضائي جميعا ، فاندفعت أبحث عن مختبأ أتوارى فيه ، فجعلت نفسي بين شجرتين حتى أجد الطريق الذى أسلكه ٠

وكان أن وليت وجهي شطر الجنوب فقد قررت ألا أعود الى القصر اذ قدرت أن فتنة سوف تقع هناك ، ولا أستطيع القول بأنى سوف أعيش بعدها ٠ ثم عبرت بعد ذلك مياه ماعتى عند مزارع الجميز ثم نزلت الى جزيرة سنفرو حيث أنفقت النهار فى الحقول ، فلما استأنفت الرحيل حينما تنفس الصبح لقيت رجلا كان يعترض طريقى فحيانى فى احترام ولكنى فزعت منه ٠ ولما كان موعد العشاء كنت قد ألممت بمدينة نجاو فعبرت فى زورق غير ذى مجداف بمعونة ريح الغرب فوصلت الى الشرق عند محاجر سيدة الجبل الأحمر ٠

ثم كان أن سلكت الطريق الى الشمال فبلغت أسوار الأمير التى شـــيدت لصد البدو وضرب جوابى الرمال ، هناك ركعت بين الشجيرات فقد خفت الحرس من القائمين بالرقابة هذا اليوم أن يرانى ٠ ثم أنفقت الليل ماشيا حتى اذا كان فجر الغــد ، كنت قد بلغت بتن ، ولكنى ما أن بلغت جزيرة كم أور حتى سقطت من الاعياء وقد أنهكنى العطش وألح على وضاق صدرى وصعب تنفسى ، والتهب حلقى بالغبار والجفاف ، فقلت : ذلك طعم الموت ٠ ولكنى قويت نفسى واستجمعت أطرافى وقد سمعت خوار قطيـــع من الماشية ولمحت البـــدو من بعيـــد ٠٠ واذا شيخ القبيلة هنـــاك يتعرف على اذ كان قد زاد مصر من قبل ، فقدم لى ماء وطبخ لى لبنا ، ثم صحبته الى قبيلته فلقيت منهم خيرا كثيرا ٠

ثم مضيت تسلمنى بلد الى بلد ، فغادرت ببلوص وعدت الى قدم حيث أنفقت هنـــاك عاما ونصف عام ٠ ثم كان أن أخذنى ننشى بن عامو أمير رتنو العليا قائلا : لسوف تكون معى آمنا وستسمع هنا لسان مصر ، وهو انما قال ذلك لأنه كان يعرف منزلتى ولأنه سمع الحديث عن حكمتى ، وقد شهد لى بذلك جماعة من المصريين كانوا عنده ٠ قال لى : فيم أنت هنا وكيف بلغت بك الحال كذلك ؟ هل وقع فى القصر شيء ؟ قلت : لقد رحل الملك سحتب ايب رع الى أفقه ، وما يدرى امرؤ ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك ، ثم حدثته كاذبا بأنى كنت عائدا من حملة على بلاد التمحو عندما أبلغت خبرا اضطربت له نفسى ودفعنى قلبى الذى لم يعد فى صدرى الى الصحراء ، ومع ذلك فلم يذكرنى أحد بسوء ولا تلقيت عبارة ملام ٠٠ لست أدرى منذا الذى جاء بى الى هنا ، لكأنما هو قدر من الاله ٠ فقال لى : ماذا تستطيع هذه البلاد ان تفعل بدونه ذلك الاله الخير ، الذى ذاعت رهبته فى البلاد كلها كما ذاعت سخمت (١٤) عام الطاعون ٠

فأجبته قائلا : لقد دخل ابنه القصر فملك ارث أبيه ، انه الاله الحق

الذى لا شبيه له والذى لا يفوقه أحد ، انه رب السجاحة ذو الرأى المتين ، بأمره كل شاردة وواردة ، وهو الذى أخضع البلاد الأجنبية على حين كان أبوه فى القصر يصدر الأوامر ثم يحدث أباه بتنفيذ أوامره ٠٠ وهو الذى لا يعيد ضربته اذا قتل ٠٠

قلت له : اكتب اليه ودعه يعرف اسمك ، ولا تذكره بسوء فلن يقلع عن أداء الخير لكل أمة تظل على الولاء له ٠ فقال لى : حقا ما أسعد مصر أن تقدر قوته ! ٠٠ أما أنت فمقيم عندى فواجد كل خير ، واذا هو يجعلنى على رأس بنيه ويزوجنى كبرى بنـــاته ، وقد أذن لى أن أنتقى من بلاده خير ما يملك عند تخوم بلد آخر ، وكان بلدا طيبا اسمه (يا) فيه تين وعنب وفيه نبيذ أوفر من الماء ومقادير من العسل وزيت الزيتون وفاكهة من كل لون فضلا عن الأشجار ، وكان فيها الشعير والقمح ، ومن بهيمة الأنعام ما لا يحصيه عد ، مع ما كان يصل الى من علائم حب الناس ٠ فكان ان جعلنى شيخا لقبيلة فى أحسن أقاليم بلاده ، وأصبح الخبز يقدم الى دائما والنبيذ لشرابى كل يوم مع اللحم المطهو ، والطير المشوى فضلا عن حيوان الصحراء وما كانت تجلبه كلابى من الصيد ٠٠ وكذلك انفقت السنين الطوال هناك حيث أنجبت أولادا شـــبوا فتيـــانا لكل منهم رهطه الذى يدين له ، وكان الرسل ممن يذهبون الى الشمال أو الجنوب قاصـــدين القصر ينزلون بيتى ، ذلك أنى كنت أستضيف كل من يمر بى فأقدم الماء الى الظمآن وأهدى الضال فأرشده الى الطريق ، وأحيط بالحماية كل من يتعرض للنهب ٠٠ ثم كان أن جعلنى أمير رتنو قائدا لجيشه أعواما طوالا فهزمت كل بلد سرت اليه فما كان أروع ما تركت من أثر فى فؤاد الأمير الذى أحبنى وأدرك مقدار شجاعتى فأحلنى على رأس بنيه ٠٠

ولكن عملاقا من أهل رتنو أقبل على مخيمى يوما متحديا وكان بطلا مغمورا لانظير له هناك ، وكان قد أنزل الهزيمـــة بكل بلد أغار عليه ٠٠ جاءنى فقال انه يود نزالى ، وفى ظنه أنه قادر على أن يقضى على ، وقد تآمر على استلاب أغنامى مع قبيلته ٠٠ وجاءنى الأمير مستشيرا ، فأجبته بأننى لا أعرف الرجل ولا كانت بينى وبينه صلة ما ، ولم أطأ مخيمه ولا اقتحمت عليه بابه أو تخطيت حائطه ، ولكنه الحسد الذى أوغر صدره ٠٠ وهب أن فحلا أراد قتال فحل آخر ، أتراه يولى ظهره أمام قرين له يكافئه فى كل شىء ؟ اذا كان قلبه يحثه على القتـــال فليعلن ما يريـــد ، أليس الله بعالم ما قدر فكيف لنا نحن أن نعرف ٠

وما أن أقبل الليل ، حتى شددت قوسى وأعددت سهامى وشـــحذت خنجرى ودفعته فى غمده وصقلت أسلحتى ٠٠ فلما لاح النهار أقبلت رتنو كلها ـ وقد أثارت قبائلها الأنباء وجمعت الناس مما جاورها من البلاد ـ

وأقبل غريمي على وأنا منتصب في ثبات فتقدمت منه والأفئدة كلها تضطرم من أجلي ·· كان النساء وأزواجهن يهتفون ·· أما من شجاع يقاتل معه · ويرفع عدوى فأسه وحزمة من سهام طفق يقذفني بها ، فحركته حتى استنفد أسلحته واحدا واحدا ، وأنا أتجنب سهامه فتمر طائشة بي ·· فلما نفد ما معه اقترب كل منا من غريمه ·· وكان يظن أنه يصيبني فهجم على ، ولكني قذفته بسهم استقر في عنقه ، فأرسل صيحة عظيمة ثم انكب على وجهه فأجهزت عليه بفأســـه ، ثم أطلقت صيحتي وأنا على ظهره ، فاذا الآسيويون من أتبـاعه جميعا يتأوهون ·· فحمدت منتو (١٠٥) على حين انخرط شعبه في البكاء عليه ، فيضمني الأمير ننشي بن عامو بين ذراعيه · ثم تحولت فاستوليت على أملاك عدوى ، فازددت ثروة على ما كان لي من ثروة لا تعد وأغنام لا تحصى ·

أصبحت غنيا بما عندى من عبيد وما لى من بيت فخم ومكانة رفيعة · لقد فعل ربي ما فعل رحمة بمن أضله الهوى ففر الى بلد غريب · وان يوم النصر هذا انما هو ايذان برضوان ربي على ! · لقد كنت بالأمس لاجئـا ولكنى أجــد اليوم من ينتصر لى · كنت هاربا يبيت على الطوى ويبرح به الألم والجوع ، والآن يطعم الجار من زادى · وكنت أهيم بعيدا عن وطنى فى العراء ولكنى أملك اليوم الأثواب الكثيرة والملابس البيضـــاء ، كنت حائرا مضطرا الى الجرى لا أجــد من أرسله ، أما اليوم فأنا أملك جموع العبيــد وهذه دارى أنيقــة ورحابى واسعة وقد ارتفع ذكرى الى مسامع القصر · يارب ، يا من قدر على ذلك الفرار ، كن رحيما بي وأعدنى الى بلادى ·· هلا قدرت لى رؤية البقعة التى يحن قلبى للعيش فيها ؟ أمن شيء أحب لدى أو أعظم عندى من أن يدفن جسدى فى الأرض التى ولد فيها ؟ ارحمنى يارب ··

هل لملك مصر أن يكون رحيمـــا بى فأعيش فى ظـــلال كرمه ، وأن يأذن لى برعاية شئون سيدة البلاد التى تسكن قصره وأسمع أوامر بنيها · لقد حلت الشيخوخة والكبر الى الوهن وثقلت عيناى وضعف ساعدى وناءت قدماى بحملى وأرهق قلبى وحانت ساعة الوداع ··

فلما خوطب جلالة ملك الشمال والجنوب بخبر كارع فى حـالى · أسرع بالكتابة الى وبعث لى بالهدايا مما يمنح لأفراد الحاشية فملأ ذلك قلب خادمه سانوهى فرحا ·

نص الأمر الذى حمل الى الخادم المتواضع بعودته الى مصر من حورس ملك الشمال والجنوب ·· أمر ملكى للسمير سانوهى ، انظر لقد صدر هذا الأمر لتعلم ما هو آت : انك انمــا رحلت بــوازع من قلبك لك ·· ولكنه لم يكن فى قلبى ضدك ·· ان الملكة وهى سماؤك فى القصر باقية

على الخير متوج رأسها بملك الأرض وأبناؤها يشاركون فى الحكم · فهيا عد الى مصر وكن واحدا من الحاشية · لقد خطوت الى الشيخوخة · ففكر فى الموت والانتقال الى حرمة الموتى · ولقـــد أمـرت فاعدت لك الزيوت والأكفان ولسوف يعد لك يوم الدفن موكب كبير الى القبر ··

وبلغنى هذا الأمـر وقد كنت واقفا بين أقاربى من أهل القبيلة ، فلما قرىء على خررت ساجدا ثم قبضت قبضة من تراب فحثوتها على رأسى، ثم اندفعت فى الحى حول خيامى وأنا أصرخ فرحا ·

نص الاعتراف بوصول هذا الأمر ·

ســـلام طيب عليك · وليقع كل ما تشرق عليــــه الشمس تحت سلطانك (١٦) ان هذا الفرار لم يكن مدبرا · كأنه كان حلما ، كرجل من الدلتا رأى نفسه فى فيله ··

وأذن لى باللقاء يوما واحـدا فى أرض (ياريثما) أوصى بأملاكى الى أولادى فأقمت أكبر أبنائى شيخا على الحق ، وانتقلت قبيلتى وأملاكى كلها الى حوزته · ثم توجه ذلك الخادم (سانوهى) الى الجنوب فسلكت طريق حورس ، وما أن بلغت منطقة المناقع حتى أوفد قائدها رسولا الى القصر يعلن وصولى ، فاذا جلالة الملك يرسل ناظـرا زراعيا من الضياع الملكية تتبعه محملة بالهدايا الملكية للبدو الذين رافقونى ثم استأنفت برحلتى · حتى بلغت مدينة أثيث تاوى (العاصمة) ·

فما أن أضاءت الأرض فجر اليوم التالى جـاء رجـل يستدعينى ثم أقبل عشرة من الرجال ذهبـــوا بى الى القصر فصافحت الأرض بجبهتى · واستقبلنى أبناء الملك عند الباب ، وأرشدنى رفاق الملك ·· الى طريق القاعة (الملكية) فوجدت جلالته على عرش من ذهب فانبطحت على بطنى وغشى على ، وكان هذا الرب يحدثنى متلطفــــا ولكنى كنت كمن غشيه الظلام ·· ثم قال جلالته لواحد من سماره ، دعه ينهض ليتحدث الى ثم قال جلالته لى : ها قد عدت بعد أن ذرعت البلاد الأجنبية فى فرارك ·· لا تقم على الصمت ، ألا تتحدث ؟ وكنت أخشى العقاب فأجبت جواب الخائف : (·· وددت لو استطعت الجواب ·· هأنذا بين يديك · وحيـــاتى لك ولتفعل ·· ما تشاء ثم أمر بدخول أبناء الملك وتحدث الملك الى الزوجــة الملكية : (انظرى ها هو ذا سانوهى وقد عاد أسيويا كأنه بدوى خالص · فندت صيحة عليه وصاح الأبناء الملكيون حقا كأنه ليس هو يا مولانا ·· دعنا نحتفل بهذا الشيخ ابن الشمال ذلك البدوى الذى ولد فى مصر ، انه ما حمل نفسه على الفرار الا خوفا منك ، هجر وطنه لأنه امتلأ منك رعبا أيمكن للوجه الذى تطلع الى محياك أن يعتريه الشحوب ·· فقال جلالته :

لا خوف عليه ولا هو يحزن .. ولسوف يكون سميرا لى بين الأشراف .. اذهبوا به الى قاعة الصباح لتكونوا فى خدمته ..

ثم أسكنت دارا لأحد أبناء الملك تحوى أثاثا فخما وحماما أنيقا وزخارف مقدسة .. وأثوابا من كتان ، وعطورا من المر والزيت الثمين مما يخص الملك والنبلاء وفيه الخدم قائمين بأعمالهم ، وأزيلت عن أعضائى آثار السنين ، ومشط شعرى وألقى التفث الى الصحراء والملابس لجوابى الرمال ، ثم اكتسيت بأثواب الكتان الجميل ودلكت بأحسن الزيت ثم رقدت فى سرير وتركت الرمال لمن يعيش فيها وزيت الخشب لمن يدلك نفسه به .

ثم منحت دارا وسط الحدائق .. وشيد لى هرم من حجر بين سائر الأهرام .. وانى لأحظى الآن بما يناله سمير الملك من عطف ، وسيظل هذا النعيم حتى يأتى يوم الهبوط الى الغرب فى مدينة الأموات .

★★★

وبعد فهذه رحلة نفسية فى قصة ، تصور فى روعة وجمال ما اختلف على بطلها من المشاعر والأحاسيس ، فهى تصور الصدمة التى تلقاها ساعة بلغته وفاة الملك وما توقع من المحنة والشر وتصف خوفه وهلعه ثم ما لقيه من الأهوال والخطوب حتى قال لنفسه (ذلك طعم الموت) .

حتى اذا بلغ رتنو (سوريا) اذا به يستخلف فى الأرض ويبدل من بعد خوفه أمنا . فلا يلقى من حاكمها الا خيرا ، فيتبدل شقاؤه نعيما وعسره يسرا واذا هو يتذاكر ذلك فى أسلوب مؤثر جميل . والقصة تصور أثناء ذلك حياة البدو كأحسن ما يكون التصوير وتجلو نظام القبيلة ومجتمعها وما قد يتعرض له البدوى من لدن جيرانه من العدوان والغارة حين تورط سانوهى فى مبارزة فرضت عليه ولم يكن يريدها .

ولكن النعيم الذى عاش فيه الرجل لم يكن ليلهيه عن وطنه والشوق لرؤيته والتطلع لأن يستقر جسده فيه بعد موته ، وكان ذلك التعبير المؤثر الذى يصور لنا الحنين أحسن تصوير ويصور لنا اعزاز الوطن كيف يكون وكيف يحمل الرجل على ترك قبيلته وبنيه وأمواله ليعود الى مسقط رأسه . وتصور لنا ذلك الفرح الذى أخرجه عن طوره حين أذن له الملك بالعودة بعد أن عفا عنه ، وتنتهى القصة بالخاتمة السعيدة وهى العودة الى الوطن والاستقرار فيه حتى يدفن فى أرضه الطيبة .

الشعر الغنائي
سافو
٦٠٠ ق.م

سافو الجميلة .. أشهر نساء اليونان

فى أعلى المدن الايونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الايولية (١٧) الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الايوليون والاخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسيا الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة وكانت كثرة هذه المدن صغيرة وكان شأنها فى التاريخ صغيرا كذلك غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الايونية فى الثروة والرقى والعبقرية الأدبية وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم وكانت متلينى أكبر مدائنها الخمس وكانت تجارتها سببا فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس وساموس وافسوس وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس الشجاع الفظ حاكما بأمره مدة عشر سنين ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صـــديقه وزميله الحكيم صولون وأخذ الاشراف يأتمرون ليستعيدوا سلطانهم ولكن بتاكوس رد كيدهم فى نحرهم ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس وسافو ،، فأخرجهم أولا من متلينى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألفيوس (١٨) ثائرا صخابا ، خلط السياسة بالشعر فكانت كل قصيدة من قصائده مثارا للفتنة والثورة وكان شريف المحتد وهاجم بتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفى من البلاد وقد اصطنع هو بحوره الشعرية التى أسماها من جاءوا بعد «ألفيوس» ، ويقال لنا ان كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها .

ولقد كان من سوء حظه ـ وان كان قد تحمل هذه الكارثة بصدر رحب ولم يلق بالا اليها ـ أن كانت بين معاصريه امرأة هى أشهر نساء اليونان أجمعين ونعنى بها سافو وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن تموت ومن أقوال استبايوس فيها : « وحدث مرة فى مجلس شراب أن أخذ اجزستيديس ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغانى سافو أعجب بها عمه إعجابا لم يسعه معه الا أن يأمر الغلام أن يعلمه اياها ولما سأله

أحد الحاضرين لم يطلب هذا الطلب ؟ أجاب بقوله : « انى أريد أن أتعلمها ثم أموت » ، وكان سقراط ــ ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه ــ يسميها « الجميلة » وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون ان ربات الشعر تسع ألا ما أكثر غباءهم
فليعلموا أن سافو اللسبوسية هي العاشرة

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة لأنى لا أعرف أن قد وجدت في جميع العصور التي وصل الينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ في قرض الشعر ٠ وكما أن الأقدمين اذا ذكروا لفظ « الشاعر » فانما يعنون بهذا اللفظ هومر كذلك كان العالم اليوناني كله اذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم ٠

وقد ولدت بسافا كما كانت تسمي نفسها بلهجتها الايولية الرقيقة في ارسوس من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق٠م ، ولكن أسرتها انتقلت الى متليني وهي لاتزال في المهد وكانت في عام ٥٩٣ بين الاشراف الذين ائتمروا ببتاكوس والذين نفاهم الى مدينة بيرا ، ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن في الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة وبقول الشعر ولم تشتهر بجمالها ، فقد كانت صغيرة الجسم ضعيفة البنية وكان شعرها وعيناها وبشرتها أشد سوادا مما يحبه اليونان ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ورقتها ودماثة أخلاقها وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تخفي رقتها وحنانها ومما قالته هي عن نفسها « ان قلبى كقلب الطفل » ويستدل من شعرها على أنها كانت ذات عواطف جياشة وأن ألفاظها كما يقول بلوتارخ « كانت تمتزج باللهب » ، وكانت مرهفة الحس الى حد ما وكان هذا سببا في الحد من حماسة عقلها وقد وصفها أنيس تلميذها المقرب اليها بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والارجوانية وتتوج رأسها بالزهر وما من شك في أن قوامها النحيل قد أكسبها ملاحة وجاذبية وشاهد ذلك أن ألفيوس الذى نفي معها الى بيرا أرسل اليها مسرعا رسالة عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ياذات التاج القرنفلى ياطاهرة ياذات الابتسامة الحلوة أريد أن أحدثك في أمر ولكن الحياء يمنعنى أن أنطق به » ٠ جوابها أقل غموضا من اقتراحه « لو كانت رغبتك طيبة ونبيلة ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو دنىء لما أسدل الحياء على عينيك غشاوة ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة » وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها في قصائده وأناشيده ولكننا لا نعرف أن صلة غير هذه الصلة عقدت أواصرها بينهما ولعلهما قد افترقا حين

نفيت سافو للمرة الثانية وكان سبب نفيها أن بتاكوس قد خشى قلمه بعد نضوجه . فنفاها فى هذه المرة الى صقلية وكان ذلك فى أغلب الظن عام ٥٩١ وهى فى سن يكاد الانسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع ان تؤذى انسانا وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من اندروس وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية هى كليس قرة عينى التى لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة » وما من شك فى أنها كان فى وسعها أن ترفض ما فى ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته المبكرة وعادت الى لسبوس بعد أن أقامت فى منفاها خمس سنين وأضحت زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية فى الجزيرة وانا لنلمح بهرج الترف فى احدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن فى علمكم أنى أحب الحياة اللينة وأرى أن النور والجمال مما تشتهيه النفس » . وأضحت وثيقة الصلة بأخيها الأصغر كركسوس شديدة التعلق به وغضبت أشد الغضب حين شغف فى احدى سفراته التجارية الى مصر بحب محظية تدعى دريكا ثم تزوجها ضاربا بتوسلات أخته عرض الحائط .

وفى هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل فى قلبها ذلك أن نفسها تاقت الى الحياة النشيطة فأنشأت مدرسة للفتيات تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص كانت هى أولى « مدارس صقل » الفتيات فى التاريخ كله . ولم تكن تسـمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن الرفيقات وأحبت سافو ــ وكانت وقتئذ أرملة ــ وقد قالت فى احدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز الحب قلبى كما تهز الريح القوية أشجار البلوط » ، وتقول فى احدى القطع الأخرى : « لقد أحببتك يا أثيس من زمن بعيد حين كانت أوثتى كلها أزهارا وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن تقبلت أثيس حب شاب من متلينى عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو فيها قوة العاطفة .

وأخرج والد أثيس إبنتهما من المدرسة ولدينا رسالة تعزى الى سافو نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أثيس ؟) بكاء مرا لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أتعس حظنا ! وأقسم لك يا سافو أن فراقى اياك كان على الرغم منى » فأجبتها : « سيرى فى طريقك منشرحة الصدر ولكن اذكرينى لأنك تعرفين مقدار هيامى بك فاذا لم تذكرينى فانى سأذكرك بما تنسين الا ما أعز وأجمل الأيام التى قضيناها معا لقد كنت تزينين غدائرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت الى جانبى وتزينين جيدك الرقيق بعقود مجدولة من مئات الأزهار وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت اهابك الأبيض

العصي وأنت بين ذراعي ولم يكن في المكان كل تل أو موضع مقدس أو غدير ماء لم نذهب اليه ولم تملأ الأصوات الكثيرة في بواكير الربيعة غابة من الغابات ينسجم العناديب الا ذهبت اليها معي » .

وتأتي بعد هذه الأغنية في نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن أرى أتيس بعد اليوم ولا فرق عندي بين هذا وبين الموت » ان هذا بلا ريب هو صوت الحب الصـــــادق الذي يعلو الى ذروة الوفاء والجمال ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقا عن « الحب اللسبوسي » أو أنها لم تكن الا تدريبا للخيال ولتجسيم المعاني المجردة ولكنا لا شأن لنا بهذا وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالعاطفة قوى الخيال يبلغ حد الكمال في لفظه ومبناه وفي قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهر » وفي قطعة أخرى حديث عن « الحب الذى يفكك الأعضاء والعذاب المر — الحلو » وتشبيه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التي تحمر على طرف الغصن على الطرف الأعلى للغصن والتي سها عنها الجاني لا لم ينسها بل انه لم يستطع لعلوها أن يصل اليها » وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب واستخدمت فيها بحورا من الشعر بلغ عدد ما بقي لنا منها خمسين بحرا وقد لحنت هي بنفسها أغانيها ووقعتها على العود وجمع شعرها في خمسة دواوين تحتوى نحو ألف بيت ومائتين بقي منها ستمائة يندر أن تكون متتالية . وحدث في عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة في القسطنطينية وروما باحراق سافو وألفيوس علنا . وفي عام ١٨٩٧ كشف جرنفل وهنت في اكسرنكوس بمديرية الفيوم توابيت مصنوعة من طبقات من الورق استخدمت في صناعتها قطع من كتب قديمة وجدت عليها بعض قصـــائد ســـــافو .

وقد ثار ذكور الأجيال التالية لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها أو اخترعوا من عندهم قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب وثمة فقرة في معجم سويداي تروى كيف قفزت « العاهرة سافو » — وهو الوصف الذى توصف به الشاعرة عادة — من فوق صخرة في جزيرة لوكاس قفزة قضت بها على نفسها لأن البحار فاؤون لم يستجب لحبها . ويشير مناندر واسترابون وغيرهما من الكتاب الى هذه القصة ويرويها أرفيد في تفاصيل جميلة . ولكننا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال وخليق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بين الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة ان سافو عاشت فتملت حب الرجال ، ونجد في القطع

الصغيرة التى كشفت من أشعارها فى مصر جوابا لها مؤثرا ردت به على اقتراح رضه عليها بعضهم بأن تتزوجه فقالت : « لو أن ثديى قد بقيا قادرين على ارضاع الأطفال ولو أن رحمى قد بقى قادرا على حملهم لجئت الى فراش الزوجية بقدمى مرتجفتان ولكن الزمان قد خط على جسدى خطوطا كثيرة والحب لا يسرع الى بما يحمله من هدايا الآلام » ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سنا . وفى الحق اننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها وكل الذى نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية والشعر الرائع واللطف والدعة وانها بزت ألفيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتا ، وتراها فى آخر قطعة لها تلوم فى غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« انكم يا أطفالى تجللون بالعار هبات ربات الشـــعر القيمة حين تقولون : « سنتوجك يا سافو الحبيبة يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغانى وأشجاها ألا تعرفون أن اهابى كله قد تجعد من طول العمر وأن شعرى قد استحال من أسود الى أبيض ؟ .. وكما أن الليل ذا النجوم يخلف حتما الفجر ذا الذراع الوردية وينشر الظـــلام فى طول الأرض وعرضها كذلك يقتفى الموت آثار كل حى ويمسك بتلابيبه آخر الأمر » .

★★★

افروديت راعية جمال المرأة

كانت سافو وفتياتها يحرصن دائما على الاحتفال بالالهة افروديت والالهات التابعات لها أعني الهات الرشاقة وربات الفنون وان لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة فقد كن يؤهلن أنفسهم للزواج وكان عندما يأتي تكتب لهن سافو أغنيات الزفاف وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن ولكن حتى يحين هذا اليوم فقد كن يعشن حياة منعزلة بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر وأفكارهن وعواطفهن كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو وقد أشرفت سافو على رغباتهم الناضجة وتمكنت من توجيهها الوجهة الصالحة بأن تسللت فى نفوسهن بالتعاطف معهن وبالفهم الصادق لمشاعرهن واحساسها العميق بضرورة انجذابها نحوهن وما بقى لنا من أشعارها يبين لنا الى أى مدى دخلت سافو حياة فتياتها وكم كانت تبادلهن الحب والمودة وكيف استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن ٠

قد لا يستطع البعض من وجهة النظر الحديثة تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديرا صحيحا فلم تكن العقيدة فيها شعورا ذاتيا بالجمال بل عبادة حقيقة لالهة تؤمن بها ســـافو وفتياتها كل الايمان اذ كانت افروديت الهة موجودة فى نظر سافو وفتياتها ، وعبادتهن لها كانت تفرض عليها اتخاذ موقف معين تجاه الحياة وكانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ومن ثم فان جمال من يعبدنها أمر معروف به وجدير بالتكريم ، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على أنه سبيل للحب والاخلاص ٠ ان عقيدة الجمال هذه غالبا ما كان يساء توجيهها ولكن يبدو أنها كانت تطورا طبيعيا فى ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتي من الآلهة ومما لا شك فيه ان مثل هذه المجتمعات فى اسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات مثل ما كان يحدث فى الاحتفال بأعياد الالهة هيرا فى أوليمبيا، أما فى ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلا أبسط وأكثر اتصالا بالآلهة فلم يكن النشـــاط الأساسى فى الرياضــــة بل فى الغنـــاء ٠ كانت أفروديت تكرم ربات الفنون وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب الأغانى وكانت سافو تدرب الفتيات المكرسات لافروديت على الغناء ٠

كان شعر سافو يعنى أساسا بالحياة فى جماعتها فقد كانت تكتب فى مناسبات محدودة ولأفراد معينين وكانت أشعارها تعكس مشاعرها نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة ٠ ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من

أشعارها أن يحاول أولا أن يعرف الظروف التي كتبت فيها هذه القصيدة . قد يكون صـــوابا وهو أمر سهل ميسور تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف انسانية عامة ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لهم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيرا وهذا ما يجب أن ترى بوضوح فى القصيدة الأولى من كتابها الأول وهى عبارة عن أنشودة موجهة الى افروديت: « أى افروديت الخالدة ياذات العرش الوضاء يابنت زيوس يامدبرة الأمور اليك أتقدم بالضراعة : أى ملكتى لا تفعمى قلبى بالآلام والأحزان بل أقبلى الى هنا ان كنت قد استمعت من قبل الى صوتى ذات مرة عن بعد وأنت تطلبين من عل ان كنت قد تركت بيت أبيك الذهبى وأقبلت بعد ان ملكت زمام عربتك . ان بجعتيك المليحتين السريعتين قد أحضرتاك فوق الأرض المعتمة وهما ترفرفان بأجنحتهما القوية عبر السماء خلال الهواء وسرعان ما وصلتا وأنت أيتها المباركة والابتسامة تعلو وجهك الخالد قد سألت عم ألم بى ولماذا أدعوك وماذا فى قلبى الثائر أريده ان يحدث أكثر من أى شىء آخر : « من تلك التى تودين الآن أن يوقعها الاغراء فى حبك ؟ من تلك التى تلحق بك الأذى أى سافو ؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن فانها سرعان ما سوف تسعى اليك واذا كانت لا تتقبل منك هداياك فانها مع ذلك سوف تعطيك واذا كانت لا تحبك فانها سوف تقع سريعا فى هواك رضيت أم أبيت » . تعالى الى الآن كما فعلت من قبل وخلصينى من الهموم القاســـية وحققى كل ما يتطلع اليه قلبى حققى وكـــونى حليفتى فى المعركـــة » .

وانه لمن سوء الحظ لطبيعة سافو الغريبة وعبقريتها الفذة أن الشذرات الباقية من أشعارها محوطة بالغموض ومليئة بالأفكار المتضاربة فهى أحيانا لوذعية وأحيانا أخرى خيالية وفى بعض الحالات عاطفية ، بل وعاطفية جدا حتى لتبدو مرضية سوداوية،مما دعا البعض ممن لايتوخون الدقة فى اصدار أحكامهم الى اتهامها بالخلاعة والمجون واعتبارها امرأة ساقطة ، وهذا يتنافى تماما مع الاحترام الذى كان يبديه كتاب العصور القديمة أثناء حديثهم عنها فأرسطو يحدثنا عن تقدير معاصريها واحترامهم لها حتى ان حكومة بلدها قد مجدتها ونقشت صورتها على قطع العملة ويضعها سقراط فى مصاف الحكماء ولا يملك المرء عند سماع أغانيها الا أن يتوقف عن الشراب ويخفى كأسه خجلا وكان من دواعى الفخر لنساء عصرها ان يقال انهن كسافو فى الثقافة والحكمة وكتابة الشعر ولعل وجود سيدة ساقطة فى ليسبوس تحمل نفس اسم الشاعرة سافو من الأمور التى أدت الى اشاعة الخلط بين الشخصيتين عند بعض الرواة .

أما عظمتها كشـــاعرة فأمر يكاد يكون متفقا عليه من جميع الرواة والنقاد فقد رفعها البعض الى مصاف الآلهة واعتبرها الهة عاشرة لربات

الفنون التسع ، وأشعارها في رأى البعض الآخر تفوق كل شعر دبجه يراع امرأة كما يفوق شعر هوميروس كل شعر جاء على لسان رجل ، وكان من عادة سقراط ان يطلق عليها اسم « سافو الجميلة » أثناء حديثه عنها رغم أنها كانت ضئيلة وسمراء وذلك لجمال أشعارها وروعتها ، تلك الأشعار التي تمنى سولون الحكيم ذات يوم ان يحفظ بعضا منها ثم لتأت المنية ٠

ان طبيعة عواطف سـافو يمكن أن ترى بوضوح من هذه الابيات الرائعة التي تتحدث فيها عن فتاة رحلت عنها وتستعيد أيام حياتهما معا في شكل محادثة دارت بينهما قبيل الرحيل ٠

« اذن فاني لن أرى أثيس مرة أخرى » ٠

« اني حقا أود أن أموت لقد تركتني وهي تبكي بدمـوع غزيرة وقالت لي « واأسفاه كم نحن تعساء على الرغم مني ياسافو أرحل عنك أقسم لك » وأجبتها بهذه الكلمات : « اذهبي وابتهجي فقط اذكريتي فأنت تعرفين مدى شغفي بك وان كنت لاتذكرين فاني أذكرك بما نسيت أن أذكرك بالأوقات السعيدة البهيجة التي أمضيناها معا فكم من مرة وأنت بجانبي قد زينت خصل شعرك المتهدلة بجدائل من زهر البنفسج والورد البهيج وعقدت حول عنقك الرقيق قلائد من مئات الأزهار وضمخت جلدك البض وأنت في صدري بكثير من العطور الملكية الثمينة وكل ما تتمناه (فتاة ايونية ناعمة) حصلت عليه وأنت تجلسين على حشية لينة من مكان مقدس أو (جدول ماء) لم نذهب اليه ولم (يملأ) الربيع (المبكر) أية غابة بشدو (البلابل) المتنوعة (الا وتجولت فيها معي) ٠٠٠ » ٠

ان الالهة التي كانت سـافو وصويحباتها يقمن على خدمتهـا هي أفروديت ولكن التفاصيل الدقيقة للطريقة التي كانت تقدم بها طقوس عبادتها تكاد تكون مجهولة تماما وأفضل ما وجد فيما وصلنا من شعر سافو وله صلة بهذه الطقوس شذرة تتألف من أربعة أبيات (شذرة رقم ١١٧) تصف مذبحا من الأغصان نصب تكريما للالهة افروديت والهات الرشـاقة ٠

« ٠٠٠ أما أنت يا ديكا فانسجي بيديك الرقيقتين جدائل بديعة واجدليها معا بأغصان الزهور فان الالهة (أفروديت) تهتم بكل ما أبدعت زينته بالأزهار وكذلك ربات الرشـاقة المباركات يزداد استحسانهن له ولكنهن يتحولن عن كل الأشياء التي لا تتوجها الزهور » ٠

ويبـدو من هذه الأبيات أن طقوس الالهـة افروديت كانت تتم في الهواء الطلق وربما في أحد الأحراش المقدسة وهناك بيتان يؤكدان هذه الفكرة (شذرة رقم ١١٢) ٠

«لقد طلع البدر علينا واتخذت العذارى أماكنهن حول المذبح ...» .

كانت جيرينا وأثيس وأناكتوريا أحب الفتيات الى قلب سافو والقصيدة التالية تبين مدى شغفها بالأخيرة (شذرة رقم ٣٨) .

« في رأى البعض أن أحسن ما على الأرض السوداء جيش من الفرسان وفي رأى البعض الآخر جيش من المشاة وفي رأى غيرهم أسطول من السفن ولكن بالنسبة لى فهو من يحبه المرء ومن السهل توضيح ذلك لأى انسان فان هيلين التى كانت تفوق كل البشر جمالا فضلت على أفضل الرجال (وهو زوجها مينلاوس) من دمر كل شرف طروادة (باريس) دون أن تفكر مطلقا فى طفلتها (هيرميون) ووالديها الأعزاء ولكن أضلها الحب فجعلها تذهب بقلبها بعيدا فمن السهل دائما ان تستمال المرأة عندما تفكر باستخفاف فيما هو قريب وعزيز وهذا ما يجعلنى أتذكر الآن أناكتوريا التى رحلت عنا والتى أفضل سماع وقع خطاها الجميل ورؤية وجهها المشرق الوضاء على جميع عجلات ليديا الحربية ومشاتها المسلحين انى أعلم علم اليقين أن المرء لا يستطيع أن يحصل على الأكمل ولكن أن يرغب فيما يشاركه فيه غيره أفضل من أن ينساه » .

لم يلعب الرجال الا دورا ضئيلا فى حياة سافو ومن ثم لم يأت لهم ذكر فى أشعارها الا نادرا فقد جاء ذكر لأخيها خاراكسوس فى بعض الأشعار وقد حدثنا هيرودوت عن القصة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار . رحل خاراكسوس الى ناوكراتيس المستعمرة اليونانية فى دلتا النيل بمصر وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق عليها اسم رودوبيس ووقع فى غرامها وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها وعندما عاد الى وطنه عنفته أخته سافو على تصرفه هذا فى احدى قصائدها .

كانت ناوكراتيس احدى المراكز المهمة للتجارة اليونانية ومن المحتمل أن خاراكسوس كان قد رحل الى هناك لأمور تتعلق بتجارة النبيذ من ليسبيا، ولكن أهم ما فى القصة هو الجدية والصرامة التى قابلت بها سافو تصرف أخيها وان فى معارضتها لهذا التصرف الطائش مع امرأة من هذا النوع لدلالة أكيدة على رفعة مستوى سلوك سافو نفسها ولعل الاسم الذى عرفها به هيرودوت وهورودوبيس هو اسم الشهرة الذى كان يطلقه عليها المحبون والاسم الحقيقى وهو ما جاء ذكره فى أشعار سافو دوريخا واذا لم تكن القصيدة التى أشار اليها هيرودوت قد وصلتنا ، فقد وصلتنا على الأقل شذرات تشير فيها سافو بعداء الى دوريخا فقد جاء فى احدى الشذرات (رقم ٣٧) :

« أيتها القبرصية (افروديت) لعل دوريخا تجدك أكثر مرارة

ولا تفاخر مرة ثانية بقولها انها قد وصلت الى الحب الذى كانت تتوق اليه نفسها » .

لقد كان يكفي سافو أن تعيد اليها دوريخا حب أخيها لها وقد عبرت عن هذا الأمل بتمنيها لدوريخا أن تجد الحب مرا ومن المحتمل ان هذه الشذرة جزء من القصيدة التي أشار اليها أثينايوس بأن سافو عنفت فيها دوريخا لأنها نجلت وبر أخيها ، واذا كانت سافو تستخدم في الحديث عن دوريخا ألفاظا قاسية ، فانها سرعان ما تصفح عن أخيها . ولدينا شذرة هي افتتاحية لقصيدة ترجو فيها سافو لأخيها عودا حميدا الى الوطن وتعده بأنها ستغفر له كل أخطائه (شذرة رقم ٣٦) .

« أي عرائس البحر الشقراوات أرجو أن تسمحن لأخي أن يعود سالما وأن تحققن له كل رغبات قلبه الصادقة كما أرجو وقد زالت عنه كل أخطائه السابقة أن يصبح بهجة لأصدقائه وخطرا على أعدائه ولعل بيتنا لا يصيبه الخزى بسبب أي رجل كما أرجو أن يكون راغبا فى أن يجعل أخته تمتلىء فخرا به ، ولعله عندما يعود في يوم قريب ويعمل وهو في عز فرحة مواطنيه به على ازالة الألم المرير والكلمات الجارحة للشعور التى أصر قبل رحيله ان يملأ بها قلبي ولعله يحصل ان أراد على زوجة جديرة به وبعقد شرعي أما أنت أيتها الكلبة السوداء المؤذية (والمقصود بها دوريخا بلا شك) فلعل سموم شرك تذهب هباء وتسعين لاصطياد فريسة أخرى » .

لم يقتصر احتقار سافو لدوريخا بل تعداها الى أخريات فلدينا شذرة (رقم ٧٢) يقال انها موجهة الى امرأة غير متعلمة .

« عندما تموتين فسوف ترقدين فى عالم النسيان ولن يذكرك أحد لانك لم تقومي بدور تجاه الورد نتاج بيريا فهناك الظلام وفى الظلام سوف تجوسين في منزل الموت وتتجولين بين أشـــباح عديمة القيمة لا وزن لها » .

ولهذه الأبيات أهمية خاصية لأنها تطلعنا على رأي سافو بأن الخلود الحقيقى في كتابة الشعر والأغاني وهى أول من عبر عن هذا الاعتقاد . كانت سافو تؤمن بهذا الرأى ايمانا صادقا حتى انها كتبت بفخر ولكن ببساطة (شذرة رقم ٧٦) :

« انى أقول ان شخصا ما سيتذكرنا حتى فى الأيام المقبلة » .

كما تقول أيضا (شذرة رقم ١١) :

« ولكنى حصلت على النجاح الحق من الهات الفن الشقراوات وعندما أموت لن أصبح نسيا منسيا » .

ويحدثنا أرسطو بأن الكايوس هو الشخص الذى كتبت له سافو تقول (شذرة رقم ١١٩) :

« اذا كنت ترغب فيما هو عف ونبيل واذا كان لسانك لا يهفو الى قول ما هو سيىء فلن يملأ الحياء عينيك بل ستتحدث عنه بحكمة » .

وذلك ردا على أشعار لألكايوس يقول فيها (شذرة رقم ١٢٤) :

« أى سافو الطاهرة يا ذات الخصل البنفسجية والابتسامة العذبة بنفسى كلام أود لو أقوله لك ولكن الحياء يمنعنى » .

وربما جاء ذكر لزوجها فى بعض الأشعار المفقودة .

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان يتصل بحياتها الخاصة الا أن هناك بعض الشذرات التى لا علاقة لها بهذه الحياة .

من هذه الشـــذرات :

« ان من يبدو جميلا فهو جميل المظهر ولكن الفاضل سرعان ما يكون جميلا أيضا » (شذرة رقم ٥٨) .

« ان الثراء بلا فضيلة ليس رفيقا مأمون الجانب ولكنهما لو اجتمعا معا يكونان قمة الحظ السعيد » .

(شذرة رقم ١٠٠) :

« ان الموت بلاء هكذا يعتقد الآلهة على الأقل والا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد » .

(شذرة رقم ٩١) :

هذه هى سافو وهذه هى بعض الشذرات التى وصلتنا من أعمالها التى يقال انها كانت تملأ تسعة كتب ومن الواضح أنها كانت واثقة كل الثقة من نفســها وفنها وقد عاشت أشعارها كل هذه القرون الطويلة ومازالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التى كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة . ومن ثم فهى تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبتها الطبيعة حتى الآن فان ذوقها السليم وصدقها المتناهى فى التعبير وخيالها البديع وقوة عاطفتها لهى مميزات وهبتها لها الهات الفنون وربات الرشاقة فجعلن منها شخصية خارقة تفوق مستوى البشر ولذا نراها قد كرست حياتها وفنها لهن ، كما أن أشعارها تفوح دائما برائحة عبير وحيهن .

★★★

المعلقات السبع

أعظم شعراء العصر الجاهلي

٦٠٠ - ٥٥٠ م

هى أجود ما وصل الينا من الشعر الجاهلى وتسمى السموط أى العقود وأختلف الرواة فى عدد المعلقات وأصحابها فأبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب يجعلهم ثمانية ‥ وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة وعنترة ولكن الزوزنى جعل المعلقات سبعا ليس بين أصحابها النابغة ولا الأعشى وأضاف الحارث بن حلزة وأضاف أبو زكريا التبريزى فوق ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص - فصارت المعلقات وملحقاتها عشرا ‥ هذه أسماء أصحابها :

امرؤ القيس ـ النابغة ـ زهير ـ طرفة بن العبد ـ لبيد ـ عنترة ـ عمرو بن كلثوم ـ الحارث بن حلزة ـ الأعشى ـ عبيد بن الأبرص ·

وذكر أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وهو شارح المعلقات أنها سبع وأن بعضهم أضاف اليها قصيدتى النابغة والأعشى وان لم يعدهما من المعلقات وذكر ابن خلدون سبعة من أصحاب المعلقات فيهم علقمة ابن عبده لكنه لم يعين معلقته وسنأتى هنا على ترجمة من نسبت اليه معلقة معينة ‥ فان الشاعرية تجمعهم جميعا ·

اختلف أصحاب الأخبار فى شأن هذه المعلقات فى الجاهلية فقال بعضهم ان العرب بلغ من تعظيمهم اياها أن علقوها بأستار الكعبة وأنكر بعضهم ذلك وأكبروه وأقدم المنكرين أبو جعفر النحاس النحوى المتقدم ذكره فقد قال فى شرحه المعلقات بالنسخة الخطية الموجودة منه فى مكتبة برلين ما نصه : « واختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع وقيل ان العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الأشعار ‥ فاذا استحسن الملك قصيدة قال علقوها وأثبتوها فى خزائنى · فأما قول من قال انها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة وأصلح ما قيل فى هذا : « ان حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها وقال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ونقل ذلك عنه ابن الانبارى قال : « وهو (حماد) الذى جمع سبع الطوال هكذا ذكره أبو جعفر أحمد ابن محمد النحاس ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة » فهو يستغرب مخالفة النحاس لما ذكره الناس ·

والأكثرون يذهبون الى أنها علقت فى الكعبة · وهذا ابن عبد ربه كان معاصرا للنحاس المذكور وتوفى قبله (سنة ٣٢٨ هـ) قال : « وقد بلغ من كلف العرب به (بالشعر) وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد ميزتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستر الكعبة فمنه يقال مذهبة امرؤ القيس ومذهبة زهير · والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات وأيد ذلك كثيرون فى عصور مختلفة « وكانت المعللقات تسمى المذهبات وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان اذا كانت أجود شعره · ذكر ذلك غير واحد من العلماء وقيل : بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته » ، فترى أن ابن رشيق أميل الى القول بتعليقها لأنه ينسب القول بذلك الى « غير واحد من العلماء » ويضعف الرأى الآخر بقوله « وقيل » ·

أما ابن خلدون فانه يقطع بتعليقها ولا يذكر سواه وهذا قوله : « حتى انتهوا (أي العرب) الى المناغاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع » ·

وقد وافقهم أكثر العلماء والباحثين فى هذا الموضوع وانما استأنف انكار ذلك بعض المستشرقين من الافرنج ووافقهم بعض كتابنا رغبة فى الجديد من كل شيء ·

وأية غرابة فى تعليقها وتعظيمها بعدما علمنا من تأثير الشعر فى نفوس العرب وتعظيمهم لأصحابه ؟ أما الحجة التى أراد النحاس أن يضعف بها القول بتعليقها فهى غير وجيهة لأنه قال : « ان حمادا رأى زهد الناس بالشعر الخ » ، والحقيقة أن الناس لم يكونوا راغبين فى الشعر مثل رغبتهم فى أيامه ألم يكن الخلفاء يستقدمون حمادا هذا من العراق الى الشام ليسألوه عن بيت من قاله أو فيم قيل ؟ ·· واليك تراجم أصحاب المعلقات ومن يلحق بهم ·

امرؤ القيس

لم يذكر الشعر الجاهلي ولا المعلقات خاصة الا وذكر امرؤ القيس قد ملأ الأسماع وشغل أصحاب الروايات ، فلامرىء القيس شاعرية ينظر اليها جميع شعراء العربية المتقدمين والمتأخرين كشاعرية فذة يستحيل التحليق في سمائها شعر رائق حوى كثيرا من أنواع الشعر العربي وذكروا أنه قد استنبط كثيرا من الأساليب الشعرية التي تحداها الشعراء منها استيقاف الصحب في الديار ودقة الوصف واجادته على الخصوص في وصف الناقة والفرس ويقولون انه أول من شبه النساء بالظباء والمها والخيل بالعقبان وفرق بين النسيب وسواه من القصيدة وقرب مآخذ الكلام فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه ٠

هذه ميزات ينسبها أهل الأدب العربي الى هذا الشاعر الفحل وقد تكون موضوع فخر لشاعر أو سمة من سماته الفارقة ، وما على الأول أن العلل كاملا ٠ وقبل أن ندرس شعر امرىء القيس علينـــا أن ننظر في شخصيته وبعض النظر ومرجعنا في ذلك كتب الأدب القديمة بالاجماع ٠

حيـــاته :

امـــرؤ القيس هو آخـــر ملوك كندة أو بالأحرى هو ابن آخـــر ملوكهم فهو قحطـانى النسب نشــأ فى أعـالى الجزيرة وأصهر أبوه الى التغلبيين ونشأ امرؤ القيس بينهم ومن هناك أتاه الشعر عند أهل الأدب وامرؤ القيس هذا لم يهنأ بالملك ولا بالامارة فقد عاش حياة بذخ وخلاعة لم ترق لوالده فطرده فجعل ينتقل فى الأحياء مع أخلاط من شذاذ العرب فاذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يـوم وخـرج الى الصـيد فاصطاد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير فينتقل الى غيره وما زال كذلك حتى قتل بنو أسد أباه حجرا ومن هنا تبدأ حياة امرىء القيس الجدية وحياة ملؤها الأهوال تكتنفها المصاعب : رجل يبكى أمله الضائع ويشرئب الى تاجه الذى ذهبت به المطامع والضعف فيقولون انه هب للأخذ بالثأر فذهب الى عرب الجنوب القحطانيين يستنجدهم ، وقد ذهبت دولتهم فخذلوه ووقف له ملوك الحيرة بالمرصاد فألبوا عليه القبائل حتى أصبح شريدا طريدا يستنجد بقبيلة فلا يلبث أن يأتيها أمر الملك اللخمى فيغادرها وفى القلب ما فيه الى أخرى حتى أفضت به الحال الى

السموأل اليهودى صاحب الأبلق الفرد فى تيماء وهذا أوصله الى ملوك آل جفنة فزودوه بوصاة الى ملك الروم وهناك كاد يظفر ببغيته وقد أرسل معه القيصر جندا يظاهره على أعدائه ويعيد له تاجه ولكنه قضى قبل ان يبلغ العربية فمات فى أنقره .

هذا ملخص تاريخ شاعرنا الآن وفيه ما فيه من الغموض ومواضع الشك ولكن حياة هؤلاء الشعراء الأولين غامضة تحول حولها الظنون فمن يستطيع أن يأتينا بتاريخ موثوق به لجاهلية الأقوام كاليونان والرومان ؟ واذا تعدينا ذلك الدور فهذه جاهلية الفرنسيين والانجليز والألمان فمن يستطيع أن يأتينا بصورة حقيقية تاريخية لا تقبل الشك عن تلك العصور المظلمة ؟ فاذا قبلناها نقبلها لا كتاريخ موثوق به بل كقصة وضع عليها شعر يسمونه جاهليا وأصبح قاعدة لأدب اللغة فعلينا أن نتفهمها لنسلك هذا الطريق القويم .

شـــعره :

امرؤ القيس الشاعر الذى يعنينا أمره وقد بسطنا حياته يمثل لنا برجل العاطفة والانفعالات النفسية وما يشتق من هذه من حنين الى الصحب وعطف على الخلان وذكريات أليمة لعز ماض وعصره رفاه وأيام صبى لذيذة وما يحوم حولها من مقدرة شاعرية تحلق فى سماء الخيال .

★★★

معلقتـــه :

أما معلقته فقد نظمها فى وصف واقعه جرت له مع حبيبته وابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل اذ حظر عليه لقاؤها ولعلهم منعوه منها لما كان من رغبته فى الشعر أما هو فكان ينتهز الفرص لملاقاتها .. فاغتنم فرصـــة ظعن الحى وكانوا اذا ظعنوا مشى الرجال أولا ثم النساء فتخلف امرؤ القيس عن الرجال وتربص حتى ظعنت النساء وكان فى طريق الظاعنين غدير يسمى دارة جلجل فى منازل كندة بنجد . فسبقهن امرؤ القيس الى الغدير وفيهن عنيزة فنزعن ثيابهن ونزلن فى الماء فبرز هو من مخبئه وجمع الثياب وجلس عليها وحلف : لا يعطى الواحدة منهن ثيابها الا اذا خرجت اليه عارية فخرجن وبقيت عنيزة وأقسمت عليه أن يعدل عن شرطه فأبى والح عليها أن تخرج فخرجت ثم دفع اليها ثيابها فلبستها واجتمع النسوة عليه وأخذت يعنفنه وقلن له : « انك أخرتنا عن الحى وجوعتنا » فقال : « سأعقر لكن راحلتى تأكلن منها » فعقرها وأتين بالحطب وجعلن يشوين اللحم حتى شبعن وكان معه ركوة فيها خمر فسقاهن منها .. فلما ارتحلن حملن أمتعته على رواحلهن وبقى هو لا مركب له فقال لعنيزة :

« لابد لك من أن تحمليني » وساعده صواحبها على طلبه فحملته على مقدم هودجها فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويحادثها ثم نظم معلقته ومطلعهـــا :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجته من جنوب وشمال
ترى بعر الآرام في عرصاتها ... وقيعانها كأنه حب فلفل
كأني غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفا بها صحبي على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى فتجمل
وان شفائي عبرة ان سفحتها ... وهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها ... وجارتها أم الرباب بمأسل
ففاضت دموع العين مني صبابة ... على النحر حتى بل دمعي محملي
الا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتي ... فيا عجبا من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات انك رجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري وارخي زمامه ... ولا تبعديني عن جناك المعلل
افاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وان كنت قد أزمعت صرمي فاجملي
وان كنت قد ساءتك مني خليقة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
اغرك مني أن حبك قاتلي ... وانك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربي ... بسهميك في اعشار قلب مقتل

★★★

وصف بها ما تقدم أحسن وصف ، وهي مدرجة مع سائر المعلقات في كتاب شرح عدة شروح ، أما سائر أشعاره فانها جمعت في ديوان منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وقد طبع في باريس سنة ١٨٣٧ وفي غيرها وقد شرحه البطليوسي النحوي المتوفى سنة ٤٩٤ هـ وطبع الشرح بمصر سنة ١٢٨٢ هـ وللنحاس شرح للمعلقة طبع في هال سنة ١٨٧٦ .

وقد ترجمت معلقته الى اللغة الروسية وطبعت مع الأصل العربي في بطرسبورج سنة ١٨٨٥ بعناية موركس .

وتجد كثيرا من أشعار امرىء القيس وأخباره في كتاب الأغاني ٦٢ج٨، ١٩ج٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧ وفي شرح المعلقات وفي كتاب الشعراء الستة الجاهليين طبع لندن سنة ١٨٧٠ وخزانة الأدب ٥٣٢ج٣ وفي شعراء النصرانية الصفحة السادسة ، وفي جمهرة أشعار العرب ص ٣٩ وفي أكثر كتب الأدب والتاريخ .

زهير بن أبى سلمى

وهو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء وهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة وانما اختلفوا فى تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه . وكما امتاز امرؤ القيس باستنباط الأفكار والأساليب وتلطيف المعانى ، فقد امتاز زهير بما فى نظمه من الحكمة البالغة وكثرة الأمثال مع القدرة على المدح وهو لا يعاظل (١٩) فى الكلام ويتجنب وحشيه ولا يمدح أحدا الا بما فيه ، وكثيرون يفضلونه على صاحبيه ويقولون انه أحسنهم شعرا وأبعدهم عن سخف وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ .

وهو من مزينة احدى قبائل مصر وكان يقيم هو وأبوه وولده فى منازل بنى عبد الله بن غطفان بالحجاز من نجد وأول من نزل هناك منهم أبوه أبو سلمى لأنه تزوج من بنى قهر بن مرة بن ذبيان بن غطفان فولدت له زهيرا وتزوج زهير امرأة من سحيم بن مرة ولذلك كان زهير يذكر فى شعره ابن مرة وغطفان ويمدحهما،وكانت لزهير أخلاق عالية ونفس كبيرة مع سعة صدر وحلم .. فرفع القوم منزلته وجعلوه سيدا وكثر ماله واتسعت ثروته وكان مع ذلك عريقا فى الشاعرية فكان أبوه شاعرا وكذلك خاله وأختاه وابناه ، وكان لشعره تأثير كبير فى نفوس العرب وكان مقربا من أمراء ذبيان وخصوصا هرم بن سنان والحارث بن عوف وأول قصيدة نظمها فى مدحهما معلقته المشهورة والتى قالها على اثر مكرمة أتياها بحقن الدماء بين عبس وذبيان :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم
ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجيع وشم فى نواشر معصم
بها العين والآرام يمشين خلفه ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلا يا عرفت الدار بعد توهم
اثافى سعفا فى معرس مرجل ... ونويا كجذم الحوض لم يتثلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها ... الا انعم صباحا أيها الربع واسلم

وبعد ذلك يصف سير ظعائن أحبابه :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن ... تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بانماط عتاق وكلة ... وراد حواشيها مشاكهة الدم

جعلن القنان عن يمين وحزنه — وكم بالقنان من محل ومحرم
ظهرن من السوبان ثم جزعنه — على كل قيني قشيب ومفام
ووركن في السوبان يعلون متنه — عليهن دل الناعم المتنعم
كأن فتات العهن في كل منزل — نزلن به حب الفنا لم يحطم
بكرن بكورا واستحرن بسحرة — فهن ووادي الرس كاليد في الفم
فلما وردن الماء زرقا جمامه — وضعن عصى الحاضر المتخيم
وفيهن ملهى للطيف ومنظر — أنيق لعين الناظر المتوسم

فانظر الى هذه الصور التي يتبع بعضها بعضا والى هذا الوصف الدقيق وهذه التشابيه التي تطمئن اليها الحواس ثم يبدأ بمدح الأميرين المصلحين :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما — تبزل ما بين العشيرة بالدم
فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله — رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما — على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعد ما — تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا — بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن — بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديتما — ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
تعفى الكلوم بالمئين فاصبحت — ينجمها من ليس فيها بمجرم
ينجمها قوم لقوم غرامة — ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
فأصبح يجري فيهم من تلادكم — مغانم شتى من افال مزنم

ثم يقف الشيخ ناصحا لهم ليتركوا الحرب ويصف أهوالها الشديدة على طريقته التصويرية :

الا أبلغ الاحلاف عني رسالة — وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في صدوركم — ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر — ليوم حساب أو يعجل فينقم
وما الحرب الا ما علمتم وذقتم — وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة — وتضر اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها — وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لك غلمان اشام كلهم — كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وبعد أن يذكر غدر حصين بن ضمضم ويعتذر عن عمله يختمها بتلك الأقوال الحكمية الخالدة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
واعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن يخطىء يعمر فيهرم
ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وان يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
وكاين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
وان سفاه الشيخ لا حلم بعده وان الفتى بعد السفاهة يحلم
سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

وبعد ذلك جعل يمدحها وقومها ويعيد كثيرا من معانى هذه المعلقة .

طــرفه بن العبد البكرى

جاء لقبه في كتاب الأدب « الشاب القتيل » ولشعره مقام يعرفه الأدباء فهو على ما وصل الينا من الطبقة الثانية وما كان لتأخيره عن الطبقة الأولى عذر لولا قلة ما وصل الينا من شعره ، فان ابن سلام صاحب الطبقات لم يذكر أنه يعرف له الا قصائد قليلة أشهرها التى مطلعها :

لخــولة أطــلال ببرقة ثمهــد　　وقفت بها أبكي وأبكى الى الغـد

وتليها أخرى مثلها مطلعها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر　　ومن الحب جنــون مستعر

ولكن ما فات ابن سلام أفاضه علينــا الأدباء المتأخرون ، وجاؤونا بنبذة من شعره لا يستطيع المطلع عليها الا أن يحلها المقام الأول فى شعر الجاهلية فشعر طرفة شعر خالد متفاوت النزعات لا تستطيع أن تفهمه حتى تقف على شيء من حياة الشاعر فلنلم بها .

حياتـــه :

طرفة لقب غلب عليه واسمه على الأشهر عمرو وهو بكرى النسب وربما شهد بعض أيام البسوس وان لم يذكرها الا قليلا فى شعره . مات أبوه وهو صغير ، وربما كان أكبر اخوته أو أن يكون أخوه معبد أكبر منه وعليه فقد ربى طرفة فى أعالى العربية فى منــازل البكريين على الخليج الفارسى ، وترى فى شعره أن حياته فى هذا الدور كانت مضطربة فهي حياة صبى عاش أكثر حياته نظيرها ويقول ان أعمامه هضموا حقه وبذر الباقي غدا طريدا شريدا كما يقول « وأفردت افراد البعير المعبد » ، ولا يوضح التاريخ هذه النقطة من حياته ، بل على الأغلب وبالاجتهاد كما يرى فى شعره أنه كان شريدا طريدا ينشد الشعر على هواه وقد يفد على بعض القبائل كما يظهر من المدائح فى ديوانه ثم عاد الى قبيلته وهناك ظهر مع الرعيان ويقولون انه ضيع ابل أخيه معبد وهذا لامه جدا وهزأ به وبشعره وعند ذلك غضب طرفة وآلى على نفسه أنه سيعيد ابل أخيه بشعره ثم ظهر طرفة فى بلاط عمرو بن هند بالحيرة ويذكرون معه في هذا العصر خاله جرير ابن عبد المسيح الملقب بالمتلمس وانهما لزما بلاط عمرو بن هند ومدحاه كثيرا فأجازهما وجعل طرفة يرتاد حوانيت الحيرة ويستسلم الى هواه وهو بعد فى العشرين من عمره وأخيرا ألحقه ابن هنــد مع خاله بولى العهد قابوس وهو أخو الملك وكان هذا الأمير محبا للصيد فكانا يذهبان

معه ثم يعودان وقد أعياهما الجهد ، فينطرحان ولا يبالى بهما حتى غضب طرفة مرة وهجاه هجاء مرا انتهى الى الملك فغضب الملك غضبا شديدا فكتب الى عامله فى البحرين وسلمهما ، أى طرفة والمتلمس ، رسالتين مضمونهما أن اقتلهما ويقولون ان المتلمس فطن الى ما في صحيفته وان أحد صبيان الحيرة قرأها له فرماها فى أحد فروع الفرات ونجا الى الشام أما طرفة ـ وقيل ان خاله حذره ولم يرعو ـ فأنفذ رسالته الى العامل فقتله وهو على أكثر تقدير ابن ست وعشرين سنة .

المعلقـــة :

المعلقة هى خير ما قال طرفة أو ما وصل الينا من شعره ومن ينظر اليها يجدها كسائر المعلقات ليست فى موضوع واحد فهى تختلف مواقفها ومظاهرها حتى انشاؤها وفى هذا الاختلاف ما جعل الكثيرين من الرواة يختلفون فى تقديم بعض أبياتها على بعض وقد شك البعض فى نسبتها كلها الى طرفة وربما كان أسير بيت أضيف اليها هو :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقـارن يقتـدى

وهو باجماع الرواة ليس من المعلقة ولم نطـلع على أقوال الرواة الاقدمين فيها ، ولكن على ما يظهر هى مقاطع متفرقة نظمها طرفة فى غير موقف من مواقف الحياة ورأى الرواة أن هذه المقاطع على بحر واحد وروى واحد فقرنوها الى بعضها فبينا ترى فيها وصف اطلال خولة ثم وصف خولة نفسها تراه يعكف الى ناقته ويصفها وصفا دقيقا يعجز عنه أئمة شعراء الإبل حتى قد يتلبس على بعض العلماء فيظنون أنه يصف امرأة لا ناقة . ثم تراه يصف نفسه ومجلس لهوه ويذكر بعض آراء له فى الحياة والموت ثم يعطف على عمه أو الموصى عليه ويعـاتب ابن عمه مالكا ويتخلص الى وصف نفسه وشجاعته ، ثم يوصى لابنة أخيه أن تنعاه بما هو أهله الى ما هنالك من اختلاف فى المواضيع . والمتعمق يرى أن هذه المواقف تختلف روعة واعجابا وشاعرية فهو فى فخره بنفسه عزيز الجانب فخم الكلام سلسه ، وفى عتابه لا يحتاج الى تأويل بل هو يرسل قريحته على سجيتها فيصيب موضع الداء ثم يعطف على الدهر ولومه ويصرخ بملء فيه :

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد
ولو شـــاء ربى كنت عمرو بن مرثـــد

وان وصف ناقته فهناك الكلام البدوى الذى لا يستغنى فى فهمه عن معاجم اللغة فهو يشبهها تارة بالقصر وطورا بالسفينة الى ما هناك من أوصاف الجاهلية ويتخذ أجزاءها جزءا جزءا يشبه كلا منها بما يبين له

من مظاهر البداوة وما يسمع عن الحضارة فى جوار العربية فهى من هذه الجهة أصدق أمثال لحياة العرب فى الجاهلية منها نعلم كثيرا مما خفى علينـا ومتى علمنا أن كل جزء من هذه القصيدة نظم على حدة ، لا نعجب للجمع بين أجزائها وبعد هذه المقدمة نذكر قسما منها وهى تزيد على مئة بيت :

لخـولة أطـلال ببرقة ثهمـد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفـا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجـلد

وقد وافق امرأ القيس فى هذا البيت الا فى قافيته :

كأن حـدوج المالكية غـدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب المـاء حيزومها بها كما قسم الترب المفائل باليد

ثم يصف خولة متدرجا حتى يصل الى وصف ناقته :

وانى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجـاء مرقال تروح وتغتدى
كقنطرة الرومى أقسـم ربهـا لتكتنفن حتى تشـاد بقرمـد
لها مرفقـان أفتـلان كأنما تمـر بسلمى دالج متشـدد
لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابـا منيـف ممـرد
صيهابية العثنون مؤجدة القرا بعيـدة وخد الرجل موارة اليد

الى أن يقول فى وصفها وهو من التشابيه النادرة :

وجمجمة مثـل العـلاة كأنمـا وعى الملتقى منها الى حرف مبرد
وخد كقرطاس الشـآمى ومشـفر كسبت اليمـانى قده لم يجرد

وبعد أن يصف جسمها وأجزاءها يصف سيرها فيقول :

وان شئت لم ترقل وان شئت أرقلت مخافة ملوى من القد محصد
وان شئت سامى واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجـاء الخفيـدد
على مثلها أمضى اذا قال صـاحبى ألا ليتنى أفديك منها وافتدى
وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غـير مرصد

وبعد أن وصف نفسه كما مر فى نفسيته ويصف موقفه من عمه يعطف الى وصف نفسه فيقول :

كريم يروى نفسه فى حياته ... مخافة شرب فى الممات مصرد
فذرنى ارو هامتى فى حياتها ... ستعلم ان متنا صدى اينا الصدى
لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد
ارى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غوى فى البطالة مفسد
ارى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد
ارى الموت اعداد النفوس ولا ارى ... بعيدا غدا ما اقرب اليوم من غد
ارى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
فمالى ارانى وابن عمى مالكا ... متى ادن منه ينا عنى ويبعد

الى أن يقول :

فلو كان مولاى امرءا هو غيره ... لفرج كربى او لانظرنى غدى
ولكن مولاى امرؤ هو خالقى ... على الشكر والتسآل او انا مفتد
فظلم ذوى القربى اشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فاصبحت ذا مال كثير وزارنى ... بنون كرام سادة لمسود

الى أن يقول فى ختامها :

فان مت فانعينى بما انا اهله ... وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرئ ليس همه ... كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى
بطىء عن الجلى سريع الى الخنا ... ذليل باجماع الرجال ملهد
فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى ... عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الرجال جراءتى ... عليهم واقدامى وصدقى ومحتدى
لعمرك ما امرى على بغمة ... نهارى ولا ليلى على بسرمد
ويوم حبست النفس عند اعتراكها ... حفاظا على عوراته والتهدد
على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترك فيه الفرائص ترعد
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتا ولم تضرب له يوم موعد

***

لبيد بن ربيعة العامرى

هو لبيد بن ربيعة العامرى (من قيس) وكان من أشراف الشعراء المجيدين والفرسان المعمرين • يقال انه عمر ١٤٥ سنة ، عاش معظمها فى الجاهلية وقد أدرك الاسلام وأسلم وهاجر وحسن اسلامه ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب فأقام بها حتى مات فى أوائل خلافة معاوية• فكان عمره ١٤٥ سنة منها ٩٠ فى الجاهلية وكانت الشاعرية ظاهرة فى عينيه منذ صباه ••• ذكروا أن النابغة رآه وهو غـــلام جاء مع أعمامه الى النعمان ابن المنذر فتوسم فيه الشاعرية فسأل عنه فنسبوه فقال له : « يا غلام ان عينيك لعينا شاعر افتقرض من الشعر شيئا ؟ قال : « نعم ياعـم » قال : « فأنشدنى » فأنشده قوله : « ألم ترجع على المدمن الحوالى الخ » • فقال له : « يا غلام أنت أشعر بنى عامر زدنى » فأنشده قوله : « طلل لخولة فى الرسيس قديم » فضرب بيده على جبينه وقال : « اذهب فأنت أشعر قيس كلها » •

وأكثر شعره فى الجاهلية لأن الخلفاء الراشدين شغلوا الناس عن الشعر بالقرآن • ذكرو أن عمر بن الخطاب بعث الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يقول له : « استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الاسلام » فأرسل الى الأغلب الراجز العجلى ، فقال له أنشدنى فقال :

أرجـــزا تريـــد أم قصـيدا   لقـد طلبت هينـــا موجودا

ثم أرسل الى لبيد ، فقال : « أنشدنى ما قلته فى الاسلام » فكتب سورة البقرة فى صحيفة أتى بها وقال : « أبدلنى الله هذا فى الاسلام مكان الشعر » فكتب المغــيرة بذلك الى عمر فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها فى عطاء لبيد •

فمعظم ما يروونه من شعره قيل فى الجاهلية وكان من أجود العرب ويقال انه آلى على نفســه فى الجــاهلية ألا تهب صبا الا أطعم ، وكانت له جفنتان يغـدو بهما ويروح كل يوم على مســـجد قومه فيطعمهـم فهبت الصبا يوما والوليد بن عقبة فى الكوفة فصعد الوليد المنبر فخطب الناس ثم قال : « ان أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر فى الجاهلية ألا تهب صبا الا أطعم وهذا يوم من أيامه قد هبت صبا فأعينوه وأنا أول من فعل » ثم نزل عن المنبر فأرسل اليه بمائة بكرة ، وكتب اليه بأبيات قالها :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه　　اذا هبت رياح أبى عقيل
اشم الأنف اصيد عامرى　　طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بحلفتيه　　على العلات والمال القليل
بنحر الكوم اذ سحبت عليه　　ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فلما بلغت أبياته لبيدا قال لابنته : « أجيبيه فلعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر » فقالت ابنته :

اذا هبت رياح أبى عقيل　　دعونا عند هبتها الوليدا
اشم الأنف أروع عبشيما　　اعان على مروءته لبيدا
بامثال الهضاب كان ركبا　　عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا　　نحرناها فاطعمنا الثريدا
فعد ان الكريم له معاد　　وظنى لا أبا لك أن تعودا

فقال لها لبيد : « قد أحسنت لولا أنك استطعمته » ، فقالت : « ان الملوك لا يستحى من مسالتهم » فقال : « وأنت يا بنية فى هذه أشعر » .

ومما يستجاد من قوله قصيدة مطلعها :

الا كل شيء ما خلا الله باطل　　وكل نعيم لا محالة زائل

ويقال انه لم يقل فى الاسلام الا بيتا واحدا هو :

الحمد لله أن لم ياتنى اجلى　　حتى لبست من الاسلام سربالا

***

معلقته :

ربما كانت معلقة لبيد من أوضح الدلائل على عدم تعليق هذه القصائد على أستار الكعبة ، فقد تعمد ابن هشام وخاصة كل كتاب السيرة النبوية على العموم تدوين كل شاردة فى زمن النبوة أو بالأحرى فى زمن النبى قبل النبوة وبعدها يشمل ذلك تاريخ القريشيين يوما بيوم وسنة بسنة ، مع ذكر كل ما يختص بموضوعه وكل حوادث تلك الأيام مدة ما ينيف على ستين سنة تهم كتبة السيرة وجميعهم لم يذكروا أن لبيدا علق قصيدته هذه أو غيرها على أستار الكعبة ولا أخال أحدا من كتبة السيرة لم يكن يهمه هذا الأمر فينتج من ذلك أن هذا الزعم لم يكن له من أثر فى عهد النبوة ولكن سواء علق لبيدا معلقته على الأستار أم لم يعلقها فلم يشك أحد فى نسبة هذه القصيدة اليه وذكروا أن أهل الأدب والشعر كانوا

يرونها وكانوا يعجبون بها وبعضهم كالفرزدق مثلا سجد عندما سمع قائلا يقول :

وجلا السيول عن الطلول كأنها   زبر تجد متونها أقلامها

ونالت هذه المعلقة عند أشهر شراح المعلقات المنزلة الرابعة وهي كما وصلت الينا ٨٨ بيتا يصف فيها كعادة أصحاب المعلقات الديار المقفرة والأطلال البالية ووقوع الأمطار عليها وما فعلته بها ويخلص الى ذكر حبيبته بعد سؤال الاطلال عن أهلها ووصف ارتحالهم ثم يلوم نفسه على تعلقه بمن صرم عهده ويعود الى وصف الناقة فيجيد ما يشاء ويصفها بالغمامة تارة وبالاتان الوحشية أخرى وبالبقرة الوحشية وقد افترس السبع ولدها ثم بعد أن يقتضب ذكر حبيبته نورا يعود فيصف اباءه ولهوه وشربه الخمر وبطشه وسرعة جواده ويلمح الى المناظرة في مجلس النعمان وينتهي الى مدح قومه والفخر بهم وهاك نبذة منها :

عفت الديار محلها فمقامها   بمنى تابد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها   خلقا كما ضمن الوحى سلامها
ومن تجرم بعد عهد انيسها   حجيج خلون حلالها وحرامها
رزقت مرابيع النجوم وصابها   ودق الرواعد جودها فرهامها
من كل سارية وغاد مدجن   وعشية متجاوب ارزامها
فعلا فروع الايهقان واطفلت   بالجهلتين ضباؤها ونعامها
والعين ساكنة على اطلالها   عوذا تاجل بالفضاء بهامها
وجلا السيول عن الطلول كانها   زبر تجد متونها اقلامها

ثم يتخلص لذكر الأحبة فيسأل الأطلال :

فوقفت اسالها وكيف سؤالنا   صما خوالد ما يبين كلامها
عريت وكان بها الجميع فأبكروا   منها وغودر نؤيها وثمامها
بل ما تذكر من نورا وقد نات   وتقطعت اسبابها ورمامها
فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولشر واصل خلة صرامها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه   باق اذا ظلعت وزاغ قوامها

ثم يصف ناقته ويشبهها بالغمامة الحمراء فيقول :

بطليح اسفار تركن بقية   منها فاحنق صلبها وسنامها
واذا تعالى لحمها وتحسرت   وتقطعت بعد الكلال خدامها

فلها هباب في الزمام كأنها   صهباء خف مع الجنوب جهامها

ثم بعد أن يتفنن في وصف ناقته كما مر في المقدمة يعود الى ذكر نوار فيقول :

اولم تكن تدرى نوار بانني   وصال عقد حبائل جذامها
تراك امكنة اذا لم ارضها   او يعتلق بعض النفوس حمامها

ثم يصف لهوه وشربه الخمر وبطشه في الحرب وجواده ويشير الى المناظرة عند النعمان اشارة غير واضحة حتى ينتهى الى الفخر فيقول وبها يختم المعلقة :

انا اذا التقت المجامع لم يزل   منا لزاز عظيمة جشامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها   ومغذمر لحقوقها هضامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى   سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم   ولكل قوم سنة وامامها
لا يطبعون ولا تبور فعالهم   اذ لا تميل مع الهوى احلامها
فاقنع بما قسم المليك فانما   قسم الخلائق بيننا علامها
واذا الأمانة قسمت في معشر   اوفى باوفر حظنا قسامها
فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه   فسما اليه كهلها وغلامها
فهم السعاة اذا العشيرة افظعت   وهم فوارسها وهم حكامها
وهم العشيرة ان يبطىء حاسد   او أن يميل مع العدو لئامها

★★★

عنترة العبسى

اذا قيست الرجال بالشهرة ، فلعنترة المقـام الأشهر بين شـعراء الجاهلية وفرسانها وقل من لم يسمع بذكره ، وذلك لأننا فى هذه النهضة الحديثة أو قبلها لم يكن مستوانا العقلى بمكان يترفع عن التهافت على قصة متداولة تسمى قصة عنترة • فهذه القصة مع ما يحيط بها من جهل للعلم حببت بطلها عنترة الى كثير من قلوب العـامة حتى الخاصة وهذه الشهرة بقدر مارفعت عنترة أمام العامة خفضته تجاه الأدباء فقد عميت الحقيقة عليهم وجعلوا يتلمسون شعر عنترة فى دياجى هذه الكثرة التى تروى عنه وهم لا يتمكنون من الوقوف على حقيقة الرجل فقد جعله صاحب القصة رجلا كاملا بكل ما يتصف به الرجل الجاهلى ومن الصفات الرجولية الكاملة فى الجاهلية أن يكون شـاعرا وهنا أصـبح عنترة امام الشعراء وبطلهم صاحب القدح المعلى فى كل أنواع الشعر فهم قد غمطوا حقه فى تعرف حقيقة شخصيته وفى تعرف شعره أيضا ونستخلص الآن الكلام عنه من كتب الأدب معتمدين على أصح الآراء وأنزه النقد فى حقيقته •

حياتــه :

لا نذهب مع المغالين فنقول انه شخص وهمى اختلقه صاحب القصة ونسب اليه كثيرا من هذه الوقائع بل عنترة بن شداد من بنى عبس ويلقب بالفلحاء ويكنى بأبى المغلس وهو عبد دعى فيهم ، أى ألحقه أبوه بنسبه حين أنجب ويروون فى ذلك قصة أن بعض أحياء العرب أغاروا على بنى عبس فأصـابوا منهم واستاقوا ابلا فتبعهم العبسيون فلقوهم فقاتلوهم عما معهم وعنترة حينئذ فيهم فقال له أبوه كر يا عنترة فقال عنترة : « العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر » وقال كر وأنت حر • ومن ذلك اليوم أصبح يشـار اليه فهو أحد أغربة العرب وقد ذكر ذلك فى كثير من شعره ثم ظهرت فروسيته وقد يكون أبلى بلاء حسنا فى حرب السباق ولكنه لم يكن ذلك الفارس البارز الذى يغطى على سواه وعلى كل فقد ورد حـديث وربما كان ضعيف الاسناد يقول : « كان لبنى عبس عبد يضرب الفارس والفارسين فعنترة بالاتفاق فارس وان كان فروسـيته محدودة وعنترة شاعر والكن ليس أشعر الشعراء كمـا يقول اليازجى ، بل شعره الذى بين أيدينا ذو درجة محدودة ، ومن يذكره من الأدباء يعتر له بالميمية الكبرى وبقصيدة لامية وأخرى فائية وما سواها فقليل جدا • ولعنترة كما

لكثير من الشعراء عروس شعر وهي عبلة وقد ذكرها في ميميته المذكورة وهذه كما اتصل بنا ابنة عمه وقد أصبحت بعد لأي زوجته فكل شعره الغزلي في هذه المرأة وقد قتل أخيرا وهو شيخ هرم .

ولولا شعره ما كان يهمنا أمره ، ولكن قد اتفق أدباء العرب على أن يجعلوا عنترة من أصحاب المعلقات ومعلقته من الشعر المتوسط فليست بالدرجة الأولى كما أنها ليست بآخر المعلقات ، وأما بقية هذا الشعر فلم تصل الينا حقيقته وذكر صاحب الأغاني أن لشعر عنترة دواوين ولم يذكر لنـــا من هذا الشعر فيها وانما الشعر الذى اغترفه الأدباء هو منقول عن القصة وهـــذا الشعر سلس عذب القوافي رقيق الحواشي غير مهلهل تقرؤه فتتخيل نفسك على ضفاف دجلة أو الفرات وكأن الزمان قد انتقل من الجاهلية الى العباسيين وقد رأى ذلك كثير من الأدباء وجعلوا يختارون من هذا الشعر الكثير شيئا فيصروا على أنه لعنترة وهذا الشعر هو شيء واحد قد اختلف وزنا وقافية ، فهو يدور على محور البطولة والحرب والضرب بالسيف والطعن بالرمح ومصادمة الأبطال الكماة والظفر بهم ، ويستهل ذلك أو يتبعه بغزل رقيق جدا وبالطبع لم يكن قد وضع زمن صاحب الأغاني والا لما كان فات أصحاب الغناء في ذلك العصر .

***

معلقتـــه :

وخير مثال لشعر عنترة هو معلقته ونختـــار هنا نبذة منها جاء في مطلعها :

هل غادر الشـــعراء من متردم ... ام هل عرفت الدار بعد توهم

وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة بدل « متردم » « مترنم » وتخريج معنى الأخير أسهل وقيل ان هذا البيت موضوع والقصيدة هي :

يـــادار عبلة بالجـــواء تكلمى ... وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

فوقفت فيها نـــاقتى وكانها ... فـــدن لاقضى حاجـــة المتلوم

وتحـــل عبلة بالجواء واهلها ... بالحـــزن فالصـــمان فالمتثلـــم

حييت من طلل تقـــادم عهده ... اقوى واقفر بعد ام الهيثـــم

حلت بارض الزائرين فاصبحت — عسرا على طلابك ابنة مخرم
علقتها عرضا واقتل قومها — زعما لعمر أبيك ليس بمزعم
ولقد نزلت فلا تظنى غيره — منى منزلة المحب المكرم
كيف المزار وقد تربع اهلها — بعنيزتين واهلنا بالغيلم
ان كنت أزمعت الفراق فانما — زمت ركائبكم بليل مظلم
ماراعنى الا حمولة أهلها — وسط الديار تسف حب الخمخم
فيها اثنتان واربعون حلوبة — سودا كخافية الغراب الأسحم

ثم يصف هذه الظعائن ويشبههن بكل ما يشبه به العرب نساءهم على سبيل الاجمال وخصوصا يشبه نفثات من يحب بالمسك أو بالروضة ومنها ما يستدرج الى وصف الروضة حتى يصل الى التشبيه البديع الذى لا يجوز أن نغفله وهو :

وخلا الذباب بها فليس يبارح — غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه — قدح المكب على الزناد الأجذم

ثم يتخلص الى وصف الناقة والجلود ويصفها بالقصر ويصفه بالنعام حتى يتخلص الى الفخر فيقول :

ان تغدفى دونى القناع فاننى — طب باخذ الفارس المستلئم
اثنى على بما علمت فاننى — سهل مخالقتى اذا لم اظلم
فاذا ظلمت فان ظلمى باسل — مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعد ما — ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة — قرنت بازهر فى الشمال مقدم
فاذا شربت فاننى مستهلك — مالى وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى — وكما علمت شمائلى وتكرمى
هلا سألت الخيل يا ابنة مالك — ان كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة اننى — أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله — لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة — بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه — ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه — يقضمن حسن بنانه والمعصم

بطل كأن ثيابه في سرحة يحذى نعال السبت ليس بتوأم

ثم يذكر مواقعه في الحروب وظفره الى أن يختمها بوصفه فرسه فيقول :

لما رأيت القوم اقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنترة والرماح كأنها اشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا الى بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي
ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر اقدم
والخيل تقتحم الغبار عوابسا من بين شيظمة واجرد شيظم
ولقد خشيت بأن اموت ولم تكن للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمي عرضي ولم اشتمهما والناذرين اذا لم القهما دمي
ان يفعلا فلقد تركت اباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

فأنت ترى بعد الاطلاع على هذا الشعر أنه لا يقل بلاغة عن أسمى الشعر الجاهلي ولو تدبرناه لرأينا في المعلقة اختلافا بينا بين زيادة ونقصان ولكنها منسجمة عليها سمة شعر المعلقات ٠

***

النابغة الذبيانى

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء واسمه زياد بن معاوية من ذبيان من قيس . هو من الأشراف الذين غض الشعر منهم كما غض من امرىء القيس . وكان يفد على النعمان صاحب الحيرة فيمدحه ، فوقعت العداوة بينه وبين المنخل الشاعر ، فوشى به الى النعمان .. فهرب النابغة الى بنى غسان ونزل بعمرو بن الحارث الأصغر ملك الغساسنة فمدحه . ومازال مقيما عنده حتى مات عمرو وخلفه النعمان أخوه ، فمكث معه حتى اصطلح مع النعمان صاحب الحيرة فعاد اليه .

وكان يفد على صاحب الحيرة أيضا حسان بن ثابت الأنصارى ، ولكن النابغة كان مقدما على الجميع . فجمع من عطايا النعمان صاحب الحيرة ثروة طائلة وصار يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب . وله منزلة كبرى عند شعراء عصره ، فاذا جاءت سوق عكاظ ضربوا له قبة من جلد وجاء الشعراء ينشدون أشعارهم . وأول من أنشده ذات مرة الأعشى ثم حسان ثم الخنساء ، وهذا شرف لم ينله أحد من الشعراء سواه. ويمتاز النابغة عن صاحبيه بأنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتا ، فكان شعره كلاما ليس فيه تكلف . وذلك ظاهر فى كل أقواله حتى جرى كثير منها مجرى الأمثال ، واقتبس الشعراء كثيرا من أقواله منها :

نبئت ان ابا قابوس اوعدنى ۝ ولا قرار على زار من الأسد

تمثل به الحجاج بن يوسف حين سخط عليه عبد الملك بن مروان ، وقوله :

فلو كفى اليمين بغتك خونا ۝ لأفردت اليمين من الشمال

أخذه المثقف العبدى فقال :

ولو انى تخالفنى شمالى ۝ بنصر لم تصاحبها يمينى

وقوله :

فحملتنى ذنب امرىء وتركته ۝ كذى العر يكون غيره وهو راتع

أخذه الكميت فقال :

ولا اكوى الصحاح براتعات ۝ بهن العر قبل ماكوينا

وقولـــه :

واستبق ودك للصديق ولا تكن قتبـــا يعض بغارب ملحاحـا

أخذه ابن ميادة فقـال :

ما ان ألح على الاخوان أسالهم كمـا يلح بعض الغارب القتب

ومما يتمثل به من شعره قوله :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبـد الالـه صرورة المتعبـد
لرنـا لبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشـدا وان لم يرشد

أخذه ربيعة بن مقروم الضبي فقال :

لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الذرى يتبتل
لرنـا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموســه يتنــزل

ومما يتمثل به أيضـا من شعره :

ومن عصاك فعاقبه معاقبــة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

وقال في العفة وهو أحسن ما قيل فيها :

رقـاق النعـال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

أخذه عدي بن زيد فقال :

اجــل ان الله قد فضـــلكم فوق من احـكى بصلب وازار

فالصلب الحسب والازار العفاف ، وفي أمثالهم : أصدق من قطاة — قال النـابغة :

تدعو قطا وبها تدعى اذا نسبت ياحسنها حين تدعـوها فتنتسب

وذلك لانها تلفظ باسمها . أخذه أبو نواس : « أصـدق من قول قطاة قطا » .

وقد مدح النابغة النعمـان وعمرو بن هند من أصحاب الحيرة ، وعمر ابن الحارث الغساني وأخاه النعمان ووائـل بن الحلاج الكلبي وهجـا ابن زرعة ورثى واعتذر وفاخر . ولكن الشعر الوصفي قليل في منظومه الا القصيدة التي نظمها في وصف المتجردة زوجة النعماني صاحب الحيرة وقد تقدم مطلعها . ومن قوله في وصفها :

نظـرت بمقلة شـادن متربب احـوى احـم المقلتين مقلـد

والنظم فى سلك يزين نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد
صفراء كالسيراء أكمل خلقها كالغصن فى غلوائه المتأود
قامت تراءى بين سجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد
أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بآجر يشاد وقرمد
سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كان بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

وهى طويلة وفيها أبيات لا يليق نشرها ، ولكنه وصف فيها الطبيعة كما هى عادة الجاهليين فى تمثيل الواقع ، وكما فعل سليمان الحكيم فى نشيد الانشاد . ومن أحسن شعره معلقته التى مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى واحجار

وهى ستون بيتا ذكرها صاحب جمهرة أشعار العرب .

وللنابغة ديوان مطبوع غير مرة ، وشرح منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، وقد ترجمه الى الفرنسية وطبعه مع الأصل العربى المسيو ديرنبرج فى المجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٦٨ ، وصدر كتاب اسمه « التوضيح والبيان لأشعار نابغة ذبيان » طبع بمصر .

وأخباره متفرقة فى الأغانى ١٦٢ ج ٩ والشعر والشعراء ٧٠ و ١٢٦ والجمهرة ٥٢ وفى دواوين الشعراء الستة الجاهليين وفى شرح المعلقات وسائر كتب الأدب .

عمـــرو بن كلثـــوم

تغلبي من ســادات بني ربيعة جده عدى بن ربيعة وتحوم الظنون حول مولده ، فيزعمون أن الجن والهواتف أنبأوا أمه بمجيئه وأنه سيسود قومه « في خمسة وعشر » ويوردون على ذلك شعرا سخيفا ثم يقولون ان هذا من الشعراء الفرسان الفتاك وربما كان أشهر ما يعرفه الأدباء عنه هو قتله عمرو بن هند في قصته المشهورة وبناء على هذه القصة أصبح عمرو بن كلثوم أفتك العرب ثم يضن علينا التاريخ الأدبي بتفصيل أخبار هذا الشاعر الأمير وما يروونه من شعره لا يشفي غليلا وانما المشهور عنه هو معلقته ونرجيء الكلام عنها الآن . وينفرد هذا الشاعر بأن أهل الأدب حفظوا لنا قطعة نثرية من قوله أنموذجا لنثر الجاهلية وكنا نود أن نرجيء ذكرها للكلام عن النثر ، ولكن ذكرها هنا يوضح لنا شيئا من عقلية هذا الشاعر ولا سيما وقد قالها بعد أن شبع من الأيام ويروى أنه عندما احتضر جميع بنيه وقال لهم :

« يا بني قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحـد من آبائي ولابد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت واني والله ما عيرت أحدا بشيء الا عيرت بمثله ان كان حقا فحق وان كان باطلا فباطل من سب سب فكفوا عن الشتم فانه أسلم لكم وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم وامنعوا من ضيم الغريب فرب رجل خير من ألف واذا حدثتم فعوا واذا حدثتم فأوجزوا فان مع الاكثار يكون الاهذار وأشجع القوم العطوف بعد الكرة كما أن أكرم المنايا القتل ولا خير في من لا روية له عند الغضب ولا اذا عوتب لم يعتب ومن الناس من لا يرجى خيره ولا يخف شره فبكوه خير من دره وعقوقه خير من بره ولا تتزوجوا في حيكم فانه يؤدى الى قبيح البغض » .

يختلف شعر ابن كلثوم عن سائر شعراء الجاهلية فهو بعيد عن التعقيد بعيد عن استعمال الكلام الجاهلي بعيد عن كل تكلف سلس العبارة بليغ التركيب يتفق مع شعر عنترة من هذه الناحية ، وربما اتفقا من ناحية ثانية وهي الفخر والحماسة ولكن الأدباء متفقون على تقدم ابن كلثوم في شعراء الجاهلية ونحن اذا قلنــا شعره فانما المعلقة وهي كل شعره على سبيل المجاز وهذه المعلقة لم يتصل بنا منها سوى ما يزيد قليلا على مئة بيت،ويزعم الأدباء أنها كانت طويلة وطويلة جدا حتى يوصلوها الى تسعمئة بيت أو الألف ، وحبذا لو وصلت الينا بكاملها لأزالت عن الشعر العربي

وصمة التقصير فى الملاحم ومن أجدر بها غير هذا الشاعر الأمير الفارس ·
ولكن ما وصـل منها كسائر المعلقات ليس وحده بل هو وصف مواقف عديدة مما حمل الأدباء أن يقولوا انها ليست قصيدة واحدة وانها على الأقل قصيدتان مطلع احداهما « ألا هبى بصحنك واصبحينا » والثانية « قفى قبل التفرق يا ظعينا » وذكروا له غير المعلقة شعرا قليلا لا يقاس بها ·

معلقتـــه :

تحوم حول هذه المعلقة أقوال فيها مواضع للشك كثيرا ونحن نرويها على علاتها منها أنه قالها بعد أن أصلح ملك الحيرة بين بكر وتغلب بعد هلاك رهائن التغلبيين كما سنذكر فى الكلام عن الحارث بن حلزة ، ونرى فى المعلقة ما يتوعد به عمر بن هند ويـدل على أنه قالها بعد مقتله وفى بعض الأقوال أنه قام بها خطيبا فى سوق عكاظ ، والظاهر أنه قالها فى اوقات مختلفة لأسباب مختلفة أو هى كما كانت قصائد مختلفة ضمها رواة قبيلته الى بعضها وجعلوهـا قصيدة واحدة يقولون ان بنى تغلب كانت تعظمها جدا ويرويها صغارهم وكبارهم حتى هجوا بذلك قال بعض شعراء بكر بن وائـل :

الهى بنى تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها ابـدا مـذ كان اولهم   يا للرجال لشـعر غير مسؤوم

وقد جرب بعض النقاد أن يطمس ذكر عمرو بن كلثوم فيطمس بذلك معه ذكر معلقته ، ولكنه للآن لم يقم دليل عملى على تفضيل هذا القول على سواه بل جانب الاثبات أرجح فقد ذكر شعراء الاسلام كالفرزدق وجرير وغيرهما تصريحا وتلميحا هذه القصة وصاحب الأغانى يقول انه لم يزل الى عصره من ولد عمرو بن كلثـوم كلثوم بن عمرو العتـابى الشـاعر وها نحن نثبت نبذة من المعلقة :

الا هبى بصـحنك فاصـبحينا   ولا تبـقى خمور الاندرينـا
مشعشـعة كان الحص فيـها   اذا ما الماء خـالطها سخينـا
تجـور بذى الليـانة عن هواه   اذا مـا ذاقـها حتى يلينـا
وكاس قـد شربت ببعلبـك   واخرى فى دمشق وقاصرينـا
اذا صـمدت حميـاها اريبـا   من الفتيـان خلت به جنونـا
فما برحت مجال الشرب حتى   تعالوهـا وقالوا قد روينـا
وانـا سوف تدركنـا المنايـا   مقـدرة لنـا ومقـدرونا

وان غدا وان اليوم رهـــن ... وبعـد غـد بما لا تعلمينـا

ثم يبدأ بموضوع جديد فيقول :

قفى قبـل التفـرق يا ظعينـا ... نخبـرك اليقـين وتخبرينـا

بيـوم كريهـة ضربا وطعنـا ... أقر بـه مواليـك العيونـا

قفى نسألك هل أحدثت صرما ... لوشـك البين أم خنت الأمينا

أفى ليـل يعـاتبنى ابوهـا ... واخوتها وهـم لى ظالمونـا

تريك اذا دخلت على خـلاء ... وقد أمنـت عيون الكاشحينـا

ثم يصف بكل ما توصف به المرأة الجميلة فى الجاهلية وبعد أن ينتهى يقول :

تذكرت الصبـا واشتقت لمـا ... رأيت حمولها اصـلا حدينـا

ابا هنـد فـلا تعجـل علنيـا ... وانظـرنا نخبـرك اليقينـا

بأنا نـورد الرايـات بيضـا ... ونصدرهن حمـرا قـد روينا

فان الضـغن بعد الضـغن يبدو ... عليـك ويخرج الداء الدفينـا

وايـام لنـا غر طـوال ... عصـينا الملك فيها أن ندينـا

وسيـد معشر قـد توجـوه ... بتـاج الملك يحمى المحجرينـا

تركنـا الخيـل عاكفـة عليـه ... مقـلدة اعنتهـا صـفونا

الى أن يقـول :

نعـم اناسـنا ونعـف عنهم ... ونحمـل عنهم ما حملونـا

ورثنـا المجـد قد علمت معـد ... نطـاعن دونـه حتى يبينـا

نطـاعن ما تراخى الناس عنـا ... ونضرب بالسيوف اذا غشينـا

بسـمر من قنا الخطى لـدن ... ذوابـل أو ببيض يعتلينـا

نشق بها رؤوس القوم شـقا ... ونخليهـا الرقاب فيختلينـا

الى أن يقول :

كأن ثيـابنا منـا ومنهـم ... خصبن بارجوان أو طلينـا

كأن سيوفنـا فينـا وفيهم ... مخـاريق بايدى لاعبينـا

ثم يتطرق الى أن يعاتب الملك عمرو بن هند فيقول :

بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا ... متى كنا لامك مقتوينا
فان قناتنا يا عمر أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا

الى أن يقول :

ورثنا مجد علقمة بن سيف ... أباح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلا والخير منه ... زهيرا نعم ذخر الذاخرينا
وعتابا وكلثوما جميعا ... بهم نلنا تراث الأكرمينا
وذا البرة الذى حدثت عنه ... به نحمى الملتحمينا
ومنا قبلة الساعى كليب ... فأى المجد الا قد ولينا
متى تعقد قريننا بحبل ... تجد الحبل أو تقص القرينا
ونوجد نحن أمنعهم ذمارا ... وأوفاهم اذا عقدوا يمينا

ثم يعطف على بنى بكر فيقول :

اليكم يا بنى بكر اليكم ... ألما تعلموا منا اليقينا
ألما تعلموا منا ومنكم ... كتائب يطعن ويرتمينا
علينا البيض واليلب اليمانى ... وأسياف يقمن وينجنينا
اذا وضعت عن الأبطال يوما ... رأيت لها جلود القوم جونا
كأن متونهن متون غدر ... تصفقها الرياح اذا جرينا

وهذا المعنى أصل كل ما جاء فى معناه بعدئذ الى أن يقول :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعائن من بنى جشم بن بكر ... خلطن بميسم حسبا ودينا
أخذن على فوارسهن عهدا ... اذا لاقوا فوارس معلمينا
ليستلبن أبدانا وبيضا ... وأسرى فى الحديد مقرنينا
اذا ما رحن يمشين الهوينا ... كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا اذا لم تمنعونا
اذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائن مثل ضرب ... ترى منه السواعد كالقلينا

الى أن يقول فى ختامها :

اذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينـــا أن نقر الذل فينـــا
ألا لا يجهلن أحـــد علينـــا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينـا
ألا لا يحسب الأعــداء أنـــا ... تضعضعنـا وانـا قد ونينـا
كانـــا والسـيوف مســللات ... ولدنـا النـاس طرا أجمعينـا
ملأنا البـــر حتى ضاق عنـا ... ومـــاء البحـــر نملأه سفينا
اذا بلـغ الفطام لنـــا صبى ... تخـــر له الجبـابر ساجدينا
لنـا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينـا

***

الحارث بن حلزة البشـــكرى

قد جمع صاحب جمهرة أشعار العرب من قصائد الجاهلية تسعا وأربعين قصيدة ولم نر بينها قصيدة للحارث بن حلزة ولكن حمادا عدها فى المعلقات وجعلها سبعة وبقطع النظر عما روى حماد وما أغفل صاحب الجمهرة ، فالحارث بما بقى لنا من شعره وأهمه الهمزية التى يسميها حماد المعلقة — شـاعر جدير بأن نصرف على شـعره بعض الوقت فمن هذا الحـــارث ؟

هو الحارث بن حلزة يرجع نسبه الى بكر بن وائل الى ربيعة وقد قرنه المعجبون به بالطبقة الأولى كما كانوا يقربون كل شاعر يستحسنون له البيت والبيتين والحارث من المعمرين فقد ذكروا أنه عاش ما يقرب من مائة وخمسين سنة وهو شاعر يقول الشعر فى هذه المدة الطويلة ولكن ليس بين أيدينا ما يعد شيئا مذكورا بالنسبة لهذا العمر الطويل وهو شيخ قبيلته والمدافع عنهـا عند الشدائد ، وقد كان خطيبهـا فى بلاط عمرو بن هند كما سنذكر فى الكلام عن معلقته .

معلقتـــه :

هو من الذين اشـــتهروا بالواحدة وربما كانت هذه المعلقة من أهم الأسباب فى اختياره بين شعراء الجاهلية ، واتفق الرواة على أن السبب فى انشاده هو أن عمرو بن هند وقيل المنذر قد أصلح بين بكر وتغلب وأخذ من الحيين رهنا مئة غلام من كل حى ، وأن غلمان التغلبيين تاهوا فى بعض القفار وهلكوا عطشا فادعى التغلبيون أن البكريين قد أضلوهم وأنهم المسئولون عن دمائهم ، ووقف كل من الحيين أمام الملك وكان الحارث وقد شبع أياما خير من يرجع اليه فى أمور البكريين وكان به وضح من عادة العرب أن ينضحوا مكان من به وضح الماء وفى ذلك ما فيه من العار ، وقيل ان الحارث أعد قصيدته هذه وجعل يستنشدها فتيان قومه ليقوموا بها أمام الملك فلم يجد منهم من يغنى عنه فتحمل عار النضح وراءه بالماء وهب الشيخ الفانى الى بلاط الحيرة وجلس مع خصمه للمحاكمة ووضع الملك

من اهل العصر

بينه وبين الحارث ستورا فلما تكلم الحارث معتمدا على رمح [illegible]
الملك ، وقيل أمه وكانت معه ، يقول ارفعوا الستور سترا سترا [illegible]
من الملك حتى أتى عليها فأدناه الملك وأجلسه بقربه وحكم [illegible]
وقيل انه ارتجلها بحضرة الملك بعد أن كان المدافع عن البكريين [illegible]
الملك بطيشه وعدم خبرته وفي كل هذه الأقوال نظر لا يخفى على [illegible]
ولا يهمنا سواء ارتجالا قالها أم غير ارتجال فهي من الشعر الجاهلي [illegible]
يأخذ بألباب السامعين سلك فيها مسلك الشعراء الدهاة [illegible]
خصمه ويهدده ويمن عليه بعطف الملك ويعرض للملك [illegible]
البكريين عنده خلافا للتغلبيين ويذكر مواقع شهيرة [illegible]
الملك وأهل الملك كل ذلك بلغة منسجمة رائعة وكان ينشدها [illegible]
ويستل سخيمة الملك فيصب جام غضبه على خصمه وهذا [illegible]
مطلعهـا :

آذنتنـــا ببينهــا أســماء رب ثاو يمل [illegible]
بعـــد عهــد لنـــا ببرقة شــماء فأدنى [illegible]

وبعد أن يعدد منازل أسماء وعددها تسعة يقول :

لا أرى من عهدت فيها فابكى الـ يوم [illegible]
وبعينيك أوقدت هنـد النـــا ر أخيرا [illegible]
فتنـــورت نارها من بعيــد بخزازى هيهات [illegible]
أوقدتها بين العقيق فشخصين بعــود [illegible]

وقد عابوا هذا التشبيه على الحارث فانه يشبه [illegible]
ثم يتخلص من موقفه هذا على عادة أصحاب المعلقات الى ناقته [illegible]
أطناب ويصل الى ذكر السبب لهذه المعلقة فيقول :

وأتانا من الحــوادث والأنـ باء خطب نعنى [illegible]
ان اخـــواننا الأراقم يغـــ لون علينـــا [illegible]
يخلطون البريء منا بذي الذ نب ولا ينفع [illegible]
زعموا ان كل من ضرب العير مــوال لنــا [illegible]
اجمعـوا أمــرهم عشــاء فلما أصبحوا أصبحت [illegible]
من مناد ومن مجيب ومن تصـ هال خيل خلال [illegible]

الى أن يقول :

ايهـــا الناطق المرقش عنـــا عند عمرو وهل [illegible]
لا تخلنـــا على غراتك انـــا قبل ما قد وشى بنا [illegible]
فبقينـــا على الشـناءة تنميـ نا حصـــون وعزة [illegible]

من اهل العصر

قبل ما اليوم بيضت بعيون النا ... س فيها تعيط واباء
فكأن المنون تردى بنا ار ... عن جوفا ينجاب عنه العماء

الى ان يصل فيمدح الملك فيقول :

ملك مقسط وأفضل من يمـ ... شي ومن دون ما لديه الثناء
ايما خطة اردتم فأدو ... ها الينا تسعى بها الاملاء

ثم يتحول يعرض ويصرح لهم بذكر وقائع كانت للبكريين على التغلبيين ويذكر ايادى البكريين عند ملوك الحيرة دون احفاظ للملك المصغى الى ان يقول :

فاتركوا الطيخ والتعاشى فاما ... تتعاشوا ففى التعاشى الداء
واذكروا حلف ذى المجاز وما قد ... م فيه العهود والكفلاء

ثم يذكرهم ما صار فى ذلك الحلف ويمن عليهم بما عقبه من مكارم تبرئه [illegible] من كل ما اتهمه به التغلبيون وبعد ان تفرغ كنانته يختم [illegible] وهو :

وهو الرب والشهيد على يو ... م الحيارين والبلاء بلاء

فانك اذا تدبرت هذه القصيدة وعرضتها على نماذج الشعر الجاهلى ، وجدتها مطابقة لكل مناحيه وان عرض لها ما عرض مما اخرها عن مقام المعلقات [illegible] ما رأوا من الصور الذهنية التى يجمعها المحامى فى سبيل الدفاع وقدروا ان ذلك لم يجتمع قبلها فى شعر جاهلى والحقيقة أن ذلك ينطبق [illegible] الانطباق على الذهنية الجاهلية من سواه لأنه بعيد عن كل تكلف قريب المأخذ بكل ساذج ..

***

كتاب الجغرافيا

استرابون

٦٥ حد.م

كثيرا ما تتكرر على مسامعنا عبـــارة تقول ان عالمنا صغير · هذا صحيح · ان أرضنا صغيرة · بالنسبة الينـــا · نحن الذين نستطيع أن نجول أرجاءها بالطائرة ·

نحن الذين نقرأ فى جريدتنا الصباحية نبأ الزلزال الذى وقع فى الليلة الفائتة فى اليابان ونستمع بواسطة جهاز المذياع الى سيمفونيات تعزفها فرقة الأوبرا فى فيينا أو نيويورك أو موسكو كما أصبحنا نرى على شاشة التليفزيون ونسمع أحداث العالم الحالية ، وزاد ذلك سهولة دخول الأقمار الصناعية فى مجال التلفزة والمكالمات الهاتفية · نعم لا داعى للدهشة مطلقا اذا قلنا ان عالمنا صغير جدا بعد أن استطاع الانسان أن يدور حول الأرض ·

ولكن أرضنا كانت شاسعة الأبعاد ، أو غير محدودة بالنسبة لأولئك الذين كانوا على ظهرها فى العصور الغابرة لأنهم لم يتوصلوا الى التعرف عليها الا ببطء عظيم وعبر الكثير من الأخطاء والأخطار ·

وهكذا نجد أن الجغرافية أخذت تحتل فى نفوسهم تدريجيا مكان الأسطورة · ولكن لا نعلم علم اليقين كيف تمت أوائل الاكتشافات ولا كيف كانت العصور التى سبقتها · اذ نجهل حياة أوائل الجماعات البشرية · أى الذين كانوا فى حقب ما قبل التاريخ · ولا نعرف عنها شيئا الا بالافتراض واللجوء الى الخيال · فليست هناك كتابات ولا قصص مباشرة ·

غير أن هذا التطور أو الخيال يستند الى أساس متين · فالآثار التى خلفها أناس تلك الأزمنة · والتى ظلت محفوظة بصورة سليمة نوعا ما فى طبقات الأتربة · أو على جدران الكهوف والتى يدرسها العلماء · ويقارنون فيما بينها أو مع آثار حضارات أحدث منها · أصبحت معروفة بشكل أفضل مما يسمح لنا باكتشاف أصولها ·

وهذا العمل الدائب القائم على التبصر والتأمل والمحاكمة العلمية هو الذى أدى الى قبول هذه الآثار ، كدلائل مقبولة على حياة الدهور البشرية

الأولى • ومنها نتوصل الى الزمن التاريخي • حيث ينحسر الشك كي يترك مكانه لليقين •

ليس هناك من سبب لدهشتنا اذا عرفنا أن الناس قد رغبوا في التعرف على الكرة التي يقطنون • وهذا فضول طبيعي • فقد أرادوا أن يعرفوا ما وراء تلك الغابات التي تصد الأنظار وما خلف تلك الجبال التي ترد البصر خاسئا وهو حسير ، ومن هو ذاك الذي يعيش على الضفة الأخرى من النهر ؟ •

فمنذ أن ظهر الانسان على وجه الأرض أغرم بحب الاكتشافات،ولكنه وجد في بداية الأمر صعوبات جمة اضطرته الى النضال نضالا مريرا ضد قوى الطبيعة وضد الحيوانات الضارية • ولذلك مضت قرون عديدة توقف فيها الانسان عن الانتقال لمسافات بعيدة •

يقول د• عبد الرحمن حميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب) : ان هذا الفضول لم يكن لدى الرجل البدائي الدافع الرئيسي للأسفار • فقد كانت عنده حاجة أكثر الحاحا تدفعه وهو الجوع • أى البحث عن الغـذاء • وبعدئذ ظهرت الدوافع المشتقة عن هذا الدافع الرئيسي أى الرغبة في المبادلات التجارية مع الشعوب الأخرى • والبحث عن حاصلات الأراضي الجديدة • والتعطش الى ثرواتها ••• ثم ظهرت دوافع أخرى كالأسباب الدينية والسياسية والرغبة في المغامرة والفضـــول العلمى الـــخ ••

غـــير أن هـــذا الاكتشاف التدريجي للأرض ـ مهما كانت الدوافع متفاوتة في نبلها ـ لم يكن ممكنا الا بفضـــل النمو التدريجي في الذكاء البشرى • لأن الانسان • منذ أن ظهر على الأرض • كان يجنح الى تحسين وضعه والى الاقتراب حثيثا من الكمال • وما بدأه في الأول في بحثه المتردد للتعرف على الوجه الحقيقي لهذا الكوكب دون أسلحة • ودون أدوات • أصبح شيئا فشيئا ميسورا بالنسبة اليه • وذلك كلما اخترع المزيد من الأدوات المتقنة • وكلما اعتاد أن يربط بين الأقطار التي زارها بشكل واضح وأكثر صحة • ربطا خالصا من كل تشويه ناجم عن المعتقدات والأوهام الوثنية التي أتي بها أوائل المكتشفين ، وأخيرا كلما زادت مهارته في استخدام مكتشفاته ومخترعاته • فلما تيسرت له السبل اخذ يضرب في مشارق الأرض ومغاربها • ويركب متون البحار ويتجشم أعظم المشاق ويصبر على ما يعترضه من مكاره لكي يكتشف بلادا جديدا أو يختط طريقا جديدا لم تطأه قدم انسان من قبله •

وقد كانت المحاولات الأولى لوصف الأرض · أو وصف أجزاء منها · غير مستندة الى مشاهدة لأحد المعاصرين · بل كانت معلومات استقاها الرواة ممن سبقهم · ولكنها كانت بداية الجغرافيا على كل حال ·

وهكذا يبدو لنا تاريخ اكتشاف الانسان للأرض كسفر ضخم يحوى جهود الانسان منذ العصور الأولى · فى حركته البطيئة والثانية الدؤوبة نحو المعرفة ·

الجغرافيا الاستكشافية فى العصور القديمة

ومن بين الشعوب القديمة التى نجهل تاريخها تقريبا · والتى استطاعت أن توسع الأفق الجغرافى · كانت شعوب البحر الأبيض المتوسط · وهو أول بحر معروف · نذكر الكريتيين (٢٠) والمصريين والفينيقيين والرومان · ويعود الدور الأول الى الاغريق · وهم شعب التصقت حياته بالبحر وتميز بحب الاستطلاع · مما ساعد على نمو تذوق المغامرات البعيدة لديهم ·

واستنادا الى رواية هيرودوت · نجد أن أول حملة اكتشافية مهمة انما تمت على أيدى الفينيقيين وقد جهزها فرعون مصر نيخاوس الذى حكم فى النصف الثانى من القرن السابع قبل المسيح بالسفن وبالمؤن · واستطاعت فى عام ٦٦٥ ق·م أن تدور حول أفريقيا بعد أن انطلقت من البحر الأحمر وعادت عن طريق البحر الأبيض المتوسط · وقد استغرقت هذه الرحلة الدائرية مدة عامين · وكان البحارة يتوقفون فى كل خريف عند السواحل المناسبة لزراعة الحبوب ثم يستأنفون سفرهم بعد الحصاد · ولا يعطينا هيرودوت سوى القليل من التفاصيل عن هذه الحملة · مما دفع بعض العلماء الى الشك فى صحتها · ولكن بعد تدقيق روايته وتمحيصها واستنادا الى الشروح العظيمة التى أثارها العلماء · نجدنا أقرب الى اليقين وأدنى من الاعتقاد بصحة حدوث هذه الرحلة التى قطعت ما يعادل نصف محيط الكرة الأرضية · وشاهدوا الشمس تسطع من يمينهم فى طريق العودة ·

وقد قام القرطاجيون · الذين كانوا يسكنون بلاد تونس · فى الفترة الواقعة قبل الميلاد بخمسة قرون · بارسال القائد حنون لاكتشاف ساحل أفريقيا الغربية · فذهب على رأس أسطول مؤلف من ستين سفينة يركبها ثلاثمائة بحار بالاضافة الى عدد من المهاجرين واستمرت الرحلة فصل صيف بكامله · وأسس بعض المستعمرات على ساحل المغرب الأقصى وتقدم حتى شاهد هيجان بركان الكاميرون الكبير · ورأى أناسا يغطى أجسادهم الشعر

الكبرى كالنيل الأبيض والنيل الأزرق اللذين يؤلفان نهر مصر الكبير كما علم بوجود بحيرات كبرى وجبال عالية عند منبعث نهر النيل وكانت معرفته تقف عند بلاد الصومال ٠

واذا كانت التجارة هي الدافع على اكتشافات الفينيقيين والاغريق فان الحملات العسكرية كانت في أساس اكتشافات الرومان ٠ وكانت نتائجها مهمة بشكل خاص في شمال وشمال غرب أوروبا ٠

فبعد أن استولى الرومان على مصر عام ٢٩ ق٠م توغلوا في الحبشة ٠ وقد أرسل الامبراطور نيرون بعثتين لاكتشاف النيل ووصلتا الى مناطق المستنقعات الفسيحة في بحر الغزال ٠ كما اجتاز القائد بولينوس سوتيونيوس جبال الأطلس لمطاردة المغاربة الثائرين ٠

وفي عهد الامبراطور كلود ذهب الرحالة الاغريقي ديوجين واكتشف جبل كينيا وجبل كليمنجارو أعلى قمم أفريقيا ٠ كما ذهب حاكم تونس كورنيليوس بالبوس لاكتشاف منطقة فزان الليبية واحتل عددا من المواقع وحولها الى محطات محصنة على طريق القوافل التجارية ٠ وقد أدت الرحلات العسكرية والتجارية الى اغناء العلم الجغرافي الى حد كبير حتى ان أحد علماء الاغريق وهو هيكاته الذي عاش في القرن السادس قبل المسيح قال بكروية الأرض متفقا بذلك مع مذهب فيثاغورث ٠ وبذلك أصبح مثقفو العالم القديم في مطلع التاريخ الميلادي يمتلكون فكرة قريبة من الصحة عن الأصقاع المحيطة بهم ٠

هذا وقد تمتعت تجارة الاسكندرية بازدهار رائع في القرون الأولى من التاريخ المسيحي وعن طريق مسالك التجارة أتت المعلومات الثمينة ٠ فقد كان الاغريق والرومان يجوبون منذ عهد بعيد سواحل المحيط الهندي ٠ وبدءوا يستغلون تيارات الرياح الموسمية المتناوبة ٠ وأصبحت الرحلات أقصر مدة وأكثر انتظاما من الاسكندرية باتجاه الهند عن طريق ميناء برنيق على البحر الأحمر ٠ فكانت الرياح الصيفية تدفع مراكبهم باتجاه الهند بينما تؤمن الرياح الشتوية العودة ٠ وبذلك تعرف تجار الاسكندرية على جزيرة سيلان وعلى شبه جزيرة مالاقا ٠ وفي القرن الميلادي الثاني أصبح لديهم بعض المعرفة عن الجزر الكبرى الواقعة الى الشرق من ذلك لأن سفنهم كانت تصل الى ميناء غاتيغارا على الساحل الصيني ٠

وفي الوقت نفسه كانت تجارة الحرير تدفع بالاغريق والرومان نحو هضاب آسيا الوسطى ٠ وكان استرابون ٠ والذي عاش في أيام يوليوس قيصر ٠ أول جغرافي يتكلم عن الصينيين الذين كانوا يعيشون بين نهر آموداريا وبين البحر الشرقي ٠ وقد أوجدت القوافل والبعثات

الدبلوماسية التى كانت تخترق صحارى آسيا الوسطى علاقات مع بلاد الصـــين .

***

ولقد أعطتنا مؤلفات استرابون الذى عاش فى القرن الأول الميلادى فكرة عن مجموع العالم المعروف لدى الأقدمين . وكانت مؤلفاته وصفية وتهتم كثـيرا بالتاريخ على خـلاف بطليموس الذى كان جغرافيـا رياضيا اهتم خاصة بحساب درجات الطول والعرض .

واستنادا الى (جغرافيـــة) بطليموس كان العـــالم المعروف لدى الأقدمين . يمتد من جزر الخالدات غربا الى الصــــين الجنوبية شرقا . أما حدوده الشمالية فكانت الجزر الواقعة شمال بريطانيا فى حين لا تتعدى حدوده الجنوبية منطقة السودان والبحيرات الكبرى وكان كتاب بطليموس مزودا ب ٢٧ خارطة كانت احداها تمتد نحـو البحـر المتوسط بحوالى ٢٠ درجة شرقا ، مما أدى بالتالى الى استطالة الأراضى بشكل مفرط باتجاه الشرق .

حيـــاة اســـترابون

التعـريف الصـحيح بالجغرافى استرابون هو أنه مؤلف كتـــاب (الجغرافيا) ، وكل ما نعرفه عنه مستمد من هذا الكتاب الذى يعد أهم مؤلفاته ، وهو الكتاب الوحيد الذى بقى لنا من هذه المؤلفات ، ونستنتج منه أن استرابون ولد حوالى عام ٦٤ ق.م فى مدينة أماسيا التى يفرد لها وصفا يدل على محبته لهذه المدينة . وينتمى استرابون الى أسرة ذات شأن ، عمل بعض أفرادها فى خـدمة ملوك بنطس وهـم : مثراداتيس الخامس يوئرجيتيس ومثراداتيس الســادس يوباتور ، حيث كانوا قادة عسكريين وحكاما وكهنة للالهة (بيلونا) . وتنحدر أسرة استرابون من فرعين مختلفين ، يونانى وآسيوى ، ولكن كان استرابون يونانية محضا فى لغته وعاداته ولابد أن أسرته عاشت فى رغد من العيش مما مكنه من أن ينال قسطا وافرا من التعليم . وبعد أن أتم استرابون مراحل التعليم الأول فى البيت أرسل الى نيسا (بالقرب من مدينة تراليس فى اقليم كاريا) حيث درس النحو والأدب على يد أريستوديموس . وفى سنة ٤٤ ق.م (وهو فى العشرين من عمره) ذهب استرابون الى روما لمتابعة دراسته العليا . وتتلمذ على أيدى تيرانيون الأميسوسى ، وهو العالم النحوى والجغرافى (ولعـــل هـذا العالم هو الذى أجاز لاسترابون الاشـتغال بالجغرافيا) . وكان من أساتذة استرابون كذلك كسينارخوس السليوكى

فى اقليم قيليقية ، وهو أحد الفلاسفة المشائين . وعرف استرابون عددا من الرواقيين أمثـــال بوسيدنيوس وبؤيتوس الصـــيداوى وأثينودوروس الطرسوسى فى قيليقية . ولذا صار استرابون رواقيا متحمسا للرواقية ، وأدرك ضرورة الأساطير والطقوس والأسرار الدينية لعامة الناس ولكن ديانته هو كانت (الرواقية) .

كان استرابون رحالة عظيما ، ولكن ليس بالقدر الذى يذكره هو عن نفسه . وسافر استرابون من أرمينيا شرقا الى ايطاليا غربا ، وزار بلاد اليونان (على الأقل كورنثة) ومصر ـ حيث صعد فى النيل حتى أطراف أثيوبيا ، وكان استرابون على معرفة واسعة بكثير من بقاع آسيا الصغرى، واستمد الكثير من معلوماته من الكتب ، أى الكتب اليونانية ، اذ أن ما كان من الكتب الجغرافية بلغات أخرى قليل فى هذا المجال .

ويشير استرابون فى كتاب الجغرافيا الى بعض مراحل حياته . فكان فى روما فى سنة ٤٤ كما كان بها فى سنوات تالية ، ٣٥ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٧ ق.م وأقام استرابون فى مصر من سنة ٢٥ الى سنة ٢٠ أو بعد ذلك . وحصـــل استرابون على الكثير من معلوماته فى مكتبـــة الاســـكندرية (اذ لا يمكنه فى غيرها أن يحصل على جميع ما احتاج اليه من مؤلفات) . وعاش استرابون متمتعا بمجده فى عصر الامبراطور أغسطس كله وبداية حكم تيبريوس (١٤ ـ ٣٧ م) ومن المحتمل انه أمضى أعوامه الأخيرة فى بلدته أماسيا ، ومات فى سنة ٢١ م . أو بعد ذلك .

***

الكتـــاب

الف استرابون كتابين عظيمين . أحدهما فى التاريخ ، وهو مفقود ، وثانيهما فى (الجغرافيا) ، وهو الذى وصلنا كاملا تقريبا ، ويعد هذا الكتاب أحد أعلام التراث القديم . وهو مقسم الى سبعة عشر جزءا ، مشتملة على وجه التقريب على ما يأتى :

١ ـ ٢ مقدمة . وهى تاريخيه الى حد ما ، حيث ينتقد هوميروس واراتوسثنيس،ويناقش بوليبيس وبوسيدونيوس ويودكسوس الكنيزيكى، كما يتحدث عن الجغرافيا الرياضية وشكل الأرض ورسم الخرائط على سطح كروى وسطح مستو . ويصر على القول بوجود محيط واحد فقط ، بدليل حدوث المد والجزر فى كل مكان ، وعلى هذا يستطيع الانسان أن يبحر من أسبانيا الى جزر الهند الشرقية .

٣ ـ أسبانيا وجزر كاستيريدس ·
٤ ـ جاليا وبريطانيا وغيرهما ·
٥ ـ ايطاليا الشمالية والوسطى ·
٦ ـ جنوب ايطاليا وصقلية · الامبراطورية الرومانية ·
٧ ـ أوربا الوسطى والشرقية (الجزء الأخير من هذا الجزء مفقود) ·
٨ ـ جزائر البلوبونيز ·
٩ ـ اليونان الشمالية ·
١٠ ـ الجزر اليونانية ·
١١ ـ منطقة البحر الأسود ، وبحر الخزر وجبال طورسوس وأرمينيا ·
١٢ ـ ١٤ آسيا الصغرى ·
١٥ ـ الهند وفارس ·
١٦ ـ بلاد ما بين النهرين وسوريا وبلاد العرب وساحل أثيوبيا ·
١٧ ـ مصر ·

وهذا الكتاب دائرة معارف جغرافية ، وتختلف أجزاؤه بالضرورة من حيث القيمة العلمية · وتوجد حول جغرافية استرابون مؤلفات حديثة كثيرة ، وأكثرها أهمية بحوث قام بها علماء تخصصوا فى دراسة مختلف الأقاليم ·

ولكن ماذا كان هدف استرابون ؟ المعروف أنه أراد أن يكتب وصفا جغرافيا للعالم ، ولكن نظرا لأن تعليمه الأصلى كان أدبيا بحتا ، فانه لم يحفل بالجغرافيا الرياضية ، التى ازدراها دون معرفة كافية بها ، ودون فهم حقيقى لمشكلاتها · ومن ناحية أخرى كان استرابون شديد الاهتمام بالناس ، وغلب عليه التفكير الفلسفى ، فالجغرافيا عنده طبيعية ، ومع ذلك كان الطابع البشرى والتاريخى والأثرى أكثر ظهورا ، اذ أراد أن يقدم لقرائه فكرة عامة عن مسطح الأرض ، أى طبيعتها (من حيث الأنهار والجبال وما الى ذلك) ، ثم اختلافات أقاليمها ، وبعد ذلك يشرح كيف عاش فى كل اقليم ، وأى نوع من الناس هم · وتضمن ذلك عرضا للتقلبات والتغيرات التى طرأت عليهم وأعمالهم ، وذكرا لمدنهم ومتى أسست ؟ فضلا عن الطرق ، والمسالك والمعالم العامة ، وعظماء الرجال !!

ونظرا لكونه رواقيا ، تقبل استرابون المبادىء العامة فيما يختص بعبادة النجوم ، ولكنه لم يتطرف فى اعتناق مذهب التنجيم ، وليس هناك

ما يثبت أنه اعتقد في الجينيثليالوجيا ، أى قراءة الطالع تبعا للأفلاك السماوية • بل كان ملما بما قام به المصريون وكهنة الكلدان من دراسات فلكيـــة •

وذكر أن الفينيقيين أهل مدينة صيدا هم الذين نقلوا مبـادىء علم الفلك والحساب الى اليونان •

وفي مجال السياسة كان استرابون متحيزا قطعا لجانب روما ، اذ أدرك أن عصر الامبراطور أغسطس جلب للعـالم عناصر السلام والوحدة (ج ٦ ، فصل ٤) ، بدليل أن ذلك العصر قضى على القرصنة التى كانت متفشية فى شرق البحر المتوسط ، واستتب الأمن للسفر والتجارة فضلا عن الرخاء • وكان استرابون فخورا بشرقيته ، ولم يترك مناسبة دون أن يذكر العلماء الذين ولدوا فى الشرق ، وبرغم اعجابه الشديد بالحكومة الرومانية ، فانه لم يحفظ أى احترام للعلماء الرومان •

***

وتوجد مناقشات كثيرة حول تاريخ كتاب الجغرافيا • ولعل الجزء الأكبر من المعلومات النادرة بهذا الكتاب كانت من جمع استرابون قبل أن يغادر الاسكندرية (حوالى عـام ٢٠ ق•م) ثم انتهى استرابون فى سنة ٧ ق•م • من النسـخة الأولى من هـذا الكتاب ، ولم يسـتخدم خريطة الجغرافى أجريبـا ، التى لم تكن نشرت بعد فى ذلك العام • أما قـائمة الولايات الرومانية الواردة فى آخر صفحة من الكتاب ، فقد قام استرابون بكتابتها فى تاريخ لا يتجـاوز سـنة ١١ ق•م ، ثم راجعها بنفسـه سنة ٧ ق•م • وهو بعيد عن روما • ثم راجع استرابون الكتاب كله فى مدينة أماسيا حوالى عام ١٨م ، كما هو واضح من ذكره للامبراطور تيبريوس (الذى ابتدأ حكمه سنة ١٤ م •) فى حوالى عشرين موضعا من الكتاب •

وكان استرابون مدركا لضخامة كتابه ولأهميته ، حتى أطلق عليه وصف التـأليف الضـخم • وكان كذلك ، حتى ان الباحث لا يستطيع الا أن يسـأل كيف أمكن لرجل واحد أن ينجز مثل هذا العمل الكبير • الواقع ان عملا فى مثل حجم هذا الكتاب فى زماننا نحن لا يمكن الا أن تقوم به أكاديميـات أو جامعـات ويشرف على تنفيـذه عدد من العلماء والمساعدين ، ويستخدمون أنواعا شتى من الأدوات الحديثة • ومن حسن حظنـا أن لدينـا بفضل استرابون هـذا الوصف الجغرافى المسـتفيض للعـالم الغربى زمن الامبراطور أغسطس ، مضـافا اليه كمية كبيرة من المعلومات التاريخية والأثرية والبشرية ، وكذلك أخبار التجارة والصناعة، وجوانب أخرى •

ولم يتخيل استرابون أفــراد قرائه على أنهم جمــاعة من علماء الجغرافيا ، لان أمثال أولئك لم يكونوا وجدوا بعد ، ولكنه تخيلهم من الساسة ورجال الأعمال، وغيرهم من المتعلمين فى عصره (ج ١، فصل ١)، ولذا كان هؤلاء القراء قليــلين ، ولكنهم كانوا رجالا على جانب كبير من الذكاء بحيث لا يقلون عن خيرة رجال عصرنا .

وبرغم أن استرابون لم يكن عالما طبيعيا ، فان جغرافيته تصف كثيرا من الحقائق الطبيعية المهمة التى يتناولها هو بروح ناقدة . ومثــال ذلك أن استرابون فسر تكوين الجبال بفعل حركات الضغط الداخلية ، وان وادى تمبى فى اقليم تساليا ببلاد اليونان نتج عن زلزال . وكان استرابون يعتقد أن السبب فى الظواهر البركانية هو القوة المتفجرة فى الريــاح الحبيسة داخل الأرض، واعتبر البراكين نوعا من صمامات الأمن . وأرجع استرابون ظهور جزر البحر المتوسط الى انفصال عن جسم الأرض بواسطة الزلازل أو بفعل البراكين ، وقصد بذلك جزر الليبارى ، شمال شرق صقلية . وكرر استرابون من جديد وبوضوح تام النظرية القديمة القائلة بأن الأرض والبحر كثيرا ما تبــادلا موقعيهما ، ودلل على ذلك بعــدد من الأمثلة التى زالت فيها مساحة من الأرض ، والتى ارتفعت فيها مساحات أخرى . وبعض هذه الأمثلة محدود بمكان معين ، وبعضها الآخر واسع الانتشار . فمثلا عند الحديث عن واحة آمون يقول : « كان معبد آمون من قبل عند ساحل البحر ، ولكنه الآن فى الداخل بعد أن انحسر عنه المــاء » ويذكر استرابون أن وجــود بقايا أصــداف متحجرة فى أماكن مختلفة يثبت أن الأراضى فى مصر السفلى حيث توجد هذه البقايا كانت فى الماضى مغمورة بالمــاء . ويرجع استرابون السبب فى زوال بعض المساحات الأرضية الى الزلازل ، وأن ظاهرة أخرى مثل هذه تستطيع أن تقضى على برزخ السويس وتفتح الطريق بين البحر المتوســط والبحر الاحمر . ويسجل استرابون ملاحظات عن التراكمات الطميية عند مصبات الأنهار أو على امتداد مجراها . ويحدثنا استرابون كذلك عن صناعة الملح واستخراجه من عيون الماء المعدنية ، ومن مناجم الفضة فى اقليم لوريون ، وصناعة الزجاج فى الاسكندرية ، وصناعة السواقى ، وبناء المزلق الذى تتحرك فوقه السفن فى برزخ كورنثه ، كما يحدثنا عن القناة القديمة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وهى القنــاة التى كانت تنتهى عند مينــاء آرسينوى ، وكانت تغلق بواســطة بوابة مزدوجــة للوقاية على سبيل الاحتياط من تغير التيار وللسماح بمرور السفن فى الاتجاهين .

★★★

لم يكن استرابون أديبا فنانا ، لكنه أتقن فن الكتابة كما يمكن أن يتقنه عالم . وكان واسع الثقافة ، صحيح اللغة ، واضحا دون أن يسعى الى المحسنات اللفظية . وقد يجده أصحاب الذوق الأدبى مما يسير على وتيرة واحدة لكن مما لا شك فيه أنه اجتهد فى تأليفه أصدق الاجتهاد ، وبذل أقصى ما يستطيع ليدخل عليه التنوع ، وليعطى قارئه الكثير من القصص مما يتفق والغاية الصارمة التى ارتسمها لنفسه .

وذكر استرابون أن أرسطو كان أول من اقتنى الكتب ، وأن ملوك مصر احتذوا حذوه بعد ذلك . وهذه العبارة صحيحة فى جملتها ، لأن ربما لا يكون أرسطو أول من اقتنى كتبا ، ولكن مما لا شك فيه أنه بفضل تأثيره — وهو التأثير الذى انتقل الى مصر بواسطة ديمتريوس الفاليرى واسترابون — قرر البطالمة الأولون تأسيس مكتبة الاسكندرية .

وتفوقت دراسات استرابون تفوقا كثيرا على أسفاره ، اذ قرأ جميع الأدب اليونانى الذى وصل الى يده ، مبتدئا بقصائد هوميروس . وكان شديد الاعجاب به ، شأنه فى ذلك شأن جميع اليونان . وبالغ استرابون فى تقدير القيمة الجغرافية لعقيدة الأوديسة ، مع لعلم بأن أراتوسثنيس كان يميل الى التقليل من هذه القيمة . على أن أغنى مصادر استرابون هو معاصره الذى يكبره ، واسمه بوسيدونيوس . واسترابون هو الذى حفظ للأجيال التالية تقدير بوسيدونيوس الخاطىء عن حجم الأرض .

انتشار الكتاب

ونظرا لما لكتاب « الجغرافيا » — وهو كتاب فريد فى نوعه — من قيمة عملية هائلة للساسة ورجال الادارة فى الامبراطورية الرومانية ، فاننا نعجب لقلة ما لقى سترابون من اهتمام القدماء به . هل كان ذلك لاخفاء النسخ الأولى من هذا الكتاب بواسطة أصحابها لاستخدامها فى الأغراض العملية ، وليس للأغراض العلمية ؟ وليس هناك تفسير آخر . ذلك أن المؤرخ يوسيفوس هو الوحيد الذى عرف هذا الكتاب . على حين لم يعرفه أحد من اليونانيين ولا بطليموس نفسه ، ولا أى عالم رومانى ، رغم صعوبة تصور ذلك . وربما يكون هذا الاهمال لاسترابون من ناحية القدماء هو السبب فى عدم وجود ترجمة عربية له ، اذ بقى استرابون مجهولا للجغرافيين المسلمين ومؤرخيهم .

ثم حدث فى العصر البيزنطى أن اكتشف كتاب الجغرافيا على يد استيفانوس البيزنطى (فى القرن السادس) ، واستخدمه يوستاثيوس التسالونيكى (فى القرن الثانى عشر) ومكسيموس بلانوديس (فى القرن

الثالث عشر) • غير أن أقدم مخطوط وصل الينا هو المخطوط الباريزى رقم ١٣٩٧ ، ويحتوى الأجزاء العشرة الأولى فقط ، أما الأجزاء السبعة الأخيرة فمصدرها ثلاث مخطوطات متأخرة ، وهى مخطوطات الفاتيكان رقم ١٣٢٩ ومختصر الفاتيكان ، والبندقية رقم ٦٤٠ •

أما بداية طبع هذا الكتاب فترجع الى جوارينو الفيرونى (١٣٧٠ – ١٤٦٠ تقريبا) وهو الذى أحضر معه من القسطنطينية مخطوطة يونانية ، وترجم منها الأجزاء العشرة الأولى الى اللاتينية ، أما الجزءان الحادى عشر ، والثانى عشر فقام بترجمتهما جريجوريو نيقرماس • وتم طبع الكتاب كله فى روما سنة ١٤٦٩ ، وأعيد طبعه خمس مرات قبل عام ١٥٠٠ وهى : البندقية ١٤٧٢ ، وروما ١٤٧٣ ، وتريفيزو ١٤٨٠ ، والبندقية ١٤٩٤ ، و١٤٩٥ • وقام بطبع المخطوط اليونانى الأصلى الدوس ، بالبندقية ١٥١٦، كما قام فلهلم كسبيلاندر باعداد طبعة لاتينية منقحة (١٥٧٠) ، وكانت هذه الطبعة اللاتينية أول الطبعات الجيدة من هذا الكتاب •

ثم نشر اسحاق كازوبون النص اليونانى مرة أخرى ، وأضاف اليه ترجمة كسيلاندر (جنيف ١٥٨٧) • وكذلك قام يانسون دى ألميلوفين الهولندى بطبعة أخرى ممتازة (أمستردام ١٧٠٧) •

ونشر أديمانتوس كوريه نصا يونانيا جديدا فى أربعة مجلدات ، باريس ١٨١٥ – ١٨١٩ ، ومعه ترجمة فرنسية فى خمسة مجلدات ، باريس ١٨٠٥ – ١٨١٩ • وكانت هذه الترجمة بناء على أمر نابليون ، واشترك فيها ثلاثة من علماء فرنسا هم : لابورت دى تيل واليترون وجوسلان •

أما أحسن طبعة من هذا الكتاب فهى التى قام بها أغسطس مينيكه ، وهى التى نشرها تويبز (ليبزج ١٨٥٢ – ١٨٥٣) ، وأعيد طبعها مرارا فى ثلاثة مجلدات •

أما الطبعة اليونانية الانجليزية فى سلسلة لويب الكلاسيكية ، فابتدأها جون روبرت ستلنجتون ، وأتمها هوارس ليونارد جونز (ثمانية مجلدات – ١٩١٧ – ١٩٣٢) •

الجامع الصحيح « البخاري »
أبو عبد الله محمد بن اسماعيل
٨٢٠ - ٨٦٠ م

اسم (البخارى) من الأسماء النابهة فى محيط الثقافة الاسلامية فقد ارتبط بتاريخ هذه الثقافة منذ عهد ازدهارها ومجدها ورزقه الله من بعد الصيت حظا منقطع النظير ·

فاذا أطلق هذا الاسم بصدد الحديث عن الكتب انصرف الى كتاب معين هو « الجامع الصحيح المسند والمختصر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه » واذا ذكر فى مجال الكلام عن أعلام الفكر الاسلامى لم يفهم منه غير مؤلف هذا الكتاب فقد غلب عليه وأغنى عن اسمه العلم واختص فى الشهرة به دون من ينتمون الى بلده بخارى من أفذاذ الرجال وهم كثير ·

طور التاسيس والتكوين

وصاحب الكتاب هو أبو عبد الله بن أبى الحسن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبه البخارى مولدا ووطنا ، الجعفى نسبا بالولاء وهذا هو المعروف من نسبه وأسماء آبائه وهو ما تظاهرت عليه جميع المصادر القديمة ·

وأسرة أبى عبد الله البخارى تنتهى فى القديم الى أصل متواضع تربطه بالأرض حرفة الفلاحة وربما فسر هذا الاستنتاج استتار أفرادها خلف أضواء التاريخ فيما قبل حياة البخارى وأبيه ·

فكل ما يعرف عن هذه الأسرة قبلهما أن رأسها (بردزبه) كان فارسى الأصل وأنه عاش ومات مجوسى الدين ·

والمغيرة بن بردزبه كان أول من شرح الله صدره بالاسلام من آباء البخارى والى خراسان فانتمى اليه بالولاء وصارت نسبة الجعفى لقبا له ولذريته من بعده ·

وان ابراهيم بن المغيرة قد عبر الحياة عبور المغمورين ولا يعرف من أمره أكثر من انتسابه الى أبيه وانتساب ابنه ، ولولا أنه رزق هذا الابن لنسى التاريخ اسمه كما نسى كل شيء عنه ·

أما اسماعيل بن ابراهيم فقد كانت حياته مطلع النباهة لهذه الأسرة وكان أول المتجهين من أفرادها الى دائرة النور فغير منهج آبائه فى الحياة وشارك فى الحركة العلمية مختارا أهم جوانبها فى عصره وهو جانب الخدمة لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ·

وقد وفق أبو الحسن بن ابراهيم فى حياته كلها :

وفق فى سلوكه مع الله والناس فاشتهر بالتقوى والورع ولم يعرف عنه الا ما يوجب الثناء والذكر المستطاب ·

ووفق فى علمه فاستطاع بجده أن يرحل الى كبار الأئمة وأن يحدث عنهم ونال بالتقوى فى الرواية والأمانة العلمية ثقة النقاد والمحدثين فروى بالسماع عن مالك بن أنس وعن حماد بن يزيد وصحب عبد الله بن المبارك وروى عنه العراقيون ومنهم : أحمد بن حفص وقد ترجم له ابنه أبو عبد الله فى كتابه « التاريخ الكبير » ووثقه ابن حبان وترجم له أيضا مع الطبقة الرابعة فى كتابه « الثقات » ·

ووفق فى معاشه مثل ما وفق فى عمله فجمع من الثروة حظا وفيرا ، سلك فى جمعه مسلكه فى عمله وتحرز فى كسبه كما تحرز فى روايته وفارق الدنيا مطمئن القلب ·

تنسم محمد بن اسماعيل البخارى أول نسمات الحياة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ١٩٤ هـ وهذا ما يرويه معاصروه فى تحديد مولده ويذكر المستنير بن عتيق : أن البخارى أخرج له هذا التاريخ مكتوبا بخط والده اسماعيل ·

وكان مولده ببخارى التى استوطنها جده المغيرة بعد اسلامه وهى مدينة كبيرة من بلاد التركستان على المجرى الأسفل لنهر زرافستان ، فتحها المسلمون بعد منتصف القرن الأول الهجرى ومنذ توطدت أقدامهم بها لى يد مسلم بن قتيبة صارت واحدة من الحواضر الاسلامية العظيمة ومعقلا للمسلمين فى ذلك الطرف النائى عن مقر الخلافة والسلطان ، ومركزا من أهم المراكز العلمية للثقافة الدينية هناك · وكان ميلاده فى بيت عرفنا حظ صاحبه اسماعيل بن ابراهيم من التقى والعلم والثراء أما صاحبته فقد كانت على شاكلة زوجها فى الصلاح والورع ·

وتشاء الأقدار أن يموت الرجل فى طفولة ابنه محمد قبل أن يرسم له الطريق ولكن عناية الله كانت أرحم بهذا الطفل وأكرم من أن تتركه

للضياع فهيأت له من حدب أمه الصالحة خير العوض عما فقد من رعاية الأب فتولت تربيته وتقويمه وسهرت على توجيهه وتسديد خطاه لا يحفزها الى ذلك حنان الأمومة وحده بل يؤازره ويؤثر فيه معنيان ساميان :

أحدهما : تستمده من الصورة المحيطة بها فى الوطن الاسلامى بعامة وفى موطنها بخارى بخاصة وما يبلغ سمعها أو يتراءى لبصرها من موج النشاط العلمى المتدافـــع فى أرجاء هذا الوطن وما يثمره هذا النشاط للمشاركين فيه من حسن الذكر ورفيـــع الجاه وهذه صورة نبيلة كل النبل لا ترضى أن يحرم ابنها من الظهور فيها بل تتمنى أن يحتل منها أكرم مكان .

والمعنى الثانى : تســـتوحيه من ذكرى زوجها الراحـــل فهى تتمثله دائما فى أروع ما عرفت من صفاته تتمثله رجلا عصاميا نفض عن نفسه خمول أسرته وشق بعلمه طريق المجد والذكر مع النابهين وهى تحب لهذه الذكرى أن تدوم وتعرف السبيل الى دوامها وهو أن ترى معـــالم سيرته حية فى واحد من بنيه وليحقق الله أملها هذا وفقها كل التوفيق فى تنشئة ابنها الصغير محمد ، فوجهته الى الدرب الذى سلكه أبوه من قبل فأتم رسالته وتجاوز القمة من السلم الذى لم يصعد فيه الراحل غير درجات .

والعهد الذى عاشه البخارى فى كنف أمه كان عهد استقرار واقامة دائمة اللهم الا أمدا قصيرا من نهايته هذا الأمد عاشه أيضا فى صحبتها ولكنها كانت صحبة سفر حيث ارتحلت به لحج بيت الله وهناك افترقا فحين انتهى الموسم عادت هى الى وطنها بخارى وبقى هو فى الحجاز ليتابع الحياة على نحو جديد .

وهذا العهد يشكل فى حياة البخارى أخطر أطوارها وأبعدها أثرا فى تحقيق نجاحه فهو ـ على قصره ـ طور التأسيس والتكوين فيه تفتحت مداركه وتكشفت ميوله وفيه تم صقله وتكامل نضجه وفيه اجتمع له من العلم ذخيرة غنية جمعها بالقراءة والحفظ من الكتب وبالسماع والتحمل عن الشيوخ وبالحوار والمناقشة فى مجالس الدرس ، جمعها بكل سبيل من سبل الجمع والتحصيل واتخذها عتادا وسنادا يعتمد عليه فى مقبل أيامه ودعائم ثابتة للبناء العلمى الشامخ الذى اقترن باسمه والذى أكسبه الشهرة والخلود والذكر مع الخالدين .

وتطور البخارى فى هذا العهد كان سريعا دائم الصعود فقد بدأ من طفولته الغضة يتردد على « الكتاب » مع الصبيان ويتلقى من ألوان الثقافة ما اعتاد أهل زمانه أن يلقنوه للناشئين ، غير أنه كان مشرق العقل ساطع

الذكاء واسع الخطو فى طريق النبوغ وكان فى نضج مداركه أسبق منه فى سنى عمره وبذلك استطاع أن يستوفى حظه من التثقيف العام فى أمد قصير وأن يتهيأ للدراسة المتخصصة فى سن مبكرة فيلهم حفظ الحديث وهو فى العاشرة أو ما دونها من عمره ثم يتجه الى التخصص فيه رفى علومه من ذلك الحين .

واتجاه البخارى الى التوفر على حفظ الحديث ودرسه فى هذه السن المبكرة يرجع أول ما يرجع الى توفيق الله وهدايته ولكنه لا يعدم سببا ظاهرا من واقع حياته ومما أحاط به فى نشأته فقد اكتنفت به كثير من الحوافز الدافعة الى هذا الاتجاه .

وحسب البخارى من الحوافز الموجهة أن يستيقظ وعيه على ما يملأ البيت من ذكرى أبيه العالم المحدث وأن تنمو هذه الذكرى كل يوم فى قلبه بما يتردد على سمعه من السيرة العلمية لهذا الأب وبما يتراءى لبصره من جوامع الحديث وكتبه ، حسبه هذا دافعا الى أن يجعل حياته امتدادا لحياة أبيه .

ثم حسبه من الحوافز الموجهة أيضا أن ينظر فيما حوله وحول بلده وأن يتدبر الحركة العلمية ويراها تتجه بكل جهدها الى جانب الثقافة الدينية وتخصص أكبر هذا الجهد لدراسة الحديث وعلومه حسبه هذا ليسير مع الركب ويتابعه فى الاتجاه .

ثم يكفيه أن يرى أئمة الحديث فى وطنه أو يسمع بأعلامهم فى خارج وطنه وأن يعرف ما يحف بهم من هيبة وجلال ، وما يلقون به من توقير واكبار وما يحتمل للقائهم من شد الرحال وما يتحلق حولهم من عديد الطلاب ويكفيه هذا ليتطلع بطموحه الى أن يكون واحدا من هؤلاء الماجدين .

وأيا ما كانت الأسباب الظاهرة لهذا الاتجاه فان استعداد البخارى كان متهيئا له من صغره كان متهيئا له مما وهبه الله من صفاء الذهن ومن قوة الحفظ ومن توفر الرغبة على التحصيل والدرس فاستطاع أن يسبق أقرانه من الصبيان وأن يسمو ببلوغ العاشرة من عمره على زمالتهم فى مقاعد الكتاب وأن يرتفع ــ وهو الحدث الناشىء ــ الى مستوى الكبار من الطلاب فيقتحم الحلقات الملتفة حول الشيوخ ويتردد على مجالس الرواية للسماع من الأعلام .

والظن بصبى لم يزل فى مطلع العقد الثانى من عمره : أن يواريه الصغر خلف الصفوف فى مثل هذه الحلقات وأن يطويه التهيب من كبار السن والسابقين عليه فى طلب العلم فيتأخر به الظهور ولكن البخارى كان فوق الظنون فما اقتحم هذه المجالس الا عن جدارة واستعداد يؤهله

للافادة منها والظهور فيها ومواهبه التى اختصرت له زمان الكتاب قد أسعفته ومكنته من الافادة والظهور فما هو الا زمن يسير حتى لمع نجمه ولفت الأنظار اليه واستطاع - بفطنته ويقظته وتفتح ذهنه وشجاعة قلبه - أن يتعقب الشيوخ من أول عهده بمجالسهم وأن يراجعهم فى سقطات الوهم وأخطائه ويصحح ما قد يند على انتباههم وانتباه تلاميذهم من هذه الأخطاء ٠

ولقد كان هذا الابتداء بشير خير للبخاري في وسطه الجديد ولا شك أن انتصاره في محاورة الداخلي قد زاده ثقة فى نفسه واطمئنانا لمستقبله ثم لا شك انه قد زاده اخلاصا فى العمل واقبالا على الطلب فأصفاه كل وقته وكل جهده فكان لا يكتفي بأن يختلف كل يوم الى مجالس الدرس ولا يقنع بالتلمذة لمن يلتقى بهم من شيوخها بل يدفعه الطموح الى أن ينمى معارفه ويوسع دائرة علمه وأن يتلمس المزيد مما لا يجده عند هؤلاء الشيوخ فلا ينتهى من لقائهم ولا يفرغ من التقاط ما تجود به قرائحهم الا ليتحول الى الكتب يعكف عليها ويشغل وقته بقراءتها وحفظها ويستمر على هذا المنهاج خمسة أعوام بعد مجاوزته مقاعد الكتاب حتى اذا أشرفت هذه الأعوام على التمام كان قد استوعب علم الأعلام المشهورين فى بلده وأربى عليه بحفظ ما وقع له من كتب الأئمة السابقين ٠

وفى سنة ٢١٠ هـ (عشر ومائتين بعد الهجرة) خرج أبو عبد الله من بلده بخارى مودعا عهد الاستقرار والعيش المقيم فى رحاب الأهل والعشيرة متخطيا مرحلة التكوين والتلمذة المحضة، والأفق العلمى المحدود بحدود وطنه خرج مع أمه وأخيه محمد ليؤدوا فريضة الحج فلما انتهى الموسم قفلت الأم الى بخارى مع ابنها الأكبر وبقى هو فى حرم الله وفى جوار بيته ليستقبل العهد الجديد عهد الرحلة الدائبة التى لا تقيم الا بمقدار ما تأخذ من جديد المعرفة فى العلم والرواية وعهد التحصيل فى أفق رحيب يمتد نطاقه على محيط العالم الاسلامى كله ، وعهد التصدر لمنصب الأستاذية فى كل بلد ينزله مع دوام التلمذة لكل من يجد فى الجلوس اليه فائدة ، وعهد التسجيل لحصوله العلمى الغزير وتأليفه على نحو يفيد الاسلام والمسلمين ٠

وقد استهل البخارى هذا العهد استهلالا طيبا مباركا ووفق كل التوفيق فى اختياره لأول نبع يستقى منه العلم خارج وطنه فاختار أكرم المواطن على الله وأشدها ارتباطا بما ندب لتحمله من حديث رسول الله وآثر أن يجعل الحرمين الشريفين طليعة ما يتزود بالرواية عن شيوخه من بلاد المسلمين فأقام بمكة ما أقام ثم رحل الى المدينة فمكث فيها نحو عام حتى اذا استوفى حظا من السماع لمحدثى الحجاز انطلق فى سياحته متنقلا بغيره من الأقطار وتواصلت رحلاته حتى شملت معظم الرقعة

الاسلامية فطوف بأهم المراكز العلمية المنبثة على أديمها فيما بين حدود مصر ناحية الغرب ونهاية خراسان وما وراء النهر فى أقصى الشرق .

البخارى ومبدؤه العلمى فى جمع الحديث

واذا كان البخارى قد تردد على أكثر ما زاره من الأمصار غير مرة ، اذا كانت اقامته المتقطعة بين سفراته تطول حينا وتقصر حينا آخر فما كان حله الا بمقدار ما يفيد وما كان ارتحاله الا ليستزيد أو ليسعد بلقاء شيخ جديد .

لقد كانت غـايته العلم من سـفره وحضره فما ونى عنه لحظة من حياته ولا أشرك فى طلبه والسعى له شيئا من عرض الدنيا وان جل ، بل حصر رغبته فيه وجده ووفر عليه وقته وجهده وما رئى ـ فيما وراء نومه القليل ـ الا وهو على حال من ثلاث : اما جالسا الى شيخ يسمع منه ويتلقى عنه أو متصدرا للحديث على الملتفين حوله من الطلاب أو منقطعا الى القلم والقرطاس يقيد شوارد ما جمع ، ليحفظها بالتدوين من التبدد والضياع وليعدها بالتصنيف والتأليف للانتفاع وسهولة الاطلاع .

وبهذا الجهد الأصيل والقصد النبيل يملأ البخارى عهـد رحـلاته فيقيضـه فى العمل الدائب متعلما ومعلما ومؤلفـا ويبارك الله فى هذا العمل فيخرج به أطيب الثمر ويفيض به الخير على صاحبه ، وعلى الاسلام والمسلمين .

***

وأول ما جنى البخارى من ثمار هذا العهد أن تسنى له من عدد الشيوخ ما لم يقاربه فيه محدث لا فى عصره ولا فيما سبقه أو لحقه فقد جاب الأقطـار وطوف بالأمصـار ولقى أغلب المحدثين فى زمنه وما كان أكثرهم حينذاك وبذلك اتسع سماع وتضاعفت أعداد الذين التقى بهم وهو محصى على وجه التقريب نوعا من هؤلاء وذلك فيما أسلفنا من قوله :

« لقيت أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر وخراسان فما رأيت أحدا منهم يختلف فى هذه الأشياء » « ان الدين قول وعمل وأن القرآن كلام الله » .

(طبقات الشافعية) .

ويحصى على وجه التحديد نوعا آخر فيقول :

« كتبت عن ألف وثمانين نفسا ، ليس منهم الا صاحب حديث » .

والخبران لا يستوعبان كل من لقيهم البخارى فهو يتحدث فى الأول عن نوع معين من الرجال تجمعهم عقيدة واحدة فى أصلين فيدينون جميعا بأن الدين قول وعمل وبأن القرآن كلام الله وقد كان الأصلان مما يثور فيه الخلاف فلعله قال الكلمة فى جدل دائر حولهما تنبيها الى كثرة المؤمنين بهما فى كل مصر ، لا قصدا الى الاحصاء الدقيق ولذلك لم يسلك بتعبيره مسلك التحديد فى العدد ، لأنه لم يقصده ولو قصده لعمد اليه ، ولترك المألوف من تعبير الناس حين يريدون التنويه بالكثرة المطلقة فى شيء فيقولون : انه أكثر من ألف .

وفى الخبر الثانى يتحدث البخارى عن رجال آخرين لاشك أنهم فى المعتقد ممن ذكرهم بخبره السابق ، ولكنهم لايستغرقونهم بل يختصون من دونهم بصفة هى أنه كتب عنهم ولأن التحديد هنا مطلوب فقد حصرهم فى ألف وثمانين نفسا ليس منهم الا صاحب حديث .

ومن وراء هذا العدد الحاصر وذاك العدد المعبر عن الكثرة أعداد لا يدركها الاحصاء التقى بهم وسمع منهم ولكنهم لم يكونوا أهلا للثقة عنده فهؤلاء أطرحهم وما رووا ولا يحسبون فى أولئك ولا فى هؤلاء .

وما أكثر ما ترك البخارى من رواة ومرويات ! يقول محمد بن أبى حاتم : سمعته يقول وقد سئل عن خبر حديث :

« يا أبا فلان ترانى أدلس ؟ تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر وتركت مثلها أو أكثر منها لغيره لى فيه نظر ؟ » .

والنظران فى هذا الخبر يختلفان ، فأولهما بحسب المقاييس المعتبرة عند غيره فى الجرح والتعديل والثانى بحسب مقاييسه الخاصة وهى أشد من تلك وأدق فى نخل الرواة وبهذا النظر وذاك أطرح كثيرا من الرجال شد اليهم الرحال .

وهؤلاء المطرحون لم يعدم البخارى استفادة من لقائهم فقد عرفهم وحفظ أحاديثهم عرفهم ليبتعد عن كل سند دخلوا فيه وحفظ أحاديثهم ليبرىء من عوارها مروياته وكتبه ولهذا لا نعجب اذا سمعناه يقول :

« أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح » .

ومهما تكن القيمة لما أفاده البخارى من لقاء هؤلاء المطرحين فانه لا يعتبرهم شيوخا له وانما شيوخه أولئك الذين وثق فيهم واستحقوا عن جدارة أن يروى لهم وهم على التحديد أولئك الذين كتب عنهم وأحصى عدتهم بألف وثمانين . وسواء فى الأستاذية له من كانوا منهم فوق سنه أو مضاهين له

أو أدنى منه فهو لا يققيس المشيخة بالأعمار ولكن يقيسها بالعدالة والضبط ونزاهة الرواية وصحة المعتقد ومتى اجتمعت هذه الصفات لراو ، تلمذ له ، وسمع منه وحدث عنه وكتب ولتكن سنه بعد ذلك ما تكون ٠

وعنه أنه قال :

« ولا يكون المحدث كاملا حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه » ٠

وهذا مبدأ علمي حكيم ومغزاه أن العلم نفيس أيا كانت أعمار حامليه وأن العالم الحق هو من ينشده في مظانه ولا يترفع عن التماسه من صغير لأنه يرتفع بعلمه الى مقام خطير ٠

شيوخ البخارى روافد لا تحصى

وشيوخ البخارى على كثرتهم وعلى اختلاف أمصارهم يحصرهم المحدثون فى خمس طبقات :

الطبقة الأولى : من حدثه عن التابعين : مثل محمد بن عبد الله الأنصارى حدثه عن حميد ومثل مكى بن ابراهيم وأبى عاصم النبيل فقد حدثاه عن يزيد بن أبى عبيد ومثل عبيد الله بن موسى الذى حدثه عن الأعمش ومثل خلاد بن يحيى الذى حدثهعن عيسى بن طهمان ومثل على ابن عياش وعصام بن خالد فقد حدثاه عن حريز بن عثمان وشيوخ هؤلاء كلهم من التابعين ٠

والطبقة الثانية : من كان فى عصر هؤلاء ولكنه لم يسمع من ثقات التابعين : كآدم بن أبى اياس وأبى مسهر عبد الأعلى بن مسهر وسعيد ابن أبى مريم وأيوب بن سليمان بن بلال وأمثالهم ٠

والطبقة الثالثة : وهى الوسطى من مشايخه وهم من لم يلق التابعين بل أخذ عن كبار تبع الأتباع كسليمان بن حرب وقتيبة بن سعيد ونعيم ابن حماد وعلى بن المدينى ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه وأبى بكر بن أبى شيبة وعثمان بن أبى شيبة وأمثال هؤلاء ٠

وهذه الطبقة قد شاركه « مسلم بن الحجاج » فى الأخذ عنهم ٠

والطبقة الرابعة : رفقاؤه فى الطلب ومن سمع قبله قليلا كمحمد ابن يحيى الذهلى وأبى حاتم الرازى ومحمد بن عبد الرحمن صاعقة وعبد بن حميد وأحمد بن النضر وجماعة من نظرائهم ٠

وانما يخرج عن هؤلاء ما فاته من مشايخة أو ما لم يجده عند غيرهم .

والطبقة الخامسة : قوم في عداد طلبته في السن والاسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله بن أبي العاص الخوارزمي وحسين بن محمد القباني وغيرهم .

وماذا أفاد البخاري من هذه المشيخة الضخمة ؟

لقد فتحت له في المعرفة آفاقا جديدة ذهب الى أبعد غاياتها فاستزاد على ثروته السابقة من الحفظ أضعافا كثيرة ، واستضاف الى حظه من فقه الحديث وعلومه وما يضاهي هذه الزيادة الكبيرة .

أما جانب الرواية والحفظ فقد استجد له بهؤلاء الشيوخ روافد لا تحصى وجاءه من كل شيخ جديد نبع جديد وما زالت هذه الروافد تمده بالفيض الزاخر من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم — ومازالت أمدادها تتوالى على ذهنه الواعي وتنتعش في ذاكرته الحافظة الى أن جمع من ذلك نصيبا موفورا لم يظفر بمثله أحد حتى ليصير الحساب بالألوف فيما يحفظ من أحاديث الباب الواحد ، ويصبح ما يقال في تقدير روايته مثارا للدهشة والعجب .

وفيما يروى عنه أنه قال :

« لو قيل لي « تمن » لما قمت حتى أروى عشرة آلاف حديث في الصلاة الخاصة » .

وهذا مقدار ما يحمله في باب الصلاة وحدها فما عسى أن تكون جملة حفظه اذا انضم اليه ما يحفظه في سائر الأبواب ؟

ويقول وراقة بن أبي حاتم : سمعته يقول :

« مانمت البارحة حتى عددت كم أدخلت في تصانيفي من الحديث فاذا هو نحو مائتي ألف حديث » .

والذي يفهم من هذا أنه يحفظ هذا القدر ، والا ما استطاع أن يستحضره في ذهنه وأن يحصره بالعد قبل أن ينام ولا يفهم منه أنه لا يحفظ غيره لان المؤلف لا يحشد في تصانيفه جميع ما يحفظ بل ينتقي منه ما يناسبها ويؤثرها بما انتقى لها ثم يترك غيره وما أكثر ما يترك ! .

وقد يتوهم أن ما ذكره واحد منهما ادعاء أو مبالغة وذلك اذا قارناه بحقيقة العدد الذي تضمنه كتابه فالبخاري — مثلا — يقول : انه ينظر من كتابه الى مائتي ألف حديث مع أن محتويات الكتاب — الجامع الصحيح — أقل من ذلك بكثير .

والواقع أنه لا تعارض الا في الظاهر فما أراد بعبارته احصاء ما أودع من الأحاديث ولا قصد أن يحدد عددها بسبعين ألفا أو مائتى ألف .

وانما كان حديث كل منهما بصدد البيان لما يستحضره في ذهنه عندما أودعه كتابه وكلاهما يستحضر العدد الذى ذكر ، لأنه مقدار الأحاديث التى تمثلها بذهنه ، وجعلها نصب عينيه ليختار منها مادة الكتاب بل هو مقدار الأحاديث الصحيحة التى انتقى منها هذه المادة ، فضلا عما عداه من غير الصحيح ويؤكد هذا ما روى عنه من وجهين ثابتين أنه قال عن كتابه الجامع الصحيح :

« أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بينى وبين الله » .

فهذه الستمائة ألف فيها الصحيح وغيره فترك غير الصحيح كله لأنه لا يرضى لكتاب من كتبه أن يتضمن شيئا منه ، ثم ترك من الصحيح كثيرا حتى لا يطول الكتاب وهو يصرح بذلك فيما ينقله الرواة عنه فيروى الاسماعيلى انه قال : « لم أخرج فى هذا الكتاب الا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر » .

البخارى من الأفذاذ الذين اختارتهم الأقدار لخدمة الحديث النبوى

وقد يصادفنا بعض المطبوعين على التهجم ، أولئك الذين يريبهم دائما أن يذكر الناس بالفضل ويطعنون كل حقيقة بالشك قد يصادفنا بعض هؤلاء فينكرون كل ما روى عن البخارى فى عد محفوظه ويعتبرونه اختلافا من الرواة عليه أو ادعاء وتزيدا منه ولهؤلاء نقول : انه لا اختلاق ولا ادعاء وما هى الا الحقيقة الخالصة ففى الرجال نوادر من الأفذاذ النابهين تختارهم الأقدار لبعض جوانب النشاط الانسانى وتسمو بقدراتهم وطاقاتهم فيه على المعايير المألوفة للناس ولا تجود بأمثالهم الا بين الحين والحين وهؤلاء لا ينبغى لأحد أن يقيسهم بطاقته المحدودة ولا أن يتعرض لأقدارهم قبل أن يتعرف على مواهبهم وكفاياتهم وأن يعتبرها بمتطلبات النشاط الذى وجهتهم العناية اليه وملكتهم زمام الشهرة فيه فان كانت مواهبهم دون ما نالوا من شهرة فليطعن بما شاء والا فليقطع كل لسان قبل أن يمسهم بسوء .

والبخارى واحد من هؤلاء الأفذاذ النادرين والعمل الذى وهبه حياته هو خدمة الحديث النبوى الشريف والامتياز الذى ناله كان فى متطلبات

هـذا العمل ومن أهمها الحفظ الغزير والأعداد التى رويت فى تقـدير المشهور من حفظه لا تعلو على مستوى كفايته بل هى دونه بكثير فالعناية التى اختارته لهذا العمل العظيم منحته من أسباب التوفيق ما يضمن له النجاح وسلحته من استعداده النفسى يرجع فى أسبابه الظاهرة الى أنه وفق من صغره فى اختيار عمله وقد عبر عن هذا أروع تعبير حين قال : « ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكتاب » فكأنما بما اختار من كلمة الالهام يعبر عن ابتهاجه بما وفق اليه ، ويعلن الشكر على أن هداه الله لما يوافق ميله ويناسب طبعه وليس بالأمر الهين أن يوفق الانسان فى اختيار عمله أيا كان نوعه فهو عنصر مهم للنجاح ، لأنه يملأ النفس ارتياحا للعمل ويوفر رغبتها فيه وتعلقها به ويضمن استمرارها على الاخلاص له فما بالنا اذا كان عملا دينيا جليلا لو افترضنا أنه لا يعقب كسب الدنيا كان من المحقق أنه يكسب ثواب الآخرة ؟

وقد تجلت هذه المعانى فى البخارى بأروع صورهـا وتمثلت فى انقطاعه لخدمة الحديث طيلة عمره وفى شدة اقباله على طلبه وجمعه فى تفريغ باله من كل شىء الا منه واشتغال قلبه به حتى فى أوقات الراحة والنوم شواهد ذلك فيما يرويه أصحابه ·

★★★

هذا هو البخارى الذى وهب حياته لخدمة الحديث وجمعه ووفق فى اختيـار هذا العمل من صغره فاطمأنت نفسه اليه وامتلأت رضا به فاقبلت بكل جارحة عليه وأخلصت وقتها وجهدها له وأفنت عمرها فيه ·

وهذا هو البخارى وما منح من قوى عقلية فذة تلائم عمله ، فصفاء ذهنه نادر المثال وقوة حفظه تسابق السمع والبصر فى الوعى والتسجيل وتنافس البحر فى اتسـاع الجنبات والتقبـل لكل فيض يجىء فتحفظ الكتاب من اطلاعة واحدة وتسـتوعب خمسة عشر ألف حديث فى ستة عشر يوما وتبهر الناس فيظنونها مجتلبة بعلاج وتثبت فى مواقف التحدى فلا تضطرب ولا تخور ·

هذا هو البخارى وهذه استعداداته ومواهبـه ، فليس بالكثير ولا الغريب أن يذكر فى حفظه ما ذكر من الأعداد ·

★★★

مؤلفات البخاري

ويبقى بعد ذلك بيان ما صنفه البخارى من كتب وعمدتنا فيه ما صنعه الامام الحافظ بن حجر فقد عد له واحدا وعشرين كتابا وذكر مع الكثير منها أسماء من عرفوا بروايتها أو الذين انتفعوا بالنقل عنها ، ونبه على ما كان موجودا منها عنده ومرويا له بالسماع أو بالاجازة وهذه هي الكتب على حسب ترتيبها في ذكره لها ، بالجزء الثانى من كتابه « هدى السارى » :

١ ـ الجامع الصحيح : وسنتحدث عنه بتفصيل فيما بعد ونكتفى هنا ببعض ما ذكره ابن حجرعن رواته ومنها : ان الذين سمعوه من البخارى تسعون ألفا وان الفربرى واحد منهم وان روايته هى التى اتصلت بالسماع فى عصر ابن حجر وما قبله .

٢ ـ الأدب المفرد .

٣ ـ رفع اليدين في الصلاة .

٤ ـ القراءة خلف الامام .

٥ ـ بر الوالدين .

٦ ـ التاريخ الكبير : وهو ثانى كتبه فى التاليف ألفه فى الليالى المقمرة عند قبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الثامنة من عمره وهو الكتاب الذى بلغ من اعجاب الامام اسحاق بن راهويه به أن حمله الى الأمير عبد الله بن طاهر وقال له : أيها الأمير الا أريك سحرا ؟ وهو الكتاب الذى يقول فيه أبو أحمد الحاكم : انه « كتاب لم يسبق اليه ومن ألف بعده شيئا من التاريخ أو الأسماء أو الكنى لم يستغن عنه فمنهم من نسبه الى نفسه مثل أبى زرعة وأبى حاتم ومسلم ومنهم من حكاه عنه فالله يرحمه فانه الذى أصل الأصول «طبقات الشافعية» » .

٧ ـ التاريخ الأوسط .

٨ ـ التاريخ الصغير .

٩ ـ خلق أفعال العباد .

١٠ـ كتاب الضعفاء .

وابن حجر يعقب على هذه العشرة بقوله : « وهذه التصانيف موجودة مروية لنا بالسماع أو بالاجازة » .

١١ـ الجامع الكبير .

١٢ـ المسند الكبير : ويظهر أنه مع الجامع الكبير قد اشتملا على كل الأحاديث الصحيحة التى قال انه يحفظها والتى اختصر منها كتابه

« الجامع المسند الصحيح » بدليل أنه يسميه المختصر أيضا ويظهر أن هذا الكتاب قد أخملهما وصرف الناس عنهما ، فلم يبق من أثرهما فى زمن ابن حجر غير ما يرد من تسميتهما فى الكتب أو على السنة الشيوخ .

١٣ـ التفسير الكبير : ذكرى الفربرى أنه كان مع البخارى وهو يؤلفه أثناء اقامته فى « فربر » وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة الجزائر كما فى « دائرة المعارف الاسلامية » ونسخة أخرى فى مكتبة باريس كما يقول « بروكلمان » .

١٤ـ كتاب الأشربة .

١٥ـ كتاب الهبة .

١٦ـ كتاب « أسامى الصحابة » : ذكره أبو القاسم بن منده وذكره أنه يرويه عن طريق ابن فارس سماعا عن البخارى ، وقد نقل منه أبو القاسم البغوى للكبير فى كتابه « معجم الصحابة » ونقل منه أيضا ابن منده فى كتابه « المعرفة » .

١٧ـ كتاب « الوحدان » : وهم من ليس لأحدهم الا حديث واحد من الصحابة وقد نقل منه ابن منده فى كتابه « المعرفة » أيضا .

١٨ـ كتاب « المبسوط » .

١٩ـ كتاب « العلل » .

٢٠ـ كتاب « الكنى » .

٢١ـ كتاب الفوائد .

هذا هو الثبت الذى أورده ابن حجر وهو لا يشمل الا ما عرفه من كتب البخارى وقد كانت له كتب أخرى لم يصله علمها فلم يذكر منها :

٢٢ـ كتاب « سنن الفقهاء » .

٢٣ـ كتاب « الضعفاء » : وهو كتاب آخر فيهم غير ما ذكره ابن حجر فقد أورده مجردا عن الوصف مع أن للبخارى كتابين بهذا الاسم أحدهما « الضعفاء الكبير » والثانى « الضعفاء الصغير » ، ولكل منهما نسخة خطية فى مكتبة « باتنه » والثانى منهما طبع مرتين احداهما مع كتاب المنفردات والوحدان لمسلم سنة ١٣٢٣ هـ والأخرى منفردا سنة ١٣٢٥ هـ . ومنهما كذلك :

٢٤ـ كتاب « قضايا الصحابة والتابعين » : وهو أول كتاب ألفه .

ولا مجال للاشتباه فى أن يكون هو المذكور باسم « أسامى الصحابة » لعطف التابعين على الصحابة فيما ذكر هنا ، لأنه جعله خاصا بمن

له قضاء فى أحكام الشريعة من الفريقين فان هذا وذلك مما يبعد أن يكون الاسمان لكتاب واحد ·

ولا نستبعد أن تكون للبخارى كتب أخرى قد غابت مع أسمائها · واذا كان ابن حجر قد فاته استيفاء كتبه مع شدة غرامه به وشدة تقصيه لأخبساره وكثرة ما روى من كتبه فليس من المســــتبعد أن يفوت هذا الاستيفاء على غيره من المؤرخين ·

هذا ما يعرف الآن من الكتب الباقية للبخارى ونرجو الله أن يقدر الباحثين على معرفة غيرها بين ما تغيبه بطون المكتبات من نفائس الذخائر ونسأله ـ سبحانه ـ أن يكتب لما بقى من مخطوطاتها أن يطبع وينشر وان ينفع المسلمين بها استجابة لرجاء صاحبها انه سميع مجيب ·

ولعلنا بما أسلفنا من سيرة البخارى قد استطلعنا مبلغ توفيق الله له فى حياته العلمية وأدركنا مقدار نجاحه فى كل مظهر من مظاهر هذه الحياة ·

فقد رأيناه تلميذا طموحا يخلص نفسه لطلب العلم فيجعله غاينه ووكده ، ويصفيه وقته وجهده ويرتحل اليه بكل مصر ، وينتجع له كل شيخ ولا يكون له مأرب سواه ·

ورأيناه أستاذا نابها موثوقا بعلمه مرموقا فى كل مكان فيستوقفه الناس فى الطرقات ليكتبوا عنه ويجلس اليه الشيوخ والأقران ليفيدوا منه ويكثر عدد تلاميذه حتى اليعدون بعشرات الألوف ·

ورأيناه مؤلفا موهوبا خصيبا فى نتاجه حصيفا فى تأليفه فيخرج من عديد كتبه ما يستوعب فروع تخصصه ويتجهز لكل كتاب بما وسعته كفايته من مادة علمه ويأخــذ نفســه فى تأليفه بالأناة والصبر ويعــاوده المرات بالمراجعة والنظر وبالتنقيح والتهذيب حتى يبلغ به الرضــا عن نفسه ، ومن نفوس العلماء ·

وقد وجدت هذا الكمال العلمى عند البخارى ، ما يؤازره ويجعله من كمال نفسه فقد كان رحمه الله ـ انسانا سويا عظيم الخلق رضى السلوك مع الناس ومع الله وبذلك تواشجت عناصر شخصيته وتلاقت على الرشد واستوقف حظها من صفات العلماء والأبرار ·

فقد كان شجاع الرأى جريئا فى الحق فلا يجمجم على الخطأ مهما يكن مصدره ولا يقدم على تصويبه ولكن يبادر ببيان حاله قبل أن يجوز على عقول شهوده ولهذه الشجاعة العلمية كان لا يصبر على أغلاط شيوخه بل يسارع بالتنبيه عليها قبل أن تمر ويظنها الحاضرون صوابا وكانت هذه السنة شعاره منذ صغره ·

كتاب البخارى

أعظم عمل علمى يجله المسلمون

لقد وجد قبل محمد بن اسماعيل البخارى كثير من الأئمة الذين أخلصوا النية فى جمع الحديث النبوى الشريف وصدقوا الهمة وبذلوا غاية الوسع لخدمته والعناية به ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه أبو عبد الله من بعد الصيت وسمو المنزلة بين الناس ٠

ولا عجب فى أن يتسامى البخارى فى فضله على أهل عصره ولا فى أن ينفرد دونهم جميعا بأوسع مجال للشهرة وأرفع مقام من التقدير فقد اجتمع له ما لم يجتمع لأحدهم من مظاهر النبوغ والامتياز ومن تكامل الصفات العلمية والخلقية وبذلك سطع نجمه عاليا فى الآفاق فتضاءلت أمامه أقدار الرجال كما تسطع الشمس فيذوب فى ضوئها الباهر ونور وقد تبينا حقيقة ذلك فيما أسلفنا من حديثنا عنه ٠

ثم لا عجب في أن يمضى البخارى الى ربه ويبقى اسمه مستأثرا بموضع الفاتحة من كتاب المحدثين لا ينافسه فيه مزاحم وأن يظل منفردا بالمقام الأسمى دون أن يرتفع الى سمائه واحد ممن جاءوا بعده ، لا عجب فى ذلك وقد ارتبط اسمه وذكره بأعظم عمل علمى يجله المسلمون وهو كتابه الذى ضمنه أصح ما صح عنده من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والذى عرف المسلمون عالى قدره فعظموه واعتبروه أصح كتاب بعد كتاب الله وذلك هو الكتاب الذى نشرع الآن فى التعريف به ٠

والاسم الذى اختاره البخارى لهذا الكتاب هو : « الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه » كما رواه ابن حجر وهو : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه » كما يذكره ابن الصلاح وليس بين الروايتين كبير اختلاف،وبخاصة اذا صح ما نرجحه وهو أن كلمة « المختصر » قد سقطت بسهو النساخ من عبارة ابن حجر فى مطبوعة « هدى السارى » ، بدليل أنه ذكرها بعد كلمة «المسند» فى مقدمة كتابه « النكت » وهو كتاب أراد أن يجعله مختصرا لكتاب « فتح البارى » ولكنه مات قبل أن يفرغ منه ٠

والاسم على كلتا الروايتين فيه طول غير مألوف فى أسماء الكتب وليس من السهل أن يورده المتكلم بتمامه عندما يقصد الاشارة الى الكتاب ولذلك كان البخارى نفسه يجتزى ببعض ألفاظ هذا الاسم تحاشيا للطول ٠

فربما سماه « الجامع الصحيح » كما ورد فى قوله : « كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم مختصرا لصحيح سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع « الجامع الصحيح » .

وربما اكتفى بتسميته « الجامع » كما جاء فى قوله : « ما أدخلت فى كتابى (الجامع) الا ما صح وتركت من الصحيح حتى لا يطول » .

وربما اقتصر فى التسمية على كلمة « الصحيح » ومن ذلك قوله : ما كتبت فى كتاب « الصحيح » حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين .

بل ربما ابتعد عن الاشارة الى الكتاب عن كل الألفاظ التى تألف منها عنوانه فسماه « البخارى »وجعله شريكا له فى الشهرة بهذا الاسم بين الناس وذلك كما جاء فى قوله من رواية محمد بن أبى حاتم الوراق : « لو نشر بعض أستارى !! هؤلاء لم يفهموا كيف صنفت « البخارى » ولا عرفوه » .

واذا كان البخارى قد أطال فى تسمية كتابه فقد جعل اسمه بهذا الطول غير المألوف عنوانا دقيقا شاملا لكل مزايا الكتاب وخصائصه وموضحا لمنهجه فى تأليفه وهذا أمر بين يدركه كل من درسه ومارس القراءة فيه .

فهو « جامع » لانه لم يقتصر فيه على أحاديث موضوع واحد كما كان يصنع كثير من المؤلفين قبله وكما صنع هو فى بعض كتبه الأخرى بل نوع فى موضوعاته وجعله شاملا لفروع كثيرة من العلم فى الأحكام، والفضائل، والآداب ، والتفسير ، والأخبار ولذلك بلغت أبوابه ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسين بابا فى بعض نسخ الأصول جمع فيها مقادير كافية لتحقيق ما أراد من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسنه وأيامه .

وهو « صحيح » فى كل ما أورده من أحاديثه الأصول وهى التى أخرجها فى متون الأبواب موصولة السند الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأفردها بطابع يميزها وينبه اليها وهو التصريح بقوله « حدثنا » وما يقوم مقامها والعنعنة بشروطها الذى التزمه وتشدد فيه ، فكل حديث ورد فى كتابه على هذا النحو فهو صحيح عنده .

ولعله مما يجمل فى هذا الموضع أن نبين صنيع البخارى لتمييز الأحاديث التى أوردها بالكتاب معتمدين فى ذلك على ملاحظة الحافظ بن حجر وهى ملاحظة جديرة بالتقدير .

فهو ان وجد حديثا يناسب الباب ولو على وجه خفى ووافق شرطه أورده فيه بالصيغة التى جعلها مصطلحة لموضوع الكتاب وهى : « حدثنا » وما قام مقامها والعنعنة بشرطها عنده ٠

وان لم يجد فيه الا حديثا لا يوافق شرطه مع صلاحيته للحجة كتبه فى الباب مغايرا للصيغة التى يسوقها بها ما هو من شرطه ومن ثم أورده التعاليق ٠

وان لم يجد فيه حديثا صحيحا لا على شرطه ولا على شرط غيره وكان مما يستأنس به ويقدمه قوم على القياس ، استعمل لفظ ذلك الحديث أو معناه ترجمة باب ، ثم أورد فى ذلك اما آية من كتاب الله تشهد له أو حديثا يؤيد عموم ما دل عليه ذلك الخبر ٠

ولا يعكر على وصف الكتاب بالصحة أن أشتمل على أحاديث أخرى ليست من شرط صاحبه لا يعكر هذا ما دام البخارى قد أعطى كلا من النوعين ما يميزه عن الآخر وعلى هذا الاعتبار — اعتبار تمييزه كلا من الصحيح وغيره بطابع خاص — يجب أن نفسر ما رواه ابراهيم بن معقل النسفى من قوله : « ما أدخلت فى كتابى الجامع الا ما صح » بأن المراد أنه على هذا النحو وبهذا الطابع الخاص من صلة على الطريقة المعينة ويؤكد صحة هذا التفسير ما رواه الاسماعيلى من قوله : « لم أخرج من هذا الكتاب الا صحيحا » فمعناه أنه لم يورده على غرار ما التزمه فى أحاديثه الأصول ٠

وهو « مسند » بالنظر الى أحاديثه الأصول أيضا فهو لم يورد فى الكتاب شيئا من المراسيل والمنقطعات والبلاغات اللهم الا ما يكون فى غير الأصل كالتعليقات والتراجم وقصر متون الأبواب وأصول أحاديثها على ما اتصل سنده بأحد الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا كان أو فعلا أو تقريرا ٠

والحق أن الصحة والاسناد متلازمان فاتصال السند شرط فى الصحيح عنده وما دام موضوع كتابه هو الأحاديث الصحيحة كان لابد أن تجىء متون أبوابه وأصولها جميعها مسندة ، وهذا ما تم لكل أصول الأبواب والأحاديث التى هى من الموضوع الأصيل للكتاب ٠

ولا يعنى هذا أن كل ما ترك البخارى اسناده فى الكتاب ليس من الصحيح على شرطه فالواقع أن فيما أورده غير موصول أحاديث صحيحة على شرطه ، وأخرى لاتعد عنده من الصحيح ٠

أما ما كان مهما صحيحا على شرطه فهو يورده بغير اسناد لواحد من أمور ٠ اما قصدا الى التخفيف لأنه ذكره فى موضع آخر موصولا ، اذ من

قاعدته أنه لا يكرر الا الفـائدة فمتى ضاق المخرج ، واشتمل المتن على أحكام فاحتاج الى تكريره ، فانه يتصرف فى الاسناد بالاختصـار خشية التطويل ، فهو يترك الاسناد عمدا تجنبا للتـكرار واعتمادا على أن صحة الحديث تعرف من ذاك الموضع الذى وصله فيه ٠

واما الاستغناء عن وصله بوصل غيره وايراده معلقا لافادة الاشارة اليه وتجنيب اهماله ، واما لانه لم يسمع من شيخه أو سمعه مذاكرة أو شك فى سماعه ولذلك لم يستسغ أن يسوقه مساق الأصول ٠

وكذلك فعل بالأحاديث التى لا تكتسب وصف الصحة على شرطه فقد تعمد ترك اسنادها لينبه على أنها خارجة عن موضوع كتابه ٠

وهو « مختصر » لأنه لم يستوعب فيه كل ما صح عنده من حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - بل اقتصر فيه على مقدار يسير جدا مما كان يحفظه من صحاح الحديث فقد كان له منها ثروة طائلة حتى صرح فى بعض أحيـانه أنه يحفظ مائة ألف حـديث صحيح وأين يقع منها مقدار ما اختاره للكتاب؟٠٠وهو لم يقتصر على هذا اليسير الذى أورده الا ليحمى الكتاب من الطول فاكتفى فى كل باب بما يثبت أصل موضوعه وان كان وراءه الكثير والأكثر من الصحيح ، رغبة فى الاختصار ٠

وقد صرح بهذا المعنى قال : « ما أدخلت فى كتابى الجامع الا ما صح وتركت من الصحيح حتى لا يطول » وصرح مرة أخرى بأنه ما تركه من الصحاح أكثر مما أخذه للكتاب وذلك فيما رواه الاسماعيلى من قوله : « لم أخرج فى هذا الكتاب الا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر » قال الاسماعيلى : « لانه لو أخرج كل صـحيح عنده لجمع فى الباب الواحد حديث جماعة من الصحابة ولذكر طريق كل واحد منهم اذا صحت فيصير كتابا كبيرا جدا وهذا قول وجيه ، لأن ما أورده فى الكتاب لا يصل الى عشر المعشار بالنظر الى محفوظه من صحاح الأحاديث ٠

***

هذه هى الصفات التى تضمنها اسم الكتاب والتى حرص البخارى على أن يحققها فيه ٠ ولا شك أن وصف الصحة هو أهمها وقطب الرحى منهـا ، فالى أى مدى ذهب البخارى فى تحرى هذا الشرط وفى تطبيقه على الأحاديث التى هى أصل موضوع الكتاب ؟

ان مدار الحديث الصحيح - كما يقول الحافظ بن حجر - انما هو على اتصال السند واتقان الرجال وعدم العلة وقد ارتفع البخارى فى كل منها الى منزلة عالية ٠

***

فاتصال السند قد تشدد البخاري في تحريه ، الى حد لم يبلغه غيره ويظهر ذلك في نظره الى الاسناد المعنعن ، فهو لا يعطيه حكم الاتصال الا اذا ثبت عنده اجتماع المعنعن عنه ولو مرة وقد أظهر هذا المذهب في تاريخه وجرى عليه في صحيحه وأكثر منه حتى انه ربما خرج الحديث الذي لا تعلق له بالباب جملة وما ذلك الا ليبين سماع روايته من شيخه ، لأنه قد أخرج له قبل ذلك شيئا معنعنا ٠

واشتراط اللقاء بين المعنعن وشيخه من الأمور الخاصة بالبخاري والتي تميز بها عن كل أصحاب الصحيح ومنهم الامام مسلم حيث كان يكتفي بالمعاصرة لاعطاء الاسناد المعنعن حكم الاتصال ٠

***

واتقان الرواة كان من الأمور التي يتحراها البخاري جهده في رجاله، ولذلك اذا نظرنا الى المتحدث فيهم من رواته وجدنا عددهم قليلا بالنسبة الى جملة من روى عنهم في الكتاب ويهون من شأن وجودهم بين رجاله أنه لم يكثر من تخريج أحاديثهم وأن أكثرهم من شيوخه الذين لقيهم وعرف أحوالهم واطلع على أحاديثهم وميز جيدها من موهومها ٠

وقد تعرض الحافظ بن حجر لدراسة أحوال هؤلاء المتكلم فيهم من رجال البخاري دراسة ناقدة ، وقدم لذلك بقاعدة عادلة في اعتمادها انصاف لأكثر المطعون عليهم من رجال الصحيح وبخاصة رجال البخاري ومسلم ولذلك نوردها بتمامها ٠

قال الحافظ بن حجر : « ينبغي لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأي راو كان مقتضيا لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته ولا سيما ما انضاف الى ذلك من أطباق جمهور الأئمة على تسمية الكتابين بالصحيحين وهذا معنى لم يحصل لغيره من خرج عنه في الصحيح فهو بمثابة اطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما هذا اذا خرج له في الأصول ، فأما ان خرج له في المتابعات ، والشواهد ، والتعاليق ، فهنا تتفاوت درجات من أخرج له منهم في الضبط وغيره من حصول اسم الصدق لهم وحينئذ اذا وجدنا لغيره في أحد منهم طعنا فذلك الطعن مقابل لتعديل هذا الامام فلا يقبل الا مبين السبب مفسرا بقادح يقدح في عدالة هذا الراوي وفي ضبطه أو في ضبطه لخبر بعينه ، لأن الأسباب الحاملة للأئمة على الجرح متفاوتة منها ما يقدح ومنها ما لا يقدح وقد كان الشيخ أبو الحسن المقدسي يقول في الرجل الذي يخرج عنه في الصحيح : « هذا جاز القنطرة » يعني بذلك أنه لا يلتفت الى ما قيل فيه ، قال الشيخ أبو الفتح القشيري في مختصره :

« وهكذا نعتقد ، ابه نقول ، ولا نخرج عنه الا بحجة ظاهرة وبيان شاف يزيد فى غلبة الظن على المعنى الذى قدمناه من اتفاق النـاس بعد الشيخين على تسـمية كتابيهما بالصـحيحين ومن لوازم ذلك تعـديل رواتهما » .

ونتيجة هذه القاعدة ـ كما قررها ابن حجر ـ أنه لا يقبل الطعن فى واحـد منهم الا بقادح واضح من أسباب الجرح المختلفة وهى : البـدعة والمخالفة والغلط وجهالة الحال ودعوى الانقطاع : بأن يدعى أن الراوى كان يدلس أو يرسـل وقد شرح هذه الأسباب مبينـا درجات كل منها وطريقة تطبيقه وذكر نتيجة مجملة لهذا التطبيق على رجال البخارى فى عمومهم وهى نتيجة مشرفة وباعثة على الاطمئنان اليهم كل الاطمئنان .

ثم أتبع ذلك بحـديث مفصـل عن المتكلم فيهم ممن أخرج البخارى أحاديثهم فى صورة الاتصال فتحدث عن كل واحد منهم مع حكاية الطعن الموجه اليه والتنقيب عن سببه والقيـام بجوابه والتنبيه على وجه رده ، وحق له بعد هذا الوزن الدقيق أن يقول : « قد وضح من تفاصيل أحوالهم ما فيه غنى للمتأمل ولاح من تمييز المقالات فيهم ومقدار ما أخرج المؤلف لكل منهم ما ينفى عنه وجه الطعن للمتعنت » .

ثم سلك هـذا المسلك بايجاز فيمن طعن عليهم ممن علق البخارى شيئا من أحاديثهم ، فعلى رغم أنه لا يضر البخارى شىء مما قيل فيهم ولو كان قادحا فانه لم يشأ أن يتركهم نهبا للطعون الباطلة .

وبعـد أن فرغ من وزنه لهؤلاء وأولئك ، ومن حديثه عنهم واحدا فواحدا وتبين ما له وما عليه بعد ذلك سرد أسماء المضعفين منهم دون حق بسبب الاعتقاد وأسماء المضعفين بأمر مردود كالتحامل أو التعنت أو عدم الاعتماد على المضعف لكونه من غير أهـل النقـد ، أو لكونه قليل الخبرة بحديث من تكلم فيه أو بحاله أو لتأخر عصره ... الـخ .

ثم عقب على ذلك بقوله :

« فجميع من ذكر فى هذين الفصلين ممن احتج به البخارى لا يلحقه فى ذلك عيب لما فسرنـاه وأما من عدا من ذكر فيهما ممن وصف بسوء الضبط أو الوهم أو الغلط ونحو ذلك ـ وهو القسم الثالث ـ فلم يخرج لهم الا ما توبعوا عليه عند غيره وقد شرحنا من ذلك ما فيه كفاية ومقنع » .

واذا صـفينا حساب المتكلم فيهم من رجال البخارى بعد صـنيع الحافظ بن حجر تبين أن هذا القسم الأخير قلة ومع ذلك لا يضير البخارى أنه خرج لهم شيئا توبعوا عليه لأنه صار قويا بالمتابعة .

★★★

أما الأمر الثالث مما يدور عليه الصحيح وهو عدم العلة فقد تحقق لصحيح البخارى منه أوفر الحظ وقد تتبع النقاد أحاديثه فكانت جملة ما يأخذه عليه المغالون عشرة ومائتى حديث شاركه مسلم فى اثنين وثلاثين منها وانفرد هو بثمانية وسبعين حديثا والعدد جميعه على فرض التسليم فيه لهؤلاء المغالين — لا يمثل الا قدرا ضئيلا بالنسبة لما تضمنه الكتاب من ألوف الأحاديث .

ومع ذلك فأن مآخذ هؤلاء النقـاد لم تسلم على التمحيص فقد كان للبخارى نقاد آخرون كشفوا وجه الحق عن صحة هذه الأحاديث اللهم الا نزرا يسيرا لا يؤثر فى أصل موضوع الكتاب .

والحافظ بن حجر أحد الذين انتدبوا لتبيان الحق فى هذا الأمر فبدأ بدفاع اجمالى يشمل البخارى ومسلم ، وشفعه بتقسيم الأحاديث التى انتقدت عليهما الى ستة أقسام مع بيان طريقة الفصل بين الصحيح والمعل فى كل قسم ثم تناول الأحاديث فوضعها واحدا بعد واحد فى الميزان ، ثم سجل خلاصة بحثه عقب آخر حديث منها فى قوله : « هذا جميع ما تعقبه النقاد والعارفون بعلل الأسانيد المطلعوم على خفايا الطرق .. وليست كلها قادحة بل أكثرهم الجواب عنه ظاهر والقدح فيه مندفع وبعضها الجواب عنه محتمل واليسير منه فى الجواب عنه تعسف كما شرحته مجملا فى أول الصـــل وأوضحته مبينـــا أثر كل حديث منهـــا فاذا تأمل المنصـــف ما حررته من ذلك عظم مقدار هذا المصنف فى نفسه وجل تصنيفه فى عينه، وعذر الأئمة من أهل العلم فى تلقيه بالقبول والتسليم وتقديمهم له على كل مصنف فى الحديث والقديم وليسا سواء من يدفع بالصدر فلا يأمن دعوى العصبية ومن يدفع بيد الانصاف على القواعد المرضية والضوابط المرعية فلله الحمد الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .. » .

مكانـــة الكتاب العلميـــة

وحسبنا ما قدمنا من أوصاف الكتاب ففيه الكفاية لكشف المهم من مزاياه وفى ضوئه نستطيع أن نبين منزلته بين كتب الحديث ما سـبقه منها وما تأخر عنه .

والمتتبع لحركة التدوين فى الحديث يـدرك لأول وهلة أن كتاب البخارى كان فتحا جديـدا فىخدمة السنة النبوية وأنه لم يسبق بنظير أو مقارب فى سمو مكانته العلمية فما صنف على غراره منذ ابتدأ المسلمون كتابة الحديث على عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى جاء البخارى فاهتدى الى طريقته الجديدة .

وبيان ذلك أن ما دون من الحديث على عهد النبوة وفي عصر الصحابة لم يكن مدونا في جوامع ولا مرتبا على أبواب وانما كانت صحائف يجمع فيها الصحابي ما سمعه من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وصحيفة أنس بن مالك وصحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري أو صحائف يجمع فيها الصحابي ما سمعه هو بنفسه مع ما بلغه به أحد الصحابة الذين سمعوه من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كالذى يروى عن صحيفة كانت لأبي بكر — رضي الله عنه — ثم أحرقها مخافة أن يكون فيها شيء أخذه عمن ائتمنه ووثق فيه وهو غير أهل للثقة والائتمان .

وقبل نهاية القرن الأول كان قد جد من الأمور ما قويت معه الحاجة الى مضاعفة الجهد في تدوين الحديث فكتب عمر بن عبد العزيز — رضوان الله عليه — الى أهل الآفاق يحثهم على جمع الحديث وتدوينه خوفا من دروس العلم وذهاب العلماء فكان من أوائل المستجيبين له : أبو بكر بن حزم ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى حيث كتب له الأول — كما طلب منه — ما كان من الحديث عند عمرة بنت عبر الرحمن الأنصارية وكتب الثاني مؤلفه الذى انتفع به كثير ممن جاءوا بعده .

ثم تتبع التدوين بعدهما من علماء الأمصار .

فمنهم من كان يصنف الأحاديث في مجموعات تشتمل كل منها على باب واحد ومن أول المؤلفين على هذا النحو الربيع بن صبيح وسعيد ابن أبي عروبة .

ومنهم من كان يدون الأحاديث مرتبة على أبواب الأحكام من هؤلاء : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج والامام مالك بن أنس بالمدينة وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي بالشام وسفيان بن سعيد الثورى بالكوفة وحماد بن سلمة بن دينار بالبصرة وعبد الله بن وهب والليث ابن سعد بمصر .

ومنهم من ألف على المسانيد ومن هؤلاء أبو داود سليمان بن داود الطياسي ومسدد بن مسرهد بالبصرة وعبيد الله بن موسى العبسى بالكوفة وأسد بن موسى الأموى ونعيم بن حماد الخزاعي بمصر والامام أحمد ابن حنبل ببغداد وعثمان بن أبي شيبة .

ومنهم من ألف الأبواب والمسانيد معا كأبي بكر بن أبي شيبة .

والجهود التى بذلها هؤلاء النبلاء جهود مشكورة وأجرهم عليها مضاعف عند الله غير أن الانتفاع الكامل بمؤلفاتهم كان ضيق الحدود .

فالكتب التي ألفت على أبواب الأحكام لم يقتصر أصحابها على حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بل ضموا اليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم وذلك تحقيقا لأغراضهم من تبيين الأحكام الفقهية ٠

وكتب المسانيد لا يمكن الرجوع فيها الى حديث الا اذا عرف الصحابى الذى روى عنه ليمكن البحث عنه فى مسنده ٠

هذا الى ما يؤخذ على النوعين جميعا وهو جمعها لكل ما يصل اليه المؤلف من أحاديث سواء منها : الصحيح والحسن والضعيف ٠

ولا شك فى أن كل نمط من أنماط التأليف السابقة كان موافقا لمتطلبات عصره ومناسبا لطور التأليف لا يقتضى غيره ولكنها ــ بتقدم الزمن ــ أصبحت دون ما ينبغى عمله فى نظر المحدثين وتولد فى نفوسهم احساس بضرورة عمل جديد تكون غايته خدمة الحديث النبوى خدمة كاملة تخلصه مما اختلط به ، وتميز صحيحه من سقيمه ، وتسهل الانتفاع به على الناس ٠

فلما جاء البخارى كان هذا الاحساس قد قوى حتى أصبح رغبة ينادى بها العلماء فكان أول مستجيب لتحقيق هذه الرغبة وكان المنادى بها أستاذه اسحاق بن ابراهيم بن حنظلة المعروف بابن راهويه وفى ذلك يقول ابراهيم بن معقل النسفى : « قال أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى :

كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح » ٠

ولم تكن أمنية الامام ابن راهويه هى كل ما وجه البخارى الى تأليف الكتاب فقد سمعها معه أقرانه دون أن يحاول أحدهم تحقيقها ولكن ارادة الله سهلت له طريق الفوز فضمت الى نداء أستاذه حافزا آخر له خطه الأسمى عند أمثاله من أقوياء الايمان وتمثل له هذا الحافز فى رؤيا تشرف فيها بحضرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفسرها له أحد المعبرين بما يوجهه الى هذا العمل الجليل وقد روى عنه أنه قال : « رأيت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكأننى واقف بين يديه وبيدى مروحة أذب بها عنه ، فسألت بعض المعبرين فقال لى : أنت تذب عنه الكذب فهو الذى حملنى على اخراج الجامع الصحيح » ٠

بهذا الحافز وذاك تحركت همة البخارى ــ رحمه الله ــ لتأليف كتابه الجامع الصحيح وقد أولاه من العناية ما لم يحظ به كتاب آخر

فانتقاه من ستمائة ألف حديث وكان لا يكتب فيه حديثا الا اذا اغتسل وصلى ركعتين ، واستخار الله وتيقن من صحته كل ذلك لأنه أراد أن يجعله حجة فيما بينه وبين الله كما قال ولشدة تحريه فيه امتد به الزمن فى تأليفه الى ستة عشرة سنة فيما روى عنه ·

بل لقد بلـغ من توقيه له ومبـالغته فى اتقانه وحرصه على كمال السـلامة فيه أنه أعـاد النظـر فى تأليفه مرات وتعهده بكثير من التهذيب والتعـديل قبل أن يخـرجه الى النـاس وهذا ما عبر عنه بأنه صنفه ثلاث مرات ·

لقد حقق البخارى لكتابه غاية الاتقان بما تأنى فى تأليفه ، وبما راقب الله فيـه وأعانه على ذلك روايته الغزيرة وخبرته الدقيقـة بنقد الحديث واحاطته بعلومه وتاريخ رجاله ، وقد رأينا من قبل مقدار ما حققه فيه من مزايـا الجمع والصحة والاسناد والاختصار وهذه معـان يفوق ببعضها كل كتاب سبقه فما بالنا به وقد اجتمعت كلها فيه ؟ ·

***

ولا يعارض أفضلية كتاب البخارى على كل كتاب سبقه ، ما روى عن الامام الشافعى ــ رضوان الله عليه ــ من أنه قال : « ما أعلم فى الأرض كتابا فى العلم أكثر صوابا من كتاب مالك » فهذه قضية انتهى العلماء من الفصل فيها واستقروا على أن ذلك القول كان من الامام الشافعى قبل ظهور الصحيحين للبخارى ومسلم،وبين ابن حجر وجه الأفضلية بيانا دقيقا وذلك حيث يقول : « ان ذلك محمول على أصل اشتراط الصحة فمالك لا يرى الانقطاع فى الاسناد قادحا فلذلك يخرج المراسيل ، والمنقطعات ، والبـلاغات ، فى أصـل موضـوع كتابه ، والبخارى يرى الانقطاع علة فلا يخـرج ما هـذا سبيله الا فى غير أصـل موضـوع كتابه كالتعليقات والتراجم ولا شك أن المنقطع وان كان عند قوم من قبيل ما يحتج به ، فالمتصل أقوى منه اذا اشترك كل من رواتهما فى العدالة والحفظ فبان بذلك شفوف كتاب البخـارى ، على أن الشافعى انما أطلق على الموطأ أفضلية الصحة بالنسبة الى الجوامع الموجودة فى زمنه كجامع سفيان الثـورى ومصنف حماد بن سلمة وغير ذلك وهو تفضيل مسلم لا نزاع فيـه » ·

***

أما أفضلية الكتاب على ما جاء بعد من كتب الحديث فهى موضع اجماع بين النقاد فيما عدا صحيح مسلم ، فقد ذكر ابن الصلاح أن أبا على

الحافظ النيسابورى وبعض شيوخ المغاربة : كانوا يفضلونه على صحيح البخارى ذكر هذا ورد عليه فى معرض مناقشته لقول الامام الشافعى فى حكمه بالأصحية المطلقة للموطأ وذلك حيث يقول : « وأما ما روينا عن الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : فما أعلم فى الأرض كتابا فى العلم أكثر صوابا من كتاب مالك قال : ومنهم من رواه بغير هذا اللفظ يعنى بلفظ « أصح من الموطأ » فانما قال ذلك قبل وجود كتابى البخارى ومسلم ثم ان كتاب البخارى أصح الكتابين صحيحا وأكثرهما فوائد ، وأما ما رويناه عن أبى على الحافظ النيسابورى أستاذ الحاكم أبى عبد الله الحافظ من قال : ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج ، فهذا وقول من فضل من شيوخ العرب كتاب مسلم على كتاب البخارى ، ان كان المراد به أن كتاب مسلم يترجح بأنه لم يمازجه غير الصحيح ـ فانه ليس فيه بعد خطبته الا الحديث الصحيح مسرودا غير ممزوج بمثل ما فى كتاب البخارى فى تراجم أبوابه من الأشياء التى لم يسندها على الوصف المشروط فى الصحيح ـ فهذا لا بأس به وليس يلزم منه أن كتاب مسلم أرجح فيما يرجع الى نفس الصحيح على كتاب البخارى وان كان المراد به أن كتاب مسلم أصح صحيحا فهذا مردود على من يقوله » .

وقد أثبت الحافظ بن حجر الأصحية لكتاب البخارى بأمور فصلها وغاية القول أنه يوجد ما يشبه الاجماع على القول بأفضلية كتاب البخارى فى الصحة على كتاب مسلم ، فجمهور العلماء متفقون على هذا القول .

★★★

البخلاء

الجاحظ

٨٦٤ م

انها حقيقة لا تقبل الجدل والنقاش حولها ، كل أمة تعتز وتفخر بماضيها ، وكل شعب من الشعوب يتعلق بأعلام وطنه من الأدباء والفلاسفة والفنانين ، وكل مواطن فرد له نموذجه الذى يحتذيه ومثاله الذى يحاكيه . ففى انجلترا هناك شكسبير وديكنز وملتون وبرنارد شو ، وفى فرنسا بلزاك وزولا وفلوبير ومونتيسكيو وديجول وأندريه مالرو وفى ألمانيا جوته وفى الهند طاغور وفى روسيا تولستوى ودستويفسكى وتشكخوف .

ويقف الجاحظ واحدا من المعالم الثابتة الشامخة فى أدبنا العربى وسط عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والكتاب . اذن ، فان الرجوع الى كتاباته وأقواله ضرورة تحتمها الرغبة فى الاستناد الى الأصول الثوابت ويستلزمها الحرص على أن يكون ثمة نموذج يحتذى . فيه يتجسد المثال الحق للأديب ذى الأسلوب المتميز والمنهج الواضح والرؤية الاجتماعية والنظرة الموضوعية .

وهذا يبدو جليا فى مختلف آثاره وكتبه ومخطوطاته ومن ثم ينبغى أن يقدم للناس حتى يعرفوا جانبا من جوانب تراثهم ، بحيث لا يقف تصورهم للأدب أو للثقافة عند حد من يقرءون لهم فى هذه الأيام .

كاتب ذو أفق واسع وثقافة شاملة ووعى عميق بحركة الحياة فى المجتمع من حوله وقدرة فائقة على الحوار الديمقراطى والجدل الجاد الموضوعى .

وفى محاولة لتوثيق الصلة بيننا وبينه سوف تكون حلقة الاتصال صفحات من كتابه (البخلاء) نقرأ فيها ونتأمل سطورها ونقف عند صورها ثم نحاول الاشارة الى امتداداتها وتأثيرها فيمن جاء بعده من الكتاب الذين عالجوا نفس الموضوع الذى دارت حوله صفحات (البخلاء) .

ذلك أن هذا الكتاب يحمل لونا متميزا قدمه الجاحظ الى المكتبة العربية من خلال نثر فنى جيد وصور انسانية متحركة وشخصيات منتخبة من واقع الحياة العربية فى عصر الجاحظ وجاء فى النهاية لونا من

الوان الاحتجاج على التناقض الطبقى الذى كان سائدا • فقد اختار شخصيات الكتاب من طبقة واحدة معروفة ومتميزة لها تكوينها وبناؤها المادى والفكرى والنفسى ، ولها مصالحها الفردية وقدرتها على الامتلاك والتكديس واحتكار الثروة • لعل اختيار صفة « البخل » عند أفراد هذه الطبقة من الأثرياء والموسرين واحد من أساليب الجاحظ فى اعلان موقفه الاجتماعى والفكرى معا وما السخرية المرة الفكاهة اللاذعة الا تأكيد لرفضه هذه الطبقة وما تستند اليه من أخلاقيات وقيم وما يصدر عنها من سلوك •

وصفحات « البخلاء » لن تكون ناصعة واضحة مفهومة الا بعد الاحاطة بعالم هذا الكاتب الكبير وشخصيته وظروفه وثقافته وتاليفه وموقع « البخلاء » من مؤلفاته ومكانته وأثره وهذه النقاط - جميعا - تضيف الى معرفتنا بالكتاب وتسهم فى معايشة الكاتب معايشة تامة •

★★★

شخصية البخيل فى الآداب العالمية

كان البخل موضوعا وصورا ونماذج وشخصيات ، وما زال محل تناول الآداب والفنون فى العالم •

يقول الأستاذ فاروق سعد فى كتابه « مع بخلاء الجاحظ » : ان أقدم شخصية بخيل معروفة اليوم هى شخصية البخيل كريزوس الذى تشير اليه الترهة (٢١) الاغريقية والتى تروى أن الآلهة غضبت على كريزوس يوما لشدة تقتيره وشحه فقضت عليه بأن يتحول كل ما يلمسه الى ذهب• انما لم يكن لترهة كريزوس الشهرة التى حازتها ترهة اغريقية هى ترهة الملك ميداس الذى دفعه حبه للذهب الى الدعاء والالتماس من الآلهة أن تمنحه طاقة تحويل كل ما يلمسه الى ذهب وسرعان ما أجابت الآلهة طلبه لا لوجاهته بل لتعطيه وتعطى الانسانية درسا لا ينسى••وكانت المأساة ••

والجدير بالذكر أن البخل يقترن غالبا برغبة تكديس المال ، الأمر الذى يحملنا على اعتبار شخصية « قارون » التى تحدثنا عنها الحكايات العربية الشخصية الأسطورية الشرقية المقابلة لشخصيتى كريزوس وميداس الغربيتين •

وما يعنينا هنا هو ملاحظة أن الآداب فى معالجاتها المختلفة للبخل قد سلكت مسلكين :

ـ المسلك الأول وهو ما يعالج وجوه البخل على أساس الوحدة الروائية الطويلة (قصة ، مسرحية) وهذا هو مسلك الآداب الغربية .

ــ أما المسلك الثانى فانه يعالج وجوه البخل على أساس عدة وحدات روائية قصيرة (نادرة ، خبر ، أقصوصة) وهو مسلك الأدب العربى ولعل ذلك مرده الى ان الأديب العربى لم يعالج موضـــوعاته في اطـــار الفنون الأدبيــة ، تلك التى حـددها أرسطو واعتمدها الاغريق وتبنتها الآداب الأوربية منذ عصر النهضة فى مطلع القرن الخامس عشر ثم تبناها الأدب العربى فى مطلع القرن العشرين .

من هنا نجد الأعمال الأدبية العربية التى تناولت البخل قد عرضت نماذج وشخصيات عديدة فى اطار المعالجة الواحدة سواء أكانت فصلا من كتاب أم كتابا كاملا كمـــا هو حال البخـــلاء للجاحظ بينما نجـد الآثار الأوروبية لم تعرض سوى لأنموذج واحد فى اطار المحاولة الواحدة .

ولعل مسرحية أريستوفان المسماة « بلوتوس » سنة ٣٨٨ ق.م والتى ظهرت فيها أول شخصية بخيل فى الأدب ونعنى بهــــا شخصية البخيل (كريميل) هى أول عمل فنى يعالج البخيل .

ويذكر ان « لميناندر » مسرحية مفقودة تتناول موضوع البخل وفى القرن الأول بعد الميلاد نجد الكاتب اللاتينى بلين لوجان (الشاب) يروى لنا ما حدث له خلال وجبة طعام لدى بخيل فيصف لنا أساليبه وتصرفاته مع ضيوفه وما يقدمه لهم .

ولكن شخصية البخيل اكليون بطل مسرحية «القدر» أو «قدر الذهب» التى كتبها « بلوت » حوالى سنة ١٩٥ ق.م كانت الأنموذج الذى احتذته كل من مسرحيتى : لورنزينودى مدسيس المســـــماة « اردبـــوزا » (سنة ١٥٣٦) وجب جللى « التى تحمل عنوان السلة » (سنة ١٥٤٣) ومصـــدر الهـــام بيار دى لاريفـــاى فى « الأرواح » (سنة ١٥٧٩) و « الأرملة » (سنة ١٥٧٩) ، واستوحاها موليير لشخصية بخيله الخالد هارباجون فى مسرحيته المشهورة التى تحمل اسم « البخيل » (سنة ١٩٦٨) .

ولكن قبل أن تظهر مسرحيتا جللى ودى مدسيس نجد « الكوميديا الالهية » (سنة ١٣٠٠ ــ ١٣١٨) ملحمة « دانتى » المشهورة تتطرق الى البخلاء فى الجحيم (القسم السابع ــ أبيات ٦٤ ــ ٦٦) .

تلى ذلك مسرحيتا أريستو «العلبة المزخرفة» (سنة ١٥٠٨ ــ ١٥٢٨) و « شخصيات مفترضة » (سنة ١٥٠٩) ، وكانت هذه الأخيرة من مصادر موليير .

ثم تأتى فيما بعد سيناريوهات الكوميديا ديلارتى الايطالية : « العاشق المخدوع » ، و « الطبيب باكتون » ، و « المنزل المنهوب » الخ .. حيث نجد صور البخل فى مشاهد تعتمد على الحركات والتحركات والمواقف الصاخبة المضحكة .

ولكن معالجة البخل لم تبق محصورة بالأدبين الاغريقى واللاتينى ثم بالأدبين الفرنسى والايطالى بل تعدتهما الى الانجليزى والاسبانى وهكذا انضمت الى كريميل واكليون شخصيات فولبون (سنة ١٦٠٦) بطل مسرحية « بن جونسون » التى تحمل اسمه « امفيل » فى مسرحية « مأساة الملحد » التى كتبها سيريل تورنير سنة ١٦١١ . ونجد نقد العادات والتقاليد من خلال البخل والبخلاء يتجلى شيئا فشيئا فى مسرحية « لوب دى فيجا » « العاشقة الماهرة جدا » (١٦١٨) .

وفى مسرحية « وسيلة جديدة لايفاء الديون القديمة » (١٦٢٥) لماسينجر ، حيث تلعب فيها شخصية جيل أوفريش دورا رئيسيا .

وفى سنة ١٦٣٠ ظهرت مسرحية يهودى مالطة التى كتبها كريستوفر مارلو حيث نجد فيها أنموذجا جديدا للبخيل يقف الى جانب نموذج كريميل واكليون وفولبون وامفيل وجيل أوفريش ولكنه يبزها اتساعا بنطاق الأبعاد المتحركة بها وأغوار التحليل النفسى ونعنى به أنموذج البخيل باراباس .

أما أنموذج المرابى الخسيس شيلوك فى مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» التى ظهرت سنة ١٦٩٥ فهو أنموذج أشهر من أن يعرف .

وفى ذلك الحين كانت مسرحيات « سيدة مغامرة عاطفية » لصامويل شابيزو (١٦٢٥ ــ ١٧٠١) والمحامية الحسناء لبوازروبير والبوربونيون العاشقون المنافسون لأبنائهم التى كتبها شفاليه تمهد الى جانب مسرحيات بلوت ولاريفى ودى فيجا لظهور مسرحية البخيل لموليير سنة ١٦٨٦ .

والى جانب المسرح فى القرن السابع عشر نجد فن الخرافة الشعرية المتطورة على يد لافونتين يعرض لنا فى قصيدة تحت عنوان « البخيل الذى فقد كنزه » جوانب من نفسية البخيل وتصرفاته . وفى مدخل خرافة « الذئب والصياد » ينتقد لافونتين البخيل بأبيات عديدة وتعرض لنا خرافة الخازن والقرد أنموذجا لبخيل ممن عاشوا على الجمع والمنع ، ويعرض لنا بوالو فى أهجيته العاشرة شخصية بخيل معاصر له فيصورها محللا منتقدا ، وبرزت شخصيات بخلاء فى مسرحيات خمس كتبها جولدونى وهى

على التوالى : شخصية أوكتاف فى مسرحية الصديق الحقيقى (١٧٥٠) ، شخصية بانتالون فى مسرحيـة « البخيل الغيوير » سنة ١٧٥٣ ، شخصية دون أومبروجى فى مسرحية « بخيل » سنة ١٧٥٦ ، شخصية « توديرو » فى مسرحية « توديرو برونتولون » سنة ١٧٦٢ ، وشخصية « كونت دوكا ستلدورو » فى مسرحية البخيل الباذخ « سنة ١٧٧٣ » ٠

وفى مطلع القرن التاسع عشر تطرقت القصة التاريخية الى البخل وذلك فى قصة (ايفنهو) « سـنة ١٨١٨ » للكاتب الانجليزى المعروف ولتر سكوت ٠

وانضم الأدب الروسى الى الآداب الأوربية فى معالجة البخل والبخلاء فظهرت لبوشكين سنة ١٨٣٠ دراما بعنوان « الفارس البخيل » حيث تجلت صورة عنيفة لبخيل جشع قاس لايعرف الا جمع الثروة مستبيحا كل شيء فى هذا السبيل يتميز عن أقرانه من البخلاء بالسلطة والتسلط والبطش ولكن رغم هذا كله فان نفسيته تضطرم بهزات شعورية غامضة ! ٠٠

ولابد هنا من الاشـارة الى ذلك العرض والتحليل لتطور الشخصية الفكاهية من أريستوفان الى موليير فى كتاب هيجل « علم الجمال » ، حيث نجده يخص شخصية البخيل بدراسة فلسفية عميقة ٠ ويعود موضـوع البخـل ثانيـة الى الأدب الفرنسى مع بلزاك فى قصـته المشهـورة « أوجينى جرانديه » « سنة ١٨٣٣ » ٠ ليعرض لنا من خلال شخصية الأب جرانديه صورة عن البخل ذات أبعاد نفسية عميقة ، وليصبح البخيل عنده شخصية يخطط لسلوكها الفكر ويصبح البخيل انسانا واعيـا لما يقول قاصدا أو متعمدا لما يفعل ٠

ولم يتوقف الأدب الروسى فى تنـاول البخل عند بوشـكين فى « الفارس البخيل » التى نوهنا عنها بل جاء جوجول فى « النفوس الميتة » سنة ١٨٤٢ ودستويفسكى فى « أنشودة الميلاد » يتطرقان اليه ثم نجد البخل يتمثل فى « دون جوزالدو » سنة ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ الشخصية التى ابتكرها جيوفانى فارجا ٠

وقلما نجد فى أدب القرن العشرين تناولا أو معالجة متفرغة لموضوع البخل ماخلا أدب القصة البوليسية وذلك فى بعض لقاءات ومواقع طريفة بين أرسين لوبين وبعض المرابين البخلاء فى قصة موريس لبلان ، حيث تنتهى بانتصار لوبين واجبار المرابى البخيل على دفع مبالغ من المال لضـحاياه أو افقاده جزءا من ثروته وكنـوزه لتكون من نصيب المحتاجين ويتم هذا كله طبعا بعد اقتطاع لوبين لنصيبه من هذه الثروات ! ٠

ولعل مرد خلو أدب القرن العشرين من تناول موضوع البخل يعود الى انتقال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية من النطاق الفردى الى المجال الجماعي وتلاشي النوازع الذاتية في نماذج الأدب واكتساح القضايا المصيرية والجماعية مجالات الوحي الفني •

★★★

ذلك هو المجرى الذى سلكته معالجة البخل والبخلاء فى الآداب الاغريقية واللاتينية والفرنسية والايطالية والاسبانية والانجليزية والروسية حتى العصر الحالى ، أما الأدب العربى فقد سلك قبل وبعد الجاحظ طريقا آخر •

وهنا لابد من ملاحظة أن معالجة موضوع البخل والبخلاء قد شغلها الأدب العربى وحده طيلة العصور الوسطى ، اذ كما لاحظنا آنفا فانه بعد الأدب اللاتينى لم تعالج الآداب الأوروبية موضوع البخل والبخلاء الا بعد قرون ابتداء من القرن الخامس عشر •

والسلوك الذى سلكه الأدب العربى أى معالجة موضوع البخل والبخلاء على أساس نماذج وشخصيات متعددة نجده متجليا فى الآثار القصصية مثل « المقامات » التى كتبها كل من بديع الزمان الهمذانى والحريرى وبعض النوادر والأخبار الواردة فى « ألف ليلة وليلة » والمؤلفات الأدبية الجامعة مثل « العقد الفريد » لابن عبد ربه و « الامتاع والمؤانسة » لأبى حيان التوحيدى و « عيون الأخبار » لابن قتيبة و « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى و « المستطرف فى كل فن مستظرف » للابشيهى •

ويشير ابن النديم فى « الفهرست » والجاحظ نفسه فى كتابى « البخلاء » و « المحاسن والأضداد » الى من تناولوا موضوع البخل والبخلاء أمثال الأصمعى وسهل بن هارون وعبد الرحمن الثورى وأبى الحسن المدائنى ويذكر لهذا الأخير كتابا خصه بموضوع البخل •

والملاحظ أن موضوع البخيل والبخلاء قد ورد فى هذه المؤلفات بشكل أخبار ونوادر أو أشعار أو تشبيهات اما متفرقة فى فصول مختلفة من المؤلف أو مختصا بها فصل من الفصول •

وهذه الأخبار والنوارد تعبر عن الفكر بالالماح السريع بشكل مبسط تتضافر مكوناته فى تكوين بصرى فكه يشبه الرسوم الكاريكاتيرية التى نجدها فى الصفحات الدورية منها على سبيل المثال الأبيات التى يصف بها أبى الشمقمق « مروان بنْ محمد » مائدة جعفر بن أبى زهير :

رايت الخبز عز لديـــك حتى حسبت الخبز فى جـو السحاب
وما روحتنـــا لتـذب عنـــا ولكن خفت مـــرزئة الذبـــاب

ونخال أنفسنا أمام مشاهد فيلم رسوم متحـــركة ونحن نقرأ تلك الأبيات لأبى نواس التى تصور شقاوة ذلك البخيل المدعو الفضل :

رايت الفضـــل مكتئبـــا يناجى الخبز والســـمكا
فاســـبل دمعـــه لمـــا رآنـــى قادمـــا وبـــكى
فلمـــا أن خلصـــت لـــه بانى صـــائم ضـــحكا

ويقتضى التنبيه الى أن من تناولوا البخل والبخلاء فى الأدب العربى ، وسيما الذين سبقوا الجاحظ كانت تحدوهم غاية قوميـــة حينـــا وهى التعريض بالشعوبية عن طريق اتخاذ شخصيات البخلاء من الأعاجم ، وحينا آخر غاية سياسية محلية وهى التعريض بالأمويين باتخاذ شخصيات من البخلاء ونسبها اليهم وكذلك كسبا لرضـــاء الدولة العباســـية الجديدة والنظام الحاكم وتوطيد الدعوة لها ٠

وفى بعض الأحيان كانت غاية من تناولوا البخل فى الأدب العربى غاية شخصية بحتة وهى الدفاع عن سلوكهم أو بالأحرى عن « مذهبهم » فى البخل ٠ وهنا التناقض العجيب بين الغايات وموضوعها ٠ ولكن ألم يكن هذا التناقض يعكس حالة الدولة والناس فى ذلك الحين ؟ الواقع أن صور هؤلاء للبخل والبخلاء كما وردت وأشرنا كانت ذات طابع اخبارى ، فهى ذات أبعاد زمانية ومكانية محددة والشخصيات فيها لاتصل الى مستوى النماذج كالتى نراها فى بخلاء الجاحظ ٠

★★★

الجاحظ وعصره

البيئة الاجتماعية

تعددت عناصر الدولة العباسية فى امتداد أطرافهـا من المغرب الى مصر والشام وجزيرة العرب والعـراق وفارس وما وراء النهر واشـتد الاختلاف فى ميزات تلك العناصر وعاداتها ومناهج تفكيرها كما اشتد التمازج فيما بينها فلم تعد البيئة الاجتماعية عربية تنزع الى العروبة الخالصة ، بل قويت فيها الشعوبية وحركة التحرر من الأخلاق العربية ، فجر التمازج انحطاطا فى الأخلاق .

وكانت اقتصاديات البلاد واسعة جدا مما أفسح لها مجالا واسعا فى الترف أما أموال الدولة فكانت فى عهد ازدهار الخلافة تؤلف ثروة طائلة ، الا أنها بعد المعتصم أصبحت بيد الأجناد الغرباء والوزراء والعمال يجمعونها بطرق شتى ويسيئون بذلك الى الدولة والشعب . وأما أموال الرعية فقد توافرت فى المدن حيث عاش الناس فى رخاء وسعة بعد اذ اهتمت الدولة بالزراعة وشقت لها الأقنية للرى وعززت الصناعة ولاسيما صناعة النسيج، واستخرجت المعادن من مناجم فارس .

وكان من الترف والفراغ أن شاع اللهو فى البلاد ومال الناس الى الغناء والرقص والتفنن فى الملبس. كما مالوا الى لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد . والصيد أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء .

وكان من الترف والفراغ أن شارع التسرى وتعاطى الناس المسكرات سرا وعلنا وعاقروا الخمر حتى بعض الخلفاء وكانت تعقد لمعاقرة الخمر والغناء حلقات أنس تسمى مجالس الشراب .

وتوافر الطلب على العلمـاء والشعراء والمغنين وأرباب الموسـيقى فاتخذهم الأمراء والأعيان ندماء لهم .

وانتشرت فى البلاد تجـارة الرقيق وكان فى بغـداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » ولاسيما الجوارى أنواعا مختلفة فهنالك السود من

السودان وجنوبي الجزيرة العربية وشمالي افريقية ومماليك البيض من اتراك وصقالبة وغيرهم .. وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين (٢٢) بألوان الحمام فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود ٠

واشتهر من الأرقاء الغلمان يلبسون الحلل الجميلة ويتزينون ويتعطرون كالنساء ، والغلاميات الحسان يقصصن شعورهن ويلبسن ثياب الغلمان وقد تغزل الشعراء بكلا الفريقين ٠

وقد عنى العباسيون بتعليم الجوارى وتلقينهن الغناء فكن من أشد العوامل فى نشر تلك الصناعة كما عملن على نشر الشعور بالجمال الفنى وعلى اشعار الناس بالظرف وضروب التفنن فى المآكل والملبس والأزياء المختلفة ٠

وقامت الى جانب الترف والفساد حركة استياء تنعى على العهد فسقه ، وتشدد النكير على المفسدين ، وارتفعت أصوات الذين خانهم الحظ فلم يمدهم بالمال كما أمد غيرهم بل قامت حركة زهد تحتقر الفانيات فى سبيل الباقيات وتستنكف مما وصلت اليه الأخلاق من الانحطاط ومما شاع من فنون الظلم والبغى والفجور ٠

واذا نظرنا الى ذلك العهد من الوجهة الدينية تجلى لنا أن النزعة السائدة هى الحرية ، ولا سيما أن الفلسفة اليونانية كانت قد هبت ريحها فارتفع معها لواء العقل والمنطق فى الأقطار وكانت الدولة قد ضمت اليها من الشعوب ما اختلفت أجناسهم ودياناتهم من مسلمين متعددى الفرق ونصارى مختلفى النزعات ومن يهود وصابئة (٢٣) وزرادشتيين (٢٤) ومانويين (٢٥) متباينى المذاهب ٠

وكانت المعتزلة من أشهر الفرق الدينية لذلك العهد بل أشهرها على الاطلاق وأشدها تأثيرا فى التحرر الفكرى وظهرت فى أوائل القرن الثامن للميلاد فى مدينة البصرة حول حلقة الحسن البصرى ثم انشقت عنه وكان ذلك على يد واصل بن عطاء (٦٩٩ — ٧٤٨ م) وعمرو بن عبيد (٦٩٩ — ٧٦١ م) وقد تأثرت المعتزلة باللاهوت المسيحى تأثرا جليا ، وكان ليوحنا الدمشقى ابن سرجون (٧٣٠ م) أثر ولسع فيها وانصرفت المعتزلة الى الدفاع عن العقائد الاسلامية دفاعا شديدا ووضع أصحابها أكثر كتبهم للرد على الرافضة (٢٦) والجهمية (٢٧) الجبرية والمثنوية (٢٨) وسائر المجوس وقد ذكرت امرأة واصل بن عطاء أن زوجها كان اذ جنه الليل يصف قدميه يصلى ، ولوح ودواة موضوعان أمامه فاذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد فى صلاته قال عمرو بن عبيد :

و ليس أحد أعلم بكلام غاليـــة الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية (٢٩) والمرجئة (٣٠) والرد عليهم منه ، ولم يكتف واصل بالرد على المخالفين وهو قابع فى بيته بالبصرة بل كان يرسل الوفود من أصحابه الى جميع الجهات لهذا الغرض وهكذا قامت ضجة عالية بين الفرق الدينية والاجتماعية واشـتد النزاع بينها وشاعت أساليب المساجلة والنقاش ، وكثرت الفرق كثرة يضيق المقام بذكرها كلها وفيما ذكرناه منها كفاية .

تلك صورة مصغرة للبيئة الاجتماعية فى عهد الجاحظ : تعدد فى العناصر جر انحطاطا فى الأخلاق واقتصاديات واسعة أدت الى الترف فى المعيشة ولهو زاده التسرى والرقيق ايغالا فى الفسق وزاد الحياة الفنية سعة وانطلاقا كما بعث النفوس العالية الى الاستياء والثورة على الفساد الشـــائع والى الزهد فى الفانيات وفرق دينية ومذاهب متباينة أشهرها المعتزلة .

البيئة الثقافية

كانت البيئة الثقافية من أقوى العوامل فى النهضة العباسية اذ أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية فى نواحيها المتعددة ويمدونهـــا بمالهم وجاههم وقد بالغوا فى اكرام الأدباء فجالسوهم وولوهم أحيانا المناصب العالية ثم حذا الأمراء والوزراء حذو الخلفاء فى أكبـر مدن الدولة وكانوا يتنافسون فى ذلك كما يتنافسون فى فتح دور العلم وظهـــر فى الجيل الجديد ميل شديد الى الحياة العلمية ولا عجب فى ذلك وقد رأينا ما كان هنالك من نماذج مدنيات واختلاط حضارات ووعى عام أرهفه ما ناله القوم من ثقافات الشعوب المتمدنة .

أما الثقافات التى كانت شائعة فى تلك الأيام التى كان لها أثر كبير فى الأدب فهى ثلاث : الثقافة العربيـــة الخالصة التى تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين كالتفسير والفقه والكلام والتصوف وما الى ذلك ، اعتمادها على الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرها ثم الثقافة اليونانية وتليها الثقافة الشرقية ولقـــد وصلت علوم اليونان وآدابهم الى الشرق من عهد فتوحـــات الاسكندر ، فنشر اليونان فلسفتهم وطبهم وفلكهم وذاعت ثقافتهم أيضا على يد الفرس أما الثقافة الشرقية فهى ثقافة معقدة وهى التى نجدها عند الفرس والهنـود والأمم الســـامية التى كانت منتشرة فى العراق ، وقد وصلت الثقـافة الفارسية بواسطة امتزاج العرب بالفرس وانتقال الخلافة الى بغداد واشتغال الوزراء والكتاب الفرس بالعربية ، وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالدولة بواسطة

التجارة والفتوحات التى شملت قسما كبيرا من الهند وبانضمام بعض الهنود الى الاسلام وكان منهم الشعراء وعلماء بالعربية كابى عطاء السندى الشاعر وابن الأعرابى (٣١) ، وكان الفرس القناة الثانية التى جرت ثقافة الهند الى العرب ٠

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمى فى ذلك العصر وفيها زبدة علوم الآشــوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان وكان لابد للرجل المستنير الذى يعمل فى مناصب الدولة اذ ذاك ويقـوم فى الأمة مقـام الرجل القائد من أن يأخذ بحظ من هذه الثقافات جميعا ٠

ويرجع انتشار تلك الثقافات فى البلاد الى المدارس والترجمـات وتشجيع الخلفـاء ونشرهم لها فمدارس جنديسابور والرها ونصيبين وحـران كانت تنشر الثقـافة اليونانية ، ومدرستا الرها ونصيبين كانتا تزخران بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحيةي ، وكانت فى حران جماعة وثنية تسمى الصابئة نبغت فى الدراســات اليونانيـة من عامية وادبية أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزا مهما للثقافة اليونانية ونالت شهرة فائقة فى الطب وكانت هذه المدارس كلها منارات اشــعاع فى جميع العالم العربى ٠

وكانت حركة النقل والترجمة والنسخ هى القناة الكبرى التى جرت جميع العلوم القديمة الى الدولة العباسية كما كانت المطبعة الحية هى التى نشرت تلك العلوم فى جميع البلاد وجعلتها فى متناول الجميع ، وقد ساعد الخلفاء أولو الأمر تلك الحركة المباركة فاتت باطيب الأثمار ، واذا بأرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينس وغيرهم ينطقون بلغة العرب واذا كتاباتهم فى أيدى الكثيرين توقد فى العقول نار نهضــة مثمرة واشتهر من النقلة آل بختيشوع وآل حنين وآل ماسرجويه وآل نوبخت وغيرهم كثيرون ممن كان لهم فضل كبير على العلم وأهله وقد اعتمد العرب فى الفلسفة والطب والهندسة والنجوم والموسيقى على اليونان وفى النجوم والســير والآداب والتاريخ والحكم على الفرس واقتبسوا من الهند طبها والعقاقير والحساب والنجوم والأقاصيص والموسيقى ومن الانباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم ومن المصريين الكيمياء والتشريح ، ومما يؤسف عليه أن الحـركة العلمية العباسية لم تستغل الأدب اليونانى استغلالا يذكر كما استغلت العلم اليونانى والفلسفة اليونانية فلم تتعرض لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر ولذلك أسباب يضيق عن ذكرها المقـام ٠

انتشرت الثقافات الأجنبيـــة المختلفة فى العالم العربى ، وكانت لكل ثقافة نزعة خاصة : أما العقل اليونانى فميال الى فلسفة التعليل والتحليل ميال الى المعنويات أكثر من ميله الى الماديات ، ميال الى التعمق والعـــلم فكان من البواعث الكبرى على احلال العقل محلا عاليا عند العرب فى ذلك العهد وعلى التصنيف والاشتغال بالعلوم ، وأما العقل الهندى فهو ميال الى التأمل والفكر الهندى هو من ثم تأملى شعرى أكثر مما هو علمى وهو فكر تصويرى خيالى تمثيلى ، شديد الاتصال بالعاطفة وعاطفة الزهد من البواعث الكبرى على الحكمة وشعاب الزهد والقصص عند العرب،فى حين كان العقل الفارسى وعاء حوى العلم القديم كله تقريبا فكان مؤلفا من عنصر فارسى وعنصر يونانى وعنصر هندى والأثر الهندى فى الثقافة الفارســـية أوسع من الأثر اليونانى ، الا أن الحضارة الفارسية تغلب عليها المادة فكان العقل الفارسى من الأسباب التى أشاعت الزخرف والتفخيم والاطناب فى الكلام والكتابة وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها ٠

تلك كانت البيئة الثقافية فى عهد الجاحظ وتلك الحال الاجتماعية والسياسية : تمازج ونزعات مختلفة وفوران فى كل الحقول ومذاهب وفروع فى المجتمع والســـياسة والدين والعـــلوم وتبسط فى كل شىء وتداخل وتنافر ، ولقد عاش الجاحظ فى تلك البيئات مصورا ومؤرخا يحيا ويراقب يختبر وينظر يمتزج وينعزل وهكذا كان العصر كله مصورا فى ذاته وفى كتبه تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات فكان بذلك علما من أعلام التاريخ والأدب وركنا من أركان العلم والتحرى ٠

حياة الجاحظ

اختلف المؤرخون فى أصـــل الجاحظ وفى تعيين سنة ميلاده وقالوا فى ذلك أقوالا مضطربة فذهب بعضهم الى أنه من أصل عربى ، وذهب بعضهم الآخر الى أنه من العناصر الأفريقية التى تداخلت فى العنصر العربى والفريقان ينسبانه الى كنانة أصيلا أو مولى ٠ وقد أجمع المؤرخون على أن الجاحظ كنانى ليثى نسبه الى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة، وقالوا انه كان مولى أبى القلمس عمرو بن قلع الكنانى وكان جده أسود يقال له فزارة ٠ وكان جمالا لعمر بن قلع الكنانى ٠ أما كنيته فقد قال أبو بكر العمرى : سمعت الجاحظ يقول : « نسيت كنيتى ثلاثة أيام فأتيت أهلى فقلت : بمن أكنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان » ٠

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ لبروز عينيه من حدقتيهما الواسعتين في البصرة نحو سنة (٧٧٥ م ـ ١٥٩ هـ) وتوفي والده وهو بعد حديث السن ولما شب طلب العلم أولا في الكتاب مع أولاد القصابين ثم راح يعيش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة وهو لا يألو جهدا في طلب العلم ومطالعة الكتاب . وكانت البصرة في ذلك العهد أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد يجتمع في مسجدها طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة والأدب عرفوا « بالمسجديين » (٣٢) فأقبل اليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية وما أن أيفع (٣٣) حتى تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاها عن خطباء العرب في المربد (٣٤) وقد ألف التردد اليه منذ حداثته وكان الى ذلك يكترى (٣٥) حوانيت الوراقين ويبيت فيها أحيانا للمطالعة .

ولما اجتمع له قدر صالح من العلم والأدب قصد بغداد واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة .

وتردد الى مجلس الأدباء من مثل ابن وهب وابن الزيات فوجد عندهم على ما قال هو نفسه مالم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب وبهم عرف ماهية الشعر وقام بحق الأدب والكتابة .

ظل الجاحظ يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام ويعمل الفكر ويحلل ويتوسع في ما حصله حتى تمت له ثقافة راقية وتنبه عقله فتمكن من التعرض لقضايا خطيرة في الدين ، وكان له مذهب وأتباع وشرع يؤلف الكتب وكان في أول أمره ينسبها الى ابن المقفع وسهل بن هارون حتى تسير .

فقد روى المسعودي في كتابه « التنبيه والاشراف » أن الجاحظ كان يقول : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم وأنسبه الى نفسي فلا أرى الأسماع تصغى اليه ولا الارادات تتيمم نحوه ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبهما ويسارعون الى نسخها لا لشيء الا لنسبتها للمتقدمين ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي عنى بتشييدها » .

وما أن كان القرن التاسع (الثالث الهجري) حتى طارت للجاحظ شهرة كبيرة بين كتاب عصره وترامت تلك الشهرة الى أذن المأمون ـ وقد قرأ للجاحظ « كتاب الامامة » وأعجب به ـ فاستقدمه وسأله أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها .

ولما رأى المأمون ما للجاحظ من مقـدرة على الكتابة ومن سـعة في الثقافة أراد أن يسند اليه ديوان الرسائل وهو من أهم مايدور عليه محور السياسة العامة للدولة لا يتولاه الا الحاذق الذى ضرب بالسهام الوافرة في مختلف العلوم والآداب وصاحب السياسة والتدبير والمتفوق في صنوف البلاغات وضروب الابانات · غير أن الجاحظ لم يمكث في ذلك المنصب سـوى ثلاثة أيام وكأنه لم يسـتطع الخضـوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها ولا تمكن من الاقلاع عن العبث في عمل ما يتطلب الرصانة والوقار ، ولا أحتمل منافسة الحساد الذين ثارت عليه حفائظهم (٣٦) خوفا على شهرتهم ومنزلتهم في الدولة ومجالس الأدب وكان سهل بن هارون يقول : « ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب » ·

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة وآثر أن يعيش مطلقا من كل قيد وما هي الا سنوات حتى اتصل اتصالا مكينا بمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات وزير المعتصم ثم الواثق من بعده وكان ابن الزيات من أكابر رجال الأدب والسياسة فكتب له الجاحظ ومدحه وأهداه « كتاب الحيوان » فأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار · وفي تلك الأثناء قام الجاحظ بأسفار الى دمشق وأنطاكية وربما وصل الى مصر أيضا فزادته الأسفار والضرب في الآفاق اطلاعا وسعة معرفة ومهرت خياله بصورة جديدة ·

ولما مات الواثق وتولى المتوكل كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء وقد جرى سنة ٨٤٧م أن منافس ابن الزيات القاضي أحمد بن أبي دؤاد استمال الخليفة وهو عدو المعتزلة والحرية الفكرية فأسقط ابن الزيات وفتك به فهرب الجاحظ ولكنه قبض عليه وقد جاء في معجم الأدباء لياقوت عن أبي عبد الله المرزباني أنه قال : « حدث اسحاق الموصلي وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيدا وكان من أصحاب ابن الزيات وفي ناحيته فلما نظر اليه قال : والله ما علمتك الا متناسيا للنعمة كفورا للصنيعة معددا للمساوى وما فتني باستصلاحي لك ولكن الأيام لا تصلح لك الا لفساد طويتك ورداءة داخلتك وتغالب طبعك فقال له الجاحظ : خفض عليك أيدك الله فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من ان يكون لي عليك ولأن أسيء وتحسن عنـك من أن أحسن فتسيء وأن تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني فقال له ابن أبي داؤد : قبحك الله ! ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيـه النفاق والكفر ما تأويل هذه الآية : (وكذلك أخـذ ربك اذا أخـذ القرى وهي ظالمة ، ان أخـذه أليم شديد) ؟ قال : تلاوتها تأويلها أعز الله القاضي فقال : جيئوا بحداد فقال : أعز الله القاضي ليفك عني وليزيدني ؟ فقال : بل ليفك عنه فجيء بالحداد فغمزه

بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيل أمره قليلا فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة (٣٧) ؟ فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ٠

وقال ابن أبي دؤاد بن منصور وكان حاضرا : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ثم قال : ياغلام صر به الى الحمام وأمط عنه الأذى واحمل اليه تخت ثياب طويلة وخفا فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان ٠

وقدم الجاحظ لابن أبي دؤاد كتاب « البيان والتبيين » فاعطاه فيه أبي دؤاد خمسة آلاف دينار ولما فلج القاضي وخلفه في القضاء ابنه أبو الوليد لزمه الجاحظ الى أن صرف عن القضاء سنة ٨٥١ م ٠

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل وقدم له بعضا من كتبه منها « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة » وكانت بين الرجلين مودة ومراسلة وطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز الا أن المتوكل لم يقربه منه لدمامة خلقه ٠

ولما اشتدت وطأة السنين على الجاحظ ووهنت قواه وأصيب بفالج نصفي عاد الى البصرة ، حيث لزم بيته سجين الهرم حدث المبرد قال : « دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس (٣٨) لو طار الذباب بقربه لآلمه وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها » ٠

وهرع العلماء والأدباء الى زيارة الشيخ العليل معلم العالم العربي بمجمله وتوافدوا من البصرة وبغداد وسواهما من البلدان وكان المبرد صاحب « الكامل » من جملة الزائرين ٠

وأخذ ذلك المصباح يخبو شيئا فشيئا ، وأخذ نوره يتضاءل حتى انطفأ تاركا في البلاد نور العلم والثقافة الواسعة وهكذا مات الجاحظ معلم العقل والأدب سنة ٨٦٨ م ــ ٢٥٥ هـ ٠ وقد انهالت عليه الكتب يوما وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه ، لقد لحدته ميتا بعد أن كانت سلوته في حياته وشغله الشاغل الى ساعة مماته !! ٠

★★★

كان الجاحظ ذا ثقافة واسعة جدا تجعل منه دائرة معارف حية فقد وعى في صدره جميع معارف عصره في الأدب والدين والعلم والفلسفة قال أبو بكر أحمد بن علي (٣٩) : « كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب

النظام (٤٠) وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية المخالفين والآداب والأخلاق وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرءوها وعرفوا فضلها واذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم انه ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وايصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال الى القلوب كتب تشبهها • والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور » •

وكانت مصادر ثقافة الجاحظ كثيرة منها أساتذته وما طالعه من كتب العرب واليونان والفرس والهنود وغيرهم ثم تجاربه ومعايناته• أما أساتذته فعرب المربد الخلص الذين كان يصغى الى أقوالهم وهو حدث قرب البصرة وأبو عبيدة (٧٢٨ — ٨٢٤ م) الذى قال فيه الجاحظ : « لم يكن فى الأرض خارجى ولا اجماعى أعلم بجميع العلوم منه » والذى له من المؤلفات نحو مئتين فى الحمام والحيات والعقارب والخيل والابل والزرع ، والأصمعى (٧٣٩ — ٨٣٠ م) وهو صاحب لغة ونحو وامام فى الأخبار والنوادر والملح والغرائب جمع شتيت اللغة فى الشجر والنبات والابل والشاء والوحوش، وأبو زيد الأنصارى (— ٨٣٠ م) وهو من أئمة الأدب غلبت عليه اللغـــة والنوادر والغريب وقد ألف فى القوس والترس والابل والوحوش وخلق الانسان والمطر والنبات ، وأبو الحسن الأخفش (— ٨٣٠م) وهو من أكثر أئمة النحو فى البصرة وتخرج الجاحظ فى الفلسفة والدين على أبى اسحاق النظام (— ٨٣٥ م) وقد قال عنه تلميذه : « الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحا فهو أبو اسحاق النظام » • وكان النظام مطبوعا على البحث عن أصل كل شىء وعن علته ولا يقتصر على الانقياد والمحاكاة ولم يكتف بطلب الفلسفة والكلام بل عكف على طلب العلم ولاسيما علم الطبيعة وكان يؤثر الجمل القصيرة فى كتابته ويعتبر الشك أساسا للبحث (٤١) ويستخدم المنطق فى بحثه عن الحقائق ويحارب أوهام العامة وخرافاتهم وكان واسع العقل فى التفكير ، شديد الجرأة على المحدثين ، قليل الايمان بصحة رواية الحديث • وقد أثر النظام فى الجاحظ تأثيرا بليغا وكانت طريقته فى التحرى من أركان طريقة الجاحظ العلمية •

ولم يكتف الجاحظ بالأساتذة الأعلام ، بل راح ينقب ويطالع ما ترجمه ابن البطريق وحنين بن اسحاق وبختيشوع وغيرهم من مشاهير النقلة • قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » •

خلف لنا الجاحظ مؤلفات كثيرة ما بين كتب ورسائل وقد قيل ان آثاره هذه بلغت ما ينيف على ثلاثمئة وخمسين كتابا رأي أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، وهي وان لم يكن كلها له تؤلف موسوعة علمية أدبية ومما يؤسف عليه أنها لم تكن تصل الينا كلها فقد ضاع منها عدد يذكر وأما ما وصل الينا منها فقد طبع معظمه وما يزال بعضه مخطوطا ومبعثرا في خزائن شتى بين الشرق والغرب ·

وانه لمن الصعب جمع تلك المؤلفات في فئات مرتبة على حسب مادتها لأن الكثير منها مختلف الموضوعات متعدد المعاني ومن ثم كان تقسيمنا التالي لآثار الجاحظ على وجه التغليب ·

(أ) الفلسفة والاعتزال والدين :

ــ « كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال » وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال و « كتاب الاعتزال وفضله » ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضا « فضيلة المعتزلة » « والذى رد عليه الراوندى بكتابه « فضيحة المعتزلة » و « كتاب خلق القرآن » و « كتاب آى القرآن » و « كتاب الرد على اليهود » و « كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » وهو يبحث في تعليل الأشياء الطبيعية وما في الكائنات من الدلائل على وجود الصانع الخ ··

(ب) في السياسة والاقتصاد :

ــ « كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب » و « رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة » و « رسالة في الخراج » و « كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارب » و « كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » الـخ ··

(ج) في الاجتماع والأخلاق :

ــ « رسالة في اثم السكر » و « كتاب أخلاق الشطار » و « كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة » و « كتاب خصومة الحول والعور » و « كتاب البخلاء » ··

(د) فى التاريخ والجغرافيا والطبيعيات والرياضيات :

ـ « كتاب الأخبار وكيف تصح » و « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » و « كتاب الأمصار » و « رسالة فى الكيمياء » و « كتاب المعادن » و « كتاب نقض الطب » و « كتاب الحيوان » .

(هـ) فى الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية :

ـ « كتاب البيان والتبيين » الخ ...

(و) فى العصبية وتأثير البيئة :

ـ « كتاب القحطانية والعدنانية » و « كتاب العرب والعجم » و « رسالة فى فخر السودان على البيضان » و « كتاب مفاخرة السودان والحمران » الخ ...

(ز) فى موضوعات شتى :

ـ « رسالة التربيع والتدوير » و « رسالة فى العشق والنساء » و « كتاب الاخوان » الخ ...

★★★

أثر البيئة البصرية وكتاب البخلاء

لاحظ الدكتور شارل بلا فى دراسته عن « البيئة البصرية وتكوين الجاحظ » أن البخل الذى أنشأ عليه الجاحظ كتاب البخلاء كان صفة بارزة للطبقة البصرية البرجوازية التى أثرت بفضل اقتصادها المفرط ·

وانه ينبغى أن تحلل بعناية جميع مظاهر البخل وان يعرف مدى تأثيره ليس على نمو البصرة الاقتصادى بل على توجيه الحياة الاجتماعية العـــامة ·

وانه من المؤكد ان هذه الآفة الزمنية قد أوحت الاشمئزاز الى نفوس العرب المعروفين بطبيعتهم السمحة وميلهم الوراثى المكرم والجود اذ لا ريب فى أنهم لم يأتلفوا وهذه النظرية الجديدة ، ثم ما لبث أن تحول فضولهم ودهشتهم الى حقد على البخل والبخلاء نما فى اطار الشعوبية الطبيعى ، أما الأشخاص (المولدون) الذين اختلطت دماؤهم فقد انضموا الى أحـــد المعســـكرين ·

والواقع أنه لا يمكن البحث عن دافع الجاحظ فى الكتابة عن البخل والبخلاء بمعزل عن حركة تجمع رأس المال فى عصره ·

فقد أدت هذه الحركة دورا رئيسيا فى تغيير المفاهيم الاجتماعية خاصة والمفاهيم الحياتية عامة ·

وكان التجاذب الحاصل بين مقومات الحياة العربية المتطورة وعناصر المجتمعات الأجنبية الداخلة يتولد ويتوالد دائما ودون انقطاع عن ذلك التصاعد المادى المستمر فى الحاضرة العربية فى ذلك الحين ·

وما كان هذا التصاعد المادى ينتج ويندفع ويتفاقم الا من حركة تجمع وتركز رأس المال فى الحاضرة العربية الذى أصبح يشكل القوة المسيرة للفعاليات الاقتصادية فى الدولة والمجتمع ·

وكان لابد من حصول تصادم بين الكيانات الاقتصادية والاجتماعية الحادثة من حركة تجمع رأس المال ، وبين القيم العربية خاصـــة والقيم

الاسلامية عامة وما تتضمنه من مثل تشبع بها فى الأصل المجتمع العربى المتطـــور ٠

وكان لابد أن يأخذ هذا الاصطدام شكل المقاومة ضمن حدود التعبير الشعورى الناقد ثم ينتقل الى النشاط الفكرى الشامل الذى يمهد دائما بتحاليله ومخططاته الى المجابهة فالى الصراع الذى يشارك فيه دائما التطلع المعاشى فى طوره العملى الانقلابى ٠

وجاء كتاب « البخلاء » للجاحظ ليمثل مرحلة المقاومة ٠٠ مرحلة التعبير الشعورى الناقد ٠ كانت مراعاة أصول الضيافة والكرم من تلك المثل العربية القديمة التي يعتز بها العربى اعتزازا كبيرا منذ الجاهلية ٠

والاســـلام جاء والزكاة ركن من أركانه والكرم والضـــيافة موضعا تحبيذه والبخل محل استنكاره فقد جاء فى سورة « التغابن » فى القرآن الكريم : « **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » (آية ١٦) وجاء فى سورة « محمد » من القرآن الكريم : « **وهانتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء** » ٠٠ (آية ٣٨) وللنبى محمد صلى الله عليه وسلم أحاديث فى هذا السبيل منها قوله : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه** » ٠

وكان الموالى قد ثبتوا مراكزهم فى المجالات الاقتصادية والمالية فى الوقت الذى كان العرب فيه ينصرفون الى الفتوحات بادىء الأمر ومن ثم الى الصراعات الداخلية فيما بعد ٠

واذا كان الموالى قد شاركوا أحيانا فى الصراعات الداخلية بين العرب، فذلك لخدمة مصالحهم الاقتصادية والمالية ، ذلك ان الثروة كانت هى وسيلتهم لتمتعهم بمستوى حياتى رفيع وثراء وسيولة نقدية تمكنانهم من فرض وجودهم ومصالحهم على الدولة وعلى ذلك المجتمع الغريب عنهم أصلا واستغلال السلطة لتحقيق غاياتهم وكان من المحتم ان يقف هؤلاء الموالى موقف المناهض لتلك القيم عامة وما تتضمنه من مثل خاصة لا لكونها محمولة من مجتمع غريب عنهم فحسب ، بل لما تثيره من حساسية لديهم بالنظر لكونها تتضارب مع مصالحهم الاقتصادية والمالية أساسا ، من هنا كان التقاؤهم بمن وجد من العرب المساهمين فى حركة تجمع وتركز رأس المـــال ٠

وكان الكرم والضيافة هما أقرب المثل موضوعا للمناهضة وكان البخل أحد صور هذه المناهضة ، وكان لقد البخل مظهرا من مظاهر المقاومة، ذلك أن المحافظة على تقاليد الكرم والضيافة مهما كان من شأن وتأثير

هذه التقاليد تزعزع تجمع رأس المال وتشتت تركزه وحركة تجمع رأس المال تكون عادة حساسة للغاية سيما تجاه كل نقيض من شأنه أن يكشف وجودها أصلا وهي التي تقوم على الخفاء في نشوئها ونموها وتطورها لذلك مهما كان شأن المتناقضات معها بسيطا فلابد لها من مناهضتها بضراوة .

انما لابد من التنويه بأن الجاحظ ـ كما يوضح الدكتور طه الحاجرى في مقدمته للطبعة التي حققها لكتاب الجاحظ ـ « لقد أخذ هذا الموضوع (موضوع البخل) الذى كان أكبر مثارة للشهوات السياسية والعنصرية والذى كان جديرا أن يثير عوامل المشاقة والمخاصمة فجعله موضوعا أدبيا خالصا ومتعة فنية رائعة وكان رهينا بالأغراض الموقوتة التى أثير من أجلها فصار خالدا خلود النفس الانسانية يمنح بها ويصدر عنها ولها » .

★★★

اذا نظرنا في صفحات (البخلاء) ، فسنجد أن الجاحظ جعل له مقدمة افتتح بها الكتاب .. حاول أن يضع فيها مجموعة من التساؤلات تعتبر الاجابة عنها ـ ككل ـ دراسة نفسية واقتصادية لظاهرة البخل عند بعض الذين اختارهم الجاحظ كنماذج للدلالة على هذا النزوع النفسي والأخلاقي لدى البشر . وقد حاول عند صياغته لهذه التساؤلات أن يكشف عن وجهة نظر الأشخاص أنفسهم درءا لما قد يتهمون به ، أو تأكيدا لما يتمسكون بما يرونه حقا ثم هناك مجموعة أخرى من التساؤلات التى تبين وجهة النظر المضادة المخالفة لما يعتقدون وقد تكون وجهة نظر عامة رأى الناس فيهم وفي سلوكهم بل قل انها القضايا والموضوعات التى سوف يدور حولها الكتاب وهو يشير الى مسائل وموضوعات سبق له أن تناولها وعالجها في كتابه المسمى (كتاب المسائل) وانه لن يقف عندها في (البخلاء) .

مما جاء في هذه المقدمة قوله : « ... وقلت : اذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما فان للجد كدا يمنع من معاودته ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته وذكرت ملح الحرامي ، واحتجاج الكندى ورسالة سهل بن هارون وكلام ابن غزوان وخطبة الحارثي وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ولم حاموا الى المنع ونسبوه الى الحزم ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ولم جعلوا الجود سرفا والاثرة جهلا ولم زهدوا في الحمد وقل احتفالهم بالذم ولم استضعفوا من هش للذكر وارتاح للبذل ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى ثناء ولا ينحرف عن هجاء ولم احتجوا لطلف العيش على لينه ولمره على حلوه ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات في رحالهم

مع استهتارهم بها في رحال غيرهم ولم رغبوا في الكسب مع زهدهم في الانفاق ولم عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ...» ثم يقول : (وقلت : فبين لى ما الشيء الذى خبل عقولهم وأذهانهم وأغشى تلك الأبصار ونقض الاعتدال وما الشيء الذى له عاندوا الحق وخالفوا الأمم وما هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافى وما هذا الغباء الشديد الذى الى جنبه عجيبة وما هذا السبب الذى خفى به الجليل الواضح وأدرك به الجليل الغـــامض) .

الجاحظ يتصور قارئا سبقت له قراءة كتابه الذى صنف فيه حيل لصوص النهار وفصل فيه حيل سراتى الليل يطلب اليه ان يجيبه عن هذه التساؤلات المتعددة الاتجاهات حول (البخل) و (البخلاء) ونظن ظنا أن قارئا على هذا النحو غير موجود وان تصوره الجاحظ ووضع له الأسئلة التى تكشف عن وعيه الشديد بما ينبغى أن تكون عليه مقدمة الكتاب .

ويكشف الجاحظ عن طريقة معالجته لموضـــوعه وكيف أنه ســـوف يركز فى مواضع وقد يستطرد فى مواضع أخرى ، وان كنا نلاحظ أنه فى هذه المقدمة يرى أن التركيز والتكثيف أفضل من التفاصيل وذكر الجزئيات والوقوف عنـــدما لا حاجة للقـــارى به وهذا مع ادراكنا لأهمية الاستطراد بالنسبة للجاحظ فى كتاباته الأخرى (فأما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء فسأوجدك ذلك فى قصصهم — ان شاء الله تعالى — مفرقا وفى احتجاجاتهم مجملا فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندى دون ما انتهى الى من أخبارهم على وجهها وعلى أن الكتاب أيضا يسير أقصر ويصير العار فيه أقل) . أما الجديد فى الكتاب كما يحدده الجاحظ : (وذلك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة وعجيبة وأنت فى ضحك منه اذا شئت وفى لهو اذا مللت الجـــد) .

وللجاحظ موقفان من أصحاب نوادر البخل: أنهم اذا كانوا من المشاهير فانه لا يسعى الى التشهير بهم واذا كانوا من غير المشاهير ممن لا يعرف حكايتهم أحد فان ذكرهم لا يحط من قدرهم وهو لا يستهدف ارضاء القارىء واشباع نهمه وحب الاستطلاع لديه على حساب أبطال حكاياته (وهـــذا كتاب لا أغرك منه ولا أستر عنك عيبه لأنه لا يجوز ان يكمل لما ترده ولا يجوز أن يوفى حقه كما ينبغى له لأن ههنا أحاديث متى اطلعنا منها حرفا عرف أصحابها وان لم نسمهم ولم نود ذلك بهم وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم منهم الصديق والولى والمستور والمتجمل وليس يفى حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم فهذا باب يسقط البتة ويختل به الكتاب لا محالة وهو أكثرها لبابا وأعجبها موقعا وأحاديث آخر ليس لها

شهرة ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هي مقيدة أصحابها وليس يتوفر أبدا حسنها الا بأن يعرف أهلها وحتى تتصل ومستحقها وبمعادنها واللائقين بها وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها سقوط نصف الملحة وذهاب شطر النادرة) .

بعد المقدمة يثبت الجاحظ رسالة سهل بن هارون في البخل الموجهة الى محمد بن زياد والى بني عمه من آل زياد حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب وتقع في ثماني صفحات من القطع الكبير ثم ينتقل الى موضوع كتابه ويبدأ بأهل خراسان لاكثار الناس فيهم وخص بذلك أهل مرو بقدر ما خصوا به مثل : ابن أبي كريمة والكندي ، ثم يقف عند قصة أهل البصرة من المسجديين وقصة زبيدة بن حميد وليلى الناعطية وأحمد بن خلف وأبي جعفر الطرسوسي والحزامي وخالد بن عبد الله القسري ومحمد بن أبي المؤمل والثوري وأبي سعيد المدائني وغير ذلك من القصص المتعلقة بصنوف البخل وحيل البخلاء .

والجاحظ يؤكد أن الأحاديث الكثيرة التي كتبها حاول اضافتها الى أربابها بيد أن بعض الأحاديث الأخرى لم يضمها الى أصحابها .

وفي معرض تناوله لبعض الشخصيات التي تتسم بالبخل الأخلاقية والسلوكية تراه يمهد للتعريف بهذه الشخصية من هذه الزاوية بذاتها وكأنما ليوحي ببعض الأبعاد النفسية حتى لا يفاجأ القارىء بما قد لا يتصوره عقله من تصرف هذا البخيل .

ففي بداية حديثه عن « زبيدة بن حميد » الصيرفي يذكر لنا أنه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا لكنه بعد ستة أشهر دفع ما عليه للبقال ناقصا (درهمين وثلاث حبات شعير) فاغتاظ البقال وذكره بأنه يملك مائة ألف دينار ولا يرد الحق لصاحبه كاملا بعد نصف سنة وانه فعل معروفا فيه اذ يسدد عنه في غيبته مبلغا كان مطلوبا ويكون هذا جزاءه بعد ستة أشهر فقال زبيدة : « يا مجنون أسلفتني في الصيف فقضيتك في الشتاء وثلاث شعيرات شتوية ندية أرزن من أربع شعيرات يابسة صيفية وما أشك أن معك فضلا) .

هذا جانب من جوانب الشخصية في علاقاتها بالناس من حولها وربما يكون — من ناحية أخرى — بعدا فكريا تنطلق على أساسه الشخصية في تعاملها ثم يعطي ملمحا آخر يكشف عن الطريقة التي يتخذها في معاملته لغلمانه أن يضربهم لاتهامهم بأنهم يأكلون دواء مخصصا للهضم ويذهب صديق له الى رئيسهم لكسأل عن حقيقة سبب الضرب يفاجأ اذ يراه يتلوى من الجوع وانه لا حاجة به الى ما يهضم لأنه لم يطعم ولم يأكل (لا نحتاج الى الجوارشن ، ونحن الذين نسمع بالشبع سماعا من أفواه الناس — ما نصنع بالجوارشن) .

نماذج من بخلاء الجاحظ

ولابد من أن نقف عند قصتين لبخيلين شهيرين احتفت بهما صفحات البخلاء الأولى هي قصة أبي سعيد المدائني الذي كان اماما في البخل بالبصرة، وكان ممن يتعاملون بالربا فضلا عن أنه كان شديد العقل بعيد الروية حاضر الحجة قال له أحمد المكي : « والله انك لكثير المال وانك لتعرف ما نجهل وان قميصك وسخ فلم لا تأمر بغسله ؟ قال فلو كنت قليل المال وأجهل ما تعرف كيف كان قولك لى ؟ انى قد فكرت فى هذا منذ ستة أشهر فما وضح لى بعد وجه الأمر فيه أقول مرة : الثوب اذا اتسخ أكل البدن كما يأكل الصدأ الحديد • والثوب اذا ترادفه العرق وجف وتراكم عليه الوسخ ولبد أكل السلك وأحرق الغزل هذا مع نتن ريحه وقبح منظره وبعد ، فانى رجل آتى أبواب الغرماء وغلمان غرمائى جبابرة فما ظنك بهم اذا رأونى فى أطمار وسخة وأسمال دونه وحال حداد ؟ جبهوا مرة وحجبوا مرة فيرجع ذلك علينا بمضرة من اصلاح المال وان يعفى عنه كل ما أعان على حبسه مع ما يدخل من الغيظ ويلقى من كان كذلك من المكروه •

فاذا اجتمعت هذه الخواطر هممت بغسلها فاذا هممت به عارضنى معارض يوهمنى أنه أتانى من جهة الحزم ومن قبل العقل فقال : أول ذلك الغرم الذى يكون فى الماء والصابون والجارية اذا ازدادت عناء ازدادت أكلا والصابون نورة ، والنورة تأكل الثوب وتبلي الخز ولا يزال علي خطر حتي يسلم الى القصر والدق • ثم اذا ألقى على الرسن فهو بعرض الجذبة والنترة والعلق ولابد من الجلوس يومئذ فى البيت ومتى جلست فى البيت فتحوا علينا أبوابا من النفقة وأبوابا من الشهوات والثياب لابد لها من دق فان دققنا فى المنزل قطعناها وان نحن أسلمناها الى القصار فغرم على غرم وعلى أنه ربما أنزل بها من المكروه ما هو أشد وما جلست فى المنزل قط الا أرجف بى الغرماء وادعوا على الأمراض والأحداث وفي ذلك لهم فساد والتواء وطمع لم يكن عندهم فاذا أنا لبستها وقد ابيضت وحسنت وجفت وطابت تبينت عند ذلك وسخ جسدى وكثرة شعرى وقد كان بعض ذلك موصولا ببعض ففرقته فاستبان لى ما لم يكن يستبين واكترثت

لما لم أكن اكترث له فيصير ذلك مدعاة الى دخول الحمام فان دخلته فغرم ثقيــل مع المخاطرة بالثيــاب ولى امرأة جميلة شــابة اذا رأتنى قد أطليت وغسلت رأسى وبيضت ثوبى عارضتنى بالتطيب وبلبس أحسن ثيــابها وتعرضت لى وأنا فحل والفحل اذا هاج لم يرد رأسه شيء فاذا أردت مواقعتها ورأت حرصى نثرت على الحوائج نثرا ثم احتجنــــا الى تسخين الماء وأشد من هذا كله أن تعلق فتحتاج الى ظئر فنقع فى ما لا غاية له) ...

ان هذا المنطق الذى يحمل على الاعتقاد بمعقولية دفوع الأشحاء الذى يجســده أبو سعيد المدائنى يؤكد قدرة الجاحظ على التوليد والتخريج وتقديم الأسباب والعلل واستخلاص النتائج بل انه دلالة واضحة على أن الجاحظ عايش البخلاء طويلا وعرف الدوافع الى بخلهم وأدرك الأبعاد النفسية لذلك ، وانا لنعجب اذ نرى أبا سعيد المدائنى يقدم الحجة تلو الحجة والتبرير تلو التبرير . ان المسألة لا تقف عند حد ثقافة الجاحظ ومعرفته باللغــة والمنطق والفلسفة والجدل انها أبعد من ذلك خبرة معمقة ببواطن النفس البشرية وبما يعتمل فى داخلها من صراعات وبأن السلوك الذى يسلكه الانسان ليس بلورة لمحصلة مجموعة من التجارب والخبرات وخاتمة لمطاف طويل ارتضاه لنفسه . ان أبا سعيد المدائنى يحتج لمذهبه فى البخل أو فى الاقتصاد والنفقة وقدرته فى الاحتجاج ليست وليدة موقف واحــد وانما هى خلاصة تاريخ حيــاة كاملة وممارســة طويلة مدروســـــة ان صح التعبير .

والجاحظ يورد حجج البخلاء مذاهب مختلفة فهو يسوقها مرة مساق الجــد والسخرية تترقرق فى خــلالها ، ويعرضها مرة أخرى فى معرض السخرية الصريحة لكنه حريص على أن يحكى الحركات النفسية حكاية دقيقة ويعرض ما توروده على خواطرهم أسبابهم المختلفة التى تحكمهم من بواطنهم عرضا رائعا ولا يترك الجاحظ شخصية أبى سعيد المدائنى قبل أن يحكى عنه ما لا يمكن أن ينسى :

(وكان أبو سعيد المدائنى ينهى خادمه أن تخرج الكساحة من الدار . وأمرها أن تجمعها من دور السكان وتلقيها على كساحتهم فاذا كان بعد الحين جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلا ثم فتشت واحدا واحدا فان أصاب قطع دراهم وصرة فيها نفقة والدينار أو قطعة حلى ، فسبيل ذلك معروف وأما ما وجد فيه من الصوف فكان وجهه أن يبــاع اذا اجتمع من أصحاب البراذع . وكذلك قطع الأكسية وما كان من خرق الثياب فمن أصحاب السينيات والصلاحيات وما كان من قشور الرمان فمن الصباغين والدباغين .

وما كان من القوارير ، فمن أصحاب الزجاج وما كان من نوى التمر، فمن أصحاب الخشوف وما كان من نوى الخوخ فمن أصحاب الغرس وما كان من المسامير وقطع الحديد فللحدادين وما كان من القراطيس فللطراز وما كان من المصحف فلرءوس الجرار وما كان من قطع الخشب فللأكافين وما كان من قطع العظام فللوقود وما كان من قطع الخزف فللتنانير الجدد وما كان من اشكنج (٤٢) فهو مجموع للبناء ثم يحرك ويثار ويخلل حتى يجتمع قماشه ثم يعزل للتنور وما كان من قطع القار بيع من القيار فاذا بقى التراب خالصا وأراد أن يضرب منه اللبن للبيع وللحاجة اليه لم يتكلف الماء ولكن يأمر جميع من فى الدار أن يتوضأوا ولا يغتسلوا الا عليه فاذا ابتل ضربه لبنا) •

رسالة فكرية فلسفية !!

أما البخيل الثانى الذى احتفت به صفحات « البخلاء » فانه الكندى الذى مدحه كل البخلاء ورأوا أنه كان حكيما حاضر الحجة ناصح الجيب دائم الطريقة وهو صاحب أقوال فى مدح البخل وذم الكرم فمنع المال وتحصينه خوفا من الغيلة وحفظه اشفاقا من الذلة ، أفضل عنده من جهل فصل الغنى وابتذال النعمة واهانة النفس بكرم الغير انما المال لمن حفظه وانما الغنى لمن تمسك به ولحفظ المال بنيت الحيطان وعلقت الأبواب واتخذت الصناديق وعملت الأقفال وتعلم الحساب والكتاب •

وللكندى قصة مشهورة وقف الجاحظ عندها طويلا وأعجب بها أستاذنا الدكتور طه حسين واعتبرها وصفا للخصومة التى قد تحدث بين الملاك والمستأجرين واستشهد بها فى كتابه (من حديث الشعر والنثر) على أن الجاحظ كان دقيق التصوير لحياة الانسان ولحياة البصرة وبغداد فى عصره •

قال الجاحظ : حدثنى عمرو بن نهيوى قال : (كان الكندى لايزال يقول للساكن وربما قال للجار : ان فى الدار امرأة بها حمل والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة فان النفس يردها اليسير فان لم تفعل ذلك بعد اعلامى اياك فكفارتك ان أسقطت غرة : عبد أو أمة ألزمت ذلك نفسك أم أبيت •

قال : فكان يوافى الى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه وان كان أكثرهم يفطن ويتغافل وكان الكندى يقول لعياله : أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع انما لكل بيت منهم لون واحد وعندكم الـوان •

قال : وكنت أتغدى عنده يوما اذ دخل عليه جار وكان الجار لى صديقا فلم يعرض عليه الغداء فاستحييت انا منه فقلت : لو أصبت معنا مما نأكل

قال : قد – والله – فعلت قال الكندى : ما بعد الله شيء قال : فكتفه والله يا أبا عثمان كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا وتركه ولو أكل لشهد عليه بالكفر ولكان عنده قد جعل مع الله شيئا .

قال عمرو : بينا أنا ذات يوم عنده اذ سمع صوت انقلاب جرة من الدار الأخرى فصاح : أى قصاف (٤٣) ! فخالت مجيبة له : بئر وحياتك . فكانت الجارية فى الذكاء أكثر منه فى الاستقصاء قال معبد : نزلنا دار الكندى أكثر من سنة نروج له الكراء ونقضى له الحوائج ونفى له بالشرط قلت : قد فهمت ترويج الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال : فى شرطه على السكان أن يكون له ورث الدابة وبعر الشاة ونشوار (٤٤) العلوفة وألا يلقوا عظما ولا يخرجوا كساحة (٤٤) وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى فى بيته وكان فى ذلك يتنزل عليهم فكانوا لطيبه وافراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك .

قال معبد : فبينا انا كذلك اذ قدم ابن عم لى ومعه ابن له واذا رقعة منه قد جاءتنى : « ان كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك وان كان اطماع السكان فى الليلة الواحدة يجر علينا فى الليالى الكثيرة » فكتبت اليه : « ليس مقامهما عندنا الا شهرا أو نحوه » فكتب الى : « ان دارك بثلاثين درهما وأنتم ستة لكل رأس خمسة فاذا قد زدت رجلين فلابد من زيادة خمستين فالدار عليك من يومك هذا بأربعين » فكتبت اليه : « وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الأرض التى تحمل الجبال وثقل مؤنتهما على دونك ؟ فاكتب الى بعذرك لأعرفه » ولم أدرك أنى أهجم على ما هجمت وانى أقع منع فيما وقعت فكتب الى :

« الخصال التى تدعو الى ذلك كثيرة وهى قائمة معروفة من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤنة ومن ذلك ان الأقدام اذا كثرت كثر المشى على ظهور السطوح المطينة وعلى أرض البيوت المجصصة والصعود على الدرج الكثيرة فينقشر لذلك الطين وينقلع الجص وينكسر العتب مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء وتكسرها لفرط الثقل واذا كثرة الدخول والخروج والفتح والاغلاق والاقفال وجذب الأقفال تهشمت الأبواب وتقلعت الرزات واذا كثر الصبيان وتضاعف البوش نزعت مسامير الأبواب وقلعت كل ضبة ونزعت كل رزة وكسرت كل حوزة حفر فيها آبار الددن وهشموا بلاطها بالمداحى هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف .

واذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء أحتيج من صب الماء واتخاذ الحببة القاطرة والجرار الراشحة الى أضعاف ما كانوا عليه فكم من حائط قد تآكل أسفله وتناثر أعلاه واسترخى أساسه وتداعى بنيانه من

قطر حب ورشح جرة ومن فضل ماء البئر ومن سوء التدبير وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيز والطبيخ ومن الوقود والتسخين والنار لا تبقى ولا تذر وانما لدور حطب لها وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة فكلفتم أهلها أغلظ النفقة وربما كان ذلك عند غاية العسرة وشدة الحال وربما تعدت تلك الجناية الى دور الجيران والى مجاورة الأبدان والأموال فلو ترك الناس حينئذ رب الدار وقدر بليته ومقدار مصيبته لكان عسى ذلك ان يكون محتملا ولكنهم يتشاءمون به ولا يزالون يستثقلون ذكره ويكثرون من لائمته وتعنيفه ·

نعم : ثم يتخذون المطابخ في العلالي على ظهور السطوح · وان كان في أرض الدار فضل وفي صحنها متسع مع ما في ذلك من الخطار بالأنفس والتغرير بالأموال وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد وهجومهم مع ذلك على سر مكتوم خبيء مستور : من ضيف مستخف ورب دار متوار ومن شراب مكروه ومن كتاب متهم ومن مال جم أريد دفنه فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه ومن ذلك حالات كثيرة وأمور لا يجب الناس أن يعرفوا بها ثم لا ينصبون التنانير ولا يملكون للقدور الا على متن السطح حيث ليس بينها وبين القصب والخشب الا الطين الرقيق والشيء الذي لا يقي هذا مع خفة المؤنة في احكامها وأمن القلوب من المتلف بسببها فان كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم وأنتم ذاكرون فهذا عجب وان كنتم لم تحفلوا بما عليكم في أموالنا ونسيتم ما عليكم في أموالكم فهذا أعجب ·

ثم ان كثيرا منكم يدافع بالكراء ويماطل بالأداء : حتى اذا جمعت أشهر عليه فر وخلى أربابها جياعا يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم واحسانهم فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم والذهاب بأقواتهم ويسكنها الساكن حين يسكنها وقد كسحناها ونظفناها لتحسن في عين المستأجر وليرغب فيها الناظر فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا لا تصلحه الا النفقة الموجعة ثم لا يدع مترسا الا سرقه ولا سلما الا حمله ولا نقضا الا أخذه ولا برادة الا مضى بها معه ويدع يدق الثوب والدق في الهاون والميجان في أرض الدار ويدق على الأجذاع والحواضن والرواشن وان كانت الدار مقرمدة أو بالآجر مفروشة وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة ليكون الدق عليها ولتكون واقية دونها دعاهم التهاون والقسوة والغشم والفسولة الى أن يدقوا حيث جلسوا والى ألا يحفلوا بما أفسدوا لم يعط قط لذلك أرشا ولا استحل صاحب الدار والا استغفر الله منه في السر ثم يستكثر من نفسه في السنة اخراج عشرة دراهم ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر أيذكر ما يصير الينا مع قلته ولا يذكر ما يصير اليه مع كثرته ؟ ·

هذا ، والأيام التى تنقض المبرم وتبلى الجدة وتفرق الجميع انجتمع عاملة فى الدور كما تعمل فى الصخور وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطب ويابس وكما تجعل الرطب يابسا هشيما والهشيم مضمحلا . ولانهدام المنازل غاية قريبة ومدة قصيرة والساكن فيها هو كان المتمتع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذى أبلى جدتها وتحلاها وبه هرمت وذهب عمرها لسوء تدبيره فاذا قسمنا الغرم عند انهدامها باعادتها وبعد ابتدائها وغرم ما بين ذلك من مرمتها واصلاحها ثم قابلنا بذلك ما آخذنا من غلاتها وارتفقنا به من اكرائها خرج على المسكن من الخسران بقدر ما حصل للساكن من الربح الا أن الدراهم التى أخرجناها من النفقة كانت جملة والتى أخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة وهذا مع سوء القضاء والاحواج الى طول الاقتضاء ومع بغض الساكن للمسكن وحب المسكن للساكن لأن المسكن يحب صحة بدن الساكن ونفاق سوقه ان كان تاجرا وتحرك صناعته ان كان صانعا ومحبة الساكن ان يشغل الله عنه المسكن كيف شاء ان شاء شغله بعينه وان شاء بزمانه وان شاء بموت ومدار مناه ان يشغل عنه ثم لا يبالى كيف كان ذلك الشغل الا أنه كلما كان أشد كان أحب اليه وكان أجدر أن يأمن وأخلق لأن يسكن وعلى أنه ان فترت سوقه أو كسدت صناعته ألح فى طلب التخفيف من أصل الغلة والحطيطة مما حصل عليه من الأجرة وعلى أنه ان أتاه الله بالأرباح فى تجارته والنفاق فى صناعته لم ير ان يزيد قيراطا فى ضريبته ولا أن يجعل فلسا قبل وقته .

ثم ان كانت الغلة صحاحا دفع أكثرها مقطعة وان كانت أنصافا وأرباعا دفعها قراضة مفتتة ثم لا يدع مزابقا ولا مكحلا ولا زائفا ولا دينارا بهرجا الا دسه فيه ودلسه عليه واحتال بكل حيلة وتأتى له بكل سبب فان ردوا عليه بعد ذلك شيئا حلف بالغموس (٤٦) أنه ليس من دراهمه ولا من ماله ولا رآه ولا كان فى ملكه فان كان الرسول جارية رب الدار أفسدها وربما أحبلها وان كان غلاما خدعه وربما شطر به . هذا مع الاشراف على الجيران والتعرض للجارات ومع اصطياد طيورهم وتعريضنا لشكاياتهم وربما استضعف عقولهم وطمع فى فسادهم وعيبهم فلا يزال يضرب لهم بالاسلاف ويغريهم بالشهوات ويفتح لهم أبوابا من النفقات ليعيبهم ويربح عليهم حتى اذا استوثق منهم أعجلهم وحزق بهم (٤٧) حتى يتقوه ببيع بعض الدار أو باسترهان الجميع ليربح — مع الذهاب بالأصل — لسلامة مع طول مقامه — من الكراء وبما جعله بيعا فى الظاهر ورهنا فى الباطن فحينئذ يقتضيهم دون المهلة ويدعيها قبل الوقت .

وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لأداء الكراء أن يدعى أن له شخيصا (٤٨) وأن له يدا ليصير خصما من الخصوم ومنازعا غير غاضب

وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها فيجعل استئجار البيوت وتصفح المنازل علة لدخولها والمقام ساعة فيها فاذا استقر فى المنزل قضى حاجته منها ورد المفتاح وربما اكترى المنزل وفيه مرمة فاشترى بعض ما يصلحها ثم يتوخى عاملا جلد الكسوة وجيرانا أصحاب آنية وآلة فاذا شغل العامل وغفل اشتمل على كل ما قدر عليه وتركهم يتسكعون وربما استأجر الى جنب سجن لينقب أهله اليه والى جنب سراف لينقب عليه طلبا لطول المهلة والستر لطول المدة والأمن وربما جنى الساكن ما يدعو الى هدم دار المسكن بل يقتل قتيلا أو يجرح شريفا فيأتى السلطان الدار — وأربابها اما غيب واما أيام واما ضعفاء — فلا يصنع شيئا دون أن يسويها بالأرض ٠

وبعد ٠ فالدور ملقاة وأربابها منكوبون وملقون ٠ وهم أشد الناس اغترارا بالناس وأبعدهم غاية من سلامة الصدور وذلك ان من دفع داره ونقضها وساجها (٤٩) وأبوابها مع حديدها وذهب سقوفها الى مجهول لا يعرف فقد وضعها فى مواضع الغرر (٥٠) وعلى أعظم الخطر ٠

وقد صار فى معنى المودع وصار المكترى فى موضع المودع ثم ليست الخيانة وسوء الولاية الى شيء من الودائع أسرع منها الى الدور وأيضا أم أصلح السكان حالا من اذا وجد فى الدار مرمة ففوضوا اليه النفقة وان يكون ذلك محسوبا عند الأهلة الذى يشفف (٥١) فى البناء ويزيد فى الحساب فما ظنك بقوم هؤلاء أصلحهم وهم خيارهم وأنتم أيضا ربما أكريتم مستغلا غيركم بأكثر مما اكتريتموها منه فسيروا فينا كسيرتكم فيهم وأعطونا من نفسكم مثل ما تريدونه منهم وربما بنيتم فى الأرض فاذا صار البناء بنيانكم — وان كانت الأرض لغيركم — ادعيتم الشركة وجعلتموه كاجازة وحتى تصيروه كتلاد مال أو موروث سلف ٠

وجرم آخر ، وهو انكم أهلكتم أصول أموالنا وأخربتم غلاتنا وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستغلاتنا حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة ومن أعين العوام والحشوة (٥٢) ٠ وحتى يدافعوكم بكل حيلة وصرفوا أموالهم فى كل وجه وحتى قال عبيد الله بن الحسن قولا أرسله مثلا وعاد علينا بحجة وضررا وذلك انه قال : « غلة الدار مسكة (٥٣) وغلة النخل كفاف وانما الغلة غلة الزرع والنسولتين » (٥٤) ٠

وانما جر ذلك علينا حسن اقتضائنا وصبرنا على سوء قضائكم وأنتم تقطعونها علينا وهى عليكم مجملة وتلوونا بها وهى عليكم حالة فصارت كذلك غلات الدور — وان كانت أكثر ثمنا ودخلا — أقل يمنا وأخبث أصلا

من سائر الغلات فأنتم شر علينا من الهند والروم ومن الترك والديلم اذ كنتم أحضر أذى وأدوم شرا ثم كانت هذه صفتكم وحيلتكم ومعاملتكم في شيء لابد لكم منه فكيف كنتم لو امتحنتم بما لكم عنه مندوحة والوجوه لكم معرضة وأنتم فيه بالخيار وليس عليكم طريق للاضطرار ؟ ٠

وهذا مع قولكم : ان نزول دور الكراء أصوب من نز دور الشراء وقلتم : لأن صاحب الشراء قد أغلق رهنه وأشرط نفسه وصار بها ممتحنا وبثمنها مرتهنا ومن اتخذ دارا فقد أقام كفيلا لا يخفر وزعيما لا يغرم وان غاب عنها حن اليها وان أقام فيها ألزمته المؤن وعرضته للفتن : ان أساءوا جواره وأنكر مكانه وبعد مصلاه ونأت عنه سوقه وتفاوتت حوائجه ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها وأنه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها وأن من كان كذلك فهو عبد داره وخول جاره ٠ وان صاحب الكراء الخيار في يده والأمر اليه فكل دار هي له متنزه ان شاء ومتجر ان شاء ومسكن ان شـــاء لم يحتمل فيها اليسير من الذل ولا القليل من الضيم ولا يعرف الهوان ولا يسام الخسف ولا يحترس من الحساد ولا يدارى المتعللين وصاحب الشراء يجرع المرار ويسقى بكأس الغيظ ويكد بطلب الحوائج ويحتمل الذلة وان كان ذا أنفة ان عفا عفا على كظم ولا يوجه ذلك منه الا الى العجز وان رام المكافأة تعرض لأكثر مما أنكره قال رسول الله ـ صلى الله عليه وســـلم ـ : « الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق » ٠

وزعمتم أن تسقط الكراء أهون اذا كان شيئا بعد شيء وأن الشدائد اذا وقعت جملة جاءت غامرة للقوة فأما اذا تقطع وتفرق فليس يكترث لها الا من تفقدها وتذكرها ومال الشراء يخرج جملة وثلمته في المال واسعة وطعنته نافذة وليس كل خرق يرقع ولا كل خارج يرجع وانه قد أمن من الحرق والغرق وميل أسطوان وانقصاف سهم واسترخاء أساس وسقوط سترة وسوء جوار وحسد مشاكل وانه اما لا يزال في بلاء واما أن يكون متوقعا لبلاء وقلتم : ان كان تاجرا فتصريف ثمن الدار في وجوه التجارات أربح وتحويله في أصناف البياعات أكيس وان لم يكن تاجرا ففي ما وصفناه له ناه وفيما عددنا له زاجر فلم تمنعكم حرمه المساكنة وحق المجاورة والحاجة الى السكنى وموافقة المنزل ان أشرتم على الناس بترك الشراء وفي كساد الدور فساد لأثمان الدور وجرأة للمستأجر واستحطاط من اللغة وخسران في أصل المال وزعمتم أنكم قد أحسنتم الينا حين حثثتم الناس على الكراء لما في ذلك من الرخاء والنماء فأنتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم في الكراء ، بل انما أردتم أن تضرونا بتزهيدكم في الشراء وليس ينبغي أن يحكم عن كل قوم الا بسبيلهم وبالذى يغلب عليهم من أعمالهم ٠

فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم وكلها حجة عليكم وكلها داعية الى تهمتكم وأخذ الحذر منكم وليست لكم خصلة محمودة ولا خلة فيما بيننا وبينكم مرضية وقد أريناكم أن حكم النازلين كحلم المقيمين وان كل زيادة فلها نصيب من الغلة ولو تغافلت لك يا أخا أهل البصرة عن زيادة رجلين لم أبعدك – على قدر ما رأيت منك – ان تلزمني ذلك فيما يتبين حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف وتصير الاقامة كالظعن والتفريغ كالشغل وعلى أني لو كنت أمسكت عن تقاضيك وتغافلت عن تعريفك ما عليك لذهب الاحسان اليك باطلا اذ كنت لا ترى الزيادة قدرا ٠

وقد قال الأول : والكفر مخبثة لنفس المنعم ٠

وقال الآخر :

تبدلت بالمعروف نكرا وربما ... تنكر للمعروف من كان يكفر

أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة وبالعداوة التي بين أسد وكندة وبما في قلب الساكن من استثقال المسكن وسيعين الله عليك والسلام) ٠

أرأيت الى هذه الرسالة الفكرية الفلسفية الدقيقة وهذا الحوار الجيد العميق وهذا التوليد والخلق هنا ترتيب للفكرة وتنظيم للآراء واختيار ممتاز للكلمات وأسلوب مقتع ٠ انتخاب لمفردات الحياة الواقعية المادية الملموسة وايمان قوى بنظرية البخل ودفاع جاد في سبيلها والدفاع عنها لقد نجح في أن يجعل الساكن متهما جانيا حقودا لصا محتالا يتوسل بشتى الوسائل غير الحميدة لاستغلال المؤجر أو المسكن كما يقول الجاحظ على لسان الكندى ثم تلك السخرية التي اصطبغت بها الرسالة من اولها الى آخرها انها المرآة التي يكتشف فيها الناظرون – عادة – وجوه الآخرين لا وجوههم ولعل في هذا تفسيرا للقبول الذى يلقاه أدب الجاحظ الساخر ٠

تأثير الجاحظ

يقول د٠ سيد حامد النساج في كتابه « رحلة التراث العربي » :

لعل أقرب من يخطر بالبال من تلاميذ الجاحظ ممن افتتنوا به وتأثروا به أبلغ الأثر أبو حيان التوحيدى ٣١٠ هـ – ٤١٤ هـ ٠ كان التوحيدى من أكبر المعجبين بالجاحظ يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهى أن ينتظم في سلكه كما يقول ياقوت الحموى في (معجم الأدباء) وكان يقول : « الجاحظ واحد الدنيا » ولذا كان يكثر من مطالعة آثاره ويعنى بكتاب

الحيوان ويتوفر على تصحيحه وقد بلغ من اعجابه به أن ألف رسالة أسماها « تقريظ الجاحظ » قال فيها معددا صفات الجاحظ : « ان مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل انسان ولا تجتمع فى صدر كل واحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد » .

لذا حمل التوحيدى لواء الطريقة الجاحظية فتجلت فى كتابته الخصائص العقلية الجاحظية فقد كان لانكبابه على مطالعة كتب الجاحظ فى سن مبكرة أثر فى تفتح ذهنه وانماء مواهبه الأصيلة نجدها ماثلة فى عناصر أسلوبه العامة كالمطابقة بين المعنى والمبنى والوضوح والصفاء والدقة والطرافة والبعد عن التكلف والتزويق المصطنع ونجدها فى ضروب الصنعة كاستعمال الازدواج والمقابلة والتقسيم والتوفر على ايجاد ايقاعات صوتية وموسيقية ناشئة عن انتقاء الألفاظ واحكام بناء الجمل وتوازنها .

أثر الجاحظ فى بعض طلابه من ناحية أخرى فمنهم من لخصوا بعض آثاره كما فعل عبد اللطيف البغدادي (١١٦١ ــ ١٢٣١م ، ٥٥٧ ــ ٦٢٩ هـ الذى لخص كتاب (الحيوان) فى مؤلف سماه (اختصار كتاب الحيوان) وكما فعل ابن سناء الملك الشاعر المصرى (١١٥٥ ــ ١٢٥٩م ، ٥٥٠ هـ ــ ٦٥٨ هـ الذى لخص الكتاب نفسه وسماه (روح الحيوان) ومنهم من حاكى الجاحظ فى تأليفه فحفلت كتبهم بمختلف الموضوعات كابن قتيبة (عيون الأخبار) والمبرد (الكامل) وابن عبد ربه (العقد الفريد) وأبو بكر الصولى (الأوراق فى أخبار الخلفاء والشعراء) والآمدى وابن الفقيه الجغرافى بالقرن العاشر والبيهقى صاحب كتاب (المحاسن والمساوىء) والقزوينى ١٢٠٨ ــ ١٢٨٣ م ، ٦٠٥ ــ ٦٨٢ هـ والدميرى ١٣٤٩ ــ ١٤٠٥ م ، ٧٥٠ ــ ٨٠٨ هـ صاحب (حياة الحيوان الكبرى) .

أما فيما يتصل بكتاب « البخلاء » على نحو خاص فان تأثيره كان قويا وممتدا من حيث الموضوع والفكرة وطريقة المعالجة واللغة فقد يلتهمه الأديب أو المتأدب قبل أن يقدم على قراءة والحيوان والبيان والتبيين ففى الكتاب قصص وفيه حوار وفيه جدل وفكر وفلسفة وفيه حياة واقعية وأشخاص معروفون وفيه لون من الأدب النثرى الساخر وقد تأثر الدكتور طه حسين بلغة هذا الكتاب ، بل انا نجد انعكاسا واضحا لمقدمة البخلاء فى بعض كتابات طه حسين حين يتصور قارئا يسأله ويحاول الاجابة عن تساؤلاته مثيرا من خلالها بعض القضايا والمسائل التى يريدها هو لا القارىء والجدل مع الشخصيات أو مع القارىء والموسيقى الداخلية واستخدام الحال بكثرة وليس ثمة من ينكر اعجاب طه حسين الكبير بالجاحظ وتقليده.

اياه فى تناوله للموضوعات الاجتماعية والأدبية ، بل ان السخرية المرة الكامنة وراء الكلمات والألفاظ التى يكشف عنها التأمل الدقيق فى كتابات طه حسين موردها كتاب البخلاء للجاحظ وما أكثر ما أشاد طه حسين بفكر الجاحظ وعقله وأسلوبه وسخريته وطريقته فى الحوار والجدل . وفى تعليق له على قصة الكندى يقول : « فى هذه السهولة وهذا اليسر والجمال يصور لنا الجاحظ الخصومات لاكما كانت تقع بين الملاك والمستأجرين فى بغداد بل كما تقع هنا فى القاهرة ثم يذهب الى أن جمال النثر وتطوره عند الجاحظ قد مكن من انشاء البيان على أنه علم (هذا الجاحظ الذى نتحدث عنه ربما كان أول من حاول أن يضع نظريات فى البيان) .

أما توفيق الحكيم الذى نهل من مناهل معروفة : يونانية وفرنسية واسلامية فانه أطال الوقوف عند الجاحظ فى كتاباته بشكل عام وأشار الى تأثره به لكن انعكاسات واشعاعات « البخلاء » كانت أوضح وقد أقام كتابه (أشعب أمير الطفيليين) على أثر قراءته للبخلاء بل ان الحكيم فى بعض سلوكه يكشف عن نظرة معينة الى البخل تأثرت فى الأغلب الأعم باتجاه بخلاء الجاحظ تستند الى منطق وفلسفة حتى شهر الحكيم بالبخل بين أصحابه ومريديه .

ويحدثنا توفيق الحكيم فى ذكريات شبابه أنه أطال الوقوف عند القرآن الكريم وكتابات الجاحظ وألف ليلة وليلة ، وأنه يرى فى كتاب « البخلاء » آية فى التصوير الاجتماعى والنفسى . لقد اكتشف توفيق الحكيم فى شخصية الجاحظ الجانب الفنى بعد أن أوشك الاهتمام بكتابه الموسوعى (البيان والتبيين) أن يطمس نور كتابه البخلاء أو وهج رسائله الفكهة مثل رسالة التربيع والتدوير ، وكاد الجاحظ الفنان أن يختفى وراء الجاحظ المعلم والبلاغى .

★★★

طبعات الكتاب

ألف الجاحظ كتابه هذا « البخلاء » قبيل وفاته بأشهر معدودات وإذا كان قد توفى ٢٥٥ هـ ، فان معنى ذلك أن هذا الكتاب قد كتب فى ٢٥٤ هـ ومعناه من ناحية أخرى أنه يضم تجربة المؤلف خالصة ناضجة ، وأنه يحتوى على آراء كاملة فى الحياة والناس ، وأن من يريد بلورة أفكار الكاتب ومذهبه وأسلوبه يمكن أن يجد فى هذا الكتاب عونا أى عون ٠

ولهذا الكتاب نسخة خطية فى مكتبة « كوبريلى » تتكون من ٢٧٨ صفحة فى ١٧ سطرا لكل صفحة مكتوبة سنة ٦٦٩ هـ ونسخة ثانية فى باريس تتكون من ٧٦ صفحة فى ١٥ سطرا لكل صفحة وهى قطعة تمثل ثلث الكتاب وتقع ضمن مجموعة كتب هى : « فضل الكلاب على من لبس الثياب » لابى بكر محمد بن خلف بن المزريان وكتاب « نور العيون فى تلخيص سيرة الأمين والمأمون » لابن سيد الناس الحافظ أبى الفتح محمد بن محمد ٠

بعدئذ ، ومنذ ١٩٠٠ أخذت طبعات الكتاب تتوالى وكانت أول طبعة بليدن أصدرتها « دار بريل » وقد عنى بنشره وتحقيق نصه العـلامة المستشرق الهولندى « فان فلوتن » ٠ فى ١٩٥١ ظهرت باللغة الفرنسية ترجمة لهذا الكتاب قام بها الأستاذ بلا وفى سنة ١٩٢٥ قدم العلامة « وليم مرسيه » طائفة من الملاحظات القيمة على نشرة « فان فلوتن » صحح فيها بعض الكلمات وقوم فيها بعض العبارات وأشار فيها الى بعض المقارنات ونشرت فى مجموعة اليونسكو ٠ فى ١٩٣٥ تلقف الحاج محمد الساسى المغربى نشرة فان فلوتن وقذف بها الى المطبعة دون أن يتكلف شيئا من أوليات ما ينبغى فى نشر الكتب وطبعها بمطبعة الجمهور المصرى فى ٢٢٧ صفحة فجاءت مشوهة عن الطبعة الأوربية السابقة تحمل أخطاءها وتزيد عليها أخطاء فى الطباعة والنشر وما لبثت وزارة التربية والتعليم المصرية (المعارف آنذاك) أن تنبهت الى شىء من واجبها فى هذا الصدد فعهدت بالكتاب الى الأستاذين أحمد العوامرى وعلى الجارم فاظهراه فى نشرة يبدو فيها أثر الجهد والتحقيق سنة ١٩٣٨ معتمدين طبعة المستشرق فان فلوتن ٠

ثم نشره وحققه مكتب العربى بالاشتراك مع لجنة من أعضاء المجمع العلمي بدمشق فى مطبعة ابن زيدون سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م باشراف بدر الدين النعسانى وخليل مردم بك وعبد القادر المغربى وعز الدين التنوخي ومحمد بهجت البيطار • كتب المقدمة أحمد آمين ويقع الكتاب فى ٤١٣ صفحة واعتمدت هذه الطبعة التصحيحات التى قام بها فان فلوتن ودى جويه ومرسيه الذى نشر تصحيحاته فى المجلة الآسيوية •

كما نشر داود الجلبي مقالات تصحيحية عن أغلاط الطبعة الدمشقية لكتاب البخلاء فى مجلة المجمع العلمي العربى بدمشق المجلد العشرون ١٩٤٥ الصفحات ٦١ ـ ٦٧ وقام الأستاذ طه الحاجرى بنشر الكتاب سنة ١٩٤٨ فى دار الكتاب المصرى ويقع فى ٤٦٦ صفحة •

ونشر « رشر » قسما منه فى :
Exlcerpteu Ubersitzunger U.S.W.S. 267-484.
ثم الى جانب الترجمة التى قام بها الأستاذ شارل بلا فانه نشر كتابا بعنوان : صحف مختارة من كلام ابن عثمان الجاحظ يحوى منتخبات من ثلاثة كتب للجاحظ منها البخلاء طبع بباريس ١٩٤٩ كما أصدر الأستاذ طه الحاجرى طبعة أخرى فى دار المعارف بمصر ١٩٥٨ ضمن سلسلة ذخائر العرب ٢٣ ويقع فى ٥٠٧ صفحات • وتلافيا للوقوع فيما وقع فيه من تقدمه اعتمد الأستاذ الحاجرى فى تحقيقه كتاب البخلاء المخطوطة التى اعتمدها فان فلوتن قبله ومخطوطة ثانية فى مكتبة باريس الأهلية كما رجع عدد كبير من كتب الأصول للبحث والتنقيب والمقارنة عندما كان يريد التأكد من نص من النصوص وفى الكتاب وصف للمصادر التى استوحاها الحاجرى المباشرة منها وغير المباشرة • ومن ميزات هذه الطبعة أن المحقق قدم لها بمقدمة تحليلية نقدية لكتاب البخلاء بحث فيها النزعة الفنية عند الجاحظ ومكانتها من نزعاته الأخرى كما بحث فى كتاب البخلاء نفسه متناولا أصل وضعه مبينا خصائصه الفنية والطبعة مذيلة بفهارس عملية للأشخاص والأماكن والأطعمة والأدوات والشعر وهى تدل على ممارسة واعيا وتفهم عميق للتراث العربى بعـــامة ولأعمـــال الجاحظ الكثيرة بخاصـــة •

وطبع فى دار احياء التراث العربى ببيروت سنة ١٩٦٠ ـ ١٣٨٠ هـ فى ٣١٥ صفحة كما طبع فى داو اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بدمشق ضمن سلسلة عيون التراث العربى ، قدم لها أحمد ظافر كوجان فى سنة ١٩٦٣ ويقع فى ٥٤٩ صفحة وفى نفس السنة أصدر الأستاذ طه

الحاجرى طبعة أخرى وجاءت فى ٤٣٨ صفحة صدرت عن السلسلة والدار اللتين أصدر بهما طبعته السابقة وكذلك جاءت الطبعة الخامسة فى سنة ١٩٧٦ وتقع فى ٥١٠ صفحات . وبين طبعتى الأستاذ الحاجرى السابقتين أصدر فوزى عطوى طبعة جديدة حققها وقدم لها نشرتها بالشركة اللبنانية للكتاب ببيروت سنة ١٩٦٩ .

مصنفات جابر بن حيان الكيميائية

جابر بن حيان

٨٥٠ - ٩١٠ م

لا يخفى أن المدنية الأوربية تقـوم على عـدة أركان أهمها الركن الاقتصادى وهذا يقوم على ما أوجده العـلم من صناعات واستحدثه من آلات وأدوات لتسهيل استغلال القوى الطبيعية لصالح الانسان ورفاهيته .

ولقد لعبت الكيمياء وما تزال تلعب دورا مهما فى هذا العصر فلولاها لما تقدمت الصناعة تقدمها الحاضر ولما سيطر الانسان على بعض العناصر سيطرته الحالية .

واذا ذكرنا الكيمياء والصـناعات التى خرجت منها وقامت عليها توجه نظرنا الى الذين وضعوا أسسها وعملوا على تقـدمها وارتقائها من كهنة مصر الى علماء اليونان الى فلاسفة الهند الى نوابغ العرب . ويهمنا ما أحدثه العرب فى هذا الفرع من ابتكار واكتشاف فنجد أنهم تبنوا هذا العلم وامتازوا على غيرهـم برجوعهم فيه الى التجربة والاختبـار اذ بعد اطلاعهم على بحوث من سبقهم من الأمم أتوا بزيادات مهمة جعلت بعض منصفى الغرب يعتبرون هذا العـلم من نتاج القريحة العربية الخصـبة ويرجع الفضل فى أكثر هذه الابتكارات والاضافات الى جابر بن حيان الذى قال عنه « برتيلو » : « لجابر بن حيان فى الكيمياء ما لأرسطوطاليس فى المنطق .. » ويعتبر برتيلو أيضا أن جميع الباحثين العرب فى هذا العلم نقلوا عن جابر واعتمدوا على تآليفه وبحوثه .



اختلف الناس فى أمر جابر بن حيان وليس بعجيب أن يختلف فى أمر العظماء من رجال الفكر والعلم فهم محط الأنظار واليهم يتقرب الناس وعلى الانتماء اليهم يتنازعون . فالشيعة تقول ان جابر من كبارهم وأحد أبوابهم ، وانه كان صاحب جعفر الصادق ومن الناس من يقول انه كان من جملة البرامكة ومنقطعا اليهم وقال قوم من الفلاسفة انه كان منهم كما « زعم أهل صناعة الذهب أن الرياسة انتهت اليه فى عصره وأن أمره كان مكتوما » . وزعموا أنه كان يتنقل فى البلدان لا يستقر به بلد خوفا من السلطان على نفسه وقد يكون ذلك نتيجة لعلاقاته مع البرامكة كما تقول

أكثر الروايات اذ كان مقربا الى البلاط العباسى فلما دار الزمان على البرامكة أصابه بعض ما أصابهم من اضطهاد وضغط حيث بقى وقتا طويلا مختفيه مما حمله على الفرار الى الكوفة ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الاختلاف فى أمر جابر بل نجد أن جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين ـ كما يقول صاحب الفهرست ـ ينكرون وجود جابر وأن لا أصل لرجل بهذا الاسم ولا حقيقة ، وأن الناس قد نسبوا اليه مؤلفات ورسائل ونحلوه اياها ولقد علق صاحب الفهرست على هذا تعليقا طريفا ينتهى به الى أن رجلا بهذا الاسم (جابر) كان موجودا وله حقيقة وهذا ما يأخذ به أكثر المؤرخين من القدامى والمحدثين قال ابن النديم فى الفهرست : « ٠٠٠ وأنا أقول ان رجلا فاضلا يجلس ويتعب فيصنف كتابا يحتوى على ألفى ورقة يتعب قريحته وفكره باخراجه ويتعب يده وجسده بنسخه ثم ينحله لغيره ـ اما موجودا أو معدوما ـ ضرب من الجهل وان ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم وأية فائدة فى هذا وأية فائدة ؟ والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصنيفاته أعظم وأكثر ولهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة ٠٠٠ وكتب فى معان شتى من العلوم ٠٠ وقد قيل ان أصله من خراسان ٠٠ » ولد فى طرسوس أو طوس سنة ١٢٠ هـ وعاش الى عصر المأمون ما يقرب من ثمانين سنة ٠



التراث العلمى والعربى

لم يسلم العرب من حقد الشانئين فقد حاول كثير من الأوروبيين أن يجردوهم من تلك العلمية المبتكرة التى اشتهروا بها فزعموا أن العقل العربى فى كل أطواره التاريخية لم يقدم الى المدنية خدمات علمية لتسخير قوى الطبيعة والانتفاع بها فى رقى الحياة الانسانية وأخذوا يبرهنون على هذه الدعوى الجائرة بأنه لم ينبغ فى العرب من كان مثل « جاليليو » أو « كبلر » أو « بيكون » وعلى الرغم مما ردده هؤلاء المنكرون فان فريقا كبيرا من علماء أوروبا أنصفوا العرب وأحلوهم المحل الأول فى طليعة الرواد الذين كشفوا أستار الطبيعة ومهدوا السبيل لقيام حضارة علمية زاهرة ومما ردده أولئك الجاحدون لفضل العرب دعواهم أن جابر بن حيان ـ وهو تلك الشخصية اللامعة فى عالم الكيمياء لا وجود له ، وأنه شخص وهمى وقال آخرون : ان ما نسب اليه من رسائل فى الكيمياء انما هى من وضع عالم لاتينى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد ٠

وكيفما كان الأمر فان من الثـابت تاريخيا أن العرب ما كادوا يتصلون بعد حركة الفتح بالأمم المغلوبة من فرس وروم حتى أخذوا يعملون على تشييد امبراطورية قوية تقوم دعائمها على العلم والمعرفة لذلك أخذت تنشط وتقوى فى العصر العباسى وكان المأمون من أشد خلفاء بنى العباسى حرصا على نقل الثقافة اليونانية وغيرها من الثقافات الى اللغة العربية فبعث بالكتب والرسل الى ملك الروم بالقسطنطينية يطلب منه ما هو مختار ومدخر فى خزانته من الكتب النفيسة وكان ممن بعث بهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وغيرهما وقد روى أن المأمون كان يعطى كل مترجم وزن كتابه ذهبا مما دعا الى اثارة روح التنافس بين العلماء والمترجمين واشتهر من هؤلاء المترجمين آى بختيشوع أبناء جورجيس بن بختيشوع السريانى النسطورى طبيب المنصور وحنين بن اسحق العبادى شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة (٥٥) ويوحنا بن ماسويه (٥٦) ومتى بن يونس (٥٧) ومن المشجعين لحركة الترجمة بدافع الرغبة فى العلم بنو موسى بن شاكر وهم ثلاثة اخوة « محمد وأحمد والحسن » وبذلك تهيأ للمأمون أن ينقل فى عهده الى اللغة العربية معظم أمهات الكتب فى العلوم والفلسفة وقد أنشأ دارا خاصة ببغداد تدعى دار الحكمة عهد الى العلماء فيها بنقل كل ما يمكن نقله من معارف الأمم الأجنبية ٠

وكان للنساطرة من علماء السريان الذين كانوا يقيمون بالرها(٥٨) ونصيبين (٥٩) وانطاكية (٦٠) من المراكز العلمية بالشام أكبر الفضل فى هذه الحركة العلمية ٠

وتشير المراجع الى أن هؤلاء كانوا يشتغلون بترجمة العلوم اليونانية الى اللغة السريانية ، فلما احتل المسلمون الأقطار الشامية انتفعوا بهؤلاء العلماء فى ترجمة ما عندهم من الحكمة اليونانية الى اللغة العربية وقبل أن يشتغل العرب بنقل علوم اليونان فى الشام والعراق وكانوا لاسكندرية فى أيام البطالسة مركزا مشهورا من مراكز العلم ، وكانت الاسكندرية فى أيام البطالسة مركزا مشهورا من مراكز العلم ، وكانت لمكتبتها شهرة ذائعة فى العالم كله ، وقد نشأت فى الاسكندرية أول مدرسة للكيمياء ويقال ان بطليموس الأول (٣٢٣ ـ ٢٨٥ ق٠م) أنشأ معهد « الميوزيوم » وخصص جانبا منه للبحوث الكيميائية وفى هذا العهد التقت معارف المصريين القدماء فى الكيمياء بالبحوث الاغريقية فى هذه المادة التى يرجع اليها الفضل الكبير فى بناء حضارتنا الحديثة ٠ فلما استقر العرب فى الاسكندرية أخذوا يدرسون فيها الكيمياء وغيرها من العلوم وكانت الكيمياء القديمة تقوم على أساس فكرة خاطئة وهى امكان تحويل المعادن الخسيسة من حديد ونحاس الى معادن نفيسة من ذهب وفضة ، والعمل على تحضير أكسير الحياة الذى يساعد فى اطالة العمر ولم تقف

فتوح العرب عند حد ، اذ تجاوزت بلاد الشرق الى أوروبا ففتحوا بلاد الأندلس ونشروا فيها حضارتهم فكانت هذه الحضارة قبسا قويا أضاء أوروبا ولذلك أقبل الأوروبيون على الجامعات العربية فى قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية — يدرسون وينقلون الكتب وفى مقدمتها كتب الكيمياء . وقد ظهر فى انجلترا أول كتاب فى الكيمياء ترجمه عالم انجليزى يدعى « روبرت أف تشيستر » كما اعتمد روجر باكون على مؤلفات ابن سينا فى الكيمياء ولم يأت القرن السادس عشر حتى كانت مؤلفات الكيمياء العربية قد أصبحت شائعة فى أنحاء أوروبا وكان العرب يسمون الكيمياء الاكسير وأطلق عليها الأوروبيون حجر الفلاسفة ثم أخذت بحوث الكيمياء بفضل جهود العرب تنحو نحوا عمليا تجريبيا وانتهى الأمر بالقضاء على نظرية أرسطو القديمة التى أيدها العرب حينا ثم عدلوا عنها بعد أن اتضح لهم استحالة استخراج الذهب من المعادن الرخيصة.واذا كان للكيمياء فضل عظيم فى بناء صرح الحضارة الانسانية فان جانبا كبيرا من هذا الفضل يرجع الى العرب الذين تعهدوا هذه البحوث وكان لهم فيها باع طويل سيتضح لنا بعد دراسة جابر بن حيان . وقد اتهم العرب ظلما بأنهم أحرقوا مكتبة الاسكندرية وتلك دعوى جائرة وقد رمى بها العرب ، ويكفى فى القضاء على هذه التهمة الباطلة ما كان عليه العرب من حب عميق للبحث وشغف بالاطلاع على الكتب ورغبة ملحة فى الوقوف على مصادر الثقافات الأجنبية . وبدهى أن الكتب هى مراجع ومنابع المعرفة واذن ، يكون من غير المعقول أن يعمد العرب الى احراقها والحقيقة التى لا شك فيها أن ما أصاب مكتبة الاسكندرية والمعهد الملحق بها كان من عمل غير العرب فقد روى ثقات المؤرخين أن الامبراطور « دقلديانوس » أمر فى سنة ٢٩٦ م بحرق كتب الكيمياء فى مكتبة الاسكندرية ، كما قيل ان أهل الاسكندرية ثاروا فى وجه بطليموس التاسع فأحرقوا جزءا كبيرا من هذه المكتبة العظيمة أما العرب فكانوا من أحب الناس للعلم ، وقد بهرتهم بحوث الكيمياء فمالوا اليها ويقول ابن النديم فى الفهرست : « كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا فى نفسه ومحبا للعلوم خطر بباله الصنعة فأمر باحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كانوا ينزلون بمدينة مصر وقد تفصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى وهذا أول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة » . ويقول ابن خلكان فى كتابة وفيات الأعيان : « ان خالدا كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام فى صنعة الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته وأخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مريانوس الرومى » ، ولكن ابن خلدون يستبعد اشتغال خالد بفن الكيمياء مدعيا أنه من الجيل العربى

والبداوة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصناعات ومن الأسف أن هذا العالم الكبير ينزع نزعة معادية للعرب ولذلك لانستطيع أن نعتمد على روايته والأقرب الى الواقع روايتا ابن النديم وابن خلكان وتقول بعض المصادر ان خالدا استعان على الاشتغال بالصنعة برجل يدعى « اسطفان المصرى » ومن اشتغلوا بالكيمياء من علماء العرب أبو عبد الله جعفر الصادق ابن الصوفى وكانت بحوث العرب فى الكيمياء مقترنة ببحوثهم فى الطب . بالصادق لصدقه وله كلام فى صنعة الكيمياء ومن تلاميذه أبو موسى جابر ابن الصوفى وكانت بحوث العرب فى الكيمياء مقترنة ببحوثهم فى الطب . وقد أفاد الأوربيون من علم الكيمياء الذى تقدم على أيدى العرب ومما يؤيد ذلك أن كثيرا من مصطلحات الكيمياء الحديثة ما تزال معروفة بأسمائها التى وضعها العرب ، من ذلك القلويات التى يسميها الأوربيون **Al Kali** . حقا لقد ترك العرب آثارا خالدة فى علم الكيمياء لانهم أول من أدخل فكرة التجربة العملية وخلصوا هذا العلم من نظريات الاغريق الغامضة .

مذهب قدماء العرب فى الكيمياء :

كان علماء العرب يقسمون هذا الوجـود الذى نعيش فيه قسمين : الوجود الحسى وهو العالم المحس الذى نحيا فيه ويشمل الكرة الأرضية وما فيها من هواء وماء وما يتصل بها من أجرام والوجود غير الحسى وهو ما وراء الطبيعة .

أما الوجود الحسى فيقول فيه القدماء : انه نوعان :

الأول : عالم العناصر التى نشاهدها ونراها بأعيننا ونلمسها بأيدينا .
والثانى : عالم الأفلاك .

فالعناصر التى نشاهدها ونحسها أربعة وهى : الأرض والماء والهواء والنـــار .

وأما عالم الأفلاك فتسعة : الفلك الأول فلك القمر وهو أصغرها وأقربها الى الأرض ويزعمون أنه فوق كرة الهواء والفلك الثانى هو فلك عطارد ويرى من الكواكب السيارة والفلك الثالث للزهرة والرابع للشمس والخامس للمريخ والسادس للمشترى (جوبتير) والسابع لزحل .

وبالرغم مما وصل اليه القدماء فان معارفهم الفلكية كانت محدودة . وسبب ذلك شيء يسير جدا وهو أن المنـاظير وآلات الرصـد التى عرفها الفلكيون فى هذا العصر كانت بدائية ، وهذه سنة طبيعية ، فان معارف الانسان بدأت يسيرة قليلة ثم أخذت تنمو وتزداد وتتطور مع الأيام ومع التقدم الفكرى وانتهى علم القدماء الى أنه فى كل فلك من الأفلاك أو فى

كل مدار من المدارات السبعة كوكب واحد ثم قالوا : ان فوق فلك زحل الفلك الثامن وهو للكواكب الثابتة وفوق الفلك الثامن الفلك التاسع وهو فلك البروج الاثنى عشر ، ويزعمون أن هذه الأفلاك ترى على هيئة الأكر وأن بعضها داخل في جوف بعض والذى يهمنا في هذا البحث هو رأى علماء الكيمياء العرب فى الوجود الحسى وانه يتكون من أربعة عناصر وهى الأرض والماء والهواء والنار وهم حين يعترفون بوجود هذه العناصر لا يقصدون أن كل عنصر منها قائم بذاته وأنه منفصل عن الآخر كل الانفصال بل يقصدون ان كل جسم من الأجسام يتكون من هذه العناصر الأربعة بنسب متفاوتة فاذا تغلب أحد هذه العناصر على العناصر الباقية وليكن الماء مثلا كان العنصر هو الماء كذلك اذا تغلب العنصر الأرضى على العناصر الباقية كان العنصر هو الأرض. ومن طريف ما يذهب اليه علماؤنا القدماء فى العناصر الأربعة أن النار اذا كانت الغالبة كان الجسم على هيئة الاحتراق فاذا كان الاحتراق شديدا ، كان الجسم هو عنصر الماء واذا كان بطيئا فهو الصدأ ثم يضيفون الى العناصر الأربعة عنصرا خامسا وهو عالم الأفلاك ويقولون ان الأجسام فى تكوينها تبتدى متدرجة على نظام بديع من المعادن ثم النبات ثم الحيوان وان آخر أفق المعادن متصل بأول أفق الحيوان أى أن كل عنصر من هذه العناصر وهى المعاد والنبات والحيوان مستعد للاستحالة الى العنصر الذى يليه ويمكن أن يقال : ان عالم التكوين عند حكماء الاسلام هو بمثابة الأجسام المركبة عند المتأخرين من علماء الكيمياء فى العصور الحديثة ويقول ابن سينا : ان المعادن سبعة : وهى الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين وهذه الأنواع السبعة متباينة وكل واحد منها قائم بذاته .

ومما يلاحظ أن العرب قد أخذوا بعض آرائهم عن المصريين القدماء والاغريق ولكنهم هذبوا هذه الآراء ورتبوها ترتيبا منطقيا يتمشى مع الأساليب العلمية فتركوا مؤلفات قيمة فى علوم الكيمياء والباحث المطلع على هذه الكتب يرى أن أفكارا عامة تسودها يمكن تلخيصها فى المبادىء الآتية :

١ ــ كان العرب يعتقدون الى حد ما بصحة نظرية « أرسطو » التى يزعم فيها أن ما نسميه « الهيولى » هى أصل المادة فى كل كائن ولكنها لا توجد منفردة مستقلة بذاتها بل تكون متحدة بالهيئة الجسمية واتحادها على هذه الصورة يكون ما يسمى الجسم الوهمى ، فاذا اتحدت الأجسام الوهمية بالهيئة الذاتية صارت جسما معينا واتحاد الهيئات الذاتية بالأجسام الوهمية تنشأ عنه العناصر المعروفة التى هى الماء والهواء والنار والأرض .

٢ ـ أما موقف العرب من حيث تركيب المادة فانهم يقولون بامكان تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ولذلك انحصر اهتمامهم في استحضار الاكسير حتى قيل : ان علم الكيمياء عندهم هو علم تدبير الذهب ويقول بعض الرواة : ان خالد بن يزيد بن معاوية سئل يوما : « لقد أنفقت أكثر شغلك في طلب الصنعة فأجاب عن هذا السؤال بقوله : ما أطلب بذاك الا أن أغنى أصحابي واخواني ، انى طمعت في الخلافة فاختزلت دونى ، فلم أجد عوضا منها الا أن أبلغ آخر هذه الصناعة • واذا صحت هذه الرواية كانت دليلا على مقدار عناية العرب بتحضير الاكسير ، ولذلك استخدموا جميع الوسائل في تحضير الذهب يقول « الجلدكي » : ان العرب وجهوا عنايتهم الى تدبير المواد والعظام والحوافز والألبان وكثير من النباتات والأملاح والفضلات والعروق وناب الفيل ولعاب الأفاعي والصمغ وقد بذلوا في سبيل ذلك كل ما استطاعوه من التجارب وكان لهذه التجارب أثر عظيم في تاريخ الكيمياء والنهوض بها الى الدرجة التي مكنت الأوروبيين من استخدام الكيمياء في رفع مستوى الحياة الانسانية وقد وصل العرب بتجاربهم الى الكشف عن خواص كثير من الفلزات والأملاح والمركبات الكيميائية وأمكنهم أن يعرفوا طرق تحضيرها وتنقيتها وتأثير الحرارة فيها فوصلوا مثلا الى معرفة بعض الحوامض كحامض (الخليك) الذي يذيب النحاس كما عرفوا بعض الحوامض المذيبة للمعادن (كحامض الكبريتيك) و (حامض النتريك) وان كانوا لم يعرفوا هذه الحوامض بتلك الأسماء فقد كانوا يطلقون عليها بعض الأسماء كقولهم الماء الحاد والماء الحريف والماء المثلث ومازال العرب دائبين في البحث حتى عرفوا الحوامض التي تساعد في تبييض الفلزات وجعلها حمراء ، وأخذت بحوثهم تسير قدما في طريق النهوض العلمي في الكيمياء حتى انتهوا الى معرفة عمليات الحل والاذابة والعقد (الترسيب أو التبلر) والتسخين والتكليس والتقطير والتصعيد ، ولا شك في أن هذه العمليات قد اقتضت ادخال تحسينات عظيمة على الأجهزة العلمية التي لابد منها لعمل هذه التجارب •

٣ ـ واذا كان علماء الكيمياء القدماء قد ذهبوا الى امكان تحويل المعادن فقد قاوم ابن سينا هذه النظرية وقطع بفسادها وبطلانها •

٤ ـ والكيمياء العربية تمتاز بانها قائمة على التجربة والبرهان العملي ، ولذلك كان علماء العرب لا يسلمون باقوال غيرهم من علماء الأمم الأخرى الا بعد امتحان هذه الآراء بالتجربة التي يثبت فسادها أو صحتها وكان جابر بن حيان في مقدمة علماء العرب الذين اهتموا بالتجربة وجعلها أساسا في كل استنباط علمي ويقال : انه وضع شروطا معينة للتجربة ضمنها كتابا من كتبه وهو « كتاب الخواص الكبير » ومن علماء المدرسة

« الجابرية » المجريطي (٦١) الذى يقول : ليس أمامنا الا دليل واحد على استحالة المعادن الا التجربة العملية وينصح طالب الكيمياء بالتمرين الكثير على اجراء التجارب والاعتماد على قوة الملاحظة والتفكير العميق والمنطق السليم ومن يطلع على كتب الكيمياء العربية القديمة يجدها تمتاز بالروح العلمى الدقيق القائم على التجربة كما يلاحظ أنها تعنى خاصة بوصف التجارب وصفا علميا مع بيان طريقة اجرائها وما ينبغى أن يتخذ من احتياطات فى أثنائها • ومن هذه الناحية يتبين الباحث أن الكيمياء العربية تفوق الكيمياء اليونانية ، التى يفخر أهلها بأنهم أخذوها عن «هرمز» اله الحكمة ومبتدعها حيث يقول : « لقد علمت ابنى الكيمياء فى ثلاثة أيام دون أن أستخدم جهازا حتى ولا انبيقا » •

٥ ـ ومما ينبغى ذكره انصافا للكيميائيين العرب أنهم لم يقصروا بحوثهم على تحضير الأكسير ، فقد وضح بما لايدع مجالا للشك أنهم اتجهوا اتجاها عمليا الى تعليل بعض الظواهر الطبيعية والكيميائية واستنبطوا كثيرا من النظريات من ذلك ما قام به جابر من عملية اتحاد الزئبق بالكبريت وهى العملية التى أدت الى الاعتقاد بأن المعادن تتكون من اتحاد الزئبق بالكبريت ويقال : ان جابر استخدم هذه النظرية فى تفسير ظاهرة التكليس فقال : ان الفلز عندما يتأثر بالحرارة يتطاير منه الكبريت ويتخلف الكلس •

٦ ـ ومن آراء العرب أن الكواكب والأجرام السماوية تؤثر فى المعادن وقد نقلوا هذا الرأى عن البابليين الذين كانوا يقولون : ان الأبراج الاثنى عشر ـ وكانوا قد درسوها وعرفوا انتقالاتها ـ تؤثر فى مظاهر الحياة على سطح الأرض من نور وظلمة وحرارة وبرودة وتوالى الليل والنهار وتتابع الفصول لذلك ربط العرب بين المعادن السبعة التى عرفوها والكواكب السيارة فاطلقوا على كل معدن اسم الكوكب الذى يقابله على حسب زعمهم • ولكننا اذا بحثنا كتب جابر فى الكيمياء لا نجد أثر لهذا الرأى وكل ما عثر عليه فى كتبه تلك الوصية التى يقول فيها لمن يريد أن يقوم بأية تجربة فى الكيمياء : اختر للتجربة الوقت الملائم لها ويمكن أن يقال : ان الكيمياء العربية فى النهاية خالية من مظاهر التنجيم لانها اتجهت اتجاها عمليا لذلك لم يكن فيها أى أثر للعوامل الوهمية كالسحر والتعاويذ وتأثير الكواكب •

٧ ـ وقد يظن بعض الباحثين ان علماء الكيمياء العرب قد اتجهوا بالكيمياء اتجاها نظريا خياليا لا صلة له بواقع الحياة والحقيقة التى لا تشوبها شائبة من الشك أن علماء العرب قد وصلوا الكيمياء بالحياة

العملية وأنهم اتخذوها وسيلة الى تحضير الأملاح والأدوية والروائح العطرة وغيرها ، ومما يؤيد ذلك أن الكندى وهو من فلاسفة العرب وعلماء الكيمياء قد ترك رسائل فى الكيمياء التطبيقية تدل على عناية العرب بهذه الناحية .

٨ — ويتجلى فضل العرب فى علوم الكيمياء فى أن الاغريق كانوا يقيمون الكيمياء عندهم على أسس ثلاثة : فلسفى وتجريبى وباطنى وقد اشتدت عناية الاغريق بالكيمياء الباطنية التى تستند الى الرقى والتعاويذ والمؤثرات الوهمية . ولما أراد خالد بن معاوية أن يدرس الكيمياء لم يجد أمامه الا هذا ، ولكن جابر بن حيان حين بدأ يشتغل بالكيمياء أخذ يجردها من هذه الأمور الوهمية ووضع لها أساسا هو التجربة وبدأ العلماء بعده يسيرون على طريقته . ومن هذا يتضح أن فضل العرب على الكيمياء كان عظيما ، ولكن العربى الذى تجرى فى عروقه دماء العرب يأسف كثيرا ، لأن العرب بعد أن نهضوا بالكيمياء وقف نشاطهم فى القرن الثانى عشر ، وفى هذه الفترة أخذ الأوروبيون ينقلون كتب الكيمياء العربية الى لغاتهم ، فانتفعوا بهذا التراث الخالد ، الذى كان عونا صادقا لهم على الاستمرار فى البحث ، حتى وصلت الكيمياء الى ما هى عليه فى الوقت الحاضر ، فسهلت للناس سبل الحياة الطيبة ، وارتفعت كثيرا بمستوى الوسائل الزراعية والصناعية والطبية وغيرها .

تلك خلاصة تاريخية موجزة تعطينا — فكرة صحيحة عن أجدادنا الأوائل ، الذين ركزوا جهودهم وتفكيرهم فى سبيل التحقيق العلمى ، والكشف الكيميائى لاسعاد البشرية ، وقد أفادوا الانسانية حقا .

ابن حيان .. حياته ونشأته

تذكر دائرة المعارف البريطانية أنه أبو موسى جابر بن حيان ويسود الاعتقاد وفق الأدلة على أنه من قبيلة أزد القبيلة العربية التى قطنت جنوب الجزيرة العربية واستوطن بعضهم الكوفة بعد أن تهدم سد مأرب. وقد أيدت دائرة المعارف الاسلامية حيث ذكرت بأنه أبو موسى جابر بن حيان الأزدى صاحب كيمياء عربى مشهور واسم أبيه عبد الله الكوفى ويذكر ميلر عند كتابته عن جابر ان العرب حاذقون فى التجارب ويشير الأستاذ سارتون فى كتابـه (مقدمة فى تاريـخ العلم) عند التطرق الى كيمياوى العرب (يظهـر أن لجابر بن حيـان خبرة تجريبية جيـدة فى عدد من الحقائق الكيمياوية وذكرت الموسوعة الدولية ان جابر بن حيان كيمياوى مشهور فى القرن الثامن للميلاد وكتبه ذات التأثير الكبير الواسع ، وتعتبر من أول المؤلفات فى المعادن والتى نقلت الى أوربا مثل نظرية تحضير المعادن من عنصرى الزئبـق والكبريت ووصـف لتحضير الحوامض المعدنية وبقيت هذه الكتب نصوصا كيمياوية لأجيال عديدة وهكذا تدل أكثر المصادر على أن جابرا عربى الأصل والثقافة ولم نجد من بين المصادر الموثوقة ما يشير الى أنه فارسى أو يونانى الأصل .

ولد جابر بن حيان بن عبد الله الأزدى فى مدينة طوس عام ٧٢١ م وكان والده من أقربادين (٦٢) الكوفة ومن المخلصـين للدعوة العباسية فهاجر الى طوس ليكون من دعاة العباسيين هناك فشعر به عمال الدولة الأموية فالقى القبض عليه وحكم عليه بالاعدام ، أما جابر فقد أرسل الى البلاد العربية وتتلمذ أول الأمر على يد حـربى الحميرى ثم تأثر بآراء الامام جعفر الصادق ودرس بعض العلوم الدينية عنه ثم دخل مدخـل الصوفيين ومال الى الصوفية ولقب بها لذلك وكان صديقا مقربا للبرامكة الذين تسلموا مناصب وزارية فى عهد هارون الرشيد وقد عاصر جعفر ابن يحيى البرمكى وعندما اغتـاظ الرشيد من البرامكة وبطش بهم فر جابر بن حيان الى الكوفة وعاش متسترا فيها ولم يعثر على أثر لجابر فى الكوفة الا بعد قرنين من وفاته على أثر عمليات بناء فى احدى مناطق الكوفة

المعروفة بباب دمشق وقد ذكرت بعض المصـــادر أنه عاصر المأمون فترة ويذهب بعض المؤرخين الى أن جابر قد قصد جعفر الصادق في كتاباته وليس جعفر البرمكي والحقيقة ان النصوص التي بين أيدينا تشير الى أنه اتصل بكليهما وكان يشير الى الامام جعفر الصادق بسيدى جعفر وعندما يذكر جعفر البرمكي أو أباه يحيى فيدعوهما بجعفر ويحيى ، فلقد ذكر جابر في كتاب الرحمة الامام جعفر الصادق أكثر من مرة حيث نعته بسيدى جعفر أو كما ذكره في كتاب المقابلة والمماثلة سيدى جعفر بن محمد عليه السلام . ولم يكن جابر بن حيان أسطورة خيالية حتى أنكر وجوده بعض الكتاب والحقيقة أن جابر بن حيان قد عاش في الكوفة مدة طويلة بعد مقتل جعفر البرمكي وقد ذكر الجلدكي في نهاية الطلب أن أبا الربيع سليمان بن موسى بن أبي هشام روى عن أبيه موسى في صدر كتاب (الرحمة) لجابر « لما توفي جابر بطوس سنة مئتين من الهجرة وجد هـــذا الكتاب تحت رأســه » وكتاب الرحمـــة من بين الكتب القلائل التى ألفها جابر وأجمعت المصادر الغربية والعربية على أنها له .

لابد وأن جابرا قد تستر بالعيش في مدن عديدة عرف أهلها أو بعضهم بالعطف على البرامكة وربما عاش فترة طويلة في الكوفة بعد نكبة البرامكة ثم غادرها في أواخر أيام حياته الى طوس مسقط رأسه حيث وافاه الأجل هناك .

★★★

ثقـــافة جابر العلميـــة

كان جابر تلميذا لجعفر الصـــادق امام الشيعة على ما رواه بعض المؤرخين وقيل انه كان تلميذا لخالد بن يزيد بن معاوية الذى عرف بأنه أول من تكلم في الكيمياء ووضع فيها الكتب وشرح صنعة الاكسير وعنه نقل جابر هـــذه الصـــنعة التى اشتهر بها وألف فيها نحـــو خمسمائة كتاب وكان بعض الناس في زمانه يعـــدون هذه الصناعة أمرا موهوما اذ كيف يتسنى في العقل استخراج الذهب من طبخ مواد نباتية ومعدنية ، وقد جرب بعضهم ما ذكره جابرة مدة طويلة فذهب تعبه سدى فكتب على مصنفاته :

هذا الـــذى بمقـــاله غر الأوائـــل والأواخـــر
ما أنت الا ســـــاحر كلب الذى سماك جابر

ولكن جابر بالرغم من ذلك كشف باختباراته العلمية أمورا مهمة في فن الكيمياء وترجمت كتبه الى اللغات الأوربية واشتغل الأوربيون وقتـــا طويلا بكيمياء جابر وانتفعوا بهد وقد نسب الى بعض المؤرخين أنه الذى

اخترع علم الجبر ومنه اسمه ومما يدعو الى العجب أن رجلا عظيما له تلك الشهرة التى ملأت سمع العالم وبصره ووصـل الى درجة عالية فى العلوم وبخاصة الكيمياء ــ لم تعن المراجع العربية بوضع ترجمة وافية له ويقول ابن نباته المصرى : « وأما جابر بن حيان فلا أعرف له ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه وهذا دليل على قول أكثر الناس انه اسم موضوع وضعه المصنفون فى هذا الفن وزعموا أنه كان فى زمن جعفر الصادق وأنه قال فى كتبه : قال سيدى وسمعت من سيدى وهو يعنى جعفرا الصادق » وواضح من كلام ابن نباته ان تقصير المراجع العربية فى وضع سيرة صحيحة لهذا العالم مما أفسح المجال أمام الطاعنين والمتشككين فى العقلية العربية فادعوا أن جابرا شخصية وهمية ولكنه يقول أيضا نقلا عن الناس انه كان فى زمن جعفر الصادق فليس فى كلام ابن نباته شىء من التحقيق التاريخى وروايته لا تخرج عن النقل من غير روية ولا تمحيص وتتفوق روايات كثيرة على أن شيخيه هما خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة (٨٥ هـ ــ ٧٠٤ م) ولذلك لقب بالأموى ثم جعفر الصادق الامام الشـيعى المشهور ويبدو من آراء جابر الدينية أن صلته بأستاذه جعفر الصادق كانت على أقوى ما يكون والدليل على ذلك أن مؤلفاته فى علوم الكيمياء يبدو فيها التعصب الشديد لمبادىء غلاة الشيعة تلك المبادىء التى تظهر فيها النزعات السياسية الثورية فقد كان من المبشرين بظهور امام جديد أو صاحب شريعة جديدة من ذرية على كرم الله وجهه . ومن العجيب أن علماء الكيمياء من اليونان الذين كانوا بالاسـكندرية قد مزجوا تعاليمهم بالغنوسـطية (٦٣) التى شـاعت فى مسيحية زمانهم فهل كان جابر متأثرا بما فعله هؤلاء العلماء بعد أن اطلع على تعاليمهم فى الكيمياء ودرسها ؟ أو أن أستاذه وهو من زعماء الشيعة قد أوحى اليه بذلك ؟ والذى نرجحه أنه تأثر بأستاذه وبعلماء اليونان معا وفى ثقافة جابر الدينية شبه قريب من دعاوى القرامطة من حيث المصطلحات التى أطلقوها على معتقداتهم وهو من المؤمنين بمذهب الأضداد والمقصود به أضداد الامام الذى هو زعيم الشيعة وينقسم تاريخ العالم عنده بحسب مراحل الوحى المتعاقبة الى سبعة أدوار آخرها دور الامام الذى يدعو اليه جابر ، وهو يعتقد أن الأئمة الذين تعاقبوا منذ على الى الامام القائم الجديد سبعة وهم : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلى بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق واسماعيل بن جعفر الذى لا فرق بينه وبين ولده محمد بن اسماعيل وهو السابع أو القائم المنتظر . ويخالف جابر القرامطة والاسماعيلية فى أنه لم يجعل عليا من الأئمة السبعة من فساد فى الرأى وزيغ فى العقيـدة لقـد كان جابر شيعيا من غلاة الشيعة الدينيـة فأخطأ الطريق الى العقيدة السليمة عقيدة أهل السنة والجماعة الذين هم جمهرة المسلمين الصادقين ، الا أننا لا نستطيع فى الوقت نفسه أن نسقطه من قائمة الخالدين ، لأننا لا نقيسه فى هذا المقام من الناحية الدينية وانما نقيسه

من الناحية العلمية من حيث الخدمات العظيمة التى أداها الى الانسانية كلها ببحوثه الكيماوية الناجحة التى وصــل بها الى معرفة الكثير من النظريات الكيماوية والعناصر والفلزات التى قامت على أساسها المدنية التى نتمتع بثمراتها المباركة اليوم · ولنفرض أن جابرا لم يكن ولم يقدم الى الانسانية ما قدمه من بحوثه المبتكرة فهل كان يقدر للمدنية أن تقطع تلك الأشواط التى انتهت اليها وقامت عليها حضارة أوروبا الصناعية ؟ اننا نقول جازمين فى اصرار : ان المدنية كان لابد لها من أن تتخلف فى طريقها ولا تصل الى الهدف الذى بلغته الآن لان بحوث جابر فى علم الكيمياء كانت نواة صالحة للبحوث الكيماوية التى قام بها من بعده العلماء ، ولو لم تكن بحوث جابر لكان من المفروض حتما على هؤلاء العلماء أن يبدءوا من حيث بدأ جابر وقد يوفقون فيما وفق اليه وربما لا يوفقون وكم فى ذلك من زمن طويل يضيع سدى على الانسانية والمدنية ·

منهجه فى البحث ونظرياته العلمية

ترجع شــهرة جابر فى علوم الكيميــاء الى أنه أول من غير الأوضاع القديمة فى هذه العلوم التى كانت مبنيــة على الأوهــام فجعلها تقوم على التجربة والملاحظة والاستنباط ، وبعد أن درس جابر ما خلفه اليونان فى علوم الكيمياء أخذ يخالف أرسطو فى نظريته بتكوين الفلزات لأنه رآها لا تســاعد فى تفسير بعض التجارب العلمية وبذلك أبطل جابر الكيمياء القديمة ودعا الى اســتخدام العقل والاعتماد على الأدلة العقلية والتجارب العملية ولذلك يبدو فى تواليفههذا الروح العملى واستقصاء الحقيقة عن طريق المشاهدة والتجربة الدقيقة وقد وضع أصولا للتجارب العلمية ، وردت فى كتابه العلم الالهى ، منها تحديد الغرض من التجربة والعمل على اتبــاع التعليمــات الخاصة بها والابتعاد عما هو مستحيل فى نظر العقل ولا فائدة منه والعناية الدقيقة باختيار الوقت الملائم للتجربة وينصح من يقوم بالتجربة بأن يكون صبورا مثابرا وصامتا متحفظا وأن يحسن اختيار المكان الملائم لعمله بحيث ينبغى أن يكون فى مكان منعزل،وعلى من يقوم بأية تجربة فى هذه العلوم ألا يصادق الا من يثق به من الناس وألا يغتر بظواهر الأشياء لان ذلك قد يؤدى فى كثير من الأحيان الى اخفاق التجربة·وكان أرسطو يرى ان المادة تتكون من أربعة عناصر وهى : الماء والهواء والنار والتربة فحمل جابر على هذه النظرية أيضا وأبطلها ثم وضع لها أساسا جديدا شرحه فى كتابيه المائة والاثنى عشر ومما قاله : « ان المعادن تتكون من عنصرين : أحــدهما دخان أرضى والآخر بخــار مائى فاذا تكاثف هذان العنصران فى باطن الأرض تكون الكبريت والزئبــق واذا اتحد الكبريت والزئبق تكونت المعادن وانما تتفاضل المعادن وتتكون من هذين العنصرين

كان من الممكن أن يتحول بعضها الى بعض ، ووظيفة الكيمائي أن يحول المعادن بعضها الى بعض فى أقل زمن وبذلك يسبق الطبيعة التى تقوم بهـذه العملية فتستغرق آلاف السنين » . ولم يكن جابر يفهم من الزئبق والكبريت المادتين المعروفتين عند عوام الناس ولكنه كان يقصد مادتين مثاليتين هما أصل جميع المواد الطبيعية ، ولكنهما فى خواصهما أقرب شبها بالزئبق والكبريت وعندما كان يفسر فى كتابه المعرفة بالصفة الالهيـة والحكمة الفلسفية كيفية اتحاد الزئبق مع الكبريت ، ساقه الحديث الى وضع أساس نظرية جديدة هى نظرية الاتحاد الكيميائى ويقال ان « جون دالتن الانجليزى » وضع ما يشبهها بعده بنحو ألف سنة . يقول جابر فى شرح نظريته الجـديدة : « قد يظن بعض الناس خاطئين أن الزئبق والكبريت عندما يتحدان يكونان مادة جديدة والحقيقة ان كلا من المادتين – يقصد الزئبق والكبريت – لم يفقد شيئا من خواصه بالكلية ولكن الذى حدث أن كل مادة منهما انقسمت الى أجزاء دقيقة وكل جزء من أجزاء المادة الأولى اتحد مع آخر من المادة الثانية فاذا نظر الانسان بعينه المجردة خيل اليه أنها مادة جديدة فى كل خواصها ولو كان لدينا شىء من القدرة على تفريق هذه الأجزاء بعضها من بعض لعـادت أجزاء كل مادة الى أصـلها محتفظـة بخواصها الأصلية » . وهذا ما يقوله رجال الكيمياء الحديثة فى الاتحاد الكيميائى ومن العجيب أن يوفق هذا العالم فيما وفق فيه فى عصر لم تكن قد تقدمت فيه المختبرات العلمية ولم تعرف الأجهـزة الدقيقة المعروفة اليوم لاجراء التجارب فى معامل الكيمياء الحديثة فى هذا العصر وهذا دليل على عبقرية علمية فذة امتاز بها جابر بن حيان ، مما يجعلنا نقف دائما مشدوهين أمام علمائنا السابقين الذين خطوا بالعلم خطوات فسيحة، ثم جاءت عصور طمست فيها معالم هذا النور وحجبته عنا حينا .

إبتكاراته في عالم الكيمياء

من الابتكارات العلمية التى كشف عنها جابر ونسبت اليه أنه وضع ما يسمى علم الموازين والغرض من هذا العلم معادلة ما فى المعادن من طبائع وقد غلب اسم هذا العلم على صنعته الكيميائية حتى عرفت كيمياء جابر باسم الميزان ، ولهذا المصطلح عند جابر معان مختلفة فهو يطلقه ويريد منه الوزن النوعى وقد يريد منه ما كان يفهمه أصحاب الكيمياء القديمة من أنه وزن مقدار الأجساد الداخلة فى خلط أو وزن وقد يريد منه ميزان الحروف العربية المتصلة بأمهات الطبائع الأربع وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وكما يطلق هذا الميزان على الأشياء التى تحت الفلك كذلك يطلق على الاينات (الميتـافيزيقية) كالعقل والنفس والزمان والمكان .

وجابر متأثر بالفيثاغورثية وبآراء الشيعة العلويين لذلك نراه يرمز بالميزان الى مذهبه فى التوحيد العلمى ، والميزان عنده أيضا تأويل لما ورد فى القرآن الكريم من ذكر الميزان فى يوم الحساب • ونرى جابرا يفلسف آراءه العلمية ويحاول دائما أن يربط بين عقائده العلمية وتعاليمه الدينية ولو ذهبنا نستقصى ما وفق فيه جابر من ابتكارات فى عالم الكيمياء لم يسبق اليها لوجدناه أول من استحضر « حامض الكبريتيك » بتقطيره من الشبه وقد سماه زيت الساج ولهذا الكشف أهميته العظيمة فى الكيمياء الصناعية ، لأن هذا الحامض بالذات يدخل فى كثير من الصناعات التى هى دعائم الحضارة وتقاس قدرة الأمة الصناعية فى هذا العصر بمقدار ما عندها من « حامض الكبريتيك » الذى يرجع الفضل فى كشفه الى جابر كما وصل الى كشف حامض آخر هو (النتريك) وعرف الصودا الكاوية وماء الذهب وطريقة فصل الذهب من الفضة بالحامض وما تزال هذه الطريقة متبعة الى الآن فى تقدير (عيارات) الذهب فى السبائك الذهبية وغيرها كما تنسب اليه عملية تحضير حامض الخليك بتقطير الخل وقد كانت هذه العملية ذات أثر كبير فى تطور العلوم بوجه عام وبخاصة الكيمياء اذ وضعت فى أيدى العلماء مفتاح سر من أسرار التحليل الكيميائى فاستطاعوا أن يدركوا أن لكل حامض أو سائل درجة غليان معينة فاذا امتزج سائلان أو أكثر وأرادوا فصلها بعضها من بعض رفعوا درجة حرارة هذه السوائل وبذلك يمكن تقطير واحد منها عندما تصل درجة الحرارة الى درجة غليانه المعينة وعلى هذا النحو ينفصل السائل ثم تنفصل بعده بقية السوائل كلما وصلت الحرارة الى درجة غليانها • ومن النظريات الكيميائية التى عرفها نظرية الكبريت والزئبق فى المعادن وتفسيرها أن العرب كانوا يعرفون أن المعادن سبعة ، وأنها تتكون من كبريت وزئبق بنسب مختلفة فاذا ارتفعت نسبة الكبريت فى معدن ما كان هشا وأسهل كسرا وأسرع الى الصدأ وكان وزنه أخف ، واذا كانت نسبة الزئبق أكثر — كان المعدن لينا غير قابل للصدأ وأثقل وزنا وهذه النظرية لا قيمة لها اليوم فى ميدان العلوم الكيميائية، ولكنها كانت ذات قيمة علمية كبيرة فى عصر جابر ، لأنها كانت تعارض نظرية العناصر الأربعة المنسوبة الى أرسطو ، ولأن نظرية جابر من وجهة النظر العلمية كانت أقرب الى منطق العقل من نظرية أرسطو ، واستخدم جابر (ثانى أكسيد المنجنيز) فى صناعة الزجاج ، وقد تأمل صناعة الزجاج فى عصره فوجد لونه أزرق أو مائلا الخضرة فلما استخدم ثانى أكسيد المنجنيز زال ذلك اللون وصار الزجاج أبيض ناصعا •

وقد نجح هذا العالم العبقرى نجاحا يذكر له بالاعجاب فى العمليات الكيميائية التى منها الاذابة والتبلور والتقطير والتكليس والاختزال وكان

شديدة العناية بشرح الطرق التى اتبعها فى اجراء التجارب الكيميائية وهو يرى أن التكليس مقصـور على المعـادن وحدها ، لأن المقصود منها ازالة الشوائب المخلوطة بالمعدن وحرقها حتى يصير نقيا ولا يكون ذلك الا برفع حرارتها الى درجة عالية بالتسخين ولا تقوى على هذا الأرواح ويفسر جابر الارواح بالمعادن المتطايرة كملح النوشادر واليك شرحا لعملية من عمليات التكليس فقد أجرى التجربة الآتية فى اختزال آكسيد الحـديد يقول : خذ رطلا من « الليثارج » وهو أكسيد من أكاسيد الرصاص وربع رطل من الصودا (كربونات الصوديوم) واسحقها ثم اخلطهما جيدا ، واصنع منهما عجينة بالزيت ، ثم ضع العجينة فى بوتقة يكون بقاعها ثقب صغير ثم سخن البوتقة تجد الفلز يهبط من الثقب ويمكن أن نتلقاه فى بوتقة أخرى تكون تحت البوتقة الأولى ، ثم يشرح لنا التفاعل الكيميائى الذى حـدث فيقول : ان الكربون الداخل فى تركيب الزيت يختزل الأكسيد ويحوله الى فلز الرصاص الذى يكون فى حالة الانصهار بتأثير الحرارة وعندئذ ينفذ من الثقب أما الصودا فهى مادة صهارة تسيح بسرعة فتعمل على صهر المواد الأخرى ٠

ومن كشـوفه التى لها أثر فى الكيمياء ما وصل اليه من أن مركبات النحاس تكسب لونا أزرق وكشفه طرقا لتحضير الفولاذ ولا يخفى ما لهذا المعدن من أثر كبير فى صناعة الآلات التى قامت عليها الحضارة الحديثة وتنقية المعادن مما يشوبها وصبغ الجلود والشعر ثم تحضيره مادة مضيئة من « كبريتيد النحاس » كى تستخدم بدلا من الذهب فى كتابة المخطوطات الثمينة وهى التى تعرف اليوم بماء الذهب ، ثم تحضيره نوعا من الطلاء يقى الثياب البلل ويمنع الصدأ ثم كشفه أن الشبة تساعد فى تثبيت الألوان فى الصباغة ومعرفته فوائد بعض المواد النباتية والحيوانية فى مداواة بعض الأمراض وتمكنه من صنع نوع من الورق غير قابل للاحتراق وقد دفعه الى ابتكار هذا الورق أن الامام جعفر الصادق ألف كتابا ثمينا فى الحكمة وكان جابر يقدر هذا الموقف ، فأراد أن ينسخه على ورق لا يتأثر بالنار حرصا عليه من أن يحترق فنجح ووصل الى تحضير هذا الورق وهو أول عالم لاحظ بدقة ما يحدث من راسب « كلور والفضة » عند اضافة محلول ملح الطعام الى محلول نترات الفضة ٠ ومن المركبات الكيميائية التى استحضرها « كربونات البوتاسيوم » و « كربونات الصوديوم » وهذه المركبـات وغيرهـا مما استحضره ووفق فى كشفه ذات أهمية فى عالم الصـناعة وبخاصـة فى صـناعة المفرقعـات والأصبغة المختلفة والسماد الصناعى والصابون والحرير الصناعى ٠ ومن بحوثه العلمية التى تبرهن على عقليته العلمية وتفكيره الناضج فى الكيمياء وغيرها بحوثه فى السموم ومضارهـا ٠

مصـــنفاته الكيميـــائية

لجابر بن حيان كتب ورسائل متعددة فى الكيمياء ذكر ابن النديـم طرفا منها ومن هذه المؤلفات :

١ ــ « كتاب السموم ودفـع مضارها وقد حصـل على نسخة منه العلامة أحمد تيمور وفيه عالج جابر بحوثا علمية طريفة فى السموم وهذه البحوث القيمة لا تختلف عن البحوث الحديثة فى هذه النــاحية ، وقد عرض فى هذا الكتاب أقوال فلاسفة اليونان فى السموم وأثرها ، وجاء فيه بتقسيمات جديدة للسموم وأنواعها وأدويتها فى أجسام الحيوانات . ولهذا الكتاب أهمية بالغة فى تاريخ العلوم ، لما فيه من اشارات قوية الى العلاقات بين الطب والكيمياء وقد تناول الأستاذ العالم قدرى حافظ طوقان موضوع هذا الكتاب بشىء من الدرس المفصل فأشار الى المقدمة التى صدر بها جابر مؤلفه وقد جاء فيها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو موسى جابر بن حيان الصوفى قد ارتسمت ــ أطال الله بقــاءك ــ ما أمرت به وأحدثت من الشرح ما علمت أنك من الفهم بحسبه وانتهيت الى ارادتك وأتيت على حاجتك وأرجو أن تبلغ به رغبتك وتنال به بغيتك وتكون به راضيا ولأدبك كافيا ، الى أن يقول . قال بعضهم : ان السم جسم كونى ذو طبائع غالبة مفسدة لمزاج أبدان الحيوان وقال آخرون : انه مزاج طبائع غالبة لدواب الحيوان بذاته وقال فريــق آخر : انه مزاج قوة مزاج غــالب مفسد ومصلح فهذه آراء الناس فى حده فأما غرضنا فى هذا الكتاب فهو الابانة عن أسماء أنواع السموم وكنه أفعالها وكمية ما يسقى منها ومعرفة الجيد من الردىء وأذكر مع ذلك السم الذى يكون نافذا بفعله فى سائر البدن والمهلك بجملته » .

ويفهم من هذه العبارات التى وردت فى المقدمة أن المؤلف عند حسن ظن المطلع على كتابه فقد حقق له رغبته فيما تنــاوله الكتاب من بحوث نافعة حول السموم وتعريفها وشرح كل ما يحتاج الى شرح حتى تتحقق الفائدة من الاطلاع ويكون كل شىء اشتمل عليه الكتاب فى متناول القارىء فى ســهولة ويسر ثم ينتقل بعــد ذلك الى بيــان الغرض الذى قصده من الكتاب وهو الكشف عن أسماء أنواع السموم وبيان حقيقة الأثر الذى تحــدثه والقدر الذى يسقى منهــا ، وتراه بعــد ذلك يقسم الكتاب خمسة فصول :

- الفصل الأول : ويتناول فيه البحث في أوضاع القوى الأربع وبيان حالها مع الأدوية المسهلة والسموم القاتلة وحال تغير الطبائع التى تتركب منها أجسام الحيوانات .
- الفصل الثانى ويبحث فيه عن أسماء السموم وبيان الطرق التى بها نعرف الجيد منها والردىء والمقدار الذى يسبقى من كل واحد منها وعلى أية حال يسبقى وكيفية ايصاله الى الأبدان .
- الفصل الثالث : ويذكر فيه أسماء السموم العامة الفعل فى جميع الأبدان والسموم التى تختص ببعض أجسام الحيوان دون بعضها الآخر والسموم التى تختص ببعض الأعضاء من جسم الحيوان دون بعضها الآخر .
- الفصل الرابع : وفيه يذكر علامات السموم المستقاة والآثار التى تعرض بسببها للأبدان وما ينبغى اتخاذه للعلاج منها .
- الفصل الخامس : يتحدث فيه عن السموم المركبة وما يحدث منها .
- الفصل السادس : ويفصل فيه الكلام عن موضوع الاحتراس من السموم قبل تناولها ، حتى اذا أخذت لا تحدث ضررا ويذكر الأدوية التى تفيد فى افساد ضرر السموم واذا شربت فى غير حيطة ولا حذر .

ومن بحوث هذا الكتاب تقسم السموم الى حيوانية ونباتية وحجرية وان من أنواع السموم الحيوانية مرارة الأفاعى ومرارة النمر ، ولسان السلحفاء ، وذنب الأيل والأرنب البحرى والضفدع والعقارب أما السموم النباتية فمنها قرون السنبل والأفيون والشيلم والحنظل والشوكران .

وأما السموم الحجرية : فمنها الزئبق والزرنيخ والزاج والطلق وبرادة الحديد وبرادة الذهب .

٢ ـ الكتب المائة والاثنا عشر : وهى مقالات فى صناعة الكيمياء لا رابط بينها ولكنها تشتمل على اشارات الى صناعة الكيمياء عند قدماء اليونان أمثال (زوسيوس وديمقريطس) (٦٤) .

٣ ـ كتاب السبعين : وتجد فيه بسطا محكما طريفا لمذهب جابر فى الكيمياء ويقول ابن خلدون : « ولجابر فى الكيمياء سبعون رسالة وضعها فى أثناء البحث فيها وسماها الرسائل السبعينية » .

٤ ـ كتب الموازين المائة والأربعة والأربعون : وهى تتناول بصفة عامة الأسس النظرية للكيمياء والعلوم الباطنة كما تتناول بصفة خاصة أسسها الفلسفية .

٥ ـ الكتب الخمسمائة : وهى رسائل متفرقة تناول فيها فى شيء من الاستقصاء والافاضة بعض السوائل التى وردت فى كتب الموازين -

ويقول حاجي خليفة في كتاب كشف الظنون : « ومن كتب جابر : كتاب الخالص وكتاب الخواص ، وعثر فى دار الكتب المصرية على كتاب اسمه : « كشف الأسرار وهتك الأسرار » ، وآخرين هما : كتاب اظهار ما فى القوة الى الفعل وكتاب الصنعة الالهية والحكمة الفلسفية وهى كتب مخطوطة وليس من السهل الاطلاع عليها وحل رموزها والوقوف على ما فيها من أسرار علمية » ٠

ومما يلاحظ أن كتب جابر أشبه بالألغاز وسبب ذلك كما أشرنا من قبل أن الرموز والاصطلاحات التى بنيت عليها غير معروفة للكثير من علماء الكيمياء وبخاصة فى هذا العصر ويقال ان جابرا قصد بذلك فى زمانه أن تكون كتبه غير معروفة الا لخاصة العلماء ، ومن كتبه التى ترجمت الى اللغة اللاتينية مبادىء علم الكيمياء طبع فى بال سنة ١٥٧٢ م ووصية جابر وكيمياء جابر ومختصر الأكسير الكامل ونهاية الاتقان ٠

هذه بعض مؤلفات جابر فى الكيمياء التى نقلت الينا ولسنا بصدد تفصيل ما جاء فى هذه الكتب فان الكثير من الرموز التى وضعها جابر مازال الكثير منها سرا مغلقا على كثير من علماء الكيمياء فى أوربا وقد يكون فيما وصل اليه جابر ما لايتفق مع النظريات الحديثة فى الكيمياء ولكن المقطوع به أن الكيمياء العربية أو الجابرية بالرغم من ذلك قد خطت خطوات فسيحة من الناحية العملية فأكثرها قائم على التجربة والبرهان العملى والملاحظة الدقيقة ٠

أما الغرض الذى نسعى اليه وراء هذا الفصل من الكتاب فيرجع الى سببين ، الأول : الاشادة بمكانة الكيمياء العربية ، وأنها كانت قبسا قويا سار الأوربيون على هديها فى بحوثهم الكيميائية والثانى : هو أننا نريد أن يقف شبابنا والمثقفون منا على الجهود العلمية التى بذلها علماء العرب فى سبيل تكوين حضارات راقية ٠

وقبل أن نودع جابرا ينبغى أن نشير الى رأى الأستاذ (باول كراوس) فى مؤلفات جابر فهو يرى أنه مزج فيها بين البحوث الكيميائية ونظريات العرفان التى كانت منتشرة بين غلاة الشيعة فى أواخر القرن الثالث الهجرى وتلك النظريات التى اختلطت اختلاطا قويا بالنزعات الثورية السياسية التى كادت تهز دعائم العالم الاسلامى فقد أخذ جابر يبشر بقرب ظهور امام معصوم جديد٠ومهما يكن مذهب جابر الدينى،فاننا لا ندرسه من هذه الزاوية ولكننا ندرسه كعالم أبدع كثيرا من النظريات فى الكيمياء وقدم للانسانية كلها خلاصة تجاربه التى كان لها أثر عظيم فى النهوض بهذا العلم ورفع مستوى الحياة الانسانية ٠



الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة

ابـــن رشــــد

١١٨٥ م

ابن رشد أعظم حكماء القرون الوسطى على رأى الكثيرين ومن أكبر فلاسفة الاسلام • وهو مؤسس الفكر الحر ، جرىء ومنطقى ، حصر جهده فى بادىء الأمر فى أرسطو ، فدرس مؤلفاته دراسة عميقة متحررا دقائقها وهو لم يقف عند هذا الحد بل عمل على شرحها وخرج بشروح لم يسبق اليها ، وقد مضى فى شروحه على طريقة النقد وفى أسلوب خاص وبذلك أورث الانسانية علم أرسطو كاملا بريئا من الشوائب على رأى «دى بور» •

قال رينان : « •• •ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غموضها ••• » واعترف « جون روبرتسون » بأن ابن رشد أشهر مفكرى الاسلام وأنه أبعد الفلاسفة وأعظمهم أثرا فى الفكر الاوروبى ، ذلك لأن طريقته فى شرح أرسطو بلغت الغاية •

ولقد اطلع « بيكون » على مؤلفات ابن رشد ودرسها دراسة عميقة واستفاد منها فوائد جليلة كان لها أثر كبير فى نتاجه واتجاهات تفكيره وكان معجبا بابن رشد اعجابا دفعه الى الاعتراف : ب « أن ابن رشد فيلسوف متين متعمق صحح كثيرا من أغلاط الفكر وأضاف الى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معلوما لأحد وأزال الغموض من كثير من الكتب التى يتناولها بحثه •• » •

امتاز ابن رشد بالنقد ، وكان أثره بالغا عند اليهود والمسيحين فقد نقد بطليموس فى فلكه كما نقد شروح اسكندر فردوس وغشتيوس وكذلك نقد ابن سينا وهاجمه ورد على الفارابى والغزالى ، وكان شديدا فى نقده ورده قاسى اللهجة ولكن القلم سما به فى هذا الى أعلى درجات الكمال الفكرى •

لقد اقتبس العرب فلسفة ابن رشد بكاملها وكان من حسناتها أن حلت عقال الفكر الأوروبى وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها وعلى هذا يقول الدكتور فروخ : « ••• ولم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو العصور الوسطى بشروح ابن رشد وباصابة آرائه••» •

وهكذا نشأ مذهب الرشدية للأخذ بالعقل عند البحث وعدم الاعتماد على الروايات الدينية ٠

كان ابن رشد مخلصا للحق الى أبعد الحدود يسعى الى الحقيقة ويعمل جادا على الوصول اليها والأخذ بها دون اعتبار القائل أو الدين ٠ وكان يدعو الى قبول الآراء الصحيحة سواء أجاءت من مسلم أم غير مسلم فقال فى هذا الشأن فى كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » : « ٠٠٠ يجب علينا اذا ألفينا لمن تقدمنا فى الأمم السالفة نظرا فى الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ٠٠٠ وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك ٠٠٠ وسواء أكان ذلك الغير مشاركا لنا فى الملة أم غير مشارك فى الملة ، فان الآلة التى تصح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية كونها آلة المشارك لنا فى الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة ٠٠٠ » ٠ وقد تعرض الدكتور عمرو فروخ فى كتابه « عبقرية العرب » لنظرية (كانت) الفيلسوف الألمانى فى المكان والزمان فأجاد فى العرض والتحليل وكان موفقا فى النتيجة التى خرج بها فقد بين أن ابن رشد سبق (كانت) فى بحوث الزمان والمكان وأنه لم يكن للفيلسوف الألمانى فضل الابتكار بل كان له فضل التوسع لا غير ٠

ويدلل الدكتور فروخ على ذلك بما جاء فى كتاب « تهافت التهافت » من أقوال وآراء سبق بها ابن رشد فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ٠

ويرى كثيرون من الفلاسفة وأعيان الفكر أن فلسفة ابن رشد تركت أكبر الأثر فى أوربا وأخرجتها من ظلمات التقليد الى نور العقل والفكر ولهذا نجدهم يضعونه (أى ابن رشد) مع افلاطون وأرسطو وكانت فى صف واحد فى الفلسفة العقلية ٠

رأى ابن رشد من دراساته الدينية والفلسفية وفى حملة الغزالى على الفلسفة أن الاخلاص للحق يوجب عليه أن يدافع عنها وهنا برقت له رسالته فى الحياة فقام يدعو الى الانتصاف للفلسفة ورد اعتبارها لها واحيائها والتوفيق بينها وبين الشريعة ٠

ويتبين من الآراء التى بثها فى كتبه أنه كان بعيدا عن التصوف يتقيد بالعقل ولا يسير الا على هداه ، وكان من ذلك أن اصطدم بوجهة النظر الدينية فى بعض المسائل فنشأ عداء بينه وبين رجال الدين أدى الى اضطهاده فى أواخر أيام حياته ٠

وكان ابن رشد ينفر من علم الكلام الاسلامى لكنه كان يرى فى الدين ضربا من الحق وقد ذهب الى ما ذهب اليه « اسبينوزا » فيما بعد من أن الوحى يرمى الى اصلاح الناس وتحسين أحوالهم لا الى تعليمهم فقط، وأن غرض الشارع ليس تلقين العلم بل أخذ الناس بصالح الأعمال والطاعة وهو ينظر الى الدين بعين الرجل السياسى (كما يقول دى بور) ويرى فيه وسيلة فعالة للاصلاح لما يهدف من غايات خلقية سامية فهو يؤمن بالمجتمع ولا يرى السعادة الا فيه وان سعادة الفرد فى سعادة المجموع ومصلحة الدولة يجب أن يكون لها الاعتبار الأول وهو فوق مصلحة الفرد ، ولهذا لا عجب اذا رأيناه ينتهز الفرص ليوجه حملاته على الحكام الجاهلين لأنهم لا يقدرون الصالح العام ولا يهتمون الا بمصالحهم الخاصة مهملين مصلحة المجتمع الذى يعيشون فيه .

ولعل هذا كله يعود الى روحه العلمى الصحيح ، فقد سما به هذا الروح فجعله من أشد الناس تواضعا وأخفضهم جناحا وأقلهم أنانية واستغل نفوذه عند المسئولين والملوك والأمراء فى الصالح العام ، ولم يطلب جاها ولا مالا لنفسه بل كان يتجه الى خير المجموع من أهل بلده ووطنه الأندلس ومن هنا يتجلى أن فلسفته العملية كانت تتجه نحو الخير العام الشامل فدعا الى الاهتمام بصالح الجماعة وان على الانسان أن يأخذ بنصيب فى اسعاد المجموع ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ويدعو النساء الى القيام بخدمة المجتمع والدولة قيام الرجال ، وهو يرى أن حالة العبودية التى نشأت عليها المرأة قد أتلفت مواهبها وقضت على مقدرتها العقلية ولهذا قل أن تجد المرأة ذات فضائل أو على خلق عظيم وهن عالة على أزواجهن كالحيوانات الطفيلية وعلى ذلك ، فهو يرى أن الكثير من الفقر فى عصره « ... يرجع الى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه كأنها نبات أو حيوان أليف لمجرد متاع فان يمكن أن توجه اليه جميع المطاعن بدلا من أن يمكنها من المشاركة فى انتاج الثروة المادية والعقلية وفى حفظها.. » .

ويحمل ابن رشد على مذهب الفقهاء الذين يقولو ان الخير يكون خيرا لأن الله أمر به وأن الشر يكون شرا لأن الله نهى عنه ، ويخالفهم فى هذا كله ويعلن أن العمل يكون خيرا لنفسه وشرا لنفسه أو ذاته أو بحكم العقل والعمل الخلقى هو الذى يصدر عن روية عقلية ، ويلاحظ أن عقل الفرد يشط فى بعض الأحايين ويحتاط لهذا ويقول : « ... وينبغى أن لا يكون مرجعنا الأخير على عقل الفرد بل الى ما تمليه مصلحة الدولة... » .

وتناول ابن رشد فى بعض مؤلفاته معنى الميل وأتى بآراء فى الحركة والقصور الذاتى (وآراء أخرى لابن سينا وغيره من الفلاسفة الاسلاميين) هى فى واقع الأمر تمهيد لبعض معانى علم الديناميكا الحديث .

ابن رشـــد .. عصره وحياته

ولد الفيلسوف ابن رشد في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فى أسرة عربية أصيلة استقرت بالأندلس واشتهرت بالجاه والعلم فقد تولى ثلاثة من أفرادها فى أجيال متتابعة منصب قاضي القضاة فى قرطبة وهم الجد والأب والحفيد وكان الحفيد أكثرهم شهرة وأبقاهم ذكرا فى تاريخ الفكر الانسانى . ولا تقف شهرته عند حدود العالم الاسلامى القديم والحديث ، بل امتدت الى النطاق العـالمى منذ القرن الثانى عشر الميلادى حتى اليوم فاذا قيل الفيلسوف القرطبى أو الشارح الأكبر لأرسطو عرف الناس من هـو .

ونلاحظ أن موقف الغرب من ابن رشد يحتاج الى نوع من التفسير، فقد ألفوا هناك أن يلصقوا به صفة الشارح الأكبر أكثر من صفة الفيلسوف ولئن أكدوا له هذه الصـفة الأخيرة . وكثيرا ما يؤكدونها ، فذلك لكى ينالوا منه أو لكى يزعموا أن أحد أعلام الفـكر المسيحى قد فنـد آراءه وأوقف تأثيرها فى نهضة أوربا الحديثة .

وربما اطمأن المستشرقون والمختصون في دراسة الفلسفة المسيحية بين حين وآخر الى أنهم غرسوا هذه الفكرة في نفوس دارسى الفلسفة فى الغرب بل في الشرق أيضا وجعلوها حقيقة مقررة لكن الحق أقوي من أن يحجبـه الباطل ولئن حجبـه فترة من الزمن فسرعان ما تنقشـع فتبدو الحقيقة واضحة وسـافرة ونريد بهذا القول أن نعترف بأن أحد المنصفين من المستشرقين وهو أسـين بالاسيوس (٦٥) لم يجـد بدا من أن يعطى لابن رشد ما لـه وأن يعترف بأن توماس الاكوينى الذى يعـد فيلسوف المـذهب الكاثوليكى منـذ القرن الثالث عشر الميلادى قد استمد أصول فلسفته كلها من فلسفة ابن رشد .

وقبـل أن نعرض فى شىء من الايجاز لمدى تأثير فيلسوفنـا المسلم الأصيل فى التفكير الفلسفى الأوربى ، قد يجمل بنا أن نشير بكلمة سريعة الى عصره وحياته وأسرته ولانتاجه الفلسفى .

لقد عاش أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد فى عهد دولة الموحدين التى غلبت على شمال أفريقيـا وبـلاد الأندلس بعد تفـكك دولة المرابطين

وفشلها في الدفاع عن حوزة الاسلام في شبه جزيرة الأندلس أي في تلك الفترة التى اشتدت فيها وطأة الحروب الصليبية ، وهى الحروب التى لم تكن قاصرة على بلاد المسلمين فى المشرق بل كانت قد بدأت منذ حين فى المغرب وبلاد الأندلس ٠

وينبغى أن نشير الى ظاهرة قد تلقى ضوءا على الاتجاهات الفكرية التى سادت فى دولة المرابطين فكانت من عوامل تدهورها والى بعض الاتجاهات الفكرية الأخرى التى ساعدت دولة الموحدين على الاحتفاظ بالأندلس وتأجيل خروج المسلمين منها،ذلك أن المرابطين قربت اليها الفقهاء وعلماء الكلام وظنت أن فى استطاعة هؤلاء أن يؤلفوا بين قلوب الرعية وأن يكسبوا ولاءها لأولى الأمر وأن يقفوا سدا حاجزا أمام موجة التدهور الاجتماعى والسياسى لكن طائفة الفقهاء لم تكن للأسف فى مستوى الأحداث التاريخية ولم تحسن استخدام السلطة التى دعيت الى المساهمة فى النهوض بها ، حقا أنهم أصبحوا مقصدا لجميع الناس ولذوى الحاجات منهم بصفة خاصة غير أنهم لم ينسوا أمر أنفسهم،اذ أرادوا التمتع بالطيبات على غرار أمراء المرابطين فاتجهوا يطلبون الثراء والترف فاتسعت أرزاقهم وتلوثت روافد هذا الرزق وشابها شيء من المال غير المشروع ٠

وكان من الضرورى أن تدول دولة المرابطين عندما غلب كل أمير من أمرائها على اقليم أو مدينة من مدن الأندلس،وركنوا الى الاستبداد وتركوا تصريف أمر الدولة الى النساء وربما استعانوا بجيوش الفرنجة على منافسيهم ٠

أما دولة الموحدين التى أنشأها محمد بن عبد الله بن تومرت فى أوائل القرن السادس الهجرى فهى التى طهرت شمال أفريقيا من رجس الصليبيين ثم سارعت الى نجدة المسلمين فى شمال الأندلس فاستردت المدن من أيدى الفرنجة وأمنت المسلمين على نسائهم وأبنائهم وأموالهم وديارهم ووحدت كلمتهم وكان الاتجاه الغالب فى هذه الدولة هو الاتجاه العقلى وتطهير العقائد من الخرافات والأوهام والقضاء على جدل علماء الكلام، ذلك الجدل الذى أساء كل الاساءة الى المسلمين ، ان فى المشرق ، وان فى المغرب فكان من الطبيعى أن تظهر طبقة من المثقفين والعلماء يطمئن اليها أمراء الموحدين ولم تكن هذه الطبقة سوى طبقة العلماء والفلاسفة ٠

تلك هى البيئة السياسية والفكرية التى نشأ فيها ابن رشد الفيلسوف فكان من الطبيعى أن تكون هذه البيئة مسرحا لعبقريته الخاصة التى ساندتها ظروف عائلية واجتماعية أخرى فجده هو أبو الوليد محمد ابن رشد قاضى قضاة قرطبة « وكان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع عصره عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه بصيرا فى علم

الفرائض والأصول من أهـل الرياسـة والعلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت الحسن ، والهدى الصـالح .. وكان الناس يلجأون اليه ، ويعولون فى مهماتهم عليه وكان حسن الخلق سهل اللقـاء كثير النفع لخاصته وأصحابه ، جميل العشرة لهم حافظا لعهده كثير البر بهم » .

وكان الجد يقوم بالسفارة بين أهل الأندلس وملوك شمال أفريقيا وهو الذى طلب الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين أن يريح المسلمين من بعض مسيحيى الأندلس ممن كانوا يقيمون ببعض مدن الأندلس بأن ينقلهم الى شمال أفريقيا ، حتى لا يكونوا عيونا لاخوانهم من الفرنجة على المسلمين. أما الأب فكان أقل شهرة من الجد والحفيد رغم أنه بلغ بتعليمه وفضله مرتبة قاضى القضـاة بقرطبة وقد توفى الأب وهو أحمد بن رشد بعد أن بزغ نجم ابنه الفيلسوف .

وكانت صلة فيلسوفنا بأبى يعقوب يوسف بدءا لاتجاهه الى شرح كتب أرسطو بناء على توجيه من الأمير الذى شكا من غموض هذه الكتب . وتعد شروح ابن رشد لأرسطو من الطابع الأفلاطونى الحديث الذى خلعه عليها أمثال الفارابى وابن سينا وقد أدى ذلك الى أن كتبت لفلسفة أرسطو الغلبة فى مجال الفكر هناك على فلسفة فلاطون .

ومن المقرر أن معرفـة مفـكرى أروبـا بشروح ابن رشد هى التى ساعدتهم على تفنيد آراء الفارابى وابن سينا فى مسائل عديدة كنظرية المعرفة ومشكلة خلق العالم ، لذلك فليس بعجيب أن سموه الشارح الأكبر لأرسطو .

وقد سلك « توماس الأكوينى » أيضا مسلك التتلمذ على ابن رشد عندما أخذ آراءه الدينية بحذافيرها فارتضاها لنفسه ثم فصلها فى كتابه الضخم المسمى «بالخلاصة اللاهوتية» ، فبدا فى نظر قومه أنه هو المجدد الأكبر فى المسـيحية والحـق ان « توماس الاكوينى » وجد فى كتب ابن رشد الخاصة تلك الكنوز التى سيحدثنا عنها فيلسوف مسيحى آخر فى العصور الحديثة وهو ليبتنز عنـدما يقول انه عثر على كنوز ثمينة فى الفلسـفة المسيحية فى العصور الوسطى .

تدرج ابن رشـد فى مناصب دولة الموحدين فعين أول الأمر قاضيا لأشبيلية ، ثم تولى منصـب قاضى القضـاة فى قرطبة وهو فى خلال ذلك لا ينقطع عن تفسير فلسفة أرسطو فى شروحه الكبرى والمتوسطة والصغرى ولا عن التأليف فى التفكير الاسلامى ، كما شهدت بذلك كتبه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » وكتاب « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » . وكتاب « تهافت التهافت » . وفى الكتاب الأول يعرض

ابن رشد نظريته فى التوفيق بين العقل والدين من الوجهة النظرية المحضة. وتتلخص هذه النظرية فى بيان أن الشرع والعقل كلاهما هبة من الله وليس من المعقول أن نطلق عليها نظريـة الحقيقة الواحدة التى يـأتى بها الوحى ويعضدها العقل وهى النظرية التى سيأخذهـا توماس الاكوينى فيما أخذ ابن رشد • أما كتاب الكشف عن مناهج الأدلة فهو تطبيق تفصيلى لنظرية الوفاق بين الدين الاسـلامى والعقـل فى نظر ابن رشد وذلك فى جميع المسائل التى شغلت مفكرى الاسلام من الباحثين فى العقائد •

أما كتاب « تهافت التهافت » فهو الذى ألفه للرد على الامام الغزالى بسبب تكفيره للفلاسفة ويقول د• محمود قاسم فى كتابه (فلسفة ابن رشد وأثرها فى التفكير الأوربى) : « غير أننـا نلاحظ أن ابن رشد أكثر اتفاقا مع الغزالى منه مع الفارابى وابن سينا • لذلك نقول ان من الأخطاء الكبيرة أن كثيرا من الباحثين الذين وقفوا عند عنوان هذا الكتاب ودون أن يمحصوا ما حواه تمحيصا دقيقا ظنوا انه لم تكن هناك نقط لقاء عديدة وجوهريـة بين الامامين الكبيرين مما دعاهـم الى القول بأن الغزالى حجة الاسـلام وان ابن رشد ـ ان لم يكن اماما للمارقـين ـ فهو قد انحرف فى الأقـل عن العقيدة الاسلامية ، غير أن البحث الموضوعى والمجرد عن الأفكار السابقة يكشف لنا عن حقيقة مخالفة تماما وهى أن ابن رشد أكثر الفلاسفة شبها بالامام الغزالى وأنه هاجم كلا من الفارابى وابن سينا أكثر مما دافع عنهما بل يمكن القول بأن كتاب « تهافت التهافت » انما ألف لتسفيه آراء هذين الفيلسـوفين اللذين شـوها الفلسفة الأرسطية وخرجا عن التيار الاسلامى الحقيقى » •

محنـــة ابن رشـــد

وكان من الطبيعى أن ينفس بعض الفقهاء أو كثير منهم على الفلاسفة وعلى ابن رشد مكانتهم الخاصـة عند أمراء دولة الموحدين وهذا هو سبب المحنة التى لقيها الفيلسوف القرطبى فى أيامه الأخيرة ، ذلك أن الفقهاء بذلوا جهدهم لكى يستردوا تلك المكانة التى كانت لهم فى دولة المرابطين وظنوا أن الريح بدأت تهب فى جانبهم عندما جاء الأمير الثالث للموحدين وهو أبو يوسـف يعقوب الملقب بالمنصـور فاختلقوا الأباطيـل وزيفوا بعض النصوص للايقـاع بابن رشد الذى زادت مكانته رفعة فى عهد هذا الأمير الجديد • وانما دفعهم الى محاولة النيل من ابن رشد أن الأمير أظهر بعد عدة سنوات من حكمه كراهيته لعلم الكلام ودعا الناس الى الاشتغال بالحديث فظن الفقهاء أن الفرصـة قد واتتهم لكى يستعيدوا مكانتهم بعد الاطاحـة بفريق العلماء والفلاسفة •

وقدر لهم أن ينجحوا نجاحا مؤقتا فاصدر المنصور أمرا بنفي ابن رشد وأصحابه الى قريـة كان يقيم بها اليهود كما أمر باحراق كتبه وبتحريم قراءة الفلسفة عامة وهدد من يخالف أمره بالاحراق والقتل ولم يكن ابن رشد وحيدا في هذه المحنة بل كان أحد من أظهر المنصور غضبه عليهم وقد اختلفت الأقاويل في تعليل هذه المحنة فقيل انها لأسباب دينية ، وقيل انها لأسباب سياسة ونجدنا أكثر ميلا الى الرأى الأخير ذلك لان ابن رشد لم يمتحن عندما ألف كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» فى سنة ٥٧٥ هـ وهاجم فيه علماء الكلام أشعرية وغير أشعرية في حين كانت محنته بعد ذلك بنحو من ستة عشر عاما . ثم عاد المنصـور فعفا عن ابن رشد فى سنة ٥٩٥ هـ ودعاه الى مراكش وقربه اليه وكرمه . ولو كان السبب دينيا لما استطاع المنصور أن يخدش عاطفة رعيته بأن يراجع نفسه فى أمر ابن رشد . وقد توفى ابن رشد فى عام ٥٩٥ هـ أى قبل وفاة المنصور بشهر أو نحوه .

وكان فيلسوفنا أكثر الناس استقلالا في الرأى واعتدادا بما يؤمن أنه الحق ، كما أنه كان أكثر ميلا الى الاجتهاد منه الى التقليد وقد وصفه ابن الآبار فقال : انه لم ينشأ مثله فى الأندلس كمالا وعلما وفضلا ، ومع أنه كان عظيم المرتبة شريف الأصل عريق النسب فقد كان من أشد الناس تواضعا وأخفضهم جناحا وربما كشف عن خلقه ودينه أن المحنة لم تترك في نفسه أثرا عميقا ، بل كان الأمر الذى حز فى نفسه هو أن غوغاء قرطبة أخرجوه من المسجد الكبير هو وابنه وهما يتهيآن لصلاة العصر .



تحليـــل الكتـــاب

وفي كتاب مناهج الأدلة يبين لنا ابن رشد أن المشكلات التى فرقت بين الأشعرية والمعتزلة مشـكلات مزعومة ، بل هى مشـكلات لفظية وأن المسائل لو عولجت بطريقة علمية منطقية بعيدة عن روح التعصب لما وجد هؤلاء ما يوجب الخلاف بينهم أو ما يدعو الى التراشق بالكفر .

لقـد اختلف علماء الكلام فى مسألة الصفات الالهية والصلة بينها وبين ذات الله سبحانه ، كما اختلفوا في مسألة الجهة وفي امكان أو استحالة رؤية الله تعـالى فى الحياة الأخرى وفى الحسن والقبيـح ولم يتفقوا فى مسألة العدل والجور والقضاء والقدر الخ ، فأراد ابن رشد أن يبين لهؤلاء جميعا أن العقائد الاسلامية مطابقة للعقل ومن ثم ، فليس هناك ما يوجب الخلاف . ولنعرض الآن المسائل التى عالجها هذا الفيلسوف الدينى فى كتابـــه :

المسألة الأولى : أدلة وجود الله :

لقد ذهب فريق من المسلمين الى أن الدليل على وجود الله لا يعتمد على العقــل بل السـبيل الى ذلك هو الاعتماد على ما جاء به القرآن الكريم أو الوحى وهؤلاء هم أهل الظاهر الذين كانت لهم الغلبة فى بلاد الأندلس وفى المغرب فى العصر الذى عاش فيه ابن رشد وكان هؤلاء الذين يحقرون من شأن العقل يظنون أن التصديق بالوحى نفسه لا يحتاج الى استخدام العقل . ويرى ابن رشد ألا يشغل نفسه بهؤلاء القوم ولا ترضى نفسه أن يصفهم بالضلال كما فعل علماء الكلام ، بل قال فى شأنهم انه متى وجد جماعة من النـاس يعجزون عن استخدام عقولهم فى معرفة وجـود الله ، فما عليهم الا أن يؤمنوا به بالطريقة التى يرضونها ولكنه لم يتورع عن السخرية بهم فقال بعد أن ذكر لهم عددا من الآيات التى دعا الله فيها الناس الى الايمان بوجوده عن طريق العقل : « ولا يمتنع أن يوجد من الناس من تبلغ به فدامة العقل وبلادة القريحة أن لا يفهم شيئا من الأدلة الشرعية التى نصبها صلى الله عليه وسلم للجمهور وهذا هو أقل الوجود فاذا وجد ففرضه الايمان بالله من جهة السماع » .

أما علماء الكلام من أشعرية ومعتزلة فقد زعموا أنهم يعتمدون على العقل للبرهنة على وجود الله فاستخدموا دليلين شهيرين عند دارسى علم الكلام أى علم التوحيد وهما :

(أ) دليل الجوهر الفرد :

ويتلخص فى أن الأجسام الموجودة فى العالم تتكون من أجزاء ، وهذه الأجزاء يمكن قسمتها الى أجزاء وهكذا • لكن هذا التقسيم لا يستمر الى ما لا نهاية له بل يجب الوقوف عند جزء لا يتجزأ وهذا الجزء الذى لا يتجزأ هو الجوهر الفرد وكل الجواهر الفردة تعرض لها حالات مختلفة • وهذه الأحوال هى التى يطلقون عليها اسم الأعراض ، وهى حادثة لأنها متغيرة وما دامت الجواهر لا تنفصل عن الأعرض اذن،لابد أن تكون حادثة مثلها لأن مالا ينفك عن الحوادث فهو حادث حسب مبدأ مشهور لديهم • ولما كانت الجواهر حادثة فالأجسام حادثة ثم العالم حادث ولابد له من محدث وهو الله •

ويناقشـــهم ابن رشـــد فى هذا الدليل ، فيرى أولا أنهم يعتمدون على نظرية اغريقية قديمة هى نظرية الذرة التى قال بها ديمقريطس • ونلاحظ ان نظرية الذرة عند القدماء قد استخدمت لتحقيق غرض مناقض لما يريده المعتزلة والأشـاعرة أى انها كانت سـبيلا الى انكار وجود الله والى تفسير الكون تفسيرا ماديا بحتا ، هذا الى أنه من العسير أن نبرهن بطريقة عقلية على حدوث جميع الأعراض بناء على ما نلاحظه من حدوث بعضها ، فاذا تبين لنا أن النبات ينمو ثم يصفو ثم يندثر فهل يتبين لنا عن طريق الحس والتجارب أن الزمان له أول وآخر • وليس معنى ذلك أن ابن رشد يقول بقدم العالم ولكنه يريد القول بأن أهل علم الكلام يعجزون عن اثبات حدوث الزمان والعالم بطرقهم الجدلية ولو سلمنا أن العالم حادث بناء على براهينهم الجدلية لم تنته الشبهات اذ يبقى أن نسأل : لماذا حدث العالم فى لحظة دون أخرى وهل طرأ على الارادة الالهية التى رأت ايجاده فى هذه اللحظة أو تلك عزم أو تصميم جـديد ؟ فما جـواب علماء الكلام عن مثل هذه الاعتراضات ؟ ربما وجدوا حلولا أخرى أكثر تعقيدا وتفريعا ، ولو سلمنا لهم أن ردودهم حاسمة فيبقى أن نسأل : هل هذه هى الطريقة الشرعية السهلة الواضحة التى جاءت فى القرآن الكريم • والحق كما يقول ابن رشد أن هذا الدليل ليس شرعيا ولا فلسفيا : « وطريقتهم التى سلكوها فى بيان حدوث الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو الذى يسمونه الجوهر الفرد وطريقة معتاصة تذهب على كثير من أهل الرياضة فى صناعة الجدل فضلا عن الجمهور ومع ذلك فهى طريقة غير برهانيـة ولا مفضية بيقين الى وجود البارىء » • وهى ليست برهانية لان البرهان المنطقى هو الذى يفرض نفسه على العقول فى مختلف

مستوياتها ، لأن العامة تسلم بالدليل المنطقى اجمالا ، وتسلم به الخاصة والعلماء اجمالا وتفصيلا، وهى غير شرعية وذلك لان القرآن الكريم لا يحتوى على دليل الجوهر الفرد ·

(ب) دليـــل الممكن والواجب :

وقد لجأ المتكلمون الى دليـــل آخر سموه دليل الممكن والواجب وهو يتلخص فى أن كل ما يوجد فى العالم يمكن أن يوجد على نحو مخالف لما هو عليه بل العالم نفسه يمكن أن يحتل من الفراغ غير المكان الذى يوجد فيه وأكثر من ذلك فمن الممكن أن يخلق الله عالما أفضل من هذا العالم الحالى· وقد اســتدلوا على فكرتهم هذه أيضا بأنه من الممكن أن يصعد الحجر الى أعلى بدلا من أن يسقط الى أسفل ومتى كان الأمر كذلك فالعالم حادث لابد له من محدث وقد خيل الى أصحاب هذا الدليل أنه دليل قوى لأنه يبرهن فى الوقت نفسه على حرية الارادة الالهية المطلقة ·

لكن ابن رشد يوجه ضروب النقد الى هذا الدليل فيرى أنه ليس عقليا ولا شرعيا أما أنه ليس عقليا فذلك لأنه يخالف البداهة الحسية ، كما يتنافى مع روح العـــلم فنحن نجـــد أن الواقع يكذبهم لأننـــا نرى أن لكل نوع من الكائنـــات خلقته الخاصة ونعلم أن هنـــاك أسبابا وقوانين أودعها الله فى الكون ، فهم يريدون اذن انكار وجود الأسباب الطبيعية التى خلقها الله وقد ظنوا أننا اذا كنا نجهل السبب فى أن الحركة شرقية أو غربية فمعنى ذلك أن هذا السبب غير موجود فهناك اذن كما يرى ابن رشد أسباب للحركات السماوية ، واذا كانت هذه الأسباب مجهولة لدى طائفة من الناس فليس معنى ذلك أن الحركات جائزة وفى الجملة يعتقـــد ابن رشـــد أن هؤلاء المتكلمين يتخذون جهلهم بالقوانين سبيلا الى القول بجواز أن يكون العالم على نحو مخالف لما هو عليه الآن ·

وليس دليلهم من جانب آخر دليلا شرعيا لأنه ينتهى الى انكار حكمة الله وعنايته بما خلق ، انهم أرادوا أن يؤكدوا المشيئة المطلقة فانتهوا الى انكار الحكمة · هذا الى أن انكارهم لوجودهم القوانين الطبيعية معناه الاتجاه الى القول بالمصادفة أو الاتفاق وهذا هو رأى الماديين الملحدين : « واذا لم تكن للشىء أسباب ضرورية تقتضى وجوده على الصـــفة التى هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره كما أنه لو لم تكن ههنا أسباب ضرورية فى وجود الأمور المصنوعة، لم تكن هنالك صناعة أصلا ولا حكمة تنسب الى الصانع دون من ليس بصانع وأى حكمة كانت تكون فى الانسان لو كانت جميع أفعاله يمكن أن تتأتى بأى عضو اتفق · أو بغير عضو حتى يكون الابصار مثلا يتأتى بالأذن كما يتأتى بالعين

والشم بالعين كما يتأتى بالأنف ؟ وهذا كله ابطال للحكمة وابطال للمعنى الذى سمى به نفسه حكيما ، تعالى وتقدست أسماؤه عن ذلك » ·

أما مشكلة حرية الارادة الالهية التى تعللوا بها فانها بمأمن من كل شبهة ، وذلك لأن الله سبحانه يريد كل شىء عن علم تتكشف له به جميع الكائنات فى جميع لحظات الزمن : وارادته سبحانه تختلف عن الارادة البشرية الناقصة التى تتردد بين عدة احتمالات بسبب نقص العلم الانسانى وعجزه عن معرفة ما سيقع فى المستقبل ·

كذلك نقد ابن رشد دليل المتصوفة على وجود الله وهو الدليل الذى يعتمد على الحدس الصوفى فقال : ان الدين الاسلامى جاء لجميع الناس لا لطائفة خاصة ، هذا الى أن الآيات التى تحث على النظر والتفكير أكثر بكثير من تلك الآيات القليلة التى يتأولها الصوفية للبرهنة على وجهة نظرهم الخاصة ·

اذن ، فما الأدلة التى يرتضيها ابن رشد ؟ انه يرى ان أدلة الشرع هى أدلة العقل ويريد بها :

(أ) دليل العناية الالهية :

حقا قد يقال ان القول بوجود عناية خاصة بالانسان معناه أننا نريد اتخاذه محورا للكون · نعم قد يقال ذلك وقد يقال أكثر منه وقد تبدو هذه الحجج مقنعة لدى من يصر على أن ينتقص من قدر نفسه ، ويأبى أن يعترف بأن الله كرمه بأن جعله بشرا لكن كثرة العلماء الذين يكابدون مشقة العلم يجزمون بأن هناك عناية بما فى هذا الكون ، وأن هذه العناية لا يجوز مطلقا أن تكون وليدة الصدفة ·

والشرع يؤكد ما تشهد به البداهة الحسية والنظرة العقلية السليمة وهنا يستشهد ابن رشد بآيات عديدة من القرآن ·

(ب) دليل الاختراع او السببية :

وهو دليل يمتاز أيضا بالبداهة والوضوح فان ظاهرة الاختراع بينة فى الحيوان والنبات بل فى جميع أجزاء العالم وكل ظواهر الكون مسخرة لوظائف محددة وما كان مسخرا فلابد من أن يكون مخلوقا وهذا الدليل يشبه سابقه فى أنه دعوة صريحة الى البحث والدراسة لمعرفة أسرار القوانين والغايات التى أودعها الله فى هذا الكون ثم هو برهان الشرع فى الوقت نفسه بدليل الآيات العديدة التى وردت فى هذا المعنى ·

فهل هناك من شك اذن فى أن أدلة ابن رشد على وجود الله تفضل أدلة الأشاعرة والمعتزلة ؟ أو لم يكن أولى بهؤلاء الا يتكايسوا بالمعرفة ، والا يتباهوا بالجدل والتقريع فى غير ما يجدى ! ومما يدل على صدق وجهة نظر ابن رشد أن القرآن الكريم قد جمع بين هذين الدليلين فى كثير من آيـــاته ٠

المسألة الثانية : الوحـــدانية :

لقد اعتمد علماء الكلام أشعرية ومعتزلة على بعض الآيات القرآنيـة للبرهنـة على وحـدانية الله كقوله تعـالى : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » (٦٦) ٠ وقوله : « **ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون**»(٦٧) وقوله عز وجل : « **قل لو كان معـه آلهـة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا** » (٦٨) ثم استنبطوا من ذلك دليلا جدليا مشهورا يسمى بدليل التمانع ، وهو يمتاز بأنه دليـل غير مقنع ومثير للشبهات فى آن واحـــد ٠

ويتلخص فى أنه لـو وجـد أكثر من اله واحـد ، لاختلفت الآلهة فلو فرضنا أن هنـاك الهين أراد أحدهما أن يوجد العالم وأراد الثـانى الا يوجده فلابد من افتراض ثلاثة احتمالات : فاما أن تتم ارادة كل منهما واما أن تتم ارادة أحدهما دون الآخر ٠ فعلى الاحتمال الأول يكون العالم موجودا معدوما فى آن واحد وعلى الاحتمال الثانى يكون العالم لا موجودا لامعدوما ، وعلى الاحتمال الثالث يكون الذى تتم ارادته هو الاله حقيقة ، لأن الآخر عاجز والعاجز لا يكون الها ٠

وقد يبدو هذا الدليل مقنعا لكنه ليس كذلك اذ لنا أن تسأل : ولماذا لا يتفق الالهان بدلا من أن يختلفا ولا سيما أننا نرى البشر يتفقون فتكون نتائج اتفاقهم جودة فى العمل ودقة فى الصنع مما دعا بعض علماء الكلام الى القول بأن دليل الآيات السابقة ليس منطقيا بل هو مجرد دليل خطابى يراد به الاقنـاع ، لأنه من الجـائز الاتفاق على خلق العالم بنظامه الذى نشاهده ٠

ويكشف لنا ابن رشد عن الخلل فى برهنة المتكلمين الذين أساءوا فهم الآيات السابقة فظنوا أنها من القيـاس الشرطى المنفصل مع أنها تتضمن قياسا شرطيا متصلا وهو المنهج العلمى الحديث الذى أظهر انتاجه المذهل فى الكشوف العلمية المعـاصرة كقوله تعـالى : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » يمكن عرضـه على النحـو البرهانى الآتى : لو فرضنا أكثر من اله واحد لفسد العالم لكن هذا الفرض غير صحيح،لأن العالم ليس فاسدا

اذن ليس هنـاك الا اله واحد خلق هذا العـالم بعلمه وحكمته وأما قوله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** » فمعناه أن اختلاف أفعال الآلهة لا يمكن أن يترتب عليه فعل واحد لكنا نرى عالما واحد متقنا ، اذن لا يعقل أن يكون هذا العالم موجـودا بسبب آلهة مختلفة الأفعال وأما قوله تعـالى : « **قل لو كان معه آلهـة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا** » فهـو خاص بحالة احتمال الاتفاق لا الخلاف ومعناه أنه لا يجوز عقلا أن يوجد الهان تتحد أفعالهما اذ لو كان هناك الهان يفعلان فعلا واحدا ، لوجب أن يكون نسبتهما الى العرش واحدة فلما غفل المتكلمون عن معنى هذه الآيات استنبطوا دليلا يتجه اليه الطعن وقد جاء ذلك كله بسبب اعتقادهم أن الآيات تحتوى على قياس شرطى منفصل مع أنها تنطوى على قياس شرطى متصل » وقد يدلك على أن الدليل الذى فهمه المتكلمون من الآية ليس هو الدليل الذى تضمنته الآية ان المحال الذى أفضى اليه دليلهم غير المحال الذى أفضى اليه الدليل الذين زعموا أنه دليـل الآية هو أكثر من محال واحد ، اذ قسموا الأمر الى ثلاثة أقسـام وليس فى الآية تقسـيم فدليلهم الذى استعملوه هو الذى يعرفه أهل المنطق بالقياس الشرطى المنفصل ٠٠ والدليل الذى فى الآية هو الذى يعرف فى صناعة المنطق بالشرطى المتصل وهو غير المنفصل ومن نظر فى تلك الصناعة أدنى نظر تبين له الفرق بين الدليلين » ٠

المسألة الثالثة : مشكلة الصفات والذات :

لقد سوى المعتزلة بين ذات الله وصـفاته خوفا من أن يؤدى القول بتعددها الى ما وقع فيه المسيحيون عندما فرقوا بين صفات الوجود والعلم والحياة وقالوا ان كل صفة منهما قائمة بذاتها ، فالوجود هو الأب ، والعلم هو الابن ، والحياة هى الروح القدس ٠ ورأى الأشـعرية الا يسـووا بين الذات والصفات لأن العلم غير الوجود ، والوجود غير الحياة الخ ثم قالوا ان صفات الله زائدة عن الذات وقائمة بها فلما قيل لهم كيف تكون زائدة على الذات وقائمة بها فى آن واحد وفى هذا تشـبيه للخالق بالمخلوق لان للانسان ذاتا وله صفات قائمة بذاته وزائدة عليها ـ قالوا ليست الصفات هى هو ، وليست هى غيره ٠ فقيل لهم ان فى ذلك نوعا من التناقض فلم يجدوا حلا ٠

ولذلك يحكم ابن رشد على الطائفتين بأنهما ابتدعتا فى الدين، وفتحتا باب الفتنـة من غير ما يدعو الى ذلك الشر كله ، ولا سيما أن محنة خلق القرآن كانت وليدة هذا الصراع الجدلى بين الفريقين ٠

ومن قبـل قال الامام الغزالى اذا كنا لا نعرف حقيقة الذات الالهية ، فكيف ندعى معرفة حقيقة الصفات الالهية ومن بعد قال ابن رشد : « قول

من قال ان علم الله وصفاته لا تكيف ولا تقاس بصفات المخلوقين حتى يقال انها الذات أو زائدة عن الذات هو قول المحققين من الفلاسفة والمحققين من غيرهم من أهل العلم والله الموفق » · « واذا كان هذا هكذا فاذا الذى ينبغى أن يعلمه الجمهور من أمر هذه الصفات هو ما صرح به الشرع فقط وهو الاعتراف بوجودها دون تفصيل الأمر فيها هذا التفصيل فانه ليس يمكن أن يحصل عند الجمهور فى هذا يقين أصلا وأعنى ههنا بالجمهور كل من لم يعن بالصنائع البرهانية ، وسواء أحصلت له صنعة الكلام أم لم تحصل له فانه ليس فى قوة صناعة الكلام الوقوف على هذا القدر من المعرفة اذ أغنى مراتب صناعة الكلام أن تكون جدلية لا برهانية ، وليس فى قوة صناعة الجدل الوقوف على الحق فى هذا » ·

المسألة الرابعة : مسألة الجهة والجسمية والرؤية :

وتتصل مسألة الجهة بمسألة الجسمية فقد اعتقد بعض السذج من المسلمين أن الله جسم لا يشبه الأجسام وقد تأثر هؤلاء بالاسرائيليات فى حين أن كلا من الأشعرية والمعتزلة ينفون الجسمية وان كان الأشعرى أقرب الى المشبهة منه الى المعتزلة أما ابن رشد فقد رأى أن يلتزم ما جاء به الشرع فلا يصرح للجمهور لا باثبات الجسمية ولا نفيها هذا الى ان القول بالجسمية يتناسب على نحو ما مع القول بوجود الله فى جهة معينة ، وتلك فى الحق احدى المشكلات التى تعثر فيها ابن رشد · وأيا كان الأمر فان المعتزلة تنفى الجهة لأنها نفت الجسمية ، فى حين أن الأشعرية تنفى الجسمية وتؤكد الجهة مما دعا ابن رشد الى القول بأن الأشعرية لجأوا فى مسألة الرؤية التى ترتبط بهذه المسألة أيضا الى حجج سوفسطائية أما حجج المعتزلة فتتلخص فى أن اثبات الجهة لله تعالى معناه القول بأنه فى مكان وهذا يؤدى الى الجسمية · ولذا أولوا جميع الآيات التى جاءت تثبت الجهة فى القرآن من مثل قوله تعالى : « **يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة** » (٦٩) الى غير ذلك من الآيات ، كما أولوا أحاديث الرسول التى جاء فيها أن الله ينزل الى السماء الأولى وقالوا انها أحاديث آحاد ·

أما الأشعرى فانه لما أثبت لله وجها ويدين ، وان لم يكن ذلك شبيها بالوجه واليدين عند الانسان فقد مال الى المشبهة ، وأثبت الجهة ورفض تأويل آيات العرش واستشهد بأحاديث النزول التى أشرنا اليها ولما رفض تأويل المعتزلة للآيات أخذ يجادلهم لكى يقهرهم على القول بأن الله لو كان فى كل مكان كما يقولون ، لكان فى كل جزء من أجزاء العالم وفى بطن مريم أيضا وهذا مثال لما قد ينتهى اليه اللجج الذى لا تقوده الرغبة فى الوصول الى الحقيقة ، غير أن أتباع الأشعرى من المتأخرين مالوا الى رأى المعتزلة على

حد ما يذكر ابن رشد فهو يقول: « وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة، من أول الأمر ، يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية كأبي المعالي ومن اقتدى به » .

وربما توقعنا من ابن رشد أن يتبع المعتزلة لكنه آثر هنا أن يسلك مسلك الأشعري واستدل على الجهة بنفس الآيات والأحاديث التي استدل بها المشبهة وأبو الحسن الأشعري وتلك نقطة قلقة في مذهبه ، لأنه ينكر الجسمية والرؤية البصرية ، ومع ذلك فانه يثبت الجهـة وهو متأثر هنا بفلسفة ارسـطو وقد حاول أن يجد مفرا من هذا التنـاقض فجعل يفرق تفرقة سوفسطائيـة بين الجهة والمكان حتى اذا قيـل له كيف يمكن أن نتصور الها غير جسمي يوجد في جهة معينة لم يجد جوابا الا أن يعترف بوجود نوع من التناقض وبأنه يجب أن ننهى الجمهور عن البحث في أمر الجهة . وهو في هذه النقطة الأخيرة محق ، لأن مسألة الجهة من أدق المسائل وهي من أمور الغيب التي يجب التفويض فيها .

أما في مسألة رؤية الله في اليوم الآخر ، تلك المسألة التي ترتبط دون ريب بالجهة فنجد أن المعتزلة ينفونها لأن شروط الرؤية البصرية انما هي خاصة بالأجسام والله ليس بجسم ، ولذلك تأولوا الآيات التي تثبت الرؤية وقالوا : ان المراد بالرؤية مزيد علم يفيضه الله على قلوب المؤمنين في الحياة الأخرى .

لكن الأشعري كان على وفـاق مع نفسه لانه لما أثبت الجهة لم يجد غضاضة من اثبات الرؤية وأخذ يناقش أدلة المعتزلة أو يؤول بعض الآيات القرآنية كقوله تعـالى : « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** » (٧٠) وقوله تعالى : « **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني** » (٧١) الآية ــ كذلك احتج بأدلة ظنها عقلية فقال ان الأشياء لا ترى من حيث هي أجسام أو ألوان وانما ترى من حيث انها موجودة ولما كان الله موجودا اذن هو يرى . ويبـدو أن مثـل هذه الحجة لم تقنع أتبـاع الأشعري فانا نجد المتأخرين منهم اقتربوا من المعتزلة عندما نفوا وجود الله في جهة مقابلة وأنكروا استخدام العين وقالوا من الممكن أن يخلق الله لعباده انكشافا تاما لا يتوقف على شروط الرؤية العادية وهكذا يصـبح الخلاف بين الفريقين لفظيا ، لأن الرؤية تصبح بعد حذف شروطها المادية علما ولهذا يقول الامام محمد عبده ان العلماء قد اتفقوا على نفي الرؤية بالوجه ، لأنهم يعترفون أن الله مخالف للحوادث ، وأنه ليس جسما ولا يوجد في جهة .

وقد نقد ابن رشد رأي الأشـعري ومال الى رأي المعتزلـة وان كان أكثر اتباعا لظاهر الشرع « لانه اذا قيل ... : انه نور وان له حجابا من

نور كما جاء في القرآن والسنن الثابتة ثم قيل ان المؤمنين يرونه في الآخرة كما ترى الشمس لم يعرض في هذا كله شك ولا شبهة في حق الجمهور ولا في حق العلماء ، وذلك أنه قد تبرهن عند العلماء أن تلك الحال مزيد علم ، لكن متى صرح لهم به ، أعني الجمهور بطلت عندهم الشريعة كلها أو كفروا بالمصرح لهم بها ، فمن خرج عن مناهج الشرع في هذه الأشياء فقد ضل عن سواء السبيل » .

المسألة الخامسة : مسألة العدل والجور والقضاء والقدر :

وهي احـــدى المسـائل المهمـة التي فرقت بين المسلمين وجعلت الخصـومة أكثر حدة بين المعتزلة والأشاعرة ، مع أن الأمر لا يقتضي خلافا ولا خصومة فالمعتزلة الذين يصفون أنفسهم بأنهم أهل العدل يرون ان هذه الصفة صفة كمال وهي تهدف الى نفي الظلم عن الله سبحانه فأفعاله تتجه الى قصد وغاية وهي لا تخالف ما يقتضيه العقل الذي يفرق بين الحسن والقبيح والخير والشر . واذن ، فيجب ألا يأمر الله بالقبيح أو الشر ولا ينهى عن الحسن والخير .

وربما آخذ عليهم أنهم يستخدمون هنا كلمة تدل على عدم التأدب في حقه تعالى عندما يوجبون عليه فعـلا من الأفعـال . وأيا كان الأمر فانهم يقررون أن الله لا يريد الشر لعباده والا لكان ظالما ثم استدلوا على وجهة نظرهم بآيات عديدة من القرآن الكريم .

أما الأشعري فسـلك مسـلكا مضادا فقال بالحرية الالهية التي لا تخضع لشريعة فلله أن يخلد الأنبياء في النار والكفار في الجنة ، لان ارادته مطلقة ، وليس لأحد أن يوجب عليه فعل الصلاح أو الأصلح لعباده بل ذهب الى القول بأن أفعاله تعالى ليست معللة بغاية أو غرض . ثم انه يقرر أن الشر لما كان موجودا في العالم فالله مريد له . فهو يريد الكفر لعباده العاصين ويريد الايمان لمن يريد هدايته أي أن العبد ليس له اختيار فيما يريده الله له من طاعة أو عصيان .

فلما جـاء ابن رشد رفض رأي الأشـعرية قائـلا انه مضـاد للعقل ومخالف لروح الشرع : أما انه مضاد للعقل فذلك ما تشهد به البداهة فاننا ندرك بحواسنا أن هناك أشياء حسنة وأخرى قبيحة،وأن العبد يتجه الى الخير أو الشر والى الحسن أو القبيح ولذا كان أهلا للثواب أو العقاب ، أما أن رأيهم يخالف الشرع فذلك لأنه يناقض كثـيرا من الآيات القرآنية التي تصف الظلم بالقبح أو الشر من مثـل قوله تعـالى : « **وما ربك بظـلام للعبيد** » (٧٢) وقوله : « **ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما** » (٧٣) .

ومع ذلك ، فان الأشعرية والمعتزلة حاموا حول المشكلة دون أن يهتدوا الى حلها فالله يخلق الخير والشر جميعا لكنه يخلق الخير من أجل الخير ويخلق الشر من أجل ما يترتب عليه من الخير : « فلم يكن بد ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، من أحـد أمرين اما ألا يخلق الأنواع التى توجد فيها الشرور فى الأقل ، والخير فى الأكثر فيعدم الخير الأكثر بسبب الشر الأقل ، واما أن يخلق هذه الأنواع فيوجد فيها الخير الأكثر من الشر الأقل ومعلوم بنفسه أن وجود الخير الأكثر مع الشر الأقل أفضل من اعدام الخير الأكثر لامكان وجود الشر الأقل · وهذا السر من الحكمة هو الذى خفى على الملائكة حين قال سبحانه حكاية عنهم حين أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة : « **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك** » الى قوله : « **انى أعلم ما لا تعلمون** » (٧٤) يريد أن العلم الذى خفى عنهم هو أنه اذا كان وجود شىء من الموجودات خيرا وشرا وكان الخير أغلب عليه أن الحكمة تقتضى ايجاده لا اعدامه » ·

وترتبط مسألة القضاء والقدر بمسألة العدل والجور لأن المعتزلـة يقولون بحرية المرء حتى يكون أهلا للثواب والعقاب ، فى حين أن الأشعرية يقولون بنظريـة الكسب وهى نظرية غريبة غامضة حتى قال الأشـعرية المتأخرون «أخفى من الكسب عند الأشعرى» واذا أمكن شرح الغموض بعينه قلنا ان معناها هو الآتى : اذا أراد الانسان أن يقوم بفعل ما ، فان الله يخلق له القدرة على الفعـل فى اللحظة التى يريـده العبد فيها فتقترن به قدرة العبد · ويسمى هذا عندهم كسـبا وهذا يبرر — فكرة الثواب والعقاب عندهم أيضـا ·

ومن الواضح أن مشكلة القضاء والقدر تبدو معقدة اذ لا يخلو رأى كل فريـق من هذين الفريقين المتعـارضين من حجج وجيهة فرأى المعتزلة يتفق مع القيم الأخلاقية ورأى الأشعرية يتسق مع القدرة الالهية · أو ليس من الممكن أن نجمع بين الأمرين وأن نرفع هذا التناقض الذى يكاد تتمزق له بعض النفوس ؟! ·

والحل الصحيح الذى اهتدى اليه ابن رشد هو أن ارادة الانسان وان كانت حرة الا أنها مرتبطة بالقوانين والأسباب الخاصة التى وضعها الله فى الكون ويمتاز هذا الحل بأنه يعترف بحقيقة علمية وهى فكرة السنن والقوانين ، كما يمتاز بأنه يبين لنا أن الجبر لا يمكن أن يكون محضا وأن الاختيار لا يمكن أن يكون مطلقا ، بل نستطيع القول على نحو ما بأن الانسان مجبر باختياره ، لأنه يستخدم قدرته فى حدود ما خلق الله ، وكلما اختار طريقا معينا فى حياته أصبح مجبرا الى حد كبير على اختيار الطرق المستقبلة التى تتناسب مع هـذا الطريق ، وقد عبر ابن رشد عن حله هذا بقوله :

« واذا كان ذلك كذلك فالأفعال المنسوبة الينا أيضا يتم فعلها بارادتنا وموافقة الأفعال التي من خارج لها وهي المعبر عنها بقدر الله ... ولما كانت الأسباب التي من خارج تجرى على نظام محدود وترتيب منضود لا تخل في ذلك بحسب ما قدرها بارئها عليها وكانت ارادتنا وأفعالنا لا تتم ولا توجد بالجملة ، الا بموافقة الأسباب التي من خارج فواجب أن تكون أفعالنا تجرى على نظام محدود ... وليس يلغى هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التي من خارج فقط بل وبينها وبين الأسباب التي خلقها الله في داخل أبداننا والنظام المحدود الذي في الأسباب الداخلة والخارجة ، واعنى التي لا تخل هو القضاء والقدر الذي كتبه الله تعالى على عباده » والحق أنه يجب أن نبدى اعجابنا بهذا الرجل الذي استطاع أن يصل الى فكرة القوانين العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي في حين يرى بعض المعاصرين أن فكرة القانون العلمي من أحدث المخترعات العلمية .

المسألة السادسة : بعث الرسل :

لم يشأ ابن رشد أن يكون مقلدا لا للأشاعرة ولا للمعتزلة في استخدامهم المعجزات المادية دليلا على النبوة ، فهو يرى أن المعجزات من مثل ابراء الأكمه والأبرص ، وانقلاب العصا حية ، معجزات برانية ، تصلح لاقناع الجمهور الذي يرى أن من تظهر على يديه هذه الأمور الخارقة للعادة لابد أن يكون صادقا في ادعائه للرسالة . أما المعجز الحقيقي في نظر ابن رشد وهو المعجز الذي يسميه « الأهل والمناسب » أو الذي يمكن أن يسميه آخرون بالمعجز الجواني ، فهو التشريع الذي جاءت به الكتب المقدسة ولا سيما القرآن الكريم الى جانب صفات النبوة التي تحققت فيمن نزلت عليهم هذه الكتب السماوية .



ديوان المثنوى

جلال الدين الرومى

١٢٧٣ م

التصوف ليس فلسفة محددة المسائل ولا مذهبا بين المعالم يجتمع الذاهبون فيه على رأى واحد فى الفكر وخطة واحدة فى الفعل ، بل الصوفيون يكرهون الحدود وينفرون من القيود وقد قالوا : ان الطرق الى الله كعدد أنفس آدم • ويعنون ان لكل نفس طريقها الى الله ولكن مع هذا قد اجتمعت من أقوال الصوفية وأفعالهم على مر الزمان آراء وأفعال تعد من قواعد مذهبهم ويسمى الناس من يرى هذه الآراء ، أو يفعل هذه الأفعال « صوفيا » •

وقد كثرت تعريفات التصوف والصوفى،لأن المعرفين لم يحاولوا وضع الحد المنطقى الجامع ، ولكن نظر كل واحد الى وصف مستحسن فعرف التصوف به أو غلب عليه حال من أحوالهم فآثره على غيره وقد جاء فى رسالة القشيرى تعريفات منها :

قال الجنيد : التصوف هو أن يمتلك الحق عنك ويحييك به •

وقال عمرو بن عثمان المكى : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى به فى الوقت •

وقال رويم : استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد •

وقال معروف الكرخى : الأخذ بالحقائق والياس مما فى أيدى الخلائق •

وقال الشبلى : الجلوس مع الله بلا هم •

ومن التعريفات ما ينظر فيه الى جانب العمل كقول أبى محمد الجزيرى وقد سئل عن التصوف :

الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى •

وقول رويم : التصوف يبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقيق بالبذل والايثار وترك التعرض والاختيار الخ •

وقال سمنون : هو ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء ·

وأرى أن العارف بتاريخ القوم وأحوال أئمتهم ، لا يبعد أن يعرف التصوف تعريفا مجملا بأنه فكر وذكر وعمل يراد بها الفناء فى الله تعالى ·

ثم الناظر فى تاريخ التصوف الاسلامى يجد فيه ثلاث مراحل :

الأولى التعبد والزهد والخوف الشديد من الجزاء وهذا نجده فى سيرة الحسن البصرى وسفيان الثورى وأمثالهما ·

والمرحلة الثانية : ذكرت فيها المعرفة والمحبة كما نجد فى أقوال معروف الكرخى وبشر الحافي والسرى السقطي وأمثالهم · قال الجنيد : سألنى السرى يوما عن المحبة فقلت : قال قوم المرافقة ، وقال قوم الايثار ، وقال قوم كذا وكذا · فأخذ السرى جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد ثم قال : وعزته تعالى لو قلت ان هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ·

وممن أكثر الكلام فى المعرفة ذو النون المصرى ·

والمرحلة الثالثة مرحلة الفناء التى أدت الى القول بوحدة الوجود · ومن أوائل المتكلمين فى الفناء الجنيد والشبلى ومن المفرطين فيها المغلوبين على أقوالهم أبو يزيد البسطامى · وفى كتاب اللمع لأبى نصر السراج صورة مما لقيه الجنيد من العناء فى تأويل أبى يزيد ·

وقد اتضحت هذه النزعات على مر الزمان وشرحت ووضعت فيها المؤلفات واختلفت فيها المناهج والأقوال ·

وانقسم الناس منذ القرن الثالث الى أهل الصحو الحافظين أقوالهم وأفعالهم ، وأهل السكر الذين يغلبهم الوجد على أنفسهم ·

وليس يتسع المجال لاجمال الكلام فى هذا الموضوع بله تفصيله ·

٣ — وأنا اردت أن أقدم هذه اللمحة قبل الكلام على شعراء الصوفية فى اللغة الفارسية وفى شعراء الصوفية الفارسيين تتجلى هذه المراحل الثلاث ، ولكن اهتمامهم بالزهد والتعبد قليل وحديث المعرفة والعشق والوجد والفناء يفيض به شعرهم ، فى صور لا تعد بين الحقيقة والمجاز والتصريح والكفاية والوضوح والخفاء ، وقد كثر حديثهم عن الحبيب والوجه والطرة والعين ، والخمر والكأس والساقى ونحو هذا حتى صارت لهم لغة يعرفون هم ما يريدون بها ·

ومع هذه المعانى ألوف من المعانى النفسية ، هى أسمى ما أحسه الانسان فى نفسه أو أدركه فى العالم مشاهدة أو سماعا مما يتصل

بمقاصد الانسان وما يلقاه في سبيله الى هذه المقاصد . والخلاصة أن النفس الانسانية مصورة في جمالها وقبحها وسموها واسفافها وحبها وبغضها ، وسعادتها وشقائها ، وفي نزعاتها العليا الى عالمها والى الله مبدؤها ومنتهاها .

والقصص والتمثيل لهما من اهتمامهم نصيب كثير فالقصص الطويلة والقصص الصغيرة المستقلة أو التي تأتي في ثنايا القصص الكبيرة والاشارة الى القصص والحوادث أظهر ما يراه قارىء الشعر الصوفي .

أما تصور الصوفية لوحدة الوجود فهي النغمة الشائعة في أناشيدهم والفكرة المستكنة وراء أبلغ أشعارهم .

وحدة الوجود نبع يفيض فيخرج الشجر المختلف ، والزهر المتعدد ، والعشب الشتيت ، صور مختلفة الأشكال والألوان ووراءها هذه الفكرة .

وخلاصة ما تنم عنه أشعارهم فيها أنه ليس في العالم كله الا وجود واحد هو الوجود الحق المطلق وهو المحض والجمال المحض . وقد تجلى هذا الوجود المطلق فصدر عنه العالم ، أراد هذا الجمال أن يعرف ، وأول صفات الجمال التجلي أو كما قال أفلوطين : « الكمال يقتضي الظهور » وفي ذلك يروى الصوفية هذا الحديث القدسي : « **كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني** » وما أكثر ما يشير شعراء الصوفية الى هذا الحديث .. !



ابن سلطان العلماء

وان كان عمر الخيام هو زعيم فن الرباعيات الصوفية فان ثنائيات جلال الدين الرومي تتبوأ أوج النضج ، وتضع صاحبها على رأس الشعراء الصوفيين .

هذه الثنائيات آيات في جودة العبارة ، ولطافة المعنى ، ورقة الفكرة وصفائها ونضج الذهن الصوفي . ولقد أولتها الدوائر الأدبية في عالم الغرب اهتماما شديدا ونقلتها الى كثير من اللغات .

وتأثير فلسفة جلال الدين الرومي في أفكار الكثيرين من أتباعه ومريديه ومقلديه ، لا حد لها ، ولقد أثرت هذه الفلسفة في رجل من فحول عصرنا هو محمد اقبال وحسبه النقاد منتهجا أثر فلاسفة الغرب ، ولكنه قال عن نفسه بكل فخر : « كلا بل أنا أثر من جلال الدين الرومي » وحسب

جلال الدين فخرا أن يخرج للعالم فى كل جيل مثل شاعر باكستان العظيم :

هو محمد جلال الدين ابن سلطان العلماء محمد بهاء الدين ولد بن حسين بلخى بن أحمد بن محمود بن مودود بن ثابت بن سيب بن مطهر ابن حماد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ٠

ولد جلال الدين فى مدينة بلخ (٧٥) فى السادس من ربيع الأول عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) وهو سليل أسرة شريفة عريقة فى الحسب والنسب ترتبط بوشائج المصاهرة مع سلاطين خوارزم ، فقد كان جده حسين بلخى زوجا للملكة جهان(٧٦) بنت علاء الدين تكش خوارزم شاه٠ وكان ثمرة هذا الزواج أبوه محمد بهاء الدين ولم يلبث حسين بلخى أن مات قبل أن يتم بهاء الدين العام الثانى من عمره فلما كبر أظهر نبوغا فى العلوم وتفوقا فى الدين وتفرغ للتعليم والوعظ ووفد على حلقته طلاب العلم والدين من مشارق البلاد ومغاربها ينهلون من بحر علمه ويقبسون من فيض حكمته ويتريضون فى رياض صوفيته ٠٠٠ حتى دانت له الشهرة وذاع صيته فيما وراء بلاد فارس والأناضول وصار يلقب بسلطان العلماء وأتم الله نعمته فتزوج وأنجب جلال الدين الذى يعتبر مولده حدثا مباركا فى تاريخ الصوفية والشعر الصوفى الفلسفى ٠

ووقع جفاء بين سلطان العلماء بهاء الدين وبين خاله ، محمد قطب الدين خوارزم شاه ، سلطان خوارزم ، فقد دبت الغيرة فى قلب السلطان واشتعل صدره حسدا للمنزلة الرفيعة التى يتبوؤها « سلطان العلماء » فى البلاد كما دأب فخر الدين الرازى — الذى يعارض مذاهب الصوفية ويكره الصوفيين — ينفر السلطان منه ويوغر صدره عليه ٠ فأرسل السلطان اليه رسولا قال له :

« يرى السلطان أن يتنازل عن عرش خوارزم لك ويبحث عن عرش آخر ٠٠ » ٠

فرد عليه بهاء الدين قائلا :

« ان السلطان ولا شك ، يسخر منا ٠٠ لقد صدق وشايات المغرضين وأعار سمعا لغيبة الحاسدين نحن فى غنى عن عرشه ٠ فليطمئن بالله فنحن الذاهبون ٠٠ ! » ٠

وقام لفوره وأمر باعداد العدة للسفر ولم يثنه عن عزمه ندم السلطان ولا حزم طلبته ومريديه ورحل عن بلخ وفى صحبته زهاء ثلثمائة من أوفى تلاميذه وأخلص مريديه ٠

وكان جلال الدين فى ذلك الوقت فى الرابعة من عمره ·

ويممت القافلة شطر بغداد ، وعند نيسابور خرج جماعة من العلماء لتوديع سلطانهم بهاء الدين وكان على رأس القافلة الشاعر الصوفى الكبير فريد الدين العطار الذى ما أن وقع بصره على الطفل جلال الدين حتى ربت على رأسه ودعا له وأهداه ديوانه الخالد « الاهى نامه » : ديوان الأسرار وبشر سلطان العلماء بمستقبل باهر لابنه ·

وقضى بهاء الدين زمنــا فى بغداد يعظ ويعلم والتف حولــه الطلبة والمريــدون من الظامئين الى منهله العــذب الغزير وسرعــان ما تبوأ مكانة مرموقة فى بلاد العراق واستعاد سابق مجده وشهرته ·

وفى موسم الحج سار الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ثم عرج على دمشق وحلب وتعرف بعلمائها وشعرائها وقادة الحركة الفكرية فيها وكان يصحب جلال الدين فى جميع رحلاته وأسفاره ·

وفى الواقع كانت تلك الرحلات بمثابة دراسات ثقافية عملية لجلال الدين عكست فى نفسه انطباعات فنية عميقة كان لها أبعد الأثر فيما بعد فى شعره وفلسفته ·

وقام الأب والابن بعد ذلك برحلات أخرى فى أرمينية وبــلاد الروم (الأناضول) وأقاما فى أذربيجان وملطية بأرمينية فترات متفاوتة · ثم انتقلا بعد ذلك الى لارندة (كرمان) ، فأقاما فيها زهاء سبع سنوات الأب يعلم فى المدرسة التى بناها الأمير موسى والابن جلال الدين يتلقى علومه على أبيه فيها ·

وفى عام ٦٢٥ هـ (١٣٣٨ م) تلقى سلطان العلماء دعوة من السلطان علاء الدين السلجوق لزيارة قونيه حاضرة ملكه · فرحلا اليها واستقرا بها أخيرا بعد رحلات دامت زهاء ستة عشر عاما وأقاما فى مدرسة «ألتونيا» ، وظل بهاء الدين يعلم فيها الى أن اختاره الله تعالى الى جواره فى ١٨ ربيع الآخر من عام ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ·

الـــــرومي

كان جلال الدين ذا مواهب فطرية نـادرة وكانت ملازمته لأبيه في أسفاره وحضوره مجالس العلماء وحلقات مشايخ الصوفية لها أكبر الأثر في نسج خيوط شخصيته الصوفية وقد ظل يدرس علوم الدنيا والدين على يد أبيه الى يوم وفاته ثم رحـل بعد ذلك الى دمشق وحلب لاسـتيفاء الدرس والتحصيل . وفي بلاد الشام التقى بواحد من أفذاذ تلامذة أبيه وهو برهان الدين الترمذي الذي لقنه بعض أسرار مذهب الطريقة الصوفية ثم عـاد الى قونية واستقر بها ، وأخذ يدرس التصوف على صلاح الدين زركوب وحسن حسان الدين جلبى .

وسار جلال الدين على نهج أبيه في تدريس العلوم الدينية والوعظ وتولى التدريس في أربع مدارس في قونية ، والتف حوله الطلاب من كل حدب وصوب لما لمسوه فيه من تبحر في العلم وتفقـه في الدين ، هذا الى جانب دماثة خلقه وتواضعه الجم وسرعان ما ذاع صيته واشتهر واحتل منبر أبيه وتبوأ ، بجدارة ، مركزه في قونية حاضرة بلاد الروم (الأناضول) . . ومن هنا اكتسب اسهم شهرته « الرومي » .

شمس الدين تبريزى ونقطة التحول !!

وفى عام ٦٤٢ هـ (١٢٤٤م) حدثت نقطة تحول فى حياة جلال الدين العقلية والفكرية وكان هذا التحول نتيجة لالتقائه بشمس الدين تبريزى أحد مشهورى مشايـخ الصوفية الأفـذاذ فى عصره ومن المتفـق عليه أن ركن الدين - وهو أحد أقطاب الصوفيين فى عصره - هو الذى أوفده الى جلال الدين ليدخله فى مذهب طريقته الصوفية ·

والتقى شمس الدين ·· التقى الدرويش الصـوفى بالعالم الدينى ولحظ الدرويش المحنك على وجه العالم فجعل منه صوفيا مولها ، وكرس نفسه مرشدا له وقائدا روحيا ·

وهكذا تحول جلال الدين من عالم يعلم العلوم الدينية ويعتلى منبر الوعظ الى صوفى متفرغ للرياضة الصوفية وقرض الشعر الصوفى ·

وفى الحقيقـة أن ذلك اللقـاء الذى تم بين شمس الدين تبريزى وجلال الدين الرومى لم يكن الا اذكاء للنار التى تتأجج فى صدر جلال الدين واثارة للشوق المبرح الذى يكمن حارا فى حناياه ، وليس أدل على ذلك من شـعره الذى كان ينظمـه قبل ذلك اللقـاء فقد كان يتجلى فيه بوضوح الاستعداد والرغبة والميل للتفرغ للصوفية ·

وبين عشـية وضحاها تمكن شمس الدين تبريزى من أن يتسلل بسهولة الى قرارة نفس جلال الدين الذى تغلغلت محبته فى قلبه وأصبحا خلدين لا يفترقان ·

وبعـد وفاة شمس الدين تبريزى لم يحـد جلال الدين عن انقطاعه للرياضة الصوفية ·

ولم يفتر جلال الدين يوما عن نظم الشعر الصوفى وانشاده والتغنى به ، كما أنه لم يكن يغفل لحظة عن ترديد اسم شمس الدين تبريزى كما كان يرمز اليه أحيانا بالمرشد أو الطبيب الالهى وأحيانا يكنى به ويعرض أسراره الخفية فى سياق حديث الآخرين ·

وليس أدل على تأثير شمس الدين تبريزى فى نفس « مولانـا » من هذه الأبيات :

ان شمس تبريزى نور مطلق
بل هو شمس ، ومن أنوار الحق
لم يعد فى عرق ينبض ، فماذا أقول ؟
فى شرح صداقة ليس لها مثيل !
انقول الثناء منى هو ترك للثناء
فذلك دليل الوجود : والوجود خطأ وعناء !

فقد قلت له : ان من الخير لسر الحبيب عدم اظهاره فاستمع له خلال الحديث واحفظ كل أسراره ٠

فلعل من الخير أن يكون سر المولهين ٠
يردد دائما ضمن الحديث عن الآخرين ٠

وفى الخامس من جمادى الآخرة عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣م) انقطع وتر الرباب وكف البلبل عن الترنيم وصوغ الألحان ٠

المثنـــوى

والمثنوى من ثنى يثنى ٠٠ وسماها جلال الدين كذلك لأن كل بيت منها يتركب من شطرين لزم فيهما قافية واحدة مستقلة وبحرا واحدا مع اختلاف المعانى وتفاوت القوافى ٠

و « المثنوى » منظومـة برمتها على وزن الرمـل المسدس المحذوف وتفعيلته «فاعلاتن» ست مرات ، ولكنها فى نهاية كل شطرة تكون محذوفة النون أى « فاعلات » ٠

وتقفى الشطرة الأولى لكل بيت من الأبيات مع شطرته الثانية ٠ وهذا الضرب من القافية يسمى فى الشعر العربى « المزدوج » ٠

ويوضـح جلال الدين سر اختياره لفن الثنائيـات بالذات فى نظم « المثنوى » بقوله :

« لما كان لكل شىء ظاهر مما يلى الخلق ، باطن مما يلى الحق فان كل شىء شيئان ٠ وجميع الوجود مثنوى ! » ٠

هذا وقد شرع جلال الدين فى نظم المثنوى فى مستهل عام ٦٥٨ هـ (١٢٥٩ م) وأنجز الجزء السادس عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) قبل وفاته بأيـــام ٠٠

★★★

والمثنوى منظومة صوفية في بحر الرمل والقافية المزدوجة (المثنوى)، فيها خمسة وعشرون ألف بيت وسبعمائة فى ستة أجزاء وقد صدر كل جزء بمقدمة منثورة منها ثلاث مقدمات عربية .

والشاعر فيها معلم مختلف الأساليب ينتقل من تفسير آية أو شرح حديث الى ضرب مثل وينصح وينتقل بتلاميذه من فن الى فن وكل هذا موصول بذكر الله والفناء فيه .

والقصص شائع فى ثنايا المنظومة وفصولها لا ينفصل بعضها من بعض بل يؤدى الاستطراد من فصل الى فصل وربما يبدأ القصة ثم يرجع ليتـم الأولى على النسـق المعروف فى كتاب كليلة ودمنة ويأخذ القصـة القصـيرة يتوسل بها الى مقاصده فيطول بها البيـان حتى تصير حوادث القصة ضئيلة خفيفة فى البيان الذى يبتغيه .

وهو قوى البيان فياض الخيال رائع التصوير يوضح المعنى الواحد فى صـور مختلفة ويسوق المثل اثر المثل والمعانى تأتيه ارسالا والمعانى تواتيه انثيـالا ، وبحـر الرمل يجـاريه رهوا مسترسلا حتى ينظم حول القصة الصغيرة مئات الأبيات ويصل بها ما يشاء من الآراء والنصائح والعبر فقصة الوحوش والأسد والأرنب التى أهلكته من قصص كليلة ودمنة ، نظم فيها زهاء خمسمائة بيت وأخرج منها جدالا طويـلا بين الأسد والوحوش فى الاختيار والجبر .

وقلب الشاعر مفعم بالعشق الالهى مستغرق به ، فكل بحث يذكر به وكل فكر يؤدى اليه فتراه يبدأ القصة التى تحسبها بعيدة كل البعد من العشق والفناء فاذا هو ينتهى الى هذه المعانى ويغوص فيها ، ويغلبه الواحد بين الحين والحين فيرتمى فى البحر الذى لا يعرف سابحه أو غريقه ساحلا ، تلكم قبلته أنى توجه ، وغايته حيثما سـار ، ومقصد تصريحه وكناياته ومرمى نفيه واثباته :

« أنا غريق العشق الذى غرق فيه عشق الأولين والآخرين اذا ذكرت الشفة فانما أريد شفة البحر (شاطىء البحر) ، واذا قلت لا فانما مرادى الا (يعنى اذا نفى فانما يبغى الاثبات كما فى لا اله الا الله) .

هذا البيان وهذا الفيض وهذه الحرقة وهذا الوجد ، كل هؤلاء تقصر عن الابانة عما فى نفسه فيشـكو هذا العجز فى الحين بعد الحين ويقف حائرا صائحا : ان الذى أحسه وراء الحروف والأصوات بل وراء الأسماع والأفهام « ما الحرف فتفكر فيه ، انه الشوك على جدار البستان . انى أمحق القول والحرف والصوت لأناجيك بغير هذه الثلاثة » .

وقد افتتح المثنوى بمقدمة فى الناى ، وهو رمز الروح التى تحن الى عالمها وتنوح ، وقد أولع به المولوية واستعانوا به فى أذكارهم .

وأول الكتاب :

استمع للناى غنى وحكى ... شفه الوجد وهدرا فشكا :
مذ ناى الغاب وكان الوطنا ، ... ملأ الناس أنينى شجنا
أين صدر من فراق مزقا ... كى أبث الوجد فيه حرقا
من تشرده النوى من اصله ... يبتغى الرجعى المنى وصله
كل ناد قد رآنى نادبا ... كل قوم تخذونى صاحبا
ظن كل أننى خير سمير ... ليس يدرى اى سر فى الضمير
ان سرى فى أنينى قد أظهر ... غير أن الأذن كلت والبصر
ان صوت الناى نار لا هواء ... كل من لم يصلها فهو هباء
هى نار العشق فى الناى تثور ... وهى نار العشق فى الخمر تفور
حدث الناى باهوال الطريق ... وعن الجنون صبا لا يفيق
اهل هذا الحس من لا حس له ... أرهف السمع لهذى المعضلة
ضلت الأيام فى الامنا ... ليس الا النار فى أيامنا

الى أن يقول :

ومن العشق ، وانى يحمل ؟ ... رقص الطور وخف الجبل
عش الطور اجل قد عشقا ... فهوى اذ خر موسى صعقا
لو تسنى من نديم لى فم ... قلت ، كالناى حديثا اكتم
صمت البلبل عن الحانه ... حين غاب الورد عن بستانه

وتتخلل المثنوى أحيانا أبيات أو أشطار عربية منها هذه الأبيات :

غنى لى يا منيتى لحن النشور ... ابركى يا ناقتى ، تم السرور
ابلعى يا أرض مدمعى قد كفى ... اشربى يا نفس وردا قد صفا
عدت يا عيدى الينا مرحبا ... نعم ماروحت يا ريح الصبا

★★★

واستمع معى الى هذا الاستهلال الرائع الذى استهل به شاعرنا الجزء الثانى من المثنوى :

لقد اخرت هذا المثنوى زمنا ،
ولزمت له مهلة حتى يصير لدم لبنا .
حين جذب العنان ضياء الحق حسام الدين ،

أنزلنا من أوج السماء فى عليين .

ولما سما الى معراج الحقائق ،

لم تتفتح الأكمام بغير ربيع مشرق .

فلما ارتد مرة أخرى من البحر ونزل البرا ،

غنت الرباب أنغام المثنوى شعرا .

وقد استهل جلال الدين أيضا الجزءين الثالث والخامس من المثنوى باسم حسام الدين .

ومن هذا يبدو جليا مدى تأثيره فى نفسه .

فقد جاء فى مقدمة الجزء الثالث هذه الأبيات :

يا ضياء الحسن يا حسام الدين ،

بك جاوز المثنوى القمر المبين .

أما الجزء الخامس فقد استهله بهذا البيت :

الملك حسام الدين نـور كنوز السماء ،

يطلب منا أن نبدأ خامس الأجزاء .

كما أنه سمى الجزء السادس من المثنوى « حسامى نامه » أى ديوان حسام الدين وقد استهله بهذا البيت :

يا حسام الحق يا حياة الأنفس ،

يتحرك ميلى كثيرا للقسم السادس .

فـن الثنائيـات

وثنائيات جلال الدين ليست أول الثنائيات التى نظمت فى الشعر الصوفى فقد كان لمن قبله من مشهورى الصوفية — أمثال سنائى والعطار — ثنائيات صوفية فى تفسير المذاهب الصوفية كما كان لهم فضل السبق فى هذا الفـن .

ويمكننـا القول ان مجـد الدين سنائى قد نجح فى أن يجعل للشعر الصوفى كيانا . كما وفق فريد الدين العطار فى أن يبتكر المعانى الصوفية السامية ، أما جلال الدين الرومى فقد ارتفـع بالشـعر الصوفى الى أوج النضـج .

ولو أردنا انزال الشعراء الفارسيين منازلهم اللائقة بهم لرتبناهـم هذا الترتيب :

الفردوسى للشعر القصصى الحماسى .

عمر الخيام لفن الرباعيات الفلسفية ٠
الأنورى للقصائـــد ٠
سعدى للغزل ٠
حافظ للغزل الصوفى ٠
جلال الدين الرومى رأس الشعراء الصوفيين ٠

وفى الواقع أن جلال الدين قد بلغ شأوا عظيما فى شعره فثنائياته تتميز بجودة العبارة ولطافة المعنى ورقة الأفكار ونضـــج الذهن الصوفى ولا عجب فقد اجتذبت اليه النفوس وأدركت الغاية فى طريق الوصول الى الغرض ٠

وجلال الدين شـــاعر أصيل تتجلى فى شعره روعة الخيال الخصب وقوة البيان الساحر وبراعة التصوير الفنى ، كما يمتاز بمقدرة فائقة على صيـــوغ المعنى الواحد فى عـــدة قوالب مختلفة واختيـــار الآيـــات القرآنية والأحاديث القدسية الشريفة والأمثال والحكم المناسبة وتضمينها ابداعه الفنى ٠ وحدث ولا حرج عن الألفاظ السلسة التى تواتيه وتطاوعه فى يسر وعذوبة وعن المعانى العميقة التى تتدفق كالسيل العارم فى شعره :

ومهما نقبت فى دواوين الشعر القديم فانك لن تلتقى بشاعر آخر يعرض نصائحه ويزجى عظاته وعبره ويشرح فلسفته وصوفيته ببساطة وصراحة ودون تكلف كجلال الدين ولا عجب فان العشق الالهى يتغلغـــل فى سويدائه ويسيطر على كل حواسه ويلفه بأجنحته الخفية محلقا به فى سماء الوحى والالهام ٠٠٠

كل كلمة ٠٠٠ كل حرف يقوده اليه وكل فـــكرة ٠٠٠ وكل خاطر يوصله اليه ٠

يبدأ قصة ما فتحسبه بعيدا كل البعد عن العشق الالهى والاستغراق والفناء فاذا به فجاة غريق فى هذه المعانى ٠ وتتضمن الملحمة أبياتا نظمها جلال الدين باللغة العربية الفصحى توضح مدى رقته وعمق معانيه وسحر بيانـــه ٠

وأروع مثال لذلك هذه الأبيات :

غنى لى يا منيتى لحن النشور
ابركى يا ناقتى ٠ ٠ تم السرور
ابلعى يا أرض دمعى ٠٠ قد كفى !
اشربى يا نفسى وردا قد صفـــا

عدت يا عيدى الينا مرحبا !
نعم ١٠ روحت ياريح الصبا !
ادخلوا الأبيات من ابوابها
واطلبوا الأغراض فى أسبابها

جلال الدين الفيلسوف أقل ابتكارا من جلال الدين الشاعر فمذهبه الصوفية ولكنه عبر عن آرائه ونظرياته الفلسفية بأسلوب يفيض قوة وحماسة وايمانا ، دون أن ينهج فى عرضها أثر أسلافه الأقدمين،ولكن فورة الشعر كانت تفحم فكرته أحيانا وتمطها ..

★★★

ويتعذر على الباحث المتقصى أن يجمل آراءه ولو فى المسائل الكبرى، غير أننى سأعرض لبعض جوانب هذه الآراء . فالذات الالهية كما يتصورها جلال الدين حالة فى الكون وداخلة فى جوهره وليست مجردة عنه . اذ يقول فى المثنوى :

يا خفيا قد ملأت الخافقين
قد علوت فوق نور المشرقين
أنت سر كاشف أسرارنا
أنت فجر مفجر أنهارنا
يا خفى الذات محسوس العطا
أنت كالماء ونحن كالرحا
أنت كالريح ونحن الغبار
تختفى الريح وغبرها

ثم يسترسل الرومى فى أبيات فارسية ترجمتها كالآتى :

« أنت كالربيع ونحن نضارة الروضة المخضرة ، والربيع مختف بينما فضله واضح لكل بصر » .

« أنت كالروح ونحن كاليد والقدم ، وقبض اليد وبسطها من عمل الروح » .

« أنت كالعقل ونحن مثل لسانه ، وهذا اللسان يستمد بيانه من العقل » .

وفى شرحه لكنه الروح يعتقد أنها فى الأصل الهية ، وأنها كانت فى البدء متحدة مع الحقيقة العظمى :

« كنا جوهرا واحدا مثل الشمس كنا بلا عيب وكنا فى صفاء الماء » .

وقد حجبت الشمس الالهية نفسها عن الانسان حتى يتجلى الموجود الخالص فى المعدوم . اذ أن الشىء لا يتجلى الا فى ضده فالنور يتجلى فى الظلام والوجود فى المعدوم .

وهو يتحدث كثيرا كما يتحدث كبار الصوفية عن فناء الانسان ويتكلم عن زوال الاثنينية : واتحاد « أنا » و « أنت » وهى فكرة شائعة فى شعر ابن الفارض وغيره ولكن جلال الدين يذكر فناء العالم فى الله سبحانه فى صورة أخرى :

يرى أن العالم يرقى الى الله ، حائلا من جماد الى نبات الى حيوان فانسان فملك ، ثم يفنى فى الله . وقد ذكر بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى صاحب « الانسان الكامل » ما يؤخذ منه أن الانسان صلة العالم كله بالله وهى فكرة جلال الدين فى شكل آخر يقول فى المثنوى :

صرت اذ مت جمادا ناميا
مت نبتا صرت حيا ساعيا
مت حيوانا اذا بى بشر
طائرا فى ملك لا أستقر
ليس لى الا مسير نحوه
كل شىء هالك الا وجهه
ثم اسمو طائرا فوق الملك
ذاك فوق الوهم لا يخطر لك
ثم افنى والفناء كالأرغون
منشدى انا اليه راجعون ..

وأما القضاء والقدر فجلال الدين يذهب فيه الى الاختيار ويشتد على الجبرية ومن هنا تتجلى عظمته — كما يقول عبد الوهاب عزام — فهو يرى أن الحياة جهاد مستمر لا ينبغى أن يسكن المجاهد فيها ساعة ، اذ يقول فى المثنوى فى قصة التاجر والببغاء :

« الغريق يجهد نفسه ويضرب يده على كل عشبة لعلها تنقذه من الخطر » .

« والحبيب (الله) يحب هذا الاضطراب وان الجهد الذاهب خير من النوم » .

والحب هو المرتكز والأساس فى مذهب جلال الدين فهو يرى أن فى الحب الخلاص من الكبرياء والغرور ، وأنه هو الطبيب المداوى لكل عللنا

وذلك هو الحب الذى يغفل النفس ولا يذكر الا المحبوب والحياة الخالدة انما هى بالاغفال التام للحياة الفردية :

« يا حياة العشاق فى الموت لن تجد قلبا الا بعد أن يحطم قلبك » .

« فالعاشقون المخلصـــون هم كالظلال ، والظلال تزول وتختفى حين تشرق الشمس فى أبهى نورها والعاشق المخلص هو ذاك الذى يقول له الله « أنا لك وأنت لى » .

وبالحب يصير المر حلوا ويتحول النحاس الى كبريت أحمـــر ويصفو العكر ويصبح الألم شافيا ويصير الموتى أحياء والحب هو الحياة السماوية فوق سطح الأرض :

« العشق معناه الطيران فى السماء وتمزيق مائة حجاب فى ســـبيل النفس » .

ولكن الغرض من الحب الذى يضحى بالنفس الحصـــول على حيـــاة أسمى فانكار الذات يمهد الطريق الى ادراك حقيقة الوجود ، وأنه غير موجود الا الموجود الواحد أما زينة الحياة ومتعها ومشاغلها فتحجب الحقيقة عن أعين الناس وعليهم أن يجتازوا ذلك الى الثمل الروحى الذى ينسى الناس أنفسهم ويرفعهم الى تجلى الحقيقة الخالدة فى صورتها الرائعة البهية .

وهـــكذا يصل الصـــوفى الى هدفه المأمول ويتحد مع الواحد ، وهذا الاتحـــاد يرى جـــلال الدين أنه الحصـــول على الحياة الأزلية ، وحين يظفر الانسان بالحياة المتحدة لا يعود له حاجة الى الشفاعات والوسائل فالرسل والأنبياء ضروريون لقيـــادة الشخص العادى الى الله أما الانسان الكامل الذى يسمع الصوت من داخل نفس فليس فى حاجة الى الكلمات الخارجية فهو متحد مع البحر اللا نهائى للذات الالهية .

« مكانى هو لا مكان ، وعلامتى ليست بعلامة ، ليس هناك لا جسد ولا روح لأنى جزء من روح الأرواح » .

« لقد طردت الاثنين من نفسى ، رأيت العالمين عالما واحدا وبحثت عن الواحد وعرفت الواحد ورأيت الواحد ودعوت الواحد » .

« هو الأول هو الآخر ، هو الظاهر هو الباطن ، ولست أعرف سوى « يا هو » و « يا من هو » .

★★★

فآراؤه فى القضـــاء والقدر والعمل فى هذه الحياة الدنيا ، تنادى بالاختيار وحفز الانسان على العمل ومن أمثال ذلك قوله :

الحبيب الحق يحب النضال والجهاد
والجهد الذاهب سدى خير من الرقاد
ولا يخلو من العمل الملك الرحمن
لهذا قال : كل يوم هو فى شان ·

ويرى جلال الدين فى الألم طريقة الوصول الى السعادة · والبكاء فى اعتقاده هو سبب الضحك ومن أقواله فى ذلك :

لقد خلق الله العذاب والآلام
لتدرك معنى السرور الأفهام
قهرك ولطفك انا عاشق للاثنين
فاعجب لعاشق يعشق الضدين !

أما ايمان جلال الدين بوحدة الوجود فيتجلى فى هذه الأبيات :

أيها المسلمون : ما التدبير
وأنا نفسى لا اعرف نفسى !
ثمة مكانى حيث لا مكان ،
وبرهانى حيث لا برهان ·
انا الهباء فى اشعة الشمس ،
انا قرص الشمس نفسه ·
انا فلق الصبح ،
انا نسمة المساء

★★★

ولا ريب أن « المثنوى » سواء فى أصله الفارسى أم فى ترجمته العربية ذات ستة الأجزاء ، قد ترك آثارا كبيرة فى العقل العربى وفى الفكر الاسلامى ·· ومازال يعد من روائع الآثار الانسانية الخالدة · وقد ذاع صداه فى الشرق والغرب ، وما زال معدودا من أشهر كتب التراث الاسلامى الخالد ·

وقد بلغ فى شعره فيه مبلغا قويا ، اذ امتلأ الديوان بأفكار روحية لطيفة وصل بها الى الغرض بجودة عبارته ولطافة معانيه الصوفية قمة ازدهاره وكان جلال الدين يحسن اختيار الفاظه وأساليبه وصوره الشعرية وان كان أكبر همه موجها نحو المعانى ·

وقد بلغ أثره فى آسيا الصغرى والهند وايران مبلغا كبيرا ، وكانت له المنزلة الرفيعة على امتداد العصور وألفت شروح كثيرة للمثنوى ، من مثل « جواهر الأسرار » لكمال الدين حسين الخوارزمى وشرح اسماعيل

ابن أحمد « وهو بالتركية » .. وينقل شمس الدين أحمد الأفلاكى فى كتابه « مناقب العارفين » عن لسان جلال الدين لراومى أنه قال : « ان الله تعالى قد شمل أهل الروم بعناية عظيمة ، لأن أهل هذه البلاد كانوا فى غفلة عن عالم الحب الالهى وعن التذوق الوجدانى .. حتى كتب لنا مسبب الأسباب سببا نقلنا به من خراسان الى بلاد الروم وجعل هذه الديار مأوى لاعقابنا » .

وكان أهل قونية يعدون جلال الدين ساحرا لشدة تأثيره فيهم وكان جلال الدين شخصية متميزة قل نظيرها ، وقد صار اماما روحيا للكثير من الناس فى العالم الاسلامى .

ولقد كان « المثنوى » كتاب حكمة وأخلاق وفلسفة وذوق وتربية ومعارف اجتماعية وقصص رفيعة وتبلغ حكاياته « ٢٧٥ حكاية » منها ٢٦٤ حكاية كانت لها الأسبقية فى الأدب الفارسى ، وفى قصائد المثنوى تشعر دائما بروح الحكمة والفيلسوف والعالم والزاهد والشاعر والمتيم الولهـــان .

وما فى « المثنوى » من حقائق حية وموضوعات وفيرة ليس متخلفا عن معارف الانسان المعاصر ولا عن البشرية اليوم فى مستواها الفكرى بل ما يزال يسبقها فى الحقيقة الحية فى الأخلاق وفى المعرفة وفهم الانسان والتوحيد والمبادىء الانسانية التى يجب أن تسود العالم المعاصر المتحضر .

ان « المثنوى » لجلال الدين البلخى الرومى ، سيبقى تراثا حيا خالدا وسيظل ذخرا للانسان الذى خاطبه جلال الدين ورمزا للشرق وروحانيته العالية .. وما أصدق وأبدع ما يقوله جلال الدين لتلميذه حسام الدين الجلبى فى « المثنوى » ! :

يا ضياء الحق يا حسام الدين أنت من بك جاوز « المثنوى » القمر بنورك .

وقد كان جلال الدين يشعر من أعماق نفسه بأنه بأشواقه الروحية التى صورها فى « المثنوى » يقود الانسان الى عصر من الابداع والتجديد والشموخ الروحى العظيم .

★★★

القواعد فى أصول علم البحر والقواعد

ابـــن ماجـــد

١٤٩٠ م

العرب والملاحة البحرية

يزخر التراث العربي الذي آل الينا من القرون الوسطى بقصص الأسفار والمغامرات البحرية التي قام بها الملاحون والتجار العرب في المحيط الهندي وبحر الصين فيما بين سيراف (على الخليج الفارسي) وكانتون بالصين منذ وقت متقدم كالقرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد كما في قصص « التاجر سليمان » و « أبو زيد السيرافي » وهي القصص التي انتشرت انتشارا واسعا بعد ذلك في الأدب العربي وكانت الأصل المشترك لمثيلاتها في الآداب الأوربية أيضا ، كما انتهت اليه بحوث المستشرقين الأجانب من أمثال العلامة الهولندي دي خويه (١٨٩٠ – ١٨٩٣ م) أثناء تحليله للأساطير الأوربية المبكرة وتدخل هذه القصص كلها في محيط الأدب الشعبي « الفولكلور » العالمي للقرون الوسطى .

وفي نفس الوقت وصلتنا من تلك القرون أيضا كتب « العجائب » التي تصف الغريب من حيوانات البحر وظواهره وأهواله كما في كتاب « عجائب الهند » لبزرج بن شهرياز (القرن العاشر الميلادي أيضا) وتحفة الألباب لأبي حامد الأندلسي الغرناطي (حوالي ١١٦٠م) وعجائب المخلوقات للقزويني (١٢٨٠م) وعجائب البر والبحر للدمشقي الصوفي (١٣٢٥م) .

وتعكس مثل هذه الكتب والقصص بشكل واضح عمق التجربة العربية للملاحين والتجار العرب في البحار الجنوبية سواء أكان ذلك في المحيط الهندي (بحر الهند كما كان يسمى) وجزره وخلجانه ، أم في البحار المترامية التي دفعتهم مغامراتهم اليها كأرخبيل الملايو وبحر الصين الا أن هذه القصص والحكايات لم تكن في جملتها ذات طابع علمي أو عملي يوصلنا الى الاستدلال على الخبرة الملاحية العلمية للملاحين العرب في ذلك الوقت والتي كانت ولا شك على درجة كبيرة من التقدم .

واذا كان الأمر كذلك فأين هي المؤلفات العلمية ذات الطابع التكنيكي لهؤلاء الربابنة العرب التي تصف مسالك الملاحة في أعالي هذه البحار ووسائل ضبط المجرى والقياس أو تشرح الآلات والأدوات التي استعملوها في السير في البحر ؟ وهل كانت لديهم خارطات بحرية تحدد مجرى السفينة

فى عرض المحيط كما يفعل القباطنة اليوم ؟ اذا لم تكن هذه المعلومات قد دونت فى الكتب فهل كانت الخبرة الملاحية العربية فى ذلك الوقت سرا محفوظا فى الصدور يتوارثه الأبناء عن الآباء ويخشى تدوينها فى بطون الكتب والمخطوطات ؟ أو أن ثمة مؤلفات قد كتبت بالفعل فى فنون البحر على أيامهم ولكنها فقدت أو لم تصل الى أيدينا أو لم ينسخ منها الناسخون القدر الكافى حيث لم تكن بذات أهمية كبيرة لهم ؟

ومهما كان السبب فالمكتبة العربية جد فقيرة فى مثل هذه المؤلفات التى يمكن أن نصنفها أو نحددها تحت عنوان «فنون البحر والملاحة الفلكية» من بين كتب التراث العربى الجمة التى آلت الينا من العصور الوسطى .

والواقع أن الاعتقاد قد ساد لفترة طويلة من الزمن بأن مثل هذه الكتب لم تكتب على الاطلاق الى أن اكتشف فى العشرينات من هذا القرن مخطوط عربى قديم يرجع عهده للمائة التاسعة الهجرية (القرن الخامس عشر الميلادى) كانت مكتبة المخطوطات بباريس قد حصلت عليه فى عام ١٨٦٠ من أستاذ جزائرى تولى التدريس فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس فى ذلك الوقت وظل المخطوط المذكور منسيا فى أرشيف المكتبة تحت رقم ٢٢٩٣ رغم اشارات عابرة عنه حتى الثلث الأول من القرن العشرين حين قام المستشرق الفرنسى الألمعى جبرييل فراند بالتحقق من قيمته العلمية فنشره لأول مرة بين السنوات ١٩٢١-١٩٢٣ بطريقة التصوير الفوتوغرافى وعلق عليه . ونسخة باريس المشار اليها عليها تعليقات على الهوامش وبها أخطاء فى النحو والصرف وفى الوزن والقافية .

ويحتوى هذا المخطط على تسعة عشر مؤلفا فى الملاحة الفلكية وفنون البحر لربان عربى من عمان يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى أو النجدى كما كان يسمى عاش فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى .

ويعتبر هذا المخطوط فى الواقع أهم وثيقة فى الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الأطلاق وتنحصر أهميته فى أنه أقدم الوثائق الجيدة التى وصلتنا والتى دونت عن الملاحة وفنون البحر فى البحار الجنوبية بين الساحل الشرقى لأفريقيا وبلاد الصين بلغة من اللغات كما أنه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم لعلم جديد هو « علم البحر » بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الاقيانوغرافيا أو الاقيانولوجيا ولهذا أثره الكبير فى تاريخ العلوم .

ثم ان هذه الوثيقة لتلقى كثيرا من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم فى فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر وعلى مدى تأثر البرتغال بالفكر العربى وبالتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشكل عام

وفى المحيط الهندى بشكل خاص وفضلا عن ذلك فان هذه الوثيقة تحتوى أيضا على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التى تعتبر فى حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية فى الوقت الذى نسعى فيه لتعريب العلوم ·

ولقد عثر فى دمشق فى عام ١٩١٩ على نسخة أخرى من المخطوط المذكور قام بالتعليق عليها ومقارنتها بنسخة باريس المستشرق جبرييل فراند أيضا · وفى مكتبة باريس أيضا مخطوط آخر برقم ٢٥٥٩ يحتوى على خمس رسائل ملاحية للشيخين أحمد بن ماجد وسليمان المهرى يرجع عهده لمنتصف القرن السادس عشر الميلادى ولكنه ليس بنفس القيمة التى عليها مخطوط ابن ماجد وحده ·

ولقد عثر الأستاذ كراتشكوفسكى المستشرق الروسى بمكتبة الاستشراق فى ليننجراد على ثلاث « أراجيز » أخرى لابن ماجد لم يسبق نشرها قام بنشرها والتعليق عليها الأستاذ تيودور شوموفسكى الذى نشر كتابه باللغة الروسية فى عام ١٩٥٧ ·

ويقال ان ثمة رسالة لابن ماجد بجدة وأخرى بالموصل أيضا وثالثة بفينا ·

★★★

سيرة ابن ماجد

وينحدر ابن ماجد نفسه من أسرة ربابنة فقد كان أبوه ربانا يلقب بربان البرين (أى بر العرب وبر العجم) وقد دون هو الآخر تجاربه الملاحية فى مصنف ضخم هو (أرجوزته الحجازية) التى تضم أكثر من ألف بيت فى وصف الملاحة فى البحر الأحمر وكان جده هو الآخر ملاحا مشهورا ·

★★★

ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الربان الماهر والمعلم القدير ولا تاريخ وفاته الا أن الثابت أن نشاطه ينحصر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى) ، كما أنه درس الحساب وهو بعد صبى صغير ، وقد ذيل المؤلف مخطوطه هذا بقوله : « وختمنا هذا الكتاب فى عام خمس وتسعين وثمان ماية على الاختصار بقولى أوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام

ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » وهذا التاريخ يوافق عام ١٤٨٩ — ١٤٩٠ م ٠

ومن الثابت أيضا أن مؤلفنا قد تجاوز الستين من عمره وشهد أوائل القرن العاشر الهجرى وقد وجدنا فى أرجوزته المسماة « ضريبة الضرايب » ما يعزز ذلك من قوله :

شباب رأسى أعجب الناس من أمرى
أتانىعقيب الشيب فى آخر العمر
وأى شباب بعد ستين حجة
سما فى السما فوق السماكين والنسر
ومنها قولــــه :
أنا فرحتى فى ليلة قد ترتبت
كأنى أعطيت المنى ليلة القدر
مهذبة فى تسع ماية قد أتت
اذا هى تمت وفيت لها نذرى

والبيت الأخير يدل بوضوح على أنه قد دخل فى عام ٩٠٠ هجرية ويتمنى أن يوفى نذره بتمامه ولربما كان ذلك النذر هو حج بيت الله كما تعود أن يفعل ويوافق هذا التاريخ ١٤٩٤ — ١٤٩٥ م ٠

كما نستشف من كلام ابن ماجد فى «الفوايد» أنه تولى قيادة المركب فى سن مبكرة ربما فى الثانية عشرة أو الخامسة عشرة من عمره ويتضح ذلك من قوله : « وما وصفت هذا الكتاب الا بعد أن مضت لى خمسون سنة وما تركت فيها صاحب السكان (الدفة) وحده الا أن أكون على رأسه » ٠ وللأبيات التى اخترناها دلالة أخرى فمنها نستشف أيضا أن ابن ماجد على الرغم من تجاوزه الستين من عمره كان جم النشاط متوقد الذهن والقريحة صحيح البنية باعترافه مما أدى الى عجب الناس ، وأغلب الظن أنه عاش لسنوات عديدة بعد هذا التاريخ وليس ذلك بمستبعد فى الأحوال الطبيعية على شخص قضى أغلب حياته فى البحر يعيش فى بساطة وهدوء يتنفس الهواء النقى متفرغا لعمله لا يشغل باله بعرض الدنيا وزينتها ثم انه كان عفيف النفس ورعا تقيا مخلصا لربه ولمهنته زاهدا فى المال كما يتضح من كتاباته ٠

★★★

ولا ترجع شهرة الربان العربى الى كونه مؤلفا ترك للتراث العربى ذخيرة مهمة من المؤلفات العلمية والتكنولوجية عن البحر وفنون الملاحة فحسب ، بل أنه كان أيضا المرشد لسفينة فاسكو دى جاما البرتغالى

من ثغر ماليندى على خط عرض ٣ درجات جنوب خط الاستواء على الساحل الشرقى لأفريقيا الى كلكتا فى عام ١٤٩٨م . وقد اعترفت حكومة البرتغال نفسها بذلك الأمر مؤخرا فأقامت نصبا تذكاريا فى ماليندى يخلد هذه المناسبة ..

★★★

مؤلفات ابن ماجد

باستثناء كتاب الفوائد فان أغلب مؤلفات ابن ماجد الأخرى كتبها بالشعر بعضها قصائد طويلة والأخرى قصيرة وكثير منها يصف المسالك الملاحية فى المحيط الهندى وبحاره وأطرافه وخلجانه وكذلك فى أرخبيل الملايو وبحر الصين ونحن نورد قائمة من المعروف منها كما يلى :

١ ــ كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد .

٢ ــ حاوية الاختصار فى أصول علم البحار .

٣ ــ الأرجوزة المعربة التى عربت الخليج البربرى من رأس حافونى الى باب المندب .

٤ ــ قبلة الاسلام فى جميع الدنيا .

٥ ــ أرجوزة كنز المعالمة فى علم المجهولات فى البحر والنجوم والبروج .

٦ ــ أرجوزة فى النتخات لبر الهند وبر العرب .

٧ ــ الأرجوزة المسماة بميمنة الأبدال .

٨ ــ أرجوزة مخمسة .

٩ ــ أرجوزة فى عدة الشهور الرومية .

١٠ ــ الأرجوزة المسماة « ضريبة الضرايب » .

١١ ــ الأرجوزة المنسوبة لعلى بن أبى طالب .

١٢ ــ الأرجوزة الملكية (من مكة لجدة الى فرتك لكالكوت ودايول وكنكن وجوزرات والأطواح وهراميز) .

١٣ ــ الأرجوزة المسماة نادرة الأبدال فى الواقع وذبان العيوق .

١٤ ــ أرجوزة بر العرب فى خليج فارس .

١٥ ــ أرجوزة القسمة الجمة على أنجم بنات نعش (٧٧) .

١٦ ــ القصيدة الذهبية .

١٧ ــ الأرجوزة المسماة بالفائقة فى قياس الضفدع .

١٨ ــ البليغة فى قياس السهيل الرامح .

١٩ ـ فصل فى معرفة قياس المازرة ٠
٢٠ ـ فصل فى معرفة النتخة الجاه ٠ عشرة فى أرض جوازرات ٠
٢١ ـ فصل فى معرفة البلدة فى أرض جوزرات ٠
٢٢ ـ فصل فى معرفة البلدة على جاه عشرة ٠
٢٣ ـ فصل فى معرفة المنتخ ٠
٢٤ ـ فصل فى معرفة البلدة اذا كان من داخل الباب ٠
٢٥ ـ فصل فى معرفة البلدة جوزرات على جاه عشرة وربع من المازرة ٠
٢٦ ـ فصل فى معرفة ديرة القطب من روس بحر العرب ٠
٢٧ ـ ٢٩ ـ ثلاث أزهار هى « الراهنـــامات » التى حققها شوموفسكى عـام ١٩٥٧ وهى على الترتيب : الأرجوزة السـفالية وأرجوزة بر الهند وسيلان والصين والأرجوزة التـائية فى ... ف المجارى من جدة الى عـدن ٠٠

★★★

كتـــاب الفـــوائد

يعتبر هذا الكتاب فى الواقـع أهـم مؤلف لابن ماجد ويحتوى على مقدمة واثنى عشر فصلا أو « فائدة » ٠

يقول المؤلف فى المقدمة بعد البسملة ما نصه :

« الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فانى رأيت العلوم فى الدنيا أسمى مفخرا وأجل مرتبة وأشرف منقبة لقوله صلى الله عليه وسلم وتحريض ساير الأنبياء على طلب العلم حتى قيل ما من علم قبيح الا والجهل به أقبح منه فكيف وهذا علم لم تعرف قبلة الاسـلام الا به أصـبح منه والدليل على صحته انى أقول وأفعل به فيا طالما قد أتينا بالمراكب من الهند والشام والزنج وفارس والحجاز واليمن وغيرهم بقصد لا يميل عن جهة البلد المطلوبة بأموال وأرواح وهذا دليل مؤكد أن هذا العلم يدل على القبلة فيحتاجون اليه أهل الفرايض وقد قرأ علينا فيه كثير من علمائهم وقضاتهم لمعرفة القبلة واستحسنوه وعملوا به دون غيره من العلوم التقريبيات كنصيب الدايرة وركز العود فيها ومعرفة طول مكة وعرضها وطول البـلد الذى أنت فيه وعرضـه ثم طول وعرض جميع البلدان والجزر الجنوبية فى البحر وما يحتـاجون فيه علم وعلمنا يحكم على جميع ذلك لأن البحر أكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقى الانسان

به فان أمكنة المعرفة بعلم الدايرة والأطوال والعروض ومعرفة جهات الكعبة والأرياح الأربع وهى شمال ودبور وجنوب وصبا هذه الأرياح الأربع الشهيرة فى الدنيا ..

فان قدر الانسان أن يفعل شيئا غير معرفة البحر وحسابه فليفعل ، واذا عجز عن قبلة المدن والجزر اللاتى فى البحر المحيط فليعمل بعلمنا ، فاجتهدوا فيه فانه علم نفيس ولا يتم الا بتمام العمر وما لا يدرك كله لا يترك جله وينبغى أن لا يتكبر فيه الانسان كما قال المصنف فى حاويته شعرا :

وينبغى البعد عن الخيلاء　　عند كمال العلم والنهاء

وينبغى لعارف هذا العلم أن يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل عن أهله وعن حزبه حتى يحصل مراده ، لأنه علم عقلى وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه فيلم ما لا يعلمه فتتم به رياسته لأن من ادعى الرياسة بغير كمال أسبابها وأدواتها فقد أخطأ كما قيل شعرا :

رياسات الرجال بغير علم　　ولا تقوى الاله هى الخساسة

واعلم أيها الطالب أن كل علم يحتمل من يشتغل به طالبه من المهد الى اللحد كلما تفنن فيه وأدمن عليه ظهر له منه شىء لم يكن عند غيره حتى يكون مصنفا فان أتقنت هذا العلم لمعرفة القبلة كان خيرا لك من أن تغفل به فان ركبت البحر تكون عارفا به مطمئن القلب ولو كنت تاجرا فأنت مطمئن القلب لم تحتج الى أموال وان احتجت اليه لجمع المال والجاه اليه الزمان فافعل به (ولا) تكن ذا غفلة فان الخطأ فيه مضل وأدعى لتلف الأرواح والأموال وهو أصعب شىء بعد خدمه للملوك وسائر العلوم خطؤها لفظى يمهلك وهذا مم يمهلك فحل لم يعطك بعضه حتى تعطيه كلك .. وقال على رضى الله عنه قيمة كل امرىء ما يحسنه . وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يطاع بالعلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل وأجود ما قيل فى ذلك نظما (شعرا) فيه قولنا :

العلم لا يعرف مقداره　　الا ذوو الاحسان عند الكمال

فهأنا ذا اختصرت منه ما يليق لأهل زمانى فى هذا الكتاب المسمى بكتاب الفوايد فى أصول البحر والقواعد ألفته وصنفته لركاب البحر ورؤسائه وفيه ما اشتبه من الحاوية وغيرها على الطالبين وبالله التوفيق وقد سميناه كتاب الفوائد وهو مشتمل على فوايد كثيرة غوامض وظواهر اثنتى عشرة فايدة (كذا) وهى : (الفائدة الأولى .. الخ) ..

ويختتم المؤلف هذا الكتاب بقوله :

« وختمنا هذا الكتاب فى عام خمس وتسعين وثمان مايـة على الاختصار بقولى أوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » ويضيف الناسخ بعد ذلك قوله : « تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه وهو الكتاب المسمى بكتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد وذلك فى يوم الأحد المبارك سابع عشر ربيع الثانى فى سنة أربعة وثمانين وتسعمائة (٩٨٤ هـ) أحسن الله عاقبتينا وبالله التوفيق ولكم ٠٠ الخ » ٠٠

واضح من هذه المقدمة أن المؤلف يؤكد أهمية هذا العلم وأنه من العلوم المضبوطة العقلية يمكن الربان من الوصول الى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواقع البلدان بالضبط بدل الطريقة الشمسية التى تعتمد على سقوط ظل الأعمدة فى دائرة مقسمة ٠ كما يمكن للانسان أن يتكسب به عيشه وأن يركب البحر وهو مطمئن القلب والنفس ٠

ثم ان المؤلف بعد ذلك يؤكد أهمية التجربة واكتساب الخبرة بزيادة التحصيل ودوام السؤال عن المسائل الغامضة فيه وينصح الربابنة بالبعد عن الخيلاء عند كمال العلم ٠

أما الفصل الأول أو الفائدة الأولى فيبدؤه المؤلف بذكر تاريخ تطور علوم البحر على أيدى سلسلة من الربابنة ثم نجده متأثرا بطريقة الكتابة فى القرون الوسطى فيدون أخبارا قديمة ربما لتشويق القارىء وأغلب الظن أنه استقاها عن المصادر العديدة التى رجع اليها أو سمع بها وعن الكتب التى قرأها وذلك مثل ترتيب صنع سفينة نوح وأبعادها وذكر الطوفان وتحديد جبل الجودى وأغلب هذه الأخبار مدونة فى كتب العجائب ولكنه لا يطيل فيها كثيرا ، وسرعان ما يعود الى ذكر ربابنة البحر المشهورين من أمثال محمد بن شاذان وسهل بن ابان وليث بن كهلان وكيف عثر هو نفسه على « رهمانى » ؟ يرجع تاريخه لسنة خمسمائة وثمانين هجرية بخط حفيد الأخير ثم يشيد بعد ذلك بالمعلم « خواشير بن يوسف بن صلاح الاركى » الذى كان يسافر فى عام أربعمائة من الهجرة فى مركب دبوكرة الهندى ثم يحدد وضعه هو نفسه بين هؤلاء الربابنة ويقول تواضعا منه انه رابع الثلاثة ولكن علمه وتجربته فى الواقع تفوق تجربتهم جميعا وكيف أن بداية المتاخر هى نهاية المتقدم « وقد وقرتهم بقولى انى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة فقط وسيأتى بعد موتى زمان ورجال يعرفون لكل واحد منا منزلته ولما اطلعت على تاليفهم ورأيته ضعيفا بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وجربتها عاما بعد عـام فى نظم الأراجير والقصائد وفى هذا الكتاب عـام ثمانين

وثمان مائة فاستحسنوه الماهرون من أهل هذا الفن وعملوا به واعتمدوا عليه فى شدايدهم مثل رؤيا الجبال ومثل القياسات وأسماء النجوم ومعرفتها والهداية بها » •

وواضح من هذه الفقرات الأخيرة أن كتاب الفوائد قد أعاد المؤلف كتابته أكثر من مرة من بينها عام ٨٨٠ هـ ثم عام ٨٨٤ هـ ، وأن الربابنة الماهرين قد أفادوا منه سواء أكان ذلك عن طريق القياسات الفلكية التى أعاد هو تحقيقها مرارا أم عن طريق علامات البر من جبال وما اليها،ويضيف بعد ذلك قوله كيف كان القدماء أكثر حذرا وأنهم كانوا يعدون للرحلة وللسفينة اعدادا تاما ليضمنوا السلامة فى البحر فيقول :

« وفى الحقيقة أن الناس كانوا فى الزمان الأول أكثر حزما ولا يركبون البحر الا بأهله (أى مع الربابنة الماهرين) من شدة الحزم والخوف والحذر من البحر ويعدون للمركب اعتدادا (اعدادا) جيدا ولا يؤخرون الموسم ولا يشحنون المركب غير العادة ونحن أكثر منهم علما وتجربة وكل فن من فنون البحر له أصل » •

ويعدد هذه الفنون كالآتى : السفينة ثم المغناطيس أو (بيت الابرة) « وهو دليل على القطبين » ثم نجوم أخنان الحقة (وردة الرياح) وأسماءها ، ويقول ان تقسيم (وردة الرياح) قديم قبل « زمن اليوث » المتقدم ذكرهم ثم يذكر صفات البرور أى العلامات الساحلية من جبال وما اليها وله فيها اضافات مبتكرة أفادت الملاحين بالتجربة ويستشهد بأبيات من الحاوية تؤيد رأيه •

وفى هذه الأبيات يخاطب الربابنة بقوله ان ما جاء بكتابه من علامات تدل على التعرف على البر صحيح مجرب •

وبلغ من دقته فى تحديد مثل هذه العلامات قوله انه « لم يضف شيئا له شبيه (على الساحل) فى أعلاه وأسفله على مسيرة زامين أو أقل أو أكثر » (أى على مسيرة نحو ٦ ساعات بالشراع) •

كما يحذر من الاعتماد على الأنجم والأخنان فى المضايق الخطرة •

ثم يصف بعد ذلك تقسيم وردة الرياح العربية الى ٢٢٤ اصبعا أو درجة تنتظم فى « ٣٢ » قسما أو (خنا) ويلخصها ببيتين يستشهد بهما من « حاوية الاختصار » بقوله :

ومنـــدل الأخنـــان والمنـــازل لها أصـــابع شــهرت يا عاقل
ســبعون مع ســبعين مع سبعونا وأربع مـــع عشر يحســـبونا

ومثل هذه الأبيات التى يلخص فيها المؤلف اصطلاحاته الملاحية قد تبدو لأل مرة كالألغاز يصعب حلها ، ولكن بدوام القراءة والتفهم يستطيع

الانسان التوصل الى مدلولها والبيت الأخير يلخص عدد الأصابع والدرجات هى (٧٠ + ٧٠ + ٧٠ + ١٤ = ٢٣٤ اصبعا) وهو قد جعل عدد المنازل فى تقسيم الدائرة كعدد منازل القمر أى ٢٨ والأخنان لتقسيم الحقة (الدائرة) عددها ٣٢ على عدد « أخنان المركب » وقد يدخل البعض من النجوم فى المنزلة القمرية ويدخل فى خن الحقة والأصابع وقسمتها على الأخنان والمنازل (والترفات » مأخوذة من درج (تدريج) الأسطرلاب كما يقول ·

أما الفصل الثانى أو الفائدة الثانية ، ففيها ملخص جميل للمعلومات والارشادات التى يجب على الربان الاحاطة بها ومنها « معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والاشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم (السفر) فى البحر وآلات السفينة وما يحتاج اليه الربان منها وما يضرها وما ينفعها » · وكذلك يحتوى هذا الفصل أيضا على طريقة القياس وعلى نظام مطلع النجوم الملاحية ومغربها (وهى من نجوم المنطقة المدارية) وكذلك اشارات قرب البر كالطين (طبيعة القاع) والحشيش (الطحالب والنباتات) والحيتان والموارز (الحيوان) والأرياح (الرياح) وتغوه الأمواه (يقصد خواص المياه) ومد البحر وجزره وهذه كلها كما نرى معلومات اقيانوغرافية من الطراز الأول يجدر بربان الاستدلال عليها وملاحظتها ·

ويشتمل الفصل الثالث على ذكر المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التى يهتدى بها الربان فى عرض البحر وهى :

البطين	الثريا	البلدة
الديران	الهقعة	سعد الذابح
الهنعة	الزراعين	سعد بلع
النثرة	الطرف	سعد السعود
الجبهة	الزبرة	سعد الاخبية
الصرفة	العواء	الفرع المقدم
الغفر	الزبانان	الفرع المؤخر
الاكليل	القلب	بطن الحوت
الشولة	النعائم	الشرطين

ثم يلى فى الفائدة الرابعة ذكر الأخنان وهى الجدى ـ الفراقد ـ النعش وسهيل ـ الناقة والحمارين والعيوق والعقرب ـ والواقع والاكليل ـ السماكين والتير ـ الثريا والجوزاء ثم الطائر ويقول ان لهذه النجوم والصور بروجا ودرجات ودقائق ومحال طول وعرض وجهة وبعد وممر يقصر عن ادراكها معالمة البحر وركابه ·

ومما توصل اليه ابن ماجد أيضا تقسيمه للنجوم والكواكب حسب درجة لمعانها الى ست مراتب فيقول هذا نجم من القدر الأول أو القدر الرابع مثلا ومن أقواله المأثورة فى هذا الصدد : « ونجوم قياسنا أنور من النجمين الأوسطين » أو قوله : « العقرب هو نجم خفاق منير » أو قوله عن الديران : « كلاهما أحمر من القدر الثانى » أو قوله :

الـــم تر سير النيرات مخالفا لشهرتهم سير السها والنعايم

« فالمراد بالنيرات السبعة الكواكب السيارة والسها والنعايم المراد بهم الثوابت » وفى هذا الفصل أيضا مرشدات ملاحية للسير بهذه النجوم ليلا بين السواحل المختلفة ٠

وفى الفصل الخامس (الفائدة الخامسة) يعدد المؤلف أسماء الكتب والمراجع الفنية التى يجدر بمعالمة البحر استيعابها وأغلبها فى الجغرافيا الوصفية والفلكية والرياضية ٠

أما الفصل السادس (الفائدة السادسة) فتتعلق «بالديرات الثلاثة» كما صنفها المؤلف وهى القسمة الأولى والقسمة الثانية والقسمة الثالثة وتأتى فى الترتيب بعد المنازل والأخنان ويتكلم المؤلف فى هذا الفصل عن « بيت الابرة التى تسمى السمكة وسمكة الحقة » ويحضرنا فى هذا المجال كلام المقريزى (٧٨) فى «الخطط» عن ملاحى المحيط الهندى الذين يهتدون الى القطب بسمكة من الحديد المطروق تطفو فوق الماء فيشير رأسها الى القطب ٠

وفى هذا الفصل أيضا يحذر ابن ماجد المعالمة من علل البحر وأخطاره فيقـــول :

« واعلم أن للبحر عللا فاحذر منها أولها نوم المعلم وحط الجاه فى الليل (النجم القطبى) فى مكان وفى النهار فى مكان غيره وذلك مما يطول الطريق ويحسب المعلم أنه يجرى فى مجرى وهو يجرى فى غيره من قلة معرفته أو من فساد حقه (بوصلته) ــ خصوصا عند الموجة (ارتفاع الموج) والتقاصير (الأماكن الضـــحلة) والمركب الناقع المزمن فى الماء (أى الذى يرشح فيه الماء فيثقل) فيحسب وقع علينا كل ذلك فصرفنا أنفسنا فيه ٠٠٠٠ والحذر كل الحذر من صاحب السكان لا يغفل عنه فانه أكبر أعدائك فلم تدر عنه النتخة من غريمك من أهل السكان وما صنفت هذا الكتاب الا بعد أن مضت لى خمسون سنة وما تركت فيها صاحب السكان وحده الا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامى » ٠

وأما الفصـــل السابع أو الفـــائدة السابعة فتتعلق « بالباشيات » والقياسات (ويقصد بالباشى هنا ارتفاع النجم فوق الأفق فى حالات معينة)

ويقول « فـران » ان هذه الكلمـة ليست عربية ولا فارسية ولا هندية ويستدل من هذا القياس على خط العرض ٠

وهو يؤكد هنا فى هذا الفصل أيضا فائدة التجريب مرة أخرى فيقول : « فوالله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات الا بعد أن كررت عليهم عشرين سنة » ، ويضرب المؤلف أمثلة حية على أهمية التدقيق فى قياس ارتفاع النجم ويقول :

« فانى لم أترك فى السـماء نجما الا وقد درجته وعرفت نقصانه وزيادته » أو قوله : « فقياسات بحر قلزم العرب وبر الملل فيما يلى العجم وبر العرب لم يحوزها (وكذا) فى زمانى غيرى » ٠

وهو يصف فى هذا الفصل أيضا طريقة القياس الصحيحة فيقول :

« واعلم أن للقياسات عللا فمنها اذا قمت من النوم ينبغى أن تغسل وجهك وعينيك بماء بارد وتجود الجلسة وتعجل النجم (المقيس) عن النجم الذى يلقى وجهك سـبعة اخنـان كالجاه والطاير ويكون الخشب (آلة القياس) الكبار ضيقات القياس ومد بهم يدك ما استطعت والأربع الصغار نفيسات وقصر بهم يدك ما استطعت والأربع المتوسطات قياسهم عادة وذلك لاتساع ذيل الأفق وانكفاف أعلى الأفق فافهم أنا أدركنا جميع كسور هذه الصنعة وينبغى أن يكون بين النجم المقيوس وبين الخشبة خيطا وبين الماء والخشبة كذلك خيطا والدخن (الضباب) من مفسـدات القياس وفساد الجلسة والباشى الفاسد والقياس باليد اليسرى من فساد القياس (أيضـا) » ٠

وأما الفصل الثامن (الفائدة الثامنة) فيتعلق بالاشارات والسيارات وترتيب المركب والعسكر فيبدء بالسفينة وهى على البر لم تنزل الى البحر بعد ويقول ان على الربان الماهر أن يتفقد خللها قبل انزالها الى الماء وبخاصة مكان موضع « البوصلة » ويذكر طريقة لمعرفة اتجاه الريح وينصح الربان أن يستخدم البوصلة للتأكد من صحة قياسه بالليل فيقول :

« تأمل الجاه بالليل وحطه فى مكان يوافق المكان الذى حكمت عليه بالحقة (بالبوصلة) بالنهار حتى لا يكون النهار مجرى وبالليل مجرى ويطول الطريق » ٠

وفى هذا الفصل أيضا يتكلم ابن ماجد عن الطوفان والرياح وأوقاتها ومواقع حدوثها ولا يكتفى بهذا بل يذكر أيضا ظواهر وعلامات طبيعية تحت الماء وكذلك العلامات البيولوجية المميزة للمنطقة البحرية ومنها الحشائش البحرية والطيور كالمنجى والقرعا والأسماك المشهورة مثل ابتان والتهاول

وذلك من مثل قوله: « فاذا رأيت هذه العلامات يكون بينك وبين بر الصومال مسيرة نحو ١٢ ساعة تقريبا بالشراع اذا كانت الريح مواتية » .

ويذكر كذلك طائرا أزرق في بطنه بياض يسميه « أم الصنانى » ، ويقول انه من علامات جزيرة سقطرة وانت قادم عليها من الجنوب ومن علامات البر وكذلك رؤية الجبال والمعالم الأرضية ومن ذلك قوله عند القدوم على ساحل الهند لدخول جوزرات : « انك اذا رأيت جبل جلنار وقد قبت رأسه قطعة واحدة وهي عنك في مطلع العيوق (نجم) فأنت بشوران بلد التنبول وان ظهرت لك قمتـــان من هذا الجبل وكانت شرقية فانت بشوران للمغارب » .

ويعدد بعد ذلك كثيرا من هذه المعالم على سواحل الهند والسيلان وغيرها وجميعها اشارات جد نافعة للملاحين ، وينهى هذا الفصل بقوله : « وقد وصفنا جميع مناتخ بحر الهند لأنها أعم نفعا وأكثر استعمالا مع أهل هذه الصنعة » .

أما الباب التاسع أو الفائدة التاسعة فتتعلق بدورة البحر على جميع الدنيا وفيه وصـــف جدراف للسواحل والنتخات ومعالمها المشهورة على الساحل العربى والأفريقى للمحيط الهندى وفى البحر الأحمر من باب المندب الى القصير والسويس وفى هذا الباب يرجع المؤلف القارىء أيضا الى كتب المسعودى وابن حوقل فى تقويم البلدان ولا يقتصر ابن ماجد فى وصفه للســـواحل على المحيط الهندى وانما يصف أيضـــا البحر الرومى (الأبيض المتوسط) وكيفية الوصول اليه بالدوران على سواحل أفريقيا . وعلى الرغم من أن ابن ماجـــد ربما كان قد أحاط علما بهذا البحر من محادثاته مع معالمة الشام الذين لم يكن أفرس منهم فى معرفة « البحر الرومى » كما يقول المسعودى وكذلك من قراءته لكتب تقويم البلدان — فان هناك احتمالا كبيرا أيضا فى أن يكون عرب الأندلس قد داروا حول أفريقيا ووصلوا الى المحيط الهندى من المغرب قبل البرتغال . ولئن كان ابن ماجد قد اختصر وصف الساحل الغربى لأفريقيا ولم يذكر لنا شيئا عن طوله بمقياس الزمن الذى تقطعه المركب فى البحر ولا شيئا عن موانيه المشهورة — الا أنه يقرر أن هذا الطريق كان فى الزمن القديم طريق الفلفل (التوابل) وذلك قبل أن يكتشفه البرتغال بزمن طويل . وانا نميل الى الاعتقاد بأن الملاحين العرب قد داروا حول أفريقيا سواء من الغرب الى الشرق أو بالعكس ومما يؤيد هذا الرأى أنه عندما وضع (فراموزو) مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ذكر أن ملاحا عربيا أبحر حوالى عام ١٤٢٠ م من المحيط الهندى حول القارة الأفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى ، ومن المعروف أيضا أن المصريين القدماء قد داروا حول هذه القارة من الشرق قبل ذلك بقرون طويلة . وثمن رحلة عربية أخرى لجغرافى عربى من غرناطة هو ابن سعيد

(١٢٥٠ م) الذى ألف كتابا شهيرا بعنوان (جغرافية الاقاليم السبعة) كتبه على نهج « الادريسى » (أبى عبد الله ١١٠٠ ـ ١١٦٥ م) فى كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) (٧٩) ورد فيه أن ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة دار حول أفريقيا من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر وكيف كانت جالية هنـــدية تعيش فى مدغشـــقر فى ذلك الوقت ٠

ويتضح أيضا من الرجوع الى المصادر البرتغالية عن تاريخ البرتغال فى جنوب شرقى أفريقيا أن ملاحيهم حين نزلوا بناتال وموزمبيق فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى علموا أن العرب قد وصفوا هذا الساحل قبلهم بزمن طويل بأنهاره وخلجانه ومرافئه ٠

أما الفصل العاشر أو الفائدة العاشرة فتتعلق بوصف الجزر الكبار المشهورات المعمورات وأولها بطبيعة الحال جزيرة العرب وابن ماجد يصفها ويصف تاريخها ويقول انها كانت منفصلة عن الأرض والتحمت بعد طوفان نوح والجزيرة الثانية الكبرى هى جزيرة القمر « وهى الآن جزيرة (يعنى أنها هى الأخرى كانت ملتحمة قديما بالأرض) وطولها قريب عشرين درجة وبينها وبين بر السفال وجزره جزاير وشعبان (شعب مرجانية) وكل ذلك لم يمنع المسافر أن يجوز بينهم ٠ وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عام ابن نوح وعلى جنوبيها بحر دقيانوس وهو البحر المحيط بالدنيا وهو مبتدأ الظلمات الجنوبية على جنوب هذه الجزيرة » ٠

والمقصود بالقمر بطبيعة الحال هى جزيرة مدغشقر وفى قول آخر يسميها « مدكسكر » ٠

أما الجزيرة الثالثة فجزيرة شمطرة « سومطرة » وهى الجزيرة التى يمر بها خط الاستواء ٠٠ « وشمطرة لها عدة سلاطين كفرة وهى معدن الأفيال البيض والكافور وبسبس الزباد الخاص المبتاع بوزن الذهب » ٠

أما الجزيرة الرابعة « وهى جاوة على جنوب خط الاستواء فى الأقاليم الأول الجنوبى ٠٠ وهى أقل فى الكبر من شمطرة ويسكنها الكفرة والاسلام وسلاطينها كفرة وهى مدن اللبان الجاوى وجزر الصندل على جنوبيها وكذلك جزر العقاقير » ٠

والجزيرة الخامسة « تسمى الغور وهى معدن الحديد الغورى والسيوف الصافية القاطعة لجميع الحديد واسمها بالجاوى لكيوف ٠٠ وأهلها ذوو بأس شديد ما عليهم من الشجاعة مزيد » ٠

والجزيرة السادسة « وهى سيلان على شمالى خط الاستواء وعلى جنوبى بحر الصوليان (كرماندل) جزر بحر الهند من الجنوب والمشارق

ولها عدة سلاطين من الكفرة وهى جزيرة قريبة الاستدارة .. وبينها (وبين) بحر قايل معدن لؤلؤ يعمر فى بعض السنين ويخرب فى بعض (يعنى مغاصات اللؤلؤ المشهور) وهى معدن الأفيال والقرفة والياقوت النفيس » .

أما الجزيرة السابعة « وهى زنجبار ممتدة على بحر الزنج ذات أشجار وأنهار وفيها أربعون خطبة (يعنى أن لها أربعين مسجدا تقام فيها الصلاة) تحكم عليها سلاطين الاسلام » .

أما الجزيرة الثامنة « فهى البحرين وتسمى «أوال» وفيها ثلاثمائة وستون قرية وفيها الماء الحالى (شبه العذب) من جملة جوانبها .. وحواليها معدن اللؤلؤ وعدة جزر كلها معادن اللؤلؤ يأوى عليها قريب ألف مركب وفيها جملة قبايل من العرب وجملة تجار وفيها جملة من النخيل المثمرات .. والخيل والابل والبقر والأغنام .. وفيها عيون جارية .. ورمان وتين وأترج وهى فى غاية العمارة) ، ثم يذكر بعد ذلك تاريخ سلاطينها .

أما الجزيرة التاسعة « فهى جزيرة (ابن جاوان أوبرخت) مما يلى الهراميز ، وفيها خمسمائة حائك يحوكون الحرير ويسكنها العرب والعجم وفيها الفواكه والكروم والبطيخ .. » .

أما الجزيرة العاشرة « فهى سقطرة وهى جريرة عامرة قريبة التدوير أصغر من الجزاير المتقدم ذكرها طولها وعرضها قريب خمسين فرسخا وهى على مشارق بر الصومال تسكنها اهماج النصارى وقيل بقية اليونان .. وفيها خلق كثير قريب عشرين ألف آدمى وقد ملكوها من قديم الزمان خلق كثير فلم تتم الا لأهلها » ثم يذكر القبائل التى حكمتها وأغلبهم من المهرة (من اليمين) ثم ملوك الشحر وحضرموت .

وأما الفصل الحادى عشر (الفائدة الحادية عشرة) فتتعلق بمواسم السفر من السواحل المختلفة وهذه المواسم فى الواقع تتفق مع مواسم الرياح وملاءمتها للسفر فى البحر ويتبع ابن ماجد التقسيم المعروف بالنيروز (وهى السنة الفارسية وتبدأ فى ٢١ مارس فيقال مثلا مائة النيروز أى بعد مائة يوم من بدء السنة وهكذا وهو دخول الشمس برج الحمل) ومن هذا التاريخ يبدأ الحساب . وبدهى أن مواسم السفر تختلف على السواحل المختلفة وتبعا للجهة المقصودة .

وهو على سبيل المثال يقول : « وأما خير الخروج من باب المندم (المندب) وما يليه مثل الحديدة وعدن فى أولماية وثمانين النيروز » .

« ... فهذه مواسم أول الريح الكوس (الغربية) من اليمين وعدن اذا خرج فى مايتين وثمانين الى حدود ثلثمائة ولا خير فيما بعدها » .

وأما تعريفه للأرياح فهي الصبا والشمال والقبول والدبور فالصبا هو الأزيب والقبول هو الذى يواجه المركب والدبور هو الريح التى تهب من الغرب للشرق صيفا ومن الشرق للغرب شتاء ٠

ويراعى ابن ماجد فى مواسم السفر أيضا حالة المد والأمطار فيقول فى أماكن آخرى : « ولا خير فيما بعد ذلك لأن المد عليها (يكون) قويا شديدا » ويعنى المد هنا التيارات المائية ٠

أو قوله : « الخروج من الهند لبر العرب أوله ثلثمائة وثلاثين النيروز من جوزرات وكنكن » ٠

وفيما يتعرق بالبحر الأحمر يقول : «وخير السفر في البحر الذى فى الأقاليم الشمالية في المابة ومن يمسك اليمن مسك الحجاز لأن بحر القلزم العربى لم يتغلق (يقفل) خصوصا على المراكب المعتدة (القوية) ٠

وفيما يتعلق بالسفر من ساحل الزنج يقول : « ولكن أهل جميع الأقاليم الجنوبية اذا أرادوا السفر بآخر أرياح الدبور ، فلابد لهم من الأمطار الى حدود خط الاستواء وكفى بذلك أرض أهل سفالة والاخوار الى أرض الزنوج مثلهم أرض تيمور لجاوة وما يليها ومن ملوك الغور ولجاوة وجميع الجزر الجنوبيات لم يسافرون (كذا) الا فى آخر الديماني كل واحد منهم علي قدر مكانه ومركبه » ٠

وهو يحذر من الدخول للموانيء فى المواسم الحرجة فيقول : « والحذر كل الحذر من النتخات وضيق المواسم عليها ولو عرف لكل نتخبة موسمها ٠٠ » ٠

أما الفصل الثاني عشر (الفائدة الثانية عشرة والأخيرة) فيتعلق بوصف البحر الأحمر (بحر القلزم) وجزره وشعبه المرجانية ٠

ويهتم ابن ماجد بهذا البحر ويفرد له نحو العشرين صفحة من كتاب الفوائد ويصف شعبه بدقة والمسافات بين المراسى المختلفة ، فتكلم عن الشعب أحيانا تحت اسم الظهار (من ظهرة أو مكان مرتفع) ويتكلم أيضا عن طبيعة القاع في بعض الأماكن مثل قوله : « وأمرية بر العرب فهى الحجر (صخر) والرمال وأما أمرية بر العجم فهى رمال » ، وكذلك يتكلم عن الأعماق في مداخل البرور بدقة كبيرة ويحذر من الشعب الخطرة مثل شعب عيسى « فاخذوه بالليل كل الحذر فانه شعب خافي لم يكسر عليه الموج وقد وقع عليه مركب محمد بن مرعي الاسكندراني في سنة تسعين وثمان مائة فى الهجرة نصف الليل ٠٠ » ٠

★★★

الأورجانون الجديد
والأوهام الأربعة
فرنسيس بيكن
١٦٢٠ م

فرنسيس بيكن أحد أعلام الثورة على الفلسفة اليونانية القديمة والمنطق الصورى وفلسفة العصور الوسطى ويعتبر أيضا مؤسس المنهج الاستقرائى – منهج البحث فى العلوم الطبيعية • نعم استخدم هذا المنهج قبل بيكن علماء سابقون ومعاصرون ولكن لبيكن الفضل فى اعلان هذا المنهج وبيان قيمته وتفصيل مراحله ••

★★★

ولد بيكن فى الثانى والعشرين من شهر يناير سنة ١٥٦١ فى مدينة لندن من أسرة كريمة فقد كان أبوه السير نكولاس بيكن يتربع فى منصب من أسمى مناصب الدولة وكان نابغا نابها ذائع الصيت واسع الشهرة قد خفت اسمه فما ذاك الا لأن ذكر ابنه قد طغى عليه فبدده فى ظلاله فكأنما كانت أسرة بيكن تسير نحو العبقرية صاعدة جيلا بعد جيل حتى بلغت الذروة فى فرانسيس بيكن وكانت أمه سليلة بيت عريق حصلت من العلم وأصول الدين قدرا محمودا فأخذت ترضع ابنها من علمها الواسع ولم تدخر وسعا فى تنشئته وتكوينه منذ نعومة أظفاره لتخرج منه رجلا قويا ، ولما بلغت سنه الثانية عشرة أرسل الى جامعة كيمبردج ، حيث لبث أعواما ثلاثة ترك الجامعة بعدها ساخطا ناقما على مادة التدريس وطريقته على السواء فقد كره ذلك الجدل الفارغ العقيم الذى لا ينتهى فى أغلب الحالات الى شىء ذى غناء •

وما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى انخرط فى سلك الوظائف السياسية فعين فى السفارة الانجليزية فى فرنسا ولبث هناك عامين ثم باغته القدر بموت أبيه فعاد مسرعا الى لندن وما هو الا أن أخذت مواهبه الأدبية فى الظهور والذيوع فانتخب عضوا فى مجلس النواب وسرعان ما جذب اليه الأنظار لبلاغته الساحرة وبيانه الخلاب •

ولما كان عام ١٥٩٥ أهداه صديق له معجب بنبوغه هو الايرل اسكس ضيعة واسعة درت عليه ثروة طائلة عريضة هيأت له أسباب الترف والنعيم وكانت هذه الهبة العظيمة من ذلك المحسن الكريم جديرة أن تأسر بيكن ، ولكن حدث لهذا الصديق أن فترت بينه وبين الملكة اليصابات ما كان بينهما من روابط وصلات واستحكمت بينهما الخصومة واشتد النفور فدبر أسكس هذا مؤامرة خفية يريد بها أن يزج الملكة فى ظلمات السجن ثم يرفع الى العرش ولى عهدها وكاشف بيكن بما صحت عليه عزيمته وهو لا يشك فى أنه انما يكاشف صديقا مخلصا ، ولكنه لشد ما دهش حين أجابه بيكن باحتجاج صارخ على هذه الخيانة الشائنة ضد مليكة البلاد وبانذاره أن سيؤثر ولاءه للملكة على عرفانه للجميل ، ومضى اسكس فى

مؤامرته وحشد جيوشا سار بها الى لندن لكنه هزم وقبض عليه وكان بيكن عندئذ فى أكبر مناصب القضاء فلم يتردد فى اتهام الرجل الذى أكرمه وأحسن اليه حتى حكم عليه بالاعدام ٠

★★★

ويرى الكثيرون فى ذلك نقطة سوداء فى حياة بيكن ويعدونها من أوضح مظاهر انتهازيته ورغبته فى تملق الملوك ولو على حساب أخلص أصدقائه ، على حين أن كتابا آخرين يرون أن بيكن لم يفعل الا ما يحتمه عليه الواجب وأن تهمة الخيانة ثابتة على اسكس فلم يكن مفر من الاشتراك فى ادانته ، وعلى أية حال فقد أكد بيكن نفســه أنه آثر مصلحة الوطن ـ ممثلا فى شخص الملكة ـ على علاقته الشخصية بصديقه وكان يرى فى ذلك مبررا كافيا لسلوكه ٠

وبعد عامين من اعدام اسكس توفيت الملكة اليزابيث واعتلى جيمس الأول عرش انجلترا وانتعشت آمال بيكن فى الحصول على منصب حكومى كبير يدر عليه دخلا يضمن له حياة مستقرة ذلك لأنه كان قد بذل محاولات متعددة للحصول على منصب كبير فى عهد اليزابيث ولكنه لم يتلق الا وعودا ولم يصل الى شىء مما كان يطمع فيه ٠ وفى سنة ١٦٠٧ تولى بيكن أول منصب عام كان يصبو اليه وهو منصب المدعى العام ٠ وفى سنة ١٦١٣ أصبح محاميا عاما ثم مستشارا خاصا للملك سنة ١٦١٦ وفى العام التالى أصبح حامل الأختام الملكية وفى سنة ١٦١٨ عين كبيرا للمستشارين ومنح لقب « لورد فيرولام » ثم منح لقب « الفيكونت » سنة ١٦٢١ ٠

وعندما بلغ نجاح بيكن فى ميدان المناصب العامة هذه القمة ٠ بدأ يتدهور بسرعة فقد اتهم بالرشوة وبأنه يتقاضى هدايا من المتهمين قبل محاكمتهم وأثناءها وحاول الانكار فى البداية ولكنه اضطر الى الاعتراف بتقاضى الرشوة وان كان قد أكد مع اعترافه هذا أمرين : أحدهما أن هذه الهدايا لم تؤثر فى الأحكام القضــائية التى أصدرها والآخر أن تقاضى الهدايا كان أمرا شائعا فى بلاده فى ذلك الحين حتى بالنسبة الى مناصب القضاة وقد كان بالفعل صادقا فى المسألة الثانية على الأقل ويبدو أن حاجته الى المال وديونه التى ظلت تتراكم طوال حياته وتعوده حياة البذخ والمتعة كل ذلك جعله يغض الطرف عن المصدر الذى يحصل منه على المال أو الوسيلة التى يأتيه بها هــذا المال وعلى أية حال ، فقد أدانه مجلس اللوردات وحكم عليه بغرامة مقدارها ٤٠ ألف جنيه والحبس فى البرج طوال الوقت الذى يشاؤه الملك وعدم تولى أى مناصب فى الدولة أو الاقتراب من البرلمان أو المحاكم ومع ذلك ، فقد أعفاه الملك من الغرامة ولم يدم حبسه الا أياما قلائل ، وان يكن قد حرم بالفعل من تولى المناصب العامة بعد ذلك

ومن الواضح أن تخفيف العقوبة على هذا النحو دليل على أن جريمته لم تكن شيئا خارجا عن المألوف فى ذلك الحين .

ورغم أن بيكن قد تفرغ بعد نكبته هذه لحياته الخاصة ولمشروعاته العلمية الواسعة فان صحته التى لم تكن قوية فى وقت من الأوقات — قد بدأت تتدهور بسرعة وكان موته مرتبطا ارتباطا وثيقا بالهدف الرئيسى لحياته الفكرية وهو تحويل العلم الى ميدان التجربة العملية . ففى أثناء تجربة بدا له أن يجريها فى يوم مثلج شديد البرودة لكى يختبر تأثير التبريد فى منع التعفن ، أصيب ببرد قاتل ، وتفاقم المرض بسرعة فتوفى فى التاسع من أبريل سنة ١٦٢٦ ، وكان عندئذ فى الخامسة والستين من عمـره .

★★★

مؤلفـــات بيـــكن

كان « تقدم العلوم » فى طليعة الانتاج الأدبى لبيكن وهو كتاب فيه جانب من فلسفته ثم هو فى الوقت نفسه يذكر لوضوح عبارته وجودة بنـائها .

ولكن آيته الأدبية التى استحق من أجلها أن يذكر علما من أعلام الأدب هى مجموعة « مقالاته » فاليه يرجع الفضل فى ادخال « المقالة » فى الأدب الانجليزى .

ومما يميز أسلوب بيكن فى « مقالاته » التركيز الشديد فمعنى ضخم فى لفظ قليل . على أن بيكن لم ينته بكتابة « المقالة » كما بدأها فقد نشر من المقالات أول ما نشر عشرا وكان ذلك سنة ١٥٩٧ وكانت المقالة فى هذه البداية قصيرة مركزة حتى لكأنها مجموعة من الحكم فلما كان عام ١٦١٢ أعاد كتابة هذه المقالات الأولى ووسع فيها ثم أضاف اليها تسعا وعشرين ، ثم عاد سنة ١٦٢٥ فزاد فى اطالة مقالاته الأولى وأضاف اليها مقتبسات وحكايات ونشر معها احدى وعشرين مقالة جديدة .

ونستطيع أن نقسم هذه « المقالات » الى مجموعات أربع فمجموعة تدور حول الانسان فى حياته الخاصة ومجموعة ثانية تتناول الانسان فى حياته العامة وثالثة تعالج أمور السياسة ورابعة تبحث فى موضـوعات مجـردة .

★★★

وعندما تولى جيمس الحكم (جيمس السادس ملك اسكتلندا وقتئذ باسم جيمس الأول أول ملوك اسكتلندا على بريطانيا) أراد بيكن أن يتقرب اليــه ويلفت نظره الى مشروعاته فنشر فى عام ١٦٠٥ كتـــاب « النهوض بالعلم » باللغة الانجليزية وأهداه الى الملك وقد حمل بيكن فى هــذا الكتاب على تعاليم المدرسيين ونبه الى الطريقة التى يراها كفيلة بالنهوض بالعلوم (وقد أعاد بيكن نشر هذا الكتاب فيما بعد ، بعد ترجمته الى اللاتينية وادخال اضافات كثيرة عليه بعنوان : « قيمة العلم والنهوض به » فى عام ١٦٢٣) • وعمل بيكن بعد ذلك على نشر آرائه فى مجموعة كبيرة من المؤلفات اللاتينية التى لم تنشر خلال حياته والتى تضمنت أفكارا تكرر معظمها فى كتبه الرئيسية وقد بلغ عدد هــذه المؤلفات اثنى عشر كتابا وفى عام ١٦٠٩ نشر بيكن كتاب « حكمة الأقدمين » وبدأ فى وضع خطة كتابه الأكبر « الاحياء العظيم » ، وكان بيكن يتوقع أن يكون هذا الكتاب أعظم ما كتب بحيث يعبّر فيه عن نفسه بحق ويبلغ رسالته الى العـــالم •

وكانت خطة الكتاب « الاحياء العظيم » كما رسمها بيكن فى البداية تقضى بأن يتألف الكتاب من ستة أجزاء لم يستطع بيكن أن يتم الا واحدا منها ، وحتى فى هذه الحالة ظهر الكتاب ولما يكتمل بناؤه بعد ولنتأمل عناوين هذه الأجزاء كما أراد بيكن أن تكون :

١ ــ أقسام العلوم : وهو تصنيف للعلوم لم يكتبه بيكن فعلا ولكنه استعاض عنه مؤقتا بالجزء الثانى من كتاب « النهوض بالعلم » ورأى أن هذا الجزء يفى بالغرض حتى يتم هو تأليف كتاب خاص فى الموضوع وهو ما لم يفعله قط •

٢ ــ الأورجانون الجديد ، وعنوانه الفرعى هو : « ارشادات فى تفسير الطبيعة وهذا هو الجزء الذى نشره بيكن فعلا ، أما لفظ « الأورجانون » فيعنى الأداة أو المنطق نفسه بوصفه أداة للتفكير العلمى وقد أراد بيكن باستخدامه هذا اللفظ أن يعبر عن معارضته لنهج أرسطو ومنطقه الذى كان يعرف باسم « الأورجانون » •

٣ ــ ظواهر الكون ، أو تاريخ طبيعى وتجريبى تبنى على أساسه الفلســـفة •

ويصف بيكن هذا الجزء بأنه دائرة معارف للعلوم الطبيعية وصنائع الانسان وفنونه ، يمكن عن طريقها اقامة الفلسفة على أساس سليم من دراسة الواقع بعد أن كانت تبنى من قبل على تجريدات لا صلة لها بالعلم الفعلى وقد ألف بيكن بضعة أبحاث قصيرة من أجل دائرة المعارف هذه ولكنه كان يؤمن بأن هذا عمل لا يمكن أن يقوم به رجل واحد •

٤ ــ سلم العقل : ويوضح الطريقة التدريجية في تطبيق المنطق على تفسير الوقائع التى جمعت فى المرحلة السابقة ٠

٥ ــ التمهيدات أو استباقات الفلسفة الجديدة : وهذا الجزء يقدم صورة تمهيدية للمعرفة الجديدة وللقوة التى يكتسبها الانسان عندما يتم « الاحياء » ٠

٦ ــ الفلسفة الجديدة أو العلم الايجابى : وقد صرح بيكن بأن قدراته لن تمكنه من كتابة هذا الجزء الأخير الذى سيكتبه العلماء أنفسهم بأبحاثهم والمفكرون بآرائهم المبنية على دراسة سليمة للواقع وكان يكفيه أنه بدأ السير فى الطريق ، وعلى البشرية أن تكمل ما بدأ ٠

وأول ما يلاحظ على هذه الخطة هو أن بيكن لم يتم الجزء الأكبر منها وكل ما فعله هو أنه حدد أهدافه العامة ، ثم شرع فى تنفيذ أجزائها الأولى وتوقفت جهوده عند هذا الحد ٠ وقد عمل شراح فلسفته على ادراج كتاباته المتفرقة ولا سيما مقالاته اللاتينية ضمن هذه الخطة وان لم يكن هو ذاته قد فعل ذلك ، وحتى فى هذه الحالة نجد أن هناك أجزاء غير قليلة من هذه الخطة لم تكتب فيها الا صفحات قلائل بينما الجزء الأخير لم يكتب فيه حرف واحد ٠

ولعل أهم نتيجة تكشف عنها خطة بيكن هذه هى أنه لم يؤلف بالفعل كتابا اسمه « الأورجانون الجديد » وانما ألف جزءا من « الاحياء العظيم » يحمل هذا العنوان ٠ وعندما نشر هذ الجزء أثناء حياة بيكن كان الغلاف يحمل اسم « الاحياء العظيم » وهكذا فان « الأورجانون الجديد » ليس كتابا مستقلا وانما هو جزء من كتاب أو على الأصح جزء من خطة عامة لاصلاح العلم والنهوض بحياة الانسان ومن الواجب دائما ان ينظر اليه داخل سياقه الطبيعى لا أن يؤخذ على انه بحث منفصل يكون أهم كتابات بيكن وقد تضمن القسم الثـانى من « الأورجانون الجديد » خطة فرعية لهذا الجزء لم يستطع أن يتمها بدورها وهكذا ، فان « الأورجانون الجديد » جزء من خطة شاملة لم تكتمل كما أن الأورجانون الجديد نفسه خطة فرعية لم يكتمل منها الا جزء بسـيط ، وقد ألف الكتاب على صورة فقرات منفصلة لها أرقام ثابتة وهو مؤلف من جزءين : جزء سلبى بعنوان « تفسير الطبيعة وقدرة الانسان » وجزء أيجابى بعنوان « تفسير الطبيعة وسيادة الانسان » وأسلوب الكتاب شيق بليغ يتضمن تشبيهات رائعة اشتهر بها بيكن فى كل كتاباته ، حتى عده البعض أمير البيان فى عصره سواء أكتب باللاتينية أم بالانجليزية (وقد بلغ من تحكمه فى اللغة أن ذهب بعض الباحثين المحدثين الى أنه هو المؤلف الحقيقى لدرامات شكسبير ، على حين

ان هـذا الأخـير لم يكن الا شخصـا مغمورا • ورغم ابتعاد الزعم عن الصـواب فانه ينطوى على تقدير ضمنى هائل لأسـلوب الكتابة عند بيكن !) •

★★★

فلسفة بيكن ومنهجه

يقترن اسم بيكون بكتاب « الأورجانون الجديد » لدرجة أننا نظن خطأ أن الأورجانون الجديد عنوان كتاب مستقل ، وأنه كتاب بيكن الوحيد ، لكننا – كما أسلفنا – لاحظنا أن الأورجانون الجديد ليس الا جزءا من كتاب كبير مع أن بيكن لم يتم من هذا الكتاب الكبير الا ذلك الجزء ، لقد سجل بيكن منهجه الاستقرائى فى الأورجانون الجديد وقبل أن نعرض لمحتوى هذا الكتاب يحسن الاشارة الى موقف معين اتخذه بيكن من قيمة العلم يمكن تلخيصه فيما يلى : للعلم جانب نظرى وآخر عملى وينبغى ألا نتخذ العلم النظرى غاية فى ذاتها وانما هو وسيلة للفوائد العملية التى قد نجنيها من العلم والمقصود بالفوائد العملية للعلم تحقيق رفاهية الانسان • ينبغى أن تثمر الأبحاث العلمية فى الانتاج الصناعى والزراعى وتنشـيط هذه التجارب وبذلك يساهم العلم فى تحسين حياة الأفراد والأمم ، ولا يعنى هذا الموقف أن بيكن يحتقر الجانب النظرى من العلوم الطبيعية وانما يعنى فقط أن يرى بيكن هذا الجانب منخلا الى الفوائد العلمية ، وألا يكون العلم عديم القيمة بالنسبة للانسان ومن ثم قال بيكن قوله المأثور : « المعرفة قوة » أى يجب أن تحقق المعرفة العلمية سيادة الانسـان على مظاهر الطبيعة • يمكننا أن نفهم فى ضوء هذا الموقف من العلم كراهية بيكن للفلسفات القديمة •

ولاختيار عنوان الكتاب « الأورجانون الجديد » دلالته فهو يدل على مقصد بيكن من الثورة على منطق أرسطو والمناداة بمنطق بديل عنه • كان يسمى منطقه « أورجانون » وهذه كلمة معربة عن اليونانية تعنى « أداة أو آلة » يقصد أرسطو بالأداة أنه لكى نبحث فى أى علم ينبغى أن نتمكن من أداة البحث وهو التسلح فى المنطق فهو منهج البحث فى أى علم ، جاء بيكن لينادى بالأداة الجديدة التى ينبغى علينا امتلاكها قبل أن نشرع فى البحث فى العلوم الطبيعية • ننتقل الآن الى ذكر أهم نقاط الأورجانون الجـديد •

★★★

تحليل الأورجانون الجديد

قلنا عند الكلام عن مؤلفات بيكن ان « الاورجانون الجديد » ليس كتابا مستقلا بالمعني الصحيح وانما هو جزء واحد من ستة آجزاء كان بيكن يعتزم تاليفها تحت عنوان واحد شامل هو « الاحياء العظيم » . وتأكيد هذه الحقيقة أمر على جانب كبير من الأهمية اذ أن فهم المرء لبيكن يتغير كثيرا فى الحالتين : فالتركيز على كتاب « الاورجانون الجديد » بوصفه كتابا منفصلا بل بوصفه المؤلف الأكبر لبيكن يؤدى الى فهم بيكن على أنه مفكر منطقى فى المحل الأول على حين أن وضع هذا الكتاب فى سياق الخطة الكاملة « للاحياء العظيم » يلقى ضوءا صحيحا على مجهودات بيكن فى مجال المنطق ، بوصفها جزءا من مجهودات أشمل تتعلق بعلاقة الانسان بالطبيعة وتهدف الى تحقيق سيطرة الانسان على عالمه عن طريق العلم ومن المؤكد أن هذه النظرة الأخيرة تنطوى على المزيد من الانصاف لبيكن .

أما ادراك قيمة بيكن من حيث هو مفكر انسانى يدعو الى تطبيق العلم من أجل زيادة مقدرة الانسان المعنوية والمادية فهو وحده الكفيل بضمان مكانة رفيعة له بين الفلسفة ، اذ يغدو عندئذ رائدا من رواد النهضة الفكرية الحديثة بما لها من مميزات تختلف بها عن العصر القديم والعصر الوسيط اختلافا أساسيا .

تقسـيم الكتـاب :

ينقسم الكتاب الى فقرات موزعة على بابين وبيانها كما يأتى :

الباب الأول : فى الفقرات من ١ الى ٤ يبحث بيكن موضوع العلاقة بين الانسان والطبيعة فيبين أن الانسان يكمل عمل الطبيعة ويفسرها وبذلك ينفى ضمنا علاقة النفور والكراهية التي كانت سائدة بين الانسان والطبيعة فى العصور الوسطى .

ـ من ٥ الى ١٧ ينتقد بيكن العلوم الموجودة فى عصره كما ينتقد أداة هذه العلوم وهى المنطق الوسطى .

ـ من ١٨ الى ٢٧ : يتحدث بيكن عن التقابل بين استباق الطبيعة وتفسيرها ويوجه نقدا مفصلا الى نظرية الاستقراء عند أرسطو .

ـ من ٣٦ الى ٦٨ : يعرض بيكن أسباب الخطأ ومظاهر الضعف فى

ذهن الانسان وذلك فى نظرية « الأوهام الأربعة » وهو يبدأ بعرض عام لهذه الأوهام ثم يتحدث عن كل منها بتفصيل .

— من ٦٩ الى ٧٧ : يتحدث بيكن عن المعايير أو « العلامات » التى نميز بها العلوم والفلسفات الباطلة .

— من ٧٨ الى ٩١ : يوضح أسباب تدهور أحوال العلم والفلسفة .

— من ٩٢ الى ١٢٩ : يشرح كيف يمكن تلافى هذا النقص واصلاح العلم وانهاض الفلسفة .

الباب الثانى : اذا كان الباب الأول من الكتاب ناقدا هداما فى معظم أجزائه فان الباب الثانى بناء يعرض فيه بيكن نظريته الجديدة فى الاستقراء والقواعد الثلاث المشهورة للبحث العلمى ويطبق هذه القواعد على عدة أفكار أو مفاهيم أساسية فى العلم أهمها مفهوم « الحرارة » . ثم ينتقل بيكن الى بحث « العوامل الأخرى المساعدة للذهن » (الى جانب قواعده السابقة) ويعدد من هذه العوامل تسعة ، غير أن بقية الكتاب يخصص كله للعامل الأول من هذه العوامل التسعة فقط وهو « الأمثلة المميزة » .

أما العوامل الثمانية الأخرى التى لم يكتب عنها شيئا فهى :

٢ — دعائم الاستقراء .

٣ — تصحيح (أو تقويم) الاستقراء .

٤ — تنويع البحث تبعا لطبيعة الموضوع .

٥ — الطبائع المميزة .

٦ — حدود البحث أو احصاء شامل لكل الطبائع فى الكون .

٧ — التطبيق العملى .

٨ — استعدادات البحث .

٩ — السلم الصاعد والهابط للقوانين .

وكما قلنا من قبل فان بيكن لا يبحث فى بقية الباب الثانى (ابتداء من القسم الحادى والعشرين) ، الا الموضوع الأول من هذه الموضوعات التسعة وهو «الأمثلة المميزة» والمقصود من فكرة الأمثلة المميزة ذلك النوع من الظواهر الذى يلقى ضوءا ساطعا على موضوع البحث وبذلك يكون أجدر بالبحث من غيره من الظواهر ، ذلك لأن الطبيعة تحفل بأمثلة لا حصر لها فى كل ميدان خاص من ميادينها ومن المحال أن ندرك أسرار الطبيعة فى هذه الميادين الا اذا عرفنا كيف ننتقى الأمثلة التى تكشف فيها الطبيعة عن

أسرارها هذه والتى تتيح لنا ــ أكثر من غيرها ــ اقتحام أبواب الطبيعة المغــــلقة ٠

وقد أحصى بيكن سبعة وعشرين من هذه الأمثلة المميزة أطلق على كل منها ــ جريا على عادته ــ اسما غريبا فريدا ولكن الكثير من أسمائه هذه قد ثبتت فى لغة العلم وأصبحت اليوم جارية على ألسن العلماء وليس فى وسعنا هنا أن نعدد هذه الأنواع السبعة والعشرين من الأمثلة المميزة ولكن نكتفى بذكر أهمها :

ــ الأمثلة المنعزلة : وهى عزل الظاهرة المراد بحثها من غيرها من الظواهر التى تختلط عادة بها كتحليل الألوان بواسطة العدسة بدلا من ادراكها مختلفة بعناصر أخرى فى الأشياء الطبيعية ٠

ــ الأمثلة الفاصلة : وهى تلك التى تمكننا من المفاضلة والاختيار بين نظريات مختلفة متنافسة ٠

ــ الأمثلة الساطعة : وهى تلك التى تتمثل فيها ظاهرة بأقصى شدة ممكنة ٠

ــ الأمثلة الخافتة أو الخفية : وهى عكس السابقة أى تلك التى تتمثل فيه الظاهرة أضعف وأخفى ما تكون ٠

ــ الأمثلة الحدية : وهى تلك التى تقف على الحــدود بين ظاهرة وأخرى مثلما يقف الاسفنج على الحدود بين الحى وغير الحى ٠

ــ الأمثلة المنادية : وهى تلك التى تتضــــمن تجارب الظاهرة أو تستدعيها أمامنا ٠

الأفكار الرئيســــية

كان بيكن يؤمن بأن للبحث فى المنهج أهمية عظمى ٠ وكان يرى فى الوقت ذاته أن منهجه جديد كل الجدة : فهو ليس استمرارا للمناهج القديمة أو اصلاحا لها ، وانما هو محالة جديدة لم يجر بها أحد من قبل ولا شك أن قيمة أى منهج لا تقاس الا بنتائجه ومن هنا ، كان بيكن يلح أشد الالحاح على تطبيق مشروعاته العلمية حتى يتسنى تجربة مناهجه الجديدة عمليا واختبارها من خلال التطبيق العملى لها ٠

وتنحصر قيمة المنهج عند بيكن فى أنه الأداة التى تساعد الانسان على توسيع أفقه العقلى وعلى كشف المناطق المجهولة من العالم سواء أكانت هذه المناطق مادية أم معنوية ٠ ولقد كان بيكن يقارن عمله فى كثير من الأحيان بعمل كولمبس فى ميدان الكشف الجغرافى ولهذه المقارنة دلالتها الواضحة اذ أن نفس القوة التى دفعت كولمبس الى الابحار الى أقصى الغرب

الواضحة ، النائية للعالم ، هي التي دفعت بيكن الى محاولة زيادة قدرة الذهن على السيطرة على العالم الى أقصى مداها فالغاية في الحالتين هي زيادة قوة الانسان واحكام سيطرته على الطبيعة ومن هنا قال بيكن مبررا مجهوده في ميدان البحث المنهجي : « انه لمن المخجل حقا في هذا الوقت الذى فتحت فيه آفاق العالم المادي من أرض وبحار وسماء أن تظل حدود العالم العقلى مقتصرة على كشوف القدماء وآرائهم » ٠ ومما يثبت أن كلمة « العالم العقلى » هنا تشمل جميع ميادين المعرفة ولا تقتصر على ذلك الميدان الذى طالما تحدث عنه وهو ميدان العالم الطبيعي التجريبى قوله فى النص الآتى : « وربما تساءل البعض : هل نحن نرمى الى انهاض الفلسفة الطبيعية وحدها وفقا لمنهجنا أو نرمى الى انهاض العلوم الأخرى بدورها كالمنطق والأخلاق والسياسة ؟ اننا قطعا نعتزم ادراج هذه العلوم كلها (ضمن منهجنا) وكما أن المنطق الشائع الذى ينظم الأمور كلها بواسطة الأقيسة لا يطبق على العالم الطبيعي وحده وانما على كل علم آخر ، فان منهجنا الاستقرائى يمتد بدوره الى كل العلوم الأخرى ذلك لأننا نعتزم جمع تاريخ وقوائم للاختراع خاصة بالغضب والخوف والخجل وما شابهها وكذلك بأمثلة فى الحياة المدنية وبعمليات الذاكرة والتركيب والتقسيم والحكم وما شاكلها تماما كما نفعل فى الحرارة والبرودة والضوء والنبات وما اليها وبعبارة أخرى ، فالمنهج العلمى ينبغى في رأيه أن يطبق على جميع مجالات الفكر وان لم يكن وقته قد اتسع الا للكلام عن تطبيقاته فى مجال العلوم التجريبية فحسب ٠

الأوهـــام الأربعـــة :

ربما كان أشهر أجزاء كتاب « الأورجانون الجديد » بل أشهر أجزاء كتاباته كلها هو ذلك الجزء الذى يتحدث فيه بيكن عن مظاهر النزلل فى ذهن الانسان أعنى الأوهام الأربعة ٠ وقد ظهرت هذه الكرة فى كتابات مبكرة لبيكن فتحدث في كتاب « انهاض العلم » عن أوهام الجنس والسوق والكهف والمسرح دون أن يذكر أسماءها ، ولكنه عالجها على أكمل وجه فى الباب الأول من « الاورجانون الجديد » وتتعلق هذه الأوهـــام بالطبيعة البشرية بما هى كذلك وبالطبيعة الفردية لكل شخص وبالألفاظ ووسائل تداول الأفكار وبالمذاهب الباطلة في الفلسفة والعلم وبذلك يكون مذهب الأوهام الأربعة عند بيكن خلاصة لنقده الشـــامل لتطور العقل البشرى وتحديدا للاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه اصلاح العلم وان يكن من أصعب الأمور ــ كمـــا أدرك هو ذاته ــ أن يتخلص العقل من كل هذه الأوهام المتأصلة فيه ويبدأ صفحة جديدة ناصعة البياض من تاريخه ٠

١ ــ تتعلق أوهام الجنس (النوع) بالأخطاء الكامنة فى الطبيعة

البشرية بوجه عام : فالحواس البشرية التى تتخذ مقياسا للأشياء جميعا معرضة للخطأ وعقل الانسان أشبه بمرآة غير مصقولة تضفي خصائصها الخاصة علي الأشياء وتشوه صورتها وهكذا يضفي العقل على الأشياء ترتيبا ونظاما يلائم طبيعته الخاصة ولكنه غير موجود في الأشياء ذاتها ومن هذا القبيل القول أن جميع الاجرام السماوية تدور في مسارات تتخذ شكل الدائرة الكاملة وهكذا ، فان العقل البشرى عندما يضع نظرية ما يميل الى ادخال كل الظواهر قسرا في هذه النظرية والى تجاهل أو اغفال كل الشواهد المتعارضة معها ومهما كان من قوتها ومن هذا الميل تنشأ الخرافات بشتى أنواعها كما ينشأ ميل الفلاسفة الى تفسير كل الظواهر من خلال مجموعة قليلة من المبادىء الثابتة مع اغفال كل التفاصيل المهمة التى ينطوى عليها الكون ، ولدى العقل البشرى ميل آخر الى ممارسة نشاطه دون توقف : فيظل يبحث عن العلل ولا يستطيع أن يتصور شيئاً بغير علة وبذلك يقع في أخطاء مثل تصور « «العلة الغائية» التى هى أكثر ارتباطا بطبيعة الانسان منها بطبيعة الكون » والتى هى من أكبر مصادر الفساد في الفلسفة ٠

٢ ــ ولقد استمد بيكن اسم « أوهام الكهف » من أفلاطون وهو يعنى بها الأوهام الفردية التى يقع فيها كل شخص نتيجة لتكوينه الخاص . شأنه شأن سجناء الكهف عند أفلاطون وربما كان لنا أن نلاحظ في صدد هذه التسمية أن أسطورة الكهف عند أفلاطون تتعلق بالنوع البشرى كله أو هى ترمز الى حالة الانسان وموقفه بوجه عام ٠ فالكهف عند أفلاطون هو الجهل أو النقص الأصيل الكامن في الطبيعة البشرية ومن هنا ، فانه أحرى بأن ينطبق فى الواقع على النوع الأول من الأوهام ٠

ومن طبيعة هذه الفئة من الأوهام أنها شديدة التنوع لأنها تختلف في كل فرد عنها في الآخر : فمن الناس من يميل بطبيعته الى ادراك الفروق بين الأشياء ــ وهؤلاء هم المدققون الميالون الى تأمل التفاصيل ومنهم من يميل الى ادراك أوجه الشبه بين الأشياء وهؤلاء هم أصحاب المزاج التأملى ولكل من الطرفين أخطاؤه ، كما أن بعض الناس ميالون الى التقدم وبعضهم الآخر ميال الى التجديد مع أن الحقيقة لا زمان لها ولا يلزم بالضرورة أن تكون فى القديم وحده أو الجديد وحده وهكذا الحال فى سائر أنواع التحزب والتعصب الفردى التي ينبغى التخلص منها لضمان نزاهة البحث والتفـــكير ٠

٣ ــ ويرى بيكن أن أوهام السوق هى أخطر أنواع الأوهام والاسم يستمد من عملية التبادل التى تتم فى السوق، والتى يشبه بها بيكن عملية تبادل الأفكار وتداولها بين الناس عن طريق اللغة « ذلك لأن الناس يتوهمون

أن عقلهم يتحكم في الألفاظ على حين أن الألفاظ هي التي تعود فتتحكم في العقل وتؤثر فيه » ويدرك بيكن أن الألفاظ انما تعرف الأشياء على نحو غير دقيق لأن أصلها شعبي وليس علميا فهي موضوعة أصلا لتلائم الذهن العامي وهكذا ، فان الذهن العلمي حين يريد التعبير عن أفكاره وملاحظاته المرهفة الدقيقة لا يجد من الكلمات معينا ، فتنتهي كثير من الخلافات العلمية الى مجرد مجادلات لفظية بدلا من أن تدخل في صميم موضوعاتها ومن هنا كانت دعوة بيكن الى مواجهة الأشياء مباشرة بدلا من الاكتفاء بمواجهة الأشياء من خلال الألفاظ اللغوية ·

وتنقسم الأوهام التي تفرضها اللغة الى أسماء لأشياء ليس لها وجود كالقدر والمحرك الأول وعنصر النار وأسماء لموضوعات فعلية ولكنها جردت من الأشـــياء على عجل ودون تدقيق بحيث دب الخلط والاضطراب في معانيها مثل كلمة « الرطوبة » التي تعددت معانيها الى درجة يصعب معها الاستقرار على واحد منها · وتتدرج الأسماء في مقدار افتقارها الى الدقة من أسماء الأشياء المادية الفردية التي هي الأقل تعويضا للخطأ الى أسماء الصفات المجردة التي هي الأكثر تعرضا للخطأ ومن هنا كان من الواجب أن نحرص على دقة التعريف في الحالة الأخيرة بوجه خاص ، مع ادراكنا أن اللغة في عمومها وفي جميع أحوالها ميدان خصب للأوهام التي تعوق الذهن عن مواجهة الأشياء وادراك طبيعتها الحقة ·

٤ ـ والنوع الأخير من الأوهام هو أوهام المسرح وهي أوهام النظريات والمذاهب التي تفرض نفسها على الأذهان بمنطق مزيف أو نتيجة لاحترامنا المفرط لآراء القدماء · هذه النظريات والمذاهب تتعدد في الموضوع الواحد بغير حدود ويقف العقل ازاءها حائرا وكأنه مسرح يروح عليه الممثلون ويجيئون بينما يقف هو سلبيا : يتقبلها كلها دون مناقشة · على أن هذه النظريات كلها لا تستند على أساس من الدراسة الفعلية للواقع وانما هي ترتكز على الاستدلالات المنطقية البارعة والمزيفة في الوقت نفسه ومن هنا كانت الحاجة الى ايجاد أساس أمتن للفلسفة بحيث لا يعود العقل مسرحا لنظريات متعارضة في الموضوع الواحد ، وانما يتقبل ما يشهد به الواقع فحسب ·

وينقد بيكن ، ضمن هذه الفئة من الأوهام ، ثلاثة أنواع من الفلاسفة : النوع النظري أو السفسطائي ويمثله أرسطو ، وهو يخلق عالما من الأفكار المجردة التي لا يقابلها في الواقع شيء كالمقولات والقوة والفعل ويعالج كل الموضوعات من خلال هذه الأفكار وحتى التجارب القليلة التي أجراها كانت نتيجتها قد تحددت مقدما عن طريق الاستدلال · والنوع الثاني هو التجريبي العشوائي وهو يعتمد على تجارب قليلة لا تخضع لمنهج منظم

ويحاول أن يبنى منها فلسفة كاملة ومن هؤلاء الكيميائيون القدامى الذين يتعجلون الوصول الى نتائج قبل أن يبنوا أبحاثهم على أساس متين . والنوع الثالث هو أصحاب الخرافات الذين يمزجون الفلسفة باللاهوت ولا يفرقون بين التفكير المنظم وبين الأسطورة الشعرية . ومن هؤلاء فيثاغورث وكذلك أفلاطون الذى ينتمى الى هذه الفئة ولكن « فى صورة أدق وأخطر » .

وبعد أن يعرض بيكن نظريته فى الأوهام الأربعة ، يدعو الذهن الى تطهير ذاته منها والبدء فى البحث على أسس سليمة فيقول : « لقد أتممنا الآن بحث كل نوع من الأوهام وخصائصها وهى كلها أوهام ينبغى التخلى عنها بعزيمة صادقة ويجب تحرير الذهن وتطهيره منها بحيث يغدو دخول مملكة الانسان التى تقوم على العلوم مماثلا لدخول مملكة السماء التى لا تفتح أبوابها الا للأطفال » .

وهكذا ينبغى أن يقبل الذهن على تحصيل العلوم وهو أشبه بطفل برىء خلا ذهنه من الأفكار السابقة .

***

تأثير بيكن

على الرغم من أهمية نظرية الاستقراء عند بيكن ، فان التأثير الأعظم له لم يكن فى هذا الميدان ، ذلك لأن البحث النظرى فى مناهج العلم أمر مشكوك فى قيمته دائما . ويبدو أن بيكن ذاته قد وصل الى هذه النتيجة وأدرك أن العالم لا يخضع لمناهج يفرضها عليه الفلاسفة وانما هو يضع لنفسه مناهجه خلال عملية البحث العلمى ذاتها ومن هنا فقد توقف عن اكمال « الاورجانون الجديد » واتجه بذهنه الى مشروعات أخرى أجدى من فرض المناهج على العلماء . والواقع أننا نستطيع أن نقول ان الفارق الحقيقى بين القياس والاستقراء هو أن الأول يزيد من تأكيد أهمية المنهج الفلسفى على حين أن الثانى يميل الى الاقلال من هذه الأهمية فالقياس يعنى مزيدا من الاهتمام بالألفاظ أو تحليل للمعرفة عن طريق التعامل مع كلمات ، على حين أن الاستقراء يعنى مزيدا من اهتمام بالأشياء ذاتها والوصول الى العلم بغير واسطة من الاجراءات والعمليات المنطقية وهكذا يبدو أن بيكن حين عاد الى استبدال الاستقراء بالقياس لم يكن يدعو فى واقع الأمر الى احلال نوع جديد من المنطق محل نوع قديم ، وانما كان يدعو الى تنظيم جديد للمعرفة الانسانية يبتعد فيه الفكر عن عبودية المنطق ويرجع الى المصدر الأصلى للمعرفة وهو الطبيعة أى أنه فى « الاورجانون

الجديد » انما يدعو الى منطق يقضي على تقديس المنطق واستدلال يقلل من أهمية الاستدلال ٠

وعلى هذا الأساس ينبغي البحث عن تأثير بيكن الحقيقي في نواح أخرى من تفكيره وبالفعل كان لبيكن تأثير عظيم في الأجيال التالية في أوروبا بوجه عام وفي بلاده بوجه خاص ٠

وقد لخص « أندرسن » تأثير بيكن الأكبر في ثلاث نقاط :

١ ــ تحريره للعلم من حفظ المعارف وترديدها ومن طريقة النقل والرجوع الى التراث ، التي كانت سائدة في أعظم الجامعات في ذلك الحين ٠

٢ ــ دعوته الى الفصل بين العلم الانساني والوحي الالهي ٠

٣ ــ مناداته بفلسفة جديدة ترتكز على أســـاس متين من العلم الطبيعي لا من الميتافيزيقا التجريدية ٠

ونستطيع أن نقول في صدد المسألة الأولى ان طبيعة العلم قد أخذت تتغير بسرعة بعد وفاة بيكن بوقت قصير صحيح أن الحركة العلمية الحديثة كانت قد بدأت قبله ومستقلة عنه ومع ذلك فقد كان لتعاليمه تأثير بعيد في دفع هذه الحركة الى الأمام أسفر عن انشاء الجمعية الملكية في لندن « وهي الجمعية التي أشاد مؤسسوها بذكرى بيكن في يوم افتتاحها » ، وظهور موجة طاغية من الأبحاث التجريبية والكشوف الفنية التفصيلية التي استلهمت تعاليمه والتي مهدت لظهور الثورة الصناعية في انجلترا بعد ذلك بقرن من الزمان ٠

أما مسألة الفصل بين الدين والعلم فمن المؤكد أن بيكن قد أسدى بها الى العلم خدمة كبرى وجنبه تدخل رجال اللاهوت الذين كانوا يرون أنفسهم « علماء » وأصحاب الرأي المطلق في كل كشف جديد ، لأنهم حملة الأسرار الالهية ٠ ولا يستطيع أحد أن يشك في ايمان بيكن بتعاليم الدين غير أنه كان في الوقت ذاته حريصــا كل الحرص على ابعــاد السلطة الدينية عن مجال الحقيقة العلمية بحيث اكتفى في الشئون الدينية بالوحي وترك للعقل مهمة بحث مادة العالم الطبيعي وكشف قوانينها وبذلك صد عن الباحثين في مجـــال هجمات رجـــال الدين دون استفزاز لهؤلاء الأخيرين ٠٠

وأما فلسفة بيكن المرتكزة على أساس علمي فقد ظلت هي التيار السائد في الفلسفة الانجليزية على التخصيص حتى اليوم ويمكن القول ان المذاهب التجريبية بمناهجها في الملاحظة التسجيلية الدقيقة لعمليات

الذهن البشرى وكذلك المذاهب الوضعية فى تحليلاتها الدقيقة للغة العلمية. كل هذه قد تأثرت بطريق مباشر أو غير مباشر بدعوة بيكن الفلسفية الجديدة فى مستهل العصر الحديث ٠

نصـــوص مختارة من الأورجانون الجديد

أوردنا فيما سبق نصوصا متعددة من كتاب « الأورجانون الجديد » ولذا ، سنكتفى فى هذا الجزء بنصوص قليلة تكمل ما اقتبسناه من قبل :

١ — فى القسم ٨٤ من الباب الأول يناقش بيكن فكرة احترام القدماء والخضوع للسلطة فى ميدان الفلسفة ويوضح مدى ضررها بالنسبة الى تقدم المعرفة فيقول :

« ان الرأى الذى يرفع به الناس من قيمة القديم هو رأى باطل تماما ولا ينطبق على لفظ « القديم » مطلقا ذلك لأن شيخوخة العالم وتزايد عمره هو الذى يعد فى الواقع (قديما) وهذه هى الصفة المميزة لزمننا هذا لا للعمر المبكر للعالم فى أيام القدماء اذ أن هؤلاء الأخيرين هم بالنسبة الينا قدماء سابقون ولكنهم بالنسبة الى العالم محدثون صغار ولما كنا نتوقع من الشخص المتقدم فى العمر معرفة أعظم بأمور البشر وحكما أنضج من حكم الشاب ومعرفته نظرا الى ما اكتسبه الأول من تجارب وما مر به من حوادث منوعة متعددة ولكثرة ما رآه وسمعه وفكر فيه فان لنا الحق فى أن ننتظر من عصرنا (لو أنه أدرك قوته وجربها ومارسها) أمورا أعظم مما ننتظره من العصور القديمة مادام العالم قد ازداد اليوم قدما وتضاعفت ذخيرته وتراكمت بفضل عدد لا نهاية له من التجارب والملاحظات » ٠

١ — وفى القسم ١٢٩ من الباب الأول يقارن بيكن بين تأثير المخترعات التى تبدو فى ظاهرها بسيطة وبين تأثير الساسة والملوك ورجال الدين فى شئون البشر لكى ينتهى من ذلك الى أن تحقيق سيطرة الانسان على الطبيعة عن طريق الاختراع ، هو أسمى الغايات جميعا فيقول :

« نلاحظ أولا أن استحداث الاختراعات العظيمة يبدو عملا من أروع الأعمال البشرية وعلى هذا النحو نظر الأقدمون الى هذه المسألة : ذلك لأنهم كانوا يخلعون ألقاب الشرف الالهية على أصحاب المخترعات ولكنهم كانوا يكتفون بألقاب الشرف البطولية على أولئك الذين أثبتوا امتيازا فى الشئون المدنية (كمؤسسى المدن والامبراطوريات والمشرعين وأمثالهم) ولو قارن المرء بين الفئتين على النحو الصحيح : ذلك لأن الفوائد المكتسبة من الاختراعات يمكن أن تعم البشر عامة ، على حين أن الفوائد المدنية تقتصر

على مواضع خاصة بعينها ، كما أن هذه الأخيرة لا تدوم الا وقتا معلوما أما الأولى فأثرها باق الى أبد الدهر كذلك فان الاصلاح المدنى قليلا ما يتم دون عنف واضطراب على حين أن المخترعات نعمة وفائدة لا تؤذى ولا تضر أحـــدا ٠

٠٠٠ وفضلا عن ذلك فليتأمل المرء الفارق الهائل بين حياة الناس فى أرقى البلاد الأوربية وبين حياتهم فى أية منطقة همجية من جزر الهند الجديدة ، وسيجد أن هذا الفارق قد بلغ من الضخامة حدا يجعل الانسان أشبه ما يكون بالآلة بالنسبة الى الانسان ليس فقط بفضل تبادل المساعدة والمنافع ، وانما بفضل الحالة السائدة لدى الانسان فى كلتا الحالتين وهى نتيجة فنون الانسان وصنائعه لا نتيجة التربة أو المناخ ٠

كذلك ينبغى علينا أن نلاحظ قوة الاختراعات وتأثيرها ونتائجها وهى أمور تظهر أوضح ما تكون فى تلك المخترعات الثلاثة التى لم يعرفها القدماء : وهى الطباعة والبارود والبوصلة ذلك لأن هذه الاختراعات الثلاثة قد غيرت وجه العالم بأسره : الأولى فى ميدان العلم والثانية فى ميدان الحرب والثالثة فى الملاحة وهى قد أحدثت تغييرات لا حصر لها ، بحيث يمكن القول ان أية مملكة أو مذهب دينى أو نجم فلكى لم يكن له من التأثير فى شئون البشر أعظم مما كان لهذه الكشوف الميكانيكية ٠

وجدير بنا أن نميز بين ثلاث مراتب من الطموح : الأولى طموح أولئك الذين يسعون الى زيادة قوتهم الخاصة فى بلادهم وهو طموح وضيع منحط والثانية طموح أولئك الذين يسعون الى زيادة قوة بلدهم وسيطرته على البشر وهو طموح أرفع من السابق ولكنه لا يقل عنه طمعا ٠ أما اذا حاول امرؤ أن يستعيدي ويوسع قوة الجنس البشرى فى عمومه ويزيد من سيطرته على الكون فان مثل هذا الطموح (ان جازت تسميته بهذا الاسم) انما هو أشرف وأنبل من النوعين الســابقين معــا ، على أن سيطرة الانســان على الأشياء انما تقوم على الفنون العملية والعلوم وحدها اذ أن الطبيعة لا تحكم الا باطاعتها » ٠

★★★

الحكايات
لافونتين
١٦٩٣م

بالأمس قال معاصرو لافونتين عنه ـ ضمن ما قالوا ـ انه « ساذج »… واليوم ـ وقد انقضى على وفاته قرابة ثلاثة قرون ـ يجيء أساتذة النقد فيقطعون بأن طبيعته ما تزال لغزا لم يحل بعد : يقول رينيه بريه : ان الغموض ما يزال يكتنف حياة لافونتين وتاريخ انتاجه، ويقول أنطون آدم : انه لمن الصعب أن يسبر غور هذا الرجل … وفي الماضي كان الناس يعتقدون أن حكايات لافونتين موجهة الى الأطفال ولكن سانت بيف يقول في القرن التاسع عشر : « ان لافونتين الذى يقدم الى الأطفال لا يمكن أبدا للقارىء أن يتذوقه جيدا الا بعد سن الأربعين » … من هو اذن هذا الرجل الذى صارت حياته كالأسطورة ، هذا الشاعر الفريد الذى لا يشبه شاعرا آخر على الاطلاق ؟ ما كنه فنه الذى أخفق فى تقليده عشرات من الكتاب فى حياته وبعد مماته ؟!

★★★

حيـــاة لافونتـــين

ولد «جان دى لافونتين» عام ١٦٢١ فى اقليم شمبانيا بفرنسا من أب كانت له حراســـة الغابات فى اقليمه ، وهو منصب لا بأس به وورثه الابن عن أبيه وشاءت الأيام لأديبنا ألا يتلقى من العلم الا مبادىء لا تغنى ولا تفيد لكن سرعان ما اجتذبه الأدب الى حظيرتـه فأخذ يطالـع الروائع الأدبية فى مكتبة جده الغنية بالنفائس فدرس آثار « مارو » و « رابليه » وغيرهما من أعلام الأدب فى القـرن السادس عشر . والعجيب أن لافونتين الذى خلقه الله كاتبا لم يفكر فى حمل قلمه الا بعد زمن طويل أنفقه فى القراءة فكانت أول آثاره ترجمة عن « ترنس » المسرحى المعروف فى أدب الرومان الأقدمين ثم انتقل لافونتين من الريف الى باريس حيث لم يلبث أن سطع نجمه وذاع اسمه فى عـالم الأدب وقد عاش فى باريس عيش المستهتر الذى لا يأبه لشىء ينشد متعة نفسه ، وسرعان ما وجد من رعاة

الأدب الأغنياء من يجعله فى كنفه ويغدق عليه المال فاكتفى بذلك وأخذ يتنقل بين مشاهد الحياة كأنها هو الطفل سذاجة وصراحة واستخفافا بأعباء العيش ولكنه فى حقيقة الأمر انما كان ينظر الى الأشياء بذلك البصر النافذ الذى يكشف عن كوامن النفوس ، وقد تملكه احساس قوى يعبث بالأشياء ويشعر بتفاهتها .

كان لافونتين أثناء اقامته فى باريس يخالط أئمة الأدب فى عصره : بوالو وموليير وراسين فكان الأربعة يجتمعون على فترات منتظمة فى حانة أو فى منزل لكنه الى جانب ذلك كان يعاشر صحبة السوء حتى تلوث اسمه فكان ذلك سببا فى أن يشير على الملك مشيروه الا يأذن بقبوله عضوا فى المجمع الفرنسى فلما مات أحد الأعضاء رشح لملء مكانه اثنان هما لافونتين وبوالو وهما صديقان حميمان ، وكان القصر يؤيد بوالوا والمجمع يفضل لافونتين فاختاره المجمع دون زميله فأرجأ الملك موافقته وأوشك أن يرفض ما قرره المجمع لولا أن خلا مكان جديد فانتخب له بوالو وحل بذلك الأشكال ومع ذلك ، فقد أشار الملك عند اعلان الموافقة على لافونتين اشارة لها مغزاها :« لكم ان تضموا لافونتين فقد وعد أن يكون حكيما » ولما اقترب لافونتين من ختام حياته تاب وندم على مجونه ومات سنة ١٦٩٥ ورعا تقيا !! .

★★★

أعمال لافونتين

ويروى لافونتين أنه لم يكن يفطن الى أنه رزق موهبة الشعر الا ذات يوم حين قرأ عليه أحد الضباط فى قصيدة لماليرب عن احدى محاولات اغتيال الملك هنرى الرابع هنا شعر برغبة ملحة فى قرض الشعر وبدأ يكتب منه قطعا كانت رديئة كلها ... على أن الشىء المسلم به هو أن نبوغه لم يظهر الا فى سن الأربعين .. كيف ؟ فى عام ١٦٦١ غضب لويس الرابع عشر على فوكيه فأمر بسجنه واذا بصداقة لافونتين وعرفانه يطلقان لسانه بأول أشعار تلوح فيها ملامح العبقرية : كتب قصيدة طويلة عنوانها L'Elegie auxnymphes du vaux هى التماس بالغ التأثير موجه الى الملك المستبد ... فالحق أن لافونتين كان مشبعا بروح تلك الصداقة النادرة التى لم تكتب من وحيها صفحات كثيرة والتى لم يعبر عنها فى الأدب الفرنسى بعمق يستأثر بالنفوس سوى مونتنى وجزع لافونتين لما لحق صديقه من عنت الملك الطاغية ومرض ثم رحل الى ليموزان وفى

رحلته كان يكتب ما يشبه المذكرات ويوجهه شعرا ونثرا الى زوجته، مذكرات تنطق بالألم والحسرة من أجل صديقه المنكوب ·· وتوقف في طريقه في أمبوز فبحث عن مبنى سجنها الذى زج فيه بفوكيه وجمد أمام بابه ولم « يبرح مكانه حتى أدركه الليل » · لقد كانت الصداقة شيئا حيويا في حياة لافونتين ملكت عليه نفسه وألهمته في كثير من أشعاره وهى تصلح لأن تكون موضوعا لرسالة قيمة يتناول فيها الباحث — بالضرورة — علاقة لافونتين بموليير وراسين وبوالو وشابل عن فوكييه ·

وشخصية لافونتين تسترعى الانتباه حقا وهى بدورها تكون مادة خصبة لدراسة سيكولوجية شائقة لندعه أولا يتكلم :

انى أحب اللعب والحب والكتب والموسيقى ·
والمدينة والقرية وبكلمة واحدة كل شيء ·
ولا شيء قط يعجز عن امتاعى أيما امتاع ·
حتى ولا تلك اللذة الكئيبة التى يحسها قلب مبتئس ·

وينادى اللذة فيقول :

أيتها اللذة أيتها اللذة يا من كنت فيما مضى مسيطرة
على أجمل عقل في اليونان ·
لا تستخفى بى تعالى واسكنى لدى ·
انك لن تكونى بلا عمل ·

وكيفما كان سعيه وراء اللذات فمن المؤكد أن حقيقة الأمر قد تأثرت بفعل الأساطير التى نسجت حول سمعة هذا الرجل « الطيب » وهناك شيء آخر لا تعرف الحقيقة عنه بدقة قاطعة هو حديثه أكان مملا ؟ أكان طليا ؟ الآراء في ذلك متناقضة · كتب فولتير الى فوفتارج : « ان طبيعة هذا الرجل الساذج من البساطة بحيث كان حديثه لا يعلو على الحيوانات التى كان يمنحها الكلام · ان النحلة رائعة · ولكن حين تكون في خليتها فان غادرتها لم تصبح أكثر من ذبابة » ·· بينما يرى « سانت بيف » ان صاحب الحكايات كان محدثا لطيفا في الأوقات التى لم يكن فيها مغرقا في التفكير والشرود ويقول لويس راسين ان من الموضوعات التى كانت « توقظ » لافونتين وتثير تحمسه أفلاطون ··· ويضيف فيرجييه الى أفلاطون السلام والحرب والنبيذ والنساء ·· ولكن أية فئة من النساء ؟ — هؤلاء اللائى لا يقتضى الوصول اليهن بذل جهد طويل ··

★★★

ولم يكن لافونتين يعرف أين توجد عبقريته ، فلم يستقر في نوع من الأنواع الأدبية وانما كان دائم التجول بينها جميعا وان كان — مع ذلك — كثير التردد على « الحكايات » أو « الخرافات » التى تكدست وملأت اثنى عشر كتابا نشرها فى ثلاثة دواوين سنتناولها فى الصفحات التالية بالبحث والتحليل .

وشهادة لافونتين عن نفسه خير ما يقال عن عدم استقرارم هذا ومحاولته الابداع فى شتى أنواع الأدب لندعه يعترف :

انى فراشة الشعر أشبه النحل .

وانى لشىء خفيف أطير الى كل موضوع .

كتب — ارضاء لدوقة بويون واستجابة لرغبتها — مجموعة كبيرة من الأقاصيص بالشعر وهو انتاج منحرف ينم عن مزاجه العابث وعن ابيقوريته ويزخر بالتفاصيل التى قد تهدر كرامة القارىء أو تخدش حياءه .. شىء عجيب : لقد أصابت هذه الأقاصيص نجاحا كثيرا .. وكتب عددا من الكوميديات أهمها « الأغا » التى قلد فيها الشاعر اللاتينى تيرنس ولكن هذا الجزء من انتاجه لا يكاد يذكره أحد — والف مأساة لم يتمها هى صوت أخيليوس وكتب رواية مطولة بعض فقراتها بالشعر أطلق عليها « مغامرات بسيشيه » بسيشه — فى الأساطير اليونانية — فتاة رائعة الجمال أحبها كل الحب وانتهى الأمر باقترانهما) ولعل من أهم وأصدق انتاجه الثانوى تلك القصيدة الطويلة التى قالها دفاعا عن فوكيه محاولا فيها انتزاع عفو لويس الرابععشر عنصديقه هذه القصيدة هى Elegie aux nymphes de vaux تضاف الى كل هذا رسائله الشعرية وكان أهم ما وجه منها الى هوييه والى مدام دى لاسبلير .... الشىء الذى ينبغى ذكره هو أن الانتاج الوحيد الذى كان يتناسب مع عبقرية لافونتين هو « حكاياته » التى صاغها على ألسنة الحيوانات .

لافونتين أمير الحكايات الخرافية

وأما « الحكايات الخرافية » فهى آيته الخالدة التى اتصفت بكل ما اتصفت به القصص من مزايا ثم سلمت بعد ذلك نقائصها ففيها ما فى « القصص » من براعة الرواية وحسن الفطنة والسخرية والخيال والرشاقة والتنوع ومرونة النظم ولا تشوبها شائبة من افراط ومجون ، فقد أثبت لافونتين انه أمير « الحكاية الخرافية » فى آداب العالم أجمع غير منازع فما يزال الناس ولن يزالوا يطالعونها فى شوق ورغبة « فالطفل يغتبط بها لما فى القصة من نضارة ونصوع ، وطالب الأدب المتحمس يشوقه فيها

الفن الرفيع الذى ينتظم رواية الحوادث والرجل الذى حنكته تجارب الدنيا يستمتع بها لما فيها من لمحات دقيقة عن الحياة وأخلاق الناس ٠

لم تكن موضوعات « الحكايات الخرافية » من خلق لافونتين وابتكاره فقد يتناول حكاية شائعة يتناقلها الناس فى أحاديثهم ، وقد ينقل حكاية قرأها لكاتب هنا أو كاتب هناك وأنك لتعلم سعة اطلاعه من تنوع المصادر استمد منها تلك الحكايات فبعضها شرقى وبعضها من الأدب القديم وطائفة من الأدب الوسيط وأخرى من الأدب الحديث ولكنك تقرأ القصة فى قالبها الجديد فكأنما هى جديدة مبتكرة ، وذلك لأنه يستعير مادتها ثم يخرج المادة المستعارة مطبوعة بطابعه موسومة بروحه وعبقريته فنبوغ لافونتين ـ كما يقول « سانت بيف » ـ فى طريقة الأداء لا فى مادة الموضوع ٠

والحكاية الخرافية فى رأى لافونتين قوامها عنصران : الجسد والروح فأما الجسد فهو القصة ذاتها وأما الروح فما تدل عليه القصة من مغزى ٠ وهو يصف « الحكايات الخرافية » فى مجموعها بأنها ملهاة طويلة تشتمل على مائة فصل يختلف بعضها عن بعض وأما الأشخاص فى هذه الملهاة الكبرى الا صنوف الحيوان فى معظم الأحيان جريا على تقليد عرف فى أدب الحكاية الخرافية منذ أقدم العصور ٠ وجدير بنا فى هذا الصدد أن نذكر حقيقة عن لافونتين وهى حبه للحيوان ودقة ملاحظته لطرائق عيشه ، لهذا كان بارعا فى فنه صادقـا فى نظرته كلما عرض حيوانـا فى موقف من المواقف ولم يكن أقل براعة وصدقا حين ساق فى حكاياته أشخاصا من البشر وليس ثمة فرق فى حقيقة الأمر بين أن يعرض أفرادا من الحيوان أو أفرادا من الانسان ، فهو فى كلتا الحالتين انما يصور النماذج البشرية البارزة فى عصره ـ يصور الملك ورجال الدين ورجال القانون ورجال المال من « البورجوا » كما يصورها الزارعين السذج وغيرهم من الطبقات فالحكايات الخرافية التى خلفها لنا لافونتين من أصدق الصور الأدبية التى تعكس دقائق عصرها ٠

وأما « روح » الحكاية الخرافية فهى ـ كما أسلفنا ـ لكننا نخطىء ان ظننا أن لافونتين كان يستخرج المغزى ليتخذه القارىء درسا خلقيا يهتدى به فهكذا ظن بعض الناقدين وأخذوا عليه ـ مثلا ـ أن يعلم الناس للظروف بدل الوقوف فى وجهها كما جاء فى حكاية « السنديانة وقصبة الغاب » انه بمثل هذا يسجل ما هو واقع كما تشهد به التجربة ولا يقرر قواعد الأخلاق كما يجب أن تكون ٠ ومن الاجحاف أن نعيب على الكاتب تصويره للحياة الواقعة كما شاهدها ومارسها ، فليس لافونتين بالأديب الذى يحصر نفسه

وحياته فى حدود العرف والتقليد ، ولعل أكبر ما يميز « حكاياته الخرافية » عن حكايات السالفين – مثل ايسوب – هو أن عنصر التعليم والارشاد فى أدبه ضئيل جدا اذا قيس بحكايات أولئك فلافونتين متفرج يراقب الحياة بنظر ثاقب نـاقد فيرى منها وجه الرذيـلة والحمق والنفـاق ثم يسخر مما يرى سخرية لاذعة لكنها حلوة الفكاهة مستساغة ٠

ولئن عـد أدب لافونتين اتباعيا بسبب اعجابه بالقدماء وعنـايته الشديدة بالتجويد والصناعة فهو فى حقيقة الأمر لا يجرى مع الاتباعيين الى نهاية الشوط لهذا الذى تراه فى أدبه من حرية الابتكار والتنوع فهو مثال فريد فى أدب القرن السابع عشر ٠

وبعد ، فكتاب « القصص » وكتاب « الحكايات الخرافية » وحده يتمم أحدهما الآخر بحيث يكونان معا « لافونتين » فلا تستطيع أن تحكم عليه بهذا الكتاب دون ذاك وأهم ما يمتاز به الكاتب : أولا أسلوبه من حيث المرونة والتنوع وثانيا – سلاسـة القصـة فى رواية منظـومة فليس يعوق النظم عنده مجرى الحوادث فى سهولة وتدفق وثالثا – براعته فى الرمز والايماء ٠ ولهذه الحسنات فى أدبه يكاد يستحيل على قارىء أن يقرأه ولا يفتتن به والعجيب أن «لافونتين» فى غير قلمه غر ساذج ، أما اذا حمل القلم ليكتب كان اللوذعى الحاذق المتعمق البصير بطبائع البشر ٠

وسنسوق لك فيما يلى مثلا من « حكاياته الخرافية » ٠

***

ملخص الحـــكايات

الكتاب الأول :

الصرصور والنملة ـ الغراب والثعلب ـ الذئب والكلب ـ فأر المدينة وفأر الحقول ـ الذئب والحمل ـ الموت والحطاب (الانسان يفضل الحياة الشاقة على الموت » ـ شجرة البلوط وعود البوص (ربما كانت هذه الحكاية أحسن ما فى هذا الجزء ·· مغزاها أن المرونة أجدى من التصلب) ·

الكتـــاب الثــانى :

النسر والخنفساء (الخنفساء تثأر للأرنب الذى خطفه النسر بأن تسرق بيضه ثلاثة أعوام متتابعة فتجبره على الاعتراف بجرمه) ـ الأسد والفأر (مغزاها أن الانسان كثيرا ما يحتاج الى من هو أضعف منه) ـ رجل الفلك الذى هوى فى بئر (استطراد فلسفى بشعر رصين) الأسد والذبابة الصغيرة (يقينا أنها أحسن ما فى هذا الجزء انها تشبه الملحمة فى حركتها وسمو أسلوبها) ·

الكتاب الثــالث :

الطحان وابنه والحمار (ملهاة رائعة تحتوى على درس بليغ فى الأخلاق : اذا كان الاصرار رذيلة الحمقى ، فان التردد يشين السلوك ويقضى على فاعلية الجهود) ـ الضفادع التى طالبت بملك (تصوير لتقلب الشعوب) ··· لقد دفع الغرور الضفادع الى الاطاحة بسيدها الذى كان دمث الخلق محبا للسلام فأرسل اليها ملك الآلهة طائرا كبيرا ليحكمها ولكنه أهلكها بالافتراس والتقتيل) الثعلب والتيس (مثل للطيش وقصر النظر) ··· « ان نظر التيس الى الأمور أقصر من لحيته » ·· لقد اجتذبه الثعلب الى بئر وقع فيها الأسد الذى أدركته الشيخوخة (درس نافع للقوة التى يصيبها الاضمحلال) ·

الكتاب الرابع :

العجوز وابناؤه (مغزى هذه الحكاية أن القوة تعتبر ضعفا بغير اتحاد) _ الضفدع والفأر (أراد الضفدع أن يأكل فأرا فحاول بخدعة استدراجه ليلتهمه فى الماء وهنا ظهرت حدأة فالتهمتهما معا) .

الكتاب الخامس :

الوعاء الخزفى والوعاء الحديدى (استنجد الوعاء الخزفى بوعاء من حديد ليحميه فى رحلته ولكنه ارتطم به فتهشم) ... مغزى هذه الخرافة أنه يجدر بالانسان ألا يتحد الا مع من يتساوون به) _ الفلاح وأبناؤه (حكاية مغزاها أن العمل أضمن وأثمن موارد الانسان) .

الكتاب السادس :

الأرنب والسلحفاء (مغـــزاها أن التسرع لا طائل فيه ففى التأنى السلامة) _ سائق العربة التى انغرست فى الوحل (السائق يتخاذل ويستنجد بهرقل ولكن هرقل يرد عليه بقوله : « ان هرقل يريد أن يتحرك الناس قبل أن يساعدهم » ... ويتحفز الرجل ويوفق فى انتزاع عربته من الوحل ... مغزى هذه الحكاية : « ساعد نفسك تساعدك السماء » .

الكتاب السابع :

الحيوانات المصابة بالطاعون (هجاء موجه ضد ظلم الأقوياء والى المتملقين على السواء _ الفأر الذى انعزل عن الدنيا) هجاء ضد النفاق : فأر يتخذ من قطعة جبن صومعة يتبتل فيها .. ويلجأ اليه اخوانه فى الضراء القديم ليمد اليهم يد المعونة ولكنه يخذلهم انه يكتفى بمنحهم بركاته) . بلاط الأسد (درس فى الحيطة : الأسد يدعو أتباعه الى زيارته فى بلاطه أى فى عرينه ذى الرائحة الكريهة .. ويستاء الدب فيسد أنفه واذا بالأسد يقضى عليه بالموت بتهمة الوقاحة .. ويزعم القرد أن الرائحة « الهية » فيتقزز الأسد من ملقه الوضيع .. أما الثعلب فيدعى أنه عاجز عن الشم لأنه مصاب بالزكام ! » .

الكتاب الثامن :

الاسكافى ورجل المال (قصة اسكافى تلقى مالا لم يسعده فى حياته .. ولم يحقق لنفسه السعادة الا حين رد هذا المال الى صاحبه .. ان السعادة ليست فى المال وان الغنى الحقيقى فى زوال الهموم) .

(الصديقـان) حكاية ممتعة تنم عن حب لافونتين ليصداقة المخلصـة — بعض أبيات هذه الحكاية صارت مأثورة :

ما اجمل ان يكون لك صديق حق ! .
انه يبحث عن حاجاتك فى أعماق قلبك
وهو يجنبك الشعور بخجل .
الافصاح عنها له بنفسك .

جنازة اللبؤة (صورة لزيف عواطف رجال القصور) .

الكتـاب التاسع :

القط والثعلب (تفاخرا وهما فى الطريق : أيهما أبرع من الآخر .. وفاجأتهما مجموعة من الكلاب .. بادر القط بتسلق شجرة وأخفقت حيل الثعلب للفرار فخنقته الكلاب يقول لافونتين فى هذه الحكاية :

ان تعدد الحيل قد يفسد الأمر .
لأن الانسان يضيع وقته فى الاختيار والمحاولة .
انه يريد أن يفعل كل شيء
لتكن لديك وسيلة واحدة ولكن وسيلة طيبة) .

الصـدفة والمتنازعان (هجاء ضد التخاصم : مسافران يتنازعان على صدفة عثرا عليهـا ويمر قاض فيحسم ما بينهما من خلاف .. لقد التهم لب الصدفة وأعطى كلا منهما احدى فلقتى غلافها) .

الكتـاب العـاشر :

يستهل لافونتين هذا الجزء بقطعة شـعرية طويلة تقع فى مائتين وأربعين بيتا مهداة الى مدام دى لاسبليير وبعد أن يزجي مدحا رقيقا الى ولية نعمته ينبرى لديكارت داحضا نظريته القائلة بأن الحيوانات ان هى الا مجرد آلات تتحرك ومستندا فى مهاجمته الى كثير من الأمثلة التى تدل — على العكس — على ذكائها . من هذه الأمثلة حكاية الفأرين اللذين نجحا فى خداع ثعلب بأن سرقا بيضـه منه ! كيف ؟ لقد استلقى أحدهما على ظهره وأمسك بالبيضـة بين ذراعيه بينما أخذ الآخر يجره من ذيله .. السلحفاة والبطتان (ان الغرور يؤدى الى أوخم العواقب : رفعت بطتان عصا بمنقاريها كل منهما من طرف .. وتعلقت سلحفاة بفمها فى وسط العصا .. وأثار الركب فضول واعجاب المارة فكانوا يتنادون صائحين : « يا للأعجوبة تعالوا اشهدوا ملكة السلاحف ! » واذا بالسلحفاة ترد عليهم

قائلة : « الملكة هذا حق ! انى أنا الملكة ! وحين تكلمت الحمقاء أفلت فمها فهوت على الأرض وتهشمت » ٠

الكتاب الحادى عشر :

لم يكن لافونتين يدرى أنه سينشر حكايات بعد اتمام هذا الجزء الأخير من الديوان الثانى فجعله بمثابة تذييل لكتبه السابقة مودعا فيه انتاجه ومتمنيا أن يصادف كتابا أفضل منه ٠ يقول :

لقد افتتحت على الأقل الطريق ٠

وسيتاح لآخرين أن يتموا ما بدأت ٠٠

وهذا الجزء يحتوى على تسع حكايات أهمها :

« العجوز والشبان الثلاثة » (مر ثلاثة شبان بشيخ يزرع أشجارا فسخروا من شيوخته الطموحة فرد الرجل بأن الأشجار التى يغرسها قد تنفع أبناءه ، وبأنهم ــ مع ذلك ــ قد يموتون قبله ٠٠ وحدث بالفعل أن توفوا جميعا قبله فأقام الشيخ لذكراهم نصبا كان يرويه بدموعه) ٠

الكتاب الثانى عشر (الديوان الثالث والأخير) :

كان لافونتين يدنو من نهايته حين ألف هذا الجزء الذى نشره وهو فى الثالثة والسبعين من عمره لقد فترت حيويته وغدا يهتم بالتفاصيل العميقة ٠٠ ومع ذلك فليس هذا الكتاب بالغ الرداءة ٠٠٠ وأهم ما ورد فيه من حكايات : القط العجوز والفأر الصغير (عن الشباب الذى يزهو ويحسب أن فى وسعه الحصول على كل شىء) ٠٠ الغابة والحطاب (فى هذه الحكاية درس رائع للجاحدين) ٠

★★★

من حكايات لافونتين

بــلاط الأســد

صاحب الجلالة الأسد يوما أراد
ان يعلن على أى الشعوب حكمته السماء سيدا
فارسل الرسل ينادى
تابعيه من كل جنس
باعثا فى أرجاء ملكه بكتاب
وعليه خاتمه ومضمون الخطاب
ان الملك سيعقد خلال شهر
مجلس البلاط كاملا وستكون الفاتحة
وليمة عظيمة باذخة
يتبعها من القرد ألعاب
فبمثل هذا الحفل العظيم
سيعرض الأمير ماله على الرعية من نفوذ
وقد دعاهم الى قصره
ويا له من قصر ! مخزن فيه الأشلاء مكدسة
تنبث منها الرائحة الى الأنوف فزم الدب خيشومه
الا ما كان أغناه عن مثل هذا الزم !
فقد عاد اليه بالويلات اذا استشاط الملك غيظا
فارسل الدب الى « رب الجحيم » يتقزز بين يديه
واهتز القرد من طرب هذه القسوة الصارمة
وامتدح غضبة الأمير عن رياء مفرط
كما اعجبه من الأمير مخلب وعرين ورائحة
ولم تكن الرائحة عنبرا ولا وردا
لكن رياءه الأحمق لم يصب نجاحا بل لقى شر الجزاء
وكان السيد الأسد بهذا

شبيها « بكالجولا »
وكان الثعلب على مقربة فقال له مولاه :
« وانت ماذا تشم ؟ خبر تكلم ولا تخف شيئا »
فاعتذر الثعلب من فوره
متمارضا بالزكام الشديد وليس فى وسعه الحكم •
بغير عضو الشم وجملة القول أن تخلص الثعلب
فليكن لك ذلك عبرة :
ان اردت فى بلاط الملك ان تصادف القبول
فلا تخلص الحديث ولا تمعن فى نفاق مرذول
وحاول ما استطعت ان تجيب بما فيه النجاة

***

جنـــازة اللبـــؤة

ماتت زوجة الأسد
فهرول كل واحد
ليوفى للأمير
بعض عبارات العزاء
المفعمة بالحزن
وأمر الأمير باخطار اقليمه
بزمان الجنازة ومكانها
كما أمر بان يحضرها حرس القصر
لينظموا الموكب
وليصحبوا الرفاق الى أماكنهم
تصور أن كل واحد من هؤلاء الرفاق قد حضر
وأمعن الأمير فى الصراخ
وكان عرينه يدوى
ان الأسود لا تملك معبدا غير عرينها

وسمع أفراد الحاشية ـ متشبهين بالأمير ـ
وهم يزأرون كل بلهجته
انى أعرف البلاط بانه بلد الناس فيها
على استعداد للابتئاس والاغتباط بالرغم من انهم لا يبالون بشيء
انهم يتصرفون بما يرضى الأمير فان أعجزهم الأمر حاولوا على الأقـل التظاهر به
شعب كالحرباء شعب يحاكى سيده
كان يخيل المرء وكان روحا واحدة تشيع فى الف من الأجساد
ان الناس فى هذه الحال مجرد آلات
ولنعد الى شأننا
لم يذرف الوعل عبرة واحدة ، اذ كيف كان فى مقدوره ان يبكى ؟
ان هذا الموت يثار له : لان اللبؤة فيما مضى كانت قد خنقت زوجته وابنـــه
وباختصار لم يبـك . وراح أحد الداهنين يقول ويؤكد انه شاهده وهو يضحك
ان غضب الملك ـ كما يقول سليمان ـ غضب فظيع ولا سيما ان كان الملك أسدا
ولكن الوعل لم يكن متعودا على القراءة
قال له الملك : « أيها الهزيل ساكن الغابة ،
انت تضحك ولا تتبع هذه الأصوات الناحبة !
اننا لن ندخل أبدا فى اعضائك الدنسة
اظافرنا المقدسة فتعالوا يا ذئاب
خذوا بثار الملكة واقتلوا جميعا
هذا الخائن من أجل روحها المبجلة » .
حينئذ قال الوعل : « مولاى ان وقت البكاء قد انقضى ،
والألم الآن لا طائل فيه ،
ان شريكتك الفاضلة قد ظهرت لى فى حلم
وهى مسجاة وسط الزهور ،
ولقد تعرفت عليها ،
وقالت لى : « أيها الصديق احذر ان يدفعك

هذا الموكب الى البكاء حين ساذهب الى الآلهة •
فلقد حظيت فى رحاب الجنة بشتى انواع النعيم
اذ تحادثت مع امثالى من القديسين ،
لتدع الجزع بعض الوقت يلم بالملك ،
فذاك أمر يسعدني » • ولم تكد تسمع هذه الكلمات حتى علت
الصيحة : « اعجوبة ! مجد ! »
ولم ينل الوعل اى عقاب بل ظفر بعطاء •
انك ان رفهت عن الملوك بذكر الأحلام ،
وان تملقتهم ، وان سقت اليهم الممتع من الأكاذيب
فمهما كانت قلوبهم مفعمة بالسخط ،
فسيبتلعون الطعم وستصبح صديقا لهم •

★★★

تحليل الجمال

وليم هوجارث

١٧٠٤ م

ان الاحساس بالجمال وتقدير القيم الجمالية من أهم العوامل التى تؤثر فى كل فرد من حيث هما مقياس للمفاضلة بين العوامل الخارجية كما أنهما دعامتان قويتان من دعامات سعادة الانسان وشعوره بالبهجة واللذة ٠

ولما كان الجمال – كأية ظاهرة اجتماعية – ديناميكيا متفاعلا متطورا فى مثله العليا ومقاييسه الخاصة من فرد الى فرد ومن بيئة الى بيئة كان من واجب كل مستنير أن يلم – ولو بعض الشيء – بالموضوع الجمالى والا فانه يحرم نفسه من جانب من جوانب السعادة فى الحياة ٠

***

ويختلف الناس فى تحديد معنى الجمال وان كانوا يستخدمون هذه الكلمة كثيرا فى حياتهم اليومية فهم يطلقون كلمة جميل على مظاهر كثيرة تختلف فى طبيعتها وتكوينها وهم لا يعرفون ناحية من أوجه الشبه بين هذه المظاهر ٠٠٠ اننا كثيرا ما نسمع عن هذا المنظر الطبيعى انه جميل أو أن هذه الصورة أو ذلك التمثال جميل ، أو أن فى هذه القصيدة جمالا ٠٠ ان هذا المبنى جميل وذلك النغم الموسيقى جميل ٠٠ وهكذا نجد تباينا شاسعا فى الموضوعات التى يمكن أن نصفها بالجمال ، حتى اننا لا نكاد نستطيع أن نجد ناحية من أوجه التشابه بين هذه الموضوعات ومع ذلك فنحن نحمل عليها جميعا محمولا واحدا وهو صفة الجمال ٠

ومع أننا لا نستطيع فى اللحظة الراهنة أن نضع مرادفا لكلمة جميل، فاننا نرى أن نميز أولا بين هذه الكلمة وبين بضعة ألفاظ أخر قد تختلط بها من حيث المعنى فى ذهن بعض الناس ٠

فليس من اللازم أن يكون « الجميل » « مفيدا » كما أنه ليس من اللازم أن يكون المفيد جميلا واذن هناك فارق بين معنى هاتين الكلمتين٠ولعل من الأمثلة التى نوضح بها الفارق بين المعنيين أننا لا نستطيع أن نقول على الدواء المر انه جميل أو أن نقول حتما على المنظور الجميل انه مفيد بل وأكثر من ذلك اننا يمكن أن نقول على بعض الحشرات المؤذية للانسان أن فيها جمالا ، بل ان الثعبان والنمر وبعض الطيور الجارحة قد نحس بما فيها من جمال فالجمال اذن يختلف عن الفائدة ٠

وليس الجميل أيضا هو « الصالح » أو « الملائم » حقيقة يجوز أن نطلق هذه الكلمة على بعض ما هو ملائم ولكن ليس كل ملائم وصالح جميلا .. فنحن لا نستطيع أن نطلق دائما كلمة جميل على اية آلة هى أنسب وأصلح ما يؤدى عملية من العمليات .

وينبغى أن نفرق أيضا بين ما هو « لذيذ » وما هو « جميل » فنحن نشعر باللذة من بعض الطعوم أو من بعض الروائح كرائحة البحر ومع ذلك فنحن لا نطلق كلمة جميل على هذه الأشياء بالرغم من أن بعض الناس يستعملونها خطأ بهذا السبيل .

ولقد كان بعض قدماء الفلاسفة يستخدمون كلمة (الجمال) على أنها مطابقة لكلمة « خير » أو « كمال » فكل ما هو « خير » من الناحية الخلقية أو كل ما يساعد الحياة على النماء والقوة فى نظرهم جميلا ، وما يزال فى علم الجمال رأى يأخذ بهذا المنطق فيعتبر أن الجمال خاضع للمعيار الحيوى كما هو خاضع أيضا للمعايير الأخلاقية . والواقع أنه ينبغى أن نفرق بين ما هو جميل وما هو خير ، ان المرأة الجميلة فى منظرها قد تكون شريرة فى أفعالها ، كما أن الفنان قد يبرز لوحة تمثل شحاذا ضعيفا متسولا فى شارع ضيق مظلم ومع ذلك تحس ما فى هذه اللوحة من جمال ولعل هذا ما يسوقنا الى أن نفرق بين الجمال الطبيعى والجمال الفنى فقد يكون هناك جواد ضعيف متخاذل لا يقدره البيطرى ومروض الخيول اللذان يسعيان الى البحث عن القوة الجسمية ومع ذلك يستطيع الفنان أن يبرز بهذا الجواد الهزيل صورة يتمثل فيها الجمال الذى يأخذ بالألباب .

واذن يتوقف الجمال الفنى على قدرة الفنان على التعبير ونخلص من هذه التفرقة الى العبارة المشهورة « ان كل جميل هو موضوع لدراسة علم الجمال ولكن ليس موضوع علم الجمال دائما جميلا ، ذلك أن الجمال الطبيعى قد يكون موجودا أو غير موجود ومع ذلك يستطيع الفنان بكفاءته الخاصة أن يحقق جمالا فنيا » . ونصل من هذا الرأى الى أن كلمة (قبيح) ليست مقابلة لجميل كما هو فى اللغة فالضدان لا يجتمعان فى حين أننا نستطيع أن نجد فى القبيح جمالا ، انظر الى صورة المسخة الذى يلعب بالكرات الملونة ألا تستطيع أن تجد فيها جمالا ، انظر الى القطعة التمثيلية التى تصور البؤس والقبح لا شك فى أننا قد نعجب بالتمثيل ونجد فيه جمالا فنيا .

ولقد اتجه بعض اليونان القدماء عند حديثهم عن الجمال الى دراسة التماثيل اليونانية الجميلة التى تمثل آلهة اليونان فى صور المثل الأعلى للنوع الانسانى وكأنى بهم يوحدون بين الجمال وبين المثل الأعلى للنوع فالحصان الجميل هو أقوى وأحسن ما يمكن أن يوجد عليه الحصان

أو ما يمكن أن نتخيله به ، والرجل الجميل هو الرجل الذى يتوفر له أقوى ما يمكن من عضلات وعلاقات ونسب. ان فى النموذج الكامل للنوع جمالا ولكن ليس الجمال وقفا على هذا النموذج الكامل بل قد يتوفر الجمال فى الشذوذ النوعى بل وفى الضعف والنقص والتشويه ذاته .

ويرى بعض النقاد أن الاعجاب بالقبيح ليس فى قدرة الفنان على تقليد القبيح وابرازه كما هو بل فى ابراز مشاعر معينة فالقبيح الذى يبرزه الفنان هو القبيح كما يشعر به الفنان وليس هو القبيح فى ذاته ... وهذا ما يجعل تقدير الفنان عند ابرازه القبح بصورة جميلة يمتاز عن تقدير الفنان عند ابراز الجميل جميلا ، لأنه يحتاج فى الحالة الأولى الى مهارة فنية فائقة .

ونود أن نشير الى ذلك التساؤل عن ذاتية الجمال وموضوعيته هل الجمال فى ذاته حقيقة قائمة بنفسها فى العالم الخارجى أم أنه ظاهرة نفسية يحس بها الفرد فى ذاته بحسب اللحظة الشعورية التى يمر بها ؟؟.. ازاء هذا السؤال انقسم المفكرون فى علم الجمال الى قسمين رئيسيين :

فالقسم الأول يرى أن الجمال ظاهرة موضوعية لها وجودها سواء أحسست بهذا الوجود أو لم أحس به ، فالجمال قائم بنفسه وموجود خارج النفس الشاعرة وكان من زعماء هذا الرأى الفيلسوف اليونانى أفلاطون الذى يرى ان الشىء يكون جميلا اذا ما توفرت فيه صفات معينة سواء وجد من يحكم عليه بهذا الجمال أم لم يجد ، فالجمال مجموعة خصائص اذا تحققت فى الشىء أصبح جميلا واذا امتنعت عن الشىء لا يعتبر جميلا وهكذا تتفاوت نسبة الجمال فى الشىء بحسب مدى اشتراكه فى مثال الجمال الخالد .

وأما الرأى الثانى فيذهب الى أن الشىء يكون جميلا عندما تراه كذلك أى أن الجمال ليس ظاهرة موجودة الا فى شعورنا فقط فالجمال صفة ذاتية يتوقف الشعور بها على حالتنا النفسية فظاهرة غروب الشمس مثلا يراها عدد كبير من الناس كل يوم ولكن البعض القليل من هؤلاء يحس بجمال هذه الظاهرة فى حين يحس البعض الآخر بأنها ظاهرة موحشة حزينة وقد لا ينتبه اليها الباقون أو هم لا يحسون نحوها بشعور ما .

ولسنا نود هنا أن نعرض لتلك المناقشات الطويلة فى فلسفة الجمال بخصوص هذه المشكلة فلكل من الجانبين حججه القوية ، ولكننا نكتفى بأن نشير بأن للجمال جانبا موضوعيا قائما سواء وجد من يدركه أم من لم يحس به وله جانب ذاتى يلعب دورا كبيرا فى ادراكنا لهذا الجمال ... ذلك أن الطبيعة والمجتمع من ناحية هما اللذان يقدمان عناصر هذا الاحساس بالجمال فلو رجعنا الى الانسان البدائى لوجدناه أيضا يحس بما فى هذه

الطبيعة من جمال سواء فى مناظرها أم فى حيواناتها ، فيأخذ بنفسه فى وقت الفراغ بمحاولة اثبات ما يحس به من اعجاب على جدران الكهوف ولولا أن هذا الانسان أحس بنفسه بهذا الجمال لما عمل على اثباته فالموضوع الخارجى من ناحية ، والاحساس بهذا الموضوع من ناحية أخرى هما وجها المسألة التى لابد من توفرها . فالجمال اذن كقطعة العملة ذات الوجهين أحدهما هو الجانب الذاتى وأثره فى الشعور بالجمال والآخر هو الجانب الموضوعى ومدى جوهريته فى اثارة هذا الشعور الجمالى .

★★★

حياة هوجارت وأعماله

ولد وليم هوجارث فى لندن سنة ١٦٩٧ وكان أبوه وأمه من المهاجرين الذين نزحوا الى لنــدن من وستمورلنــد . وينتميان الى طائفــة اشتهرت (ببرودة) الدم ولقد عرف هوجارث طوال حياتــه بالميــل الى الســخرية وبروحه المتمردة التى نستطيع أن نستشفها من جملة أمثلة مختلفة فمثلا ورغم أن والده كان من المشتغلين بالتعليم ، الا أنه قد نفر من كل دراسة منظمة ، كما أنه يستطيع مواصلة الدراسة فى أكاديمية سان مارتين للفنون بعد التحاقه بها سنة ١٧٢٠ وأدرك أن هذه الدراسة لن تفيده فائدة مشابهة للخبرة التى حصل عليها عند اشتغاله بالحفر على النحاس والفضة تحت اشراف أليس جامبل . ففى خلال عشر السنوات التى أمضاها فى الحفر على الدروع والأسلحة والأطباق الفضية أمكنه أن يخترع طريقة تساعده على نقل لوحات جهابذة أعلام الفن فى مهارة ولكنه أحس دوما أنه قادر على انجاز شىء أعظم من مجرد النقل والاستنساخ أى شىء يساعده على تحقيق المجد الفنى الذى سعى لادراكه ، ومن ثم آثر الانصراف عن النقل وحاول ابتكار رموز تساعده على تذكر ملامح الأشياء المختلفة التى يصادفها حوله وسرعان ما اخترع لغة مختزلة تمثل الأشياء الطبيعية المحيطة به ولم يدرك أن مثل هذه اللغة قد عرفها من قبل الأعلام القدامى اذ أشار اليها شيشرون فى كتابــه De Oratore ، كما أشــار اليها كونتيليان فى Institutes (حول تعليم الخطب) وكانت هذه الرموز تعلم فى القرون الوسطى . هذه الرموز قد ساعدت هوجارث على تذكر المعالم البارزة التى تستطيع الانتفاع بها فى ابداعه الفنى وربما بدت هذه الخطوة بلا أهمية كبيرة هذه الأيــام ولكنها فى القرن الثامن عشر قد عنت أشياء كثيرة اذ هى قد عنت الابتعاد عن المحاكاة والاعتماد على الوعى فى انتقاء الموضوع الفنى .

وبدت كراهية هوجارث لكل صنوف المحاكاة فى ابتعاده عن تقليد القدامى الذين نظر اليهم نظرة تقديس وكانت الصور المستوردة من خارج انجلترا تباع بأثمان باهظة دون مراعــاة لقيمتها الفنية كما كانت الطبقة الأرستقراطية تتباهى بتصــاويرها التى قام برسمها مشاهير الرسامين فى أوربا من أمثال كوريجو وتينتوريتو وهولباين . وفى الحــق هذه الصور أقبح بكثير من صورهم الأصلية التى رسموها لمواطنيهم (والتى مازالت

موجودة فى متاحف أوربا) وأول صورة رسمها هوجارث (١٧٢٤) قد أبرزت حملته ضد أدعياء معرفة الفن وأنصار الكلاسيكية الجديدة وأتباع بالاديو (الفنان الايطالى الذى حاول فرض نوع جديد من الكلاسيكية على الفن) ففى هذا الوقت كان (البالادية) نسبة الى بالاديو تزحف على سائر أنحاء أوربا وتاثرت بها أنواع الفن كافة ٠

واسم هذه الصورة هو Masquerades Opera Burlington Gate وفيها يسخر هوجارث من اللورد بيرلنجتون زعيم هواة الفن ومقتنيه فى انجلترا ويسخر كذلك من هايدجر السويسرى الجنسية الذى كان من ندماء الملك ومن المغنى الايطالى كوزونى ومن وليم كنت راعى بيرلنجتون وفى سنة ١٧٣٥ رسم صورة أخرى لبوابة برلنجتون واشتهرت هذه اللوحة بسبب سخريتها من الشاعر بوب وان كان هوجارث قد قصد بها أيضا السخرية من دار برلنجتون معقل زعماء هواة الفن فى انجلترا ٠

والى جانب هذه الحملة الكبيرة التى وجهها هورجارث ضد هواة الفن البريطانى وأنصار مذهب الكلاسيكية الجديدة هناك والتى يقال فى تاريخ الفن انها قد مهدت للرومانتيكية ، شن هوجارث حملة أخرى ضد الناشرين وقد ترجع هذه الحملة الى نفوره من جميع المشتغلين بالنشر ، اذ اعتبرهم مسئولين عن وفاة والده المبكرة (فقد مات أبوه عندما كان وليم هوجارث فى التاسعة من عمره) وعانى والد وليم هوجارث الأمرين من هؤلاء الناشرين عند اشتغاله بوضع قاموس للغة اللاتينية كسب منه الناشر مكاسب طائلة لم ينل منها وليم ابنه الا قدرا بخسا الى أبعد حد ٠

وتذكر هوجارث هذه المحادثة عندما نشر (١٧٣٢) مجموعة لوحاته المسماة (سيرة غانية) التى ذاع صيتها على الفور وكانت سببا فى شهرته وان كان قد حصل منها على ربح تافه للغاية فسرعان ما ظهرت ثمانى طبعات مزورة لها بيعت باقل من ثمن الصور الأصلية وحدث شىء مماثل قبل ذلك عندما نشر طبعات لصورة Masqueradesand Operas فاضطر لهذا السبب الى رفع الأمر للقضاء ثم انتقلت القضية بعد ذلك الى البرلمان حيث تولى الدفاع عنها لفيف من أعضاء مجلس العموم ونجحت القضية وصدر قانون بحماية حقوق النشر فى مارس سنة ١٧٣٥ ، مازال يعرف حتى الآن (بقانون هوجارث) وبموجبه أصبح الرسام وحده صاحب الحق فى نشر طبعات لوحاته لمدة أربعة عشر عاما ، ونص القانون على الزام المزيفين بدفع خمسة شلنات عن كل طبعة غير مرخصة وعاد هذا القانون بالنفع على هوجارث ، اذ أصبح أول فنان انجليزى لا يخضع لأذواق الأثرياء ويتيسر له اختيار موضوعات لوحاته وفقا لمشيئته وضمن هوجارث تجاربه فى هذا الصدد كتيبا صغيرا بعنوان (قضية الرسامين والحفارين) ونشر هذا

الكتاب بغير ذكر لاسم المؤلف أو لتاريخ النشر وفيه تحدث عن صلة المطابع ودور النشر بالفنان وكيف تدفع هذه الدور مبالغ ضئيلة للغاية ثم تساعد على تزوير اللوحات المستنسخة بحيث تتعذر التفرقة بين الأصل والصور الزائفة وهذا هو سر شقاء الفنانين واثراء أصحاب دور النشر والمطابع على حسابهم فى « بلد يتغنى بحريته وبحرية أصغر المواطنين الذين يعيشون فيـــه » .

وأسرف هوجارث فى هذه النشرة عندما قال ان حماية حقوق الفنان ستساعد على الارتقاء بالفن وصناعات الأثاثات والمنسوجات والمصنوعـات « حتى يتسنى لانجلترا أن تتبـوأ مكانة مشابهة لفرنسا فى عهد لويس الحادى عشر » . وليس من شك فى أن تامين حيـاة الفنانين لم يعد دائما بالخير، اذ أنه قد حولهم أحيانا الى مستغلين جشعين وعلى أية حال ، لقد استفاد هوجارث نفسه بهذا القانون وبدت آثار ذلك واضحة فى مكاسبه الطائلة التى حصل عليها بعد ذلك عندما نشر سنة ١٧٣٦ مجموعة لوحاته المسماه « سيرة خليع » .

الكتـــاب :

يقول هوجارث فى المقدمـة ان غـايته من تاليف الكتاب هى بيـان المبررات التى نستند اليها عند وصف الأشياء بالجمال أو القبح أو الرشاقة وغير ذلك بعد الرجوع الى الطبيعة ذاتها وانه لتحقيق ذلك قد رجع الى شكل الخطوط التى تتألف منها الأشياء والى اختلاف تكويناتها .

والرجوع الى الطبيعة ضرورى للغاية فلقد فسدت أحكام الناس بسبب نسيانهم الطبيعة واقتصارهم على الرجوع الى الأعمال الفنية ، باعتبارها نماذج ترشدنا الى القيم الجمالية وكأن الفنـانين وهواة الفن وحدهم هم الذين يعرفون الجمال وكأنه شىء موجود فى رؤوسهم وحدها . وفى الحق أن ادراك الجمال من حـق كل انســان ومن الميسور الاهتداء اليه اذا نحن أحسنا التمعن فى الطبيعة ذاتها .

والسر الذى يحول دون ادراك الجمال هو التدقيق فى أشياء بعيدة عنه ولا تمت اليه بصلة فالناس لا يعنون عند تأملهم اللوحات الفنية بغير معرفة من رسمها والنوادر التى ترويها المراجـع عن صلتها بحياة الفنان ويقارنون بينهـا وبين اللوحات الأخرى ، متناسين أن الحكم يتطلب المقارنة بالطبيعة ذاتها . فالرجوع الى أى فنان عبقرى بالذات لن يساعدنا على تحديد معنى الجمال وكم بين الفنانين من اختلافات كبيرة فى تحديد هذا المعنى ! فالأشـكال الفنية التى رسمها بوسان ستبدو أغلب الظن منفرة فى نظر

روبنز وندر التقاء دافنشي ورافائيل في أي تصور من تصورات الجمال ، وضاعت الحقيقة بسبب ما بينهم من اختلاف وقد يكون أولئك الذين لم يمارسوا الفن ممارسة عملية والذين لم يتأثروا بأي تعصب نتيجة لممارستهم، أو لم يتلقوا دروسا من غيرهم (ويقصد هوجارث نفسه بذلك) في موقف أفضل من أبرع الفنانين وهواة الفن فاذا قيل ان الاستغراق في الفن والتركيز عليه وتناسي الطبيعة يساعد على تحديد كل القيم الفنية كان الرد على ذلك أن استمرار الصلة بين الفنان وأي أشكال ثابتة ، قد يؤدي الى تولد بعض العادات التي تتحول الى عقائد قطعية جامدة ، فالعين تنسى أحيانا بسبب تكرار المشاهدة واطرادها القبح وتظنه جمالا .

وبعد أن حدد هوجارث منهجه وأثبت انه ينوي الاعتماد أساسا على الطبيعة في ذاتها وانه لن يكتشف القيم الفنية من مقارنة اللوحات أو بعد الرجوع الى أقوال الفلاسفة والفنانين بين لنا كيف يبدأ البحث في أشكال الطبيعة وطالبنا بأن نرى الأشياء وكأنها محوطة بقشرة رقيقة شفافة تجعلنا نطلع على ما في باطنها ، بحيث لا تختلف نظرتنا اليها من الخارج عن نظرتنا اليها من مركزها ، كما طالبنا أن نفترض أن هذه القشرة الرقيقة مؤلفة من خطوط دقيقة للغاية متشابكة ومتلاحمة ويمكن ادراكها حسيا .

وفائدة هذه الخدعة (كما يسميها البعض) عظيمة للغاية لأنها ستساعدنا على التركيز على أي جزء من السطح وعلى النفاذ — بخيالنا — في أعماق الأشياء بحيث نراها في شمولها من مركزها فتتكون في أذهاننا فكرة عنها مكتملة ومثل هذه الطريقة هي التي تعيننا على القضاء على جزئية نظرتنا التي تدفعنا الى التركيز على أجزاء قليلة من سطوح الأشياء وكأن أجزاءها الأخرى بغير وجود .

أسس الجمال :

واذا كانت دواعي الايضاح تتطلب عرض كل عامل من العوامل الآتية ، على حدة ، فمن الواجب مراعاة عدم انفصال هذه العوامل في الطبيعة . وبعد ذكر هذا التحفظ اختار هوجارث مجموعة من المؤثرات التي تؤثر على الجمال وناقش كلا منها على حدة وبدأ الكلام بالتناسب الذي ربما كان أهمها فهو عامل حاسم في تحديد معنى الجمال وكثيرا ما تنخدع العين ببعض الأشياء التي لا تزيد عن مجرد زخارف ، ولكنها لاتتصف بالجمال لافتقارها الى أهم شرط من شروطه وهو التناسب .فالتناسب هو أساس الحكم على جمال الأشياء باختلاف أنواعها وهو ضروري في الفنون لتحديد الجمال فيها مثل ضرورته في الكائنات الحية .

واذا تأملنا حصان السباق مثلا فسنرى أن أعضاء جسمه تتناسب تناسبا يتوافق مع غايات السباق بحيث اذا استعضنا عن أية أجزاء أخرى جميلة كأن نستعيض عن الرأس المستقيم الذى يبدو نبيحا فى ذاته برأس حصان من خيول الحرب يتميز باستدارته ، فان شكل الحصان السباق يبدو ممسوخا بسبب عدم تناسب الأجزاء ٠ وفى شكل هرقل مثلا اتساق بين الأجزاء كافة فهى تعبر عن القوة والجبروت ويبدو هذا فى ضخامة عظام الصدر والأكتاف وفى تناسب عضلات الأجزاء العليا مع عضلات الأجزاء السفلى فى الجسم ٠

وثانى أسس الجمال هو التنوع فنحن اذا تأملنا اختلاف ألوان النباتات والأزهار وأوراق الشجر والفراشات ، فسندرك أن المغزى الوحيد لكثرة هذه الألوان والأشكال هو ادخال السرور لدى العين بتأثير التنوع ٠ (وهذه فكرة كانت شائعة فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر ومن أمثلتها القول بأن لون الذبابة أسود لكى ترى عندما تقف على أرض بيضاء أو القول بأن قشرة البطيخة مقسمة الى أقسام متساوية حتى لا يتنازع أفراد العائلة الواحدة عند تقسيمها) فالتنوع ، اذن ، هو أهم عامل فى شعور المتذوق باللذة وعلى عكس ذلك المماثلة التى تشعرنا بالملل وكأن الأشياء التى نراها ميتة خالية من الحياة ٠

ويستدرك هوجارث ويبين أن ما يقصده هو التنوع الذى يتبع تصميما محددا لأن أى تنوع عشوائى هو مجرد فوضى أو مسخ وكلمة التنوع عنده ذات معنى واسع للغاية ، لأنها تضم التدرج الذى قد نلاحظه فى شكل الهرم وفى اختلاف مساحة قاعدته عن مساحة قمته ٠

وثالث عامل يؤثر على تصور الجمال هو الاطراد ٠ ولو صح القول بأن اطراد الأشكال والخطوط والأجزاء هو الذى يجعلها تبدو جميلة فى نظرنا ، لكان معنى هذا هو عدم اتصاف الأشياء بالجمال الا فى حالة سكونها وثباتها والعكس هو الصحيح ، لأننا نرتاح لشكل أى شىء عندما نراه متحركا فنستطيع أن نراه فى صور مختلفة لهذا السبب تبدو الأشياء فى منظرها الجانبى أجمل منها فى منظرها الأمامى ومن واجب أى فنان أن يتجنب انتظام الأشكال « سيمتريتها » حتى لا تبدو مطردة ، حتى نستطيع رؤيتها على جملة أوجه مختلفة اذا غيرنا نظرتنا اليها واذا اضطر المصور الى رسم منظر طبيعى باتساقه وتماثل أركانه وجوانبه ، فانه يلجأ الى التخلص من هذا الاطراد باضافة صورة شجرة أو صورة سحابة فيساعده ذلك على احداث التنوع الذى يجعل صورته تتسم بالجمال والتباين من أهم العوامل التى نلجأ اليها للقضاء على الاطراد ٠

ويقارن هوجارث مقارنة عملية بين الأشكال المطردة والأشكال الخالية من الاطراد • فيعرض صورة لهنرى الثامن ، بدت فيها الساقان متماثلتين فخلت لهذا السبب من الجمال على عكس صورة تمثال أنطونيوس التى يغلب فيها المثال على الاطراد بواسطة التباين والتنوع • ويلجأ الرسام الى الاطرد عندما تقتضى الضرورة فحسب أى عندما يرغب التعبير عن فكرة الثبات والسكون •

والبساطة بالمثل لا قيمة لها فى ذاتها كعامل من عوامل الجمال فهى بغير تنوع ستبدو شيئا مثيرا للملل والناس أحيانا ينسبون الجمال للبساطة ، وينسون أن التنوع هو العامل الأساسى الذى يسبق هذه البساطة فالهرم مثلا لا يعد جميلا لمجرد بساطته بل لتنوعه الذى سبقت الاشارة اليه وتنوع شكل الهرم هو سر تفضيله فى كل العصور بوصفه عاملا من عوامل الجمال فالأجسام المستديرة مثلا تبدو من كل اتجاه على شكل رتيب واحد• وراعى المصورون دواما اختيار الهرم اطارا يضم الأشكال التى يقومون برسمها ويعزى ذلك الى جمعه بين البساطة والتنوع •

وثمة شكل آخر يتصف بهذه الميزة وهو شكل ثمرة الأناناس ، وتنبه هذا الشكل وهو الشكل البيضاوى فهو يجمع كذلك بين البساطة والتنوع ويختلف فى هذه الناحية عن الدائرة اختلافا مماثلا لاختلاف المثلث عن المربع أو اختلاف الهرم عن المكعب ومن ثم نستطيع أن ندرك لماذا يرسم المصورون الوجه على شكل بيضة والسر واضح وهو أن البيضة تجمع بين البساطة والتنوع •

وثمة شكل آخر يتصف بهذه الميزة هو شكل ثمرة الأناناس وتنبه الفنان المعمارى الانجليزى كريستوفر رن (فى القرن الثامن عشر) الى هذه الحقيقة عندما جعل نهايتى واجهة كنيسة القديس بول فى لندن على شكل ثمرة الأناناس •

وننتقل الى عامل آخر هو عامل التعقيد ويرجع هوجارث قيمة هذا العامل من الناحية الجمالية الى أساس سيكولوجى ، فحياتنا عملية مطاردة مستمرة وكل ثمرة نجنيها بعد مشقة تشعرنا بلذة فان العوائق التى تعترض الارادة ، تزيد لذة الشوق فيتحول الجهد المبذول الى رياضة ولهو وترويح عن النفس وهذه اللذة واضحة جلية فى رياضة الصيد والقنص فالولع بالمطاردة كامن فى نفوسنا بل هو كامن فى نفوس الحيوانات وبوسعنا أن نلحظه فى محاورة القطة والفأر وتفضيلها مطاردة الفريسة على التهامها والعين تشعر بلذة مماثلة عندما تشاهد الطرقات المتعرجة والمنحنيات وعندما نتأمل الأنهار وهى تنساب • ويستخلص هوجارث من

هذا الميل تفضيل الخطوط الثعبانية (الانسيابية) على الخطوط المستقيمة وهى الفكرة الأساسية التى اعتمد عليها مذهبه •

ويعرف هوجارث تعقد الأشكال بأنه خاصة فى الخطوط التى يتألف منها الشكل تدفع العين الى نوع من المطاردة وبسبب حدوث لذة من جراء ذلك تسمى الخطوط والأشكال جميلة ويهتم هوجارث بهذه الخاصية باعتبارها الأساس الذى تعتمد عليه فكرة الرشاقة أكثر من اعتمادها على أى مبدأ من المبادىء الأخرى ما عدا التنوع•والشكل عندما يتألف من خطوط معقدة يوهمنا بالحركة،لهذا يلجأ المصورون اليه عند رسم الرقصات القروية فنحن لن نستطيع اعتمادا على خطوط بسيطة مستقيمة تخيل الانحناءات والانثناءات التى تصحب الحركة • ويضرب هوجارث مثلا آخر للجمال الذى يظهر فى الخطوط المعقدة البعيدة عن البساطة وهو منظر شعر الرأس الذى يزداد جماله كلما بدا مجعدا وكم تغزل الشعراء فى منظر الخصلات المجعدة ، التى ترغم العين على عدم الثبات والالتفات يمنة ويسرة ! •

ويلزم الاعتدال عند فهم ما يعنيه هوجارث بالتعقيد — كما هو الحال فى أى مبدأ آخر — فاذا زاد التعقد عن حده انقلب الى شىء منفر تحار له العين ، لأنها ستعجز عن متابعة أى عدد هائل من الخطوط المتشابكة المضطربة •

وآخر مؤثر على فكرة الجمال هو الضخامة وكم نشعر بالفزع مقرونا باللذة عند رؤية الصخور الضخمة ! وكم يروعنا منظر المحيطات الشاسعة ! على أن جمال الأشياء الضخمة كثيرا ما ينسينا اثارتها للفزع فيتضاءل الشعور بالهلع ويتحول الى اعجاب ولذة والأشجار الضخمة تؤثر فى مشاعرنا تأثيرا مشابها لتأثير منظر الكنائس الهائلة والقصور ويضرب هوجارث مثلا بقلعة وندسور وواجهة قصر اللوفر فى باريس (الذى تحول الى متحف بعد ذلك) ومعابد صعيد مصر بأعمدتها وتماثيلها الضخمة الرهيبة الوقورة • وفى عالم الحيوان نحن نعجب بمنظر الفيل والحوت وبضخامتها وكثيرا ما يراعى مصممو الأزياء هذه الظاهرة عندما يصممون ملابس الملوك والحكام والقضاة وعندما يطيلون ذيل الأثواب أو يجعلونها على شكل عباءة تلتف حول الأكتاف والعنق ، فتشعرنا بالروعة وتجتذب انتباهنا • فالضخامة اذن هى التى تضيف الوقار الى الرشاقة ومن الواجب تجنب أى اسراف فى الاعتماد عليها ، لأنها وحدها قد تبدو أحيانا شيئا منفرا ثقيل الظل مثيرا للسخرية فالضخامة التى تفتقر الى التناسب تفتقر غالبا الى الوقار والهيبة •

وبذلك يكون هوجارث قد انتهى من مناقشة المؤثرات التى يعتمد عليها الجمال ، وظهر أن أهم عاملين يعتمد عليهما الجمال هما التناسب

والتنوع أما عامل الاطراد وعامل البساطة فهما عاملان مساعدان لا يتوفر الجمال اعتمادا عليهما وحدهما والضخامة تضفي مسحة وقورة على الجمال كما أن التعقيد يضفي رشاقة على الجمال ويهمنا هذا العامل الأخير أهمية خاصة لأن هوجارث قد بنى عليه نظريته في الخطوط ·

الخطوط :

المصور يفترض مثل عالم الرياضيات انقسام الخطوط المستخدمة في لوحاته الى أقسام ثلاثة : القسم الأول هو الخطوط المستقيمة والقسم الثاني هو المنحنيات والقسم الثالث خطوط تجمع بين الاستقامة والانحناء ، ووفقا لهذه القسمة يمكن تقسيم الأشياء من حيث أشكالها الى أولا : أشكال تتألف من خطوط مستقيمة فحسب مثل المكعبات أو دائرية فحسب مثل الأشكال الكروية أو تجمع بين الخطوط المستقيمة والدائرية مثل الأشكال الأسطوانية والمخروطية ، ثانيا : أشكال تتألف من خطوط مستقيمة وخطوط دائرية وخطوط مستقيمة من ناحية ، ودائرية من ناحية مثل رؤوس الأعمدة والأواني ، وثالثا : أشكال تتألف من الخطوط السابقة مضافا اليها الخط المتموج باعتباره يساعد على تحقيق الجمال كالأزهار والأجراس وغيرها من الأشكال ذات الطابع الزخرفي ، ورابعا : أشكال تتألف من كل الخطوط السابقة مضافا اليها الخط الانسيابي · ويمثله هوجارث في صورة خط ملتف حول مخروط وهذا الخط يضيف رشاقة الى الجمال ·

ويلاحظ أنه كلما قلت نسبة الاستقامة في الخطوط تميزت هذه الخطوط برشاقتها فالخطوط المستقيمة لا تختلف بعضها عن بعض الا من حيث أطوالها ومن ثم فانها لا تفيد كثيرا حتى عند الاستعانة بها في الزخارف ، أما الخطوط المنحنية فأكثر فائدة اذ يستطاع تنويع درجات انحنائها وأطوالها والخط المتموج أفضل من الخطين السابقين ففيه تنوع أكثر منهما ، لأنه يتألف من انحناءين متضادين في الاتجاه ومن ثم فهو أكثر صلاحية كزخرف وأكثر اثارة للسرور وتشعر اليه بارتياح عندما ترسمه ·

أما الخط الانسيابي فأكثر تنوعا من الخط المتموج بفضل تعدد تموجاته في عدة اتجاهات في نفس الوقت ، فان كثرة انثناءاته وتعرجاته تساعد على جعله يبدو وكأنه مؤلف من جملة أشكال متنوعة · وعلى هذا يصح وصف الخط الانسيابي بأنه خط الرشاقة ويمكننا أن نتمثله اذا قمنا بلف سلك رفيع حول أي جسم مخروطي ·

وجمال الأشكال يتوقف على البراعة في الجمع بين الخطوط المختلفة فكلما نجحنا في تحقيق التنوع ازداد الشكل اتصافا بالجمال بحيث

يستطاع القول بأن البراعة فى التـأليف والابداع تعتمد على البراعة فى التنويع ، ولتأكيد ذلك بوسعنا الرجوع الى بعض الأشياء التى تتبين فيها هذه البراعة فى التنوع كشكل زهرة السوسن أو شـكل زهرة الايريس والأبنية القوطية (٨٠) ٠

ومن الأبنية التى اتصفت بالجمال ، وتمثلت فيها أسس الجمال التى ذكرناها على أفضل وجه كنيسة القديس بولس فى لندن ففيها نستطيع أن نصادف تنوعا بغير اضطراب وبساطة بغير اجداب ووضوحـا بغير جمود وضخامة بغير اسراف ٠ ومنظر كنيسة القديس بولس من الخارج أفضل من منظر كنيسة القديس بطرس الشهيرة فى روما وان كانت كنيسة القديس بطرس أفضل منها من الداخل ، لاعتمادها على عدة مؤثرات ساعدت على ابراز التنوع كمختلف التماثيل واللوحات والاتساع المكانى ٠

وحرص هوجارث دواما على تأكيد ضرورة اجتماع كل الأسس التى تسـاعد على الافصـاح عن الجمال فأى اسراف فى التنويع مثـلا يجب الا ينسينا مبدأ مهما من مبـادىء الجمـال هو التناسب ٠ وفى فن العمارة يلزم أن يبدو البناء جميلا فى نظرنا ونحن نشاهده على بعد مثلما يظهر لنا ونحن على مقربة منه ٠

وبعد أن ذكر هوجارث أمثلة تؤيد وجهة نظره فى تفضيل الأشكال التى تعتمد على الخطوط فى خلق الجمال ، قام بالمقارنة بين هذه الخطوط المنحنية واختار أحـدها وأسماه خط الجمال ، ولسهولة تحديده لجأ الى مقارنته بخطوط أخرى قريبة منه ٠

واتجه هوجارث اتجاها آخر لاثبات قيمة الخطوط الانسيابية فدعانا الى تصور شـكل أو تمثال فى حالـة خلوه من الخطوط الانسيابية ألا يبدو التمثال قبيحا فى هذه الحالة ؟

ومن الميسور أن نرى شكل هذا الخط عندما نلاحظ المثال وهو يحرك أزميله فى الأحجار المختلفة وعندما يلمس برفق التمثال فى آخر مراحل ابداعه أن مثل هذه اللمسات تبدو رقيقة ٠

ولعلنا نلاحظها فى تماثيـل النساء أكثر مما نلاحظها فى تماثيـل الرجال كما يتبين لنا اذا تأملنا تمثال فينوس وتمثال أبولون ٠

التناسب :

ويتوسع هوجارث فى شرح التناسب بعد أن أشاد بأهميته فى بداية كلامه ويعترض على تعريفه بأنه اتساق بين الأجزاء فحسب ، لأن مثل هذا التعريف يصلح للتناسب بمعناه الحسى ولكنه لا يفسر معنى آخر للتناسب

وهو التناسب بين روح الشيء ومادته أو شكله الخارجي . وهذا المبدأ هو الذى خضعت له أشكال الأشياء المختلفة كالسيوف والمدافع الخ ، وهو الذى نصادفه فى فن العمارة عندما نحس بوجود عدم تناسب بين قائم وعارضة أو بين العقود المختلفة وأكتافها . ولدينا أمثلة على ذلك فى عالم الحيوان أيضا تدل على ضرورة تناسب الأشكال الخارجية مع المهام الحيوية التى تقوم بها فأجمل هذه الكائنات هى أقدرها على الحركة والطيور القبيحة مثلا تعجز غالبا عن التحليق فى الفضاء ببراعة مماثلة للطيور الجميلة (وهذا رأى قد دحضه بيرك فى كتابه أصل الجليل والجميل) ، كما أن الأسماك القادرة على الغوص فى الماء أجمل بكثير من الأسماك التى تتعثر فى عومها .

فاذا اعتبرنا الحيوية والقدرة على الحركة وتناسب الشكل الخارجى مع القدرات المختلفة مقياسا للجمال ، فسيتضح لنا أن الانسان هو أجمل الكائنات . ويلجأ هوجارث أحيانا الى حجج غريبة لتبرير هذه الفكرة كقوله ان أجزاء الجسم التى اعتدنا اخفاءها هى أقبح هذه الأجزاء ، كما ان الأجزاء الثابتة من الجسم أقرب الى القبح من الأجزاء الكثيرة الحركة ويستدرك فيذكر أن القلب الانسانى يتصف بالجمال برغم اختفائه وبوسعنا أن نعزز رأيه – اتباعا لمنطقه – بالقول بأن القلب أكثر الأعضاء الداخلية حركة .

ثم يتحدث هوجارث عما يقال عن وجود قواعد رياضية تحدد الجمال فى الانسان كالنسبة بين ارتفاع الجسم وعرضه أو طول الساق وسمكها ، ويدرك هوجارث أن الحصول على مثل هذه النسب أمر شاق لاختلاف شكل خطوط هذه الأبعاد المختلفة فبعضها أقرب الى الاستقامة والبعض الآخر قريب من الانسيابى ، كما أن اختيار موضع القياس فى الذراع أو الصدر مثلا أمر شاء أيضا ، لأن هذه الأجزاء بعيدة عن الاستقامة فى خطوطها .

ويرفض هوجارث كل كلام عن مثل هذه القواعد الرياضية ويرى أن اعيننا وحدها هى التى تستطيع ادراك الشيء المستحب والتجربة هى أهم فيصل فى ادراك قواعد الجمال . فاى جزار اعتاد التدقيق فى شكل الحيوانات عند ذبحها يستطيع أن يحدثنا عن شرائط التناسب فيها . وأى ملاكم فى حلقة الملاكمة أو رياضى اعتاد رؤية الأجسام وهى عارية يستطيع أن يعلم أى نحات أو رسام النسب الصحيحة لجمال الجسم الانسانى .

والنساء فى هذه الناحية أقدر من الرجال على تحديد هذه النسب ، لأن الفرصة قد سنحت لهن لمشاهدة الكثير من السيقان والأذرع والأعناق وهى عارية (قيل هذا الكلام سنة ١٧٥٢) ومن ثم فهن قادرات على تنوير جهابذة العلماء والفنانين فى هذه الأمور !!

من هذا يتضح أن هوجارث يرى أن التجربة وحدها هى التى تحدد قواعد الجمال ولا يصح القول بوجود أية قواعد رياضية تحدد الجمال فالأصح هو ارتباط هذه النسب بحيوية الجسم ورشاقته وبراعة أجزائه فى الحركة • ويثبت هوجارث هذه الفكرة بالرجوع الى تمثال أنطونيوس • ومجرد نقل أبعاد هذا التمثال لن يساعد على ابداع تمثال مشابه فى جماله ولو أردنا ذلك يكفى أن نراعى عند تحديد أبعاد الأجزاء المختلفة مدى تحقيقها لغايات مرونة الحركة ورشاقتها وتعبيرها عن القوة وهذه أمور لن تعرف الا اعتمادا على التجربة •

ويتناول هوجارث فى كلامه عن التناسب مسألة أخرى وهى الصلة بين الشخصية والشكل الفنى ويضرب أمثلة مختلفة لاثبات هذه الصلة فالسقا ، مثلا ، نستطيع استنتاج حرفته من شكل قدميه وقصرهما ومن قوة عضلات الأجزاء التى يستعملها من جسمه ومثل آخر هو تمثال أبولون (بلفدير) الموجود فى روما والذى كثيرا ما يقارن بينه وبين تمثال أنطونيويس• فتمثال أنطونيوس يدفعنا الى الاعجاب به فحسب ، أما أبولون فيذهلنا بجلال مظهره وكأنه يعبر عن شيء أعظم من الانسان ، وأرجع البعض هذه الظاهرة الى أسباب رياضية فنسبوا ذلك الى زيادة طول الساقين والفخذين بالنسبة للأجزاء العليا • ولكن هوجارث يرفض هذه الفكرة ، لأنها قد تدل على استناد عظمة التمثال على تشويه بعض أجزاء الجسم والأرجح هو أن الفنان قد حقق غايته اعتمادا على فكرة شائعة وهى تضخم التمثال بحيث يبدو أكبر من الحجم الطبيعى ولكن التضخم لم يكن عشوائيا فقد اختار المثال أجزاء معينة قام بتكبيرها بعد أن أدرك تناسبها مع المعنى الذى يرغب التعبير عنه ، ولو أنه قصد ابراز رشاقة الحركة لوجب عليه الافصاح عن ذلك بوساطة الأجزاء التى تناسب الرشاقة ، ولو أنه أراد تعريفنا معنى القوة لتحتم اختياره أجزاء من الجسم نلمح فيها مظاهر القوة • وبراعة المثال تتكشف فى براعته فى الانتقاء فأحيانا تؤدى زيادة ضخامة الرأس الى المسخ كما تؤدى زيادة حجم اليدين أو القدمين الى زيادة قبح التمثال • ويلاحظ فى تمثال أبولون شيء آخر هو براعة المثال فى التعبير عن الجلال والسمو عندما أضاف اليه العباءة فزادته حيوية ووقارا •

النور والظل :

الصورة التى يرسمها المصور قد لا تختلف فى خصائصها اختلافا كبيرا عن الصور التى تنطبع على المرآة المسطحة• والمصور اذا أحس ترتيب الأجزاء المضيئة والأجزاء المعتمة ، يستطيع تقديم شيء قد لا يختلف كثيرا فى مظهره عن هذه الصورة المنعكسة فى المرآة والأضواء والظلال وحدها هى التى تعرفنا أبعاد الأشياء وأشكالها •

وثمة تشابه بين الظل ، والصوت والنغم ، وكما يوحي الينا ارتفاع أى صوت أو انخفاضه بابتعاد مصدر الصوت عن الأذن أو اقترابه منها ، كذلك يستطاع اعتمادا على كثافة الظلال واتجاهها في التدرج تصور بعد الأشياء أو قربها والتدرج في الظل من مظاهر الجمال وترتاح له العين كما تطرب الأذن لتدرج النغمة في الارتفاع أو الخفوت •

وكثيرا ما ننخدع عند تقدير أبعاد الأشياء في الحقيقة بسبب سوء تدرج الظل ، وهو ما يؤدى كذلك الى اساءة ادراك المكان والى تصور الأشياء المستديرة مسطحة والعكس بالعكس فالدائرة مثلا قد تتحول عند تنويع الظلال الى شكل مسطح أو كروى أو مقعر •

وطريقة تدرج الظلال وثيقة الصلة بمتعة العين عند مشاهدتها للأشياء فالأشكال التى تتدرج فيها الظلال في اتجاه واحد أى تزداد تصاعدا في كثافتها — واذا عبرنا عن ذلك بالأرقام كان التصاعد على الوجه الآتى : (١ — ٢ — ٣ — ٤ — ٥) — هي أقل الأشكال حظا من الجمال وتتشابه مع الخطوط المستقيمة التى أشرنا اليها •

والنوع الثانى من الأشكال التدرج فيه يتجه في اتجاهين متضادين (ونستطيع أن نتمثله كشىء يتضاءل في الكثافة ثم يزداد كثافة على الوجه الآتى : (٥ — ٤ — ٣ — ٢ — ١ — ٢ — ٣ —٤ — ٥) • وهذا النوع أفضل من النوع السابق ويناظر الخطوط المنحنية •

والنوع الثالث يقابل الخط المتموج (وصورته بالأرقام ٥ — ٤ — ٣ — ٢ — ١ — ٢ — ٣ — ٤ — ٥ — ٤ — ٣ — ٢ — ١) •

أما الظلال الانسيابية فلا يمكن تصويرها في صورة أرقام كما فعلنا في الخطوط السابقة •

وكما تفيدنا الظلال في تحديد أبعاد الأشياء تفيدنا كذلك فائدة طائلة في تصوير المكان • والرسام يستطيع أن يوهم المشاهدين أن هذه الظلال شىء حقيقى لا ريب فيه وربما اعتقد أولئك الذين لا يعرفون في علم البصريات ذلك •

وتعتمد هذه الظلال على أسس ثلاثة هي التضاد والاتساع والبساطة •

صورة الوجه

يلاحظ هوجارث في بداية هذا الفصل أنه لا وجود لأى وجهين متماثلين على ظهر البسيطة وان كانت الاختلافات بين وجه وآخر في حاجة الى مزيد من الدقة لاكتشافها • ويطبق هوجارث نظريته في الخطوط على

جمال الوجه ويختار أحد الأشكال المعروفة فى الصور القديمة والتى أعجب بها أكثر الفنانين مثل رافائيل وغيره من المثالين والمصورين كما يختار أيضا شكلا لرأس رجل عجوز • هذان الشكلان يشهدان بأثر الخطوط الانسيابية فى ابراز جمال الوجه ، كما أنهما يثبتان ضرورة توفر أسس الجمال الأولى فى أى شكل يوصف بالجمال •

والوجه هو مرآة الروح والنفس • ومهما ادعينا وجود أخطاء فى علم الفراسة فاننا كثيرا ما نكتفى بدراسة تعابير الوجه فىفهم الشخصية • وأوجه الأطفال لا تصلح للدراسة فهى تعبر عن معان قليلة للغاية وكلما ازدادت حركات الوجه تيسرت دراسة الشخصية الانسانية وحتى فى حالة المنافقين والبارعين فى الرياء الذين يستطيعون التحكم فى عضلات وجههم كثيرا ما تنكشف شخصيتهم الحقيقية من مجرد ابتسامة •

ونحن اذا تأملنا صورة القدامى ، فسنلاحظ ما يشبه الاجماع على الربط بين الخطوط وطابع الشخصية • واذا أردنا الانتقاص من أية شخصية، فلن نصادف شكلا يعبر عن هذا المعنى أفضل من شكل سيلينوس الذى تكثر فيه الخطوط المنبعجة فى كل ملامح الوجه وهذا يبين الصلة بين هذا الخلط وابراز القبح •

وفى الأطفال، ثمة صلة ملحوظة بين حركات العضلات وأفعال بسيطة مثل فتح الفم أو التجهم • وعند رسم هذه الحركات يكتفى الرسام ببعض خطوط منحنية لا تختلف عن الخطوط التى يرسمها لاظهار حركات البلهاء •

وابراز الجمال فى الابتسامة يعتمد على خطوط رقيقة متموجة بعكس القهقهة فانها تبدو قبيحة وتعتمد فى رسمها على خطوط أكثر استدارة •

ثم يتجه هوجارث عن تطور الخطوط بتقدم السن ، ففى البداية ، الوجه يتميز ببساطته وبتقدم السن يزداد ظهور التنوع فيه ومن الميسور تحديد سن أى شخص بملاحظة خطوط وجهه واتساع حدقة العين ويلاحظ كذلك أنه لا اختلاف بين الذكور والاناث من حيث خطوط وجههم فى طفولتهم • ثم يظهر هذا الاختلاف بمرور الزمن وبوسعنا اكتشافه من مجرد التمعن فى نسبة حجم حدقة العين الى حجم الوجه ، على أن هذه العلامة تصلح للتفرقة حتى سن العشرين فحسب ثم تتعقد الأمور بعد ذلك بتأثير ما يطرأ من اختلاف على شكل خطوط الوجه •

حركات الانسان وافعاله :

بوساطة خطوط قليلة ، يستطاع التعبير عن الحركة وعن أفعال الانسان وتعابيره المختلفة • ويذكر أنه لو أراد التعبير عن احدى الرقصات

القروية لما احتاج الى أكثر من الخطوط الملتوية . وواضح أنه يسخر فيها من منظر الراقصين وكل ما فعله هوجارث هو تغيير شكل الخطوط عند الرسم من الشكل الانسيابي الى شكل المستقيم ، ويمكن بوساطة قوس مستدير وخطين مستقيمين الايحاء بشكل الرجل البدين واعتمادا على نفس هذه الخطوط المنحنية رسم هوجارث الجزء العلوى لامرأة بدينة أما الخطوط المتموجة فتفيد التعبير عن الرشاقة والرقة .

ومهما أتقنا تصوير الحركات ، فانها تبدو دائما فى صورة حركة جامدة تثير الضحك ، فان تحويل الشخصيات الراقصة من حالة الحركة الى حالة الثبات يخلق منها صورا مثيرة للسخرية فى أغلب الأحيان .

ولا يصح القول بأن تنوع الأشكال يعتمد على توزيع النور والظل واللون فحسب فبوسعنا الحصول على هذا التنوع أيضا من شكل الحركات المختلفة والناس عادة ينشدون الرشاقة ولذا يتعلمون السير والرقص والمبارزة وغيرها من الحركات التى تساعد على القضاء على تصلب عضلاتهم وأطرافهم . ويؤكد هوجارث وجود أسس لهذه الحركات وان كان الناس يعتمدون عادة على الفطرة فى محاكاة النماذج التى يرونها أقرب الى الرقة والوقار ، ويبتعدون عن أية نماذج يظنونها مثيرة للسخرية .

ويحاول هوجارث تحديد خطوط رشاقة الحركات التى تحدث عنها فيقول ان الأجسام فى حركتها ترسم خطوطا يستطاع تحديدها مثل الدخان المتصاعد من النار أو الدوائر التى نراها فى الماء عند القاء الحجارة ... الخ .

والخطوط المختلفة تناظر أشكال حركات الجسم المختلفة . ومن ير حصان الحرب العربى وهو منطلق بغير لجام ، يستطع أن يتصور شكل الخط المتموج الذى يتمايل يمنة ويسرة ولا يسير فى خط مستقيم على الاطلاق وهذا الانطلاق من أفضل الأمثلة تعبيرا عن الجمال والرشاقة . ويستخلص هوجارث من ذلك أن رشاقة الحركات تعتمد على نفس الأسس التى تعتمد عليها رشاقة الخطوط والأشكال .

وأكثر حركاتنا تخضع للعادة بسبب تكرارها ، وتشابه خطوط الناس فى الكتابة انما يرجع الى طريقتهم فى الامساك بالقلم وتحريكه على الورق . وأغلب الحركات العادية التى تعتمد عليها حياة الناس تبدو عند تصويرها فى شكل خطوط مستقيمة أو دائرية ، والحركة الانسيابية نادرة ولهذا تحتاج الى تدريب طويل .

ويتكلم بعد ذلك عن حركة الرأس فيلاحظ أن أى اسراف فى تهذيب الأطفال قد يؤدى الى خلق عادات سيئة فى حركة شكل الرأس كزيادة

الانحناء الى أسفل بحيث تلمس الرأس الصدر وكان الطفل يشعر بذنب أو خطيئة أو قد ينثني الرأس الى الوراء في حركة غير طبيعية فتسبب للطفل آلاما شديدة عند تحريكها ويلجأ آباء كثيرون الى الياقات المنشاة أو ربما الأطواق الحديدية ، لاصلاح بعض هذه العيوب والضفائر التي تثبت في مؤخرة الرأس تكون أفضل علاج لذلك .

ومن الواجب ملاحظة تنافر الخطوط المستقيمة مع رشاقة حركة الرأس كذلك ، لأن الرأس المتصلب بعيد عن الرشاقة أما الرأس الذي يميل ميلا خفيفا الى اليمين أو اليسار فأكثر اتصافا بالرشاقة ومراعاة الحركة الانسيابية عند تحريك الرأس يمنة ويسرة أمر ضروري هنا كذلك وهذه الحركة هي التي نعجب بها عند ملاحظة العظماء ، كما أننا نسخر من الحركة المستقيمة المضادة لها التي يلجأ اليها المهرجون ذضحاكتنا .

وأكثر الرقصات تعبيرا عن الخطوط الانسيابية هي (المنويت) — وهي رقصة مشابهة للفالس كانت شائعة قبل القرن الثامن عشر — وتتألف من جملة خطوط انسيابية ولابد أن يشترك الجسم بأكمله في هذه الحركة الانسيابية ، لأنها لا تقتصر على حركة الأقدام وحدها فلابد أن تظهر في لفتات الرأس وانثناءات الجسم وفي رقة الايماءات وكلما ابتعدت الرقصات عن هذه الخطوط الانسيابية ، قل نصيبها من الرشاقة ، ونحن اذا حولنا خطوط رقصة المنويت مثلا الى خطوط مستقيمة ، فستبدو مثيرة للضحك والسخرية مثل بعض الرقصات الايطالية القروية .

الكتاب وأثره في الفن العالمي

انتهينا من عرض كتاب تحليل الجمال لهوجارث وتخطي بعض المراجع عندما تعتقد أن أثر هذا الكتاب كان مقصورا على بريطانيا وحدها وهي فكرة تعزى الى الاستهانة بمكانة انجلترا في الفنون التشكيلية ونحن لا ننوي هنا الدفاع عن حالة الفن في انجلترا أو عن هوجارث وأثره في الفن العالمي كما فعل فردريك أنتال في بحثه المستفيض بعنوان : Hogartl and his place in Europe…n

ولكننا نكتفي بالقول بأن هوجارث يكاد يعد أول مصور انجليزي تسترعي أعماله الفنية الانتباه خارج بريطانيا وقوبل كتاب تحليل الجمال بعد ترجمته الى اللغة الألمانية واللغة الفرنسية بترحيب شديد عند الألمان والفرنسيين فقد رحب به لسنج في مجلة Vossiche Zeitung

(١٧٥٤) وذكر أنه قد ألقى ضوءا جديدا على الفن وقضى على الخرافة القائلة ان الذوق مسألة لا يصح مناقشتها • وفى فرنسا تعرض الكتاب لهجوم ديدور فى مقالات نشرها (١٧٦٥) وان كان ديدرو قد استفاد من حجج هوجارث فى تأييد نظرته الى الجمال دون أن ينسب هذه الأفكار الى هوجارث وأشاد جوته فى أكثر من مناسبة بفكرة الخطوط الانسيابية •

واليوم ، تغيرت الأفكار الاستاطيقية ، وأصبحت بعيدة الاختلاف عن مذهب هوجارث فلم يعد هنـاك من يعنى اليوم بوضـع قـاعدة للجمال أو الشكل الجميل أو الخط الجميل ، ولكن هذا لا يعنى عدم الالتفات الى نظرية هوجارث فـكل النظريات (مثـل نظرية دافنشى فى باراجونى ـ أو المقـارنة بين الفنـون ـ أو نظرية ألبرتى فى كتابه عن التصـوير أو النظريات المتزمتة التى فرضها ليبرون على التصوير الكلاسيكى بحكم رئاسته للأكاديمية الفرنسية) ضرورية لفهم الأعمال الفنية التى ظهرت قبل القرن التـاسع عشر والتى لا يعترف البعض الا بها فى عالم الفنون التشكيلية •

ومن الناحية الفلسفية لا يصح الاستخفاف بتاتا بما قام به هوجارث فى تحليل الجمال ، وفى اعتماد نظريته على ملحوظة عابرة ذكرها ميكل أنجلو فى معرض مقارنته بين الخطوط المختلفة • فكثير من النظريات قد شابهت نظريته فى اعتمادها على فكرة جزئية ولعله قد تميز بجرأة ملحوظة عندما انتقد اعتماد الجمال على الخطوط المستقيمة أو المنحنية وحدث هذا فى القرن الثامن عشر الذى لم يستطع البرء من شدة تعلقه بالرياضيات وبتطبيقها فى سائر المجالات دون تمييز • ونظرية هوجارث تعد اعتراضا ـ ربما بغير قصد ـ على فكرة راسخة ترجع الى عهد فيثاغورث وأفلاطون اللذين طالما أشادا بجمال الخطوط المستقيمة والدوائر •

وربما أمكن القول ان هوجارث قد أسرف عندما انتقـل من فـكرة الجمال من الخطوط والزخارف الى الكلام عن الجمال الانسانى ـ كما رأى بوزانكيت ـ لان الجمال فى هذه الحالة الأخيرة شىء بعيد الاختـلاف من حيث النوع أو الدرجة على حد سواء وكم كان فى حاجة الى عقل مشـابه لعقل أفلاطون وقدرته الجبارة على انشاء الأنساق الفلسفية لاقناعنا بهذه الوثبة الكبيرة الجزئية !

★★★

كوخ العم توم

هارييت بيتشر ستو

١٨٥٥م

في خشوع عميق ، وقف المحرر الأعظم ابراهام لنكولن ذات يوم من سنة ١٨٦٢ ، ليحيى المرأة التى قدر لها أن تهز بقصتها الخالدة « كوخ العم توم » ضمير العالم وتجند الرأى العام الأمريكى ، ضد ذلك الظلم الساحق النازل بالزنوج ، وأن تكون الموحية الدافعة لحرب تحرير العبيد الأهلية التى انتصرت فيها الولايات الشمالية على الجنوب قائلا :

« حسنا مسز ستو » ، اننى لسعيد بأن أرحب بك ، بوصفك مؤلفة تلك القصة التى أحدثت تلك الحرب العظيمة » .

فمن هى هاربيت بيتشر ، تلك التى استطاعت أن ترسم بقلمها أدق صورة للعذاب البشرى فى قصة مثيرة تتحسس فى كل سطر من سطورها معانى انسانية ، تضرب فى أعماق الانسان لتثيره ضد الاضطهاد البشرى والاسترقاق ؟

وأى معان بالغة فى الشجو هى ، وليزا الأم الزنجية تقول لزوجها العبد الرقيق وهو يبثها قلقه ومخاوفه بعد أن استمع لمحاورة خفيفة كانت تدور بين سيدهما وبين أحد تجار الرقيق البيع طفلهما الوحيد :

« ولكن يحسن بك أن تعتصم بالايمان يا جورج لقد قالت سيدتى : ان علينا حين نغرق فى بحر من الظلم ، أن نؤمن بأن الله يبذل غاية جهده لرعايتنا .. ؟ » .

« سيدة نابغة بدون جدال »

ولدت هاربيت بيتشر ستو فى يوليو من سنة ١٨١١ فى مدينة نيوانجلند فى ليتشفلد وكانت الصغرى من أطفال سبعة ، لأب مبشر ، لم يكن راتبه القليل بكاف ليؤمن للأسرة الكفاف من العيش ، مما حدا بأمها « روكسانا » الى افتتاح مدرسة أهلية — وكانت ذات ثقافة وعلم لتعليم

العلوم واللغات والفنون النسوية ، بالاضافة الى رسالتها الأولى كربة بيت وأم مثالية ٠

في هذه البيئة الواعية المغامرة ، نشـأت هارييت ، وأحست منذ طفولتها بروح الحرية تسرى في أعصابها ودمها ، وهي تتجول بين الحقول والغابات٠ومن تلك الطبيعة الرائعة أبدا ، ومن أرضها المتجهمة بالسحب ، تثقفـت ــ كما تقول ــ ونما تفكيرهـا وفهمها للحياة بطبيعتها وتجهمها وتقلباتها ٠

وتقص هارييت من حوادث طفولتها ، ما يدل على أنها كانت كثيرا ما تثير العديد من المشاكل والمتاعب لأمها ، ولقد أغرت ذات مرة شقيقا لها على اقتسام أكل بصيلات الزنبق ، وبهذا حرمت الأسرة من صيف حافل بالزهر والشذى العميق ٠

ولكن هذه الطفولة سرعان ما نراها تتعرض لضربة القدر ، ويد الموت تغتال الأم المثالية المضحية ، ولمـا تتم هارييت الخامسـة من العمر بعد ، وليبدو في موتها ، وكأن الأسرة كلها قد ضاعت ٠ وأصبحت دون قائد ٠ ولم يكن الصغار هم الذين حرموا هذا النبع الفيـاض من الايثار والحنان فحسب بل كان السيد بيتشر ، ذلك الزوج الذى لم يسـتطع أى عزاء التخفيف من ألم فجيعته ووحدته فيكتب الى صديق له يقول :

« هناك شعور بالفجيعة والخسارة ما من سبيل الى تخفيفهما، ووحدة لا ينفذ الى ظلماتها مؤنس وانني حتى بين مرح الأطفال وعطف الأصدقاء أجدني وحيدا ٠ بيد أنني لا أتضجر ، بل ان شعورا يوميا عميقا يغمر كياني، بانه كم يجب ان أكون لله شاكرا » ٠

« ولقد كان العام كله ــ بعد موتها ــ عام فراغ روحي عظيم ، كأنه لم تكن هناك محركات كافية في العالم لتحركني ٠ ولقد تعودت أن أصلي لله بحرارة اما أن يأخـذني اليه ، أو يعيـد الى ذلك الشعور باللذة في الأشياء ، وفي البواعث التي كانت تحركني فيما مضى » ٠

★★★

وذهبت هارييت اثر وفاة أمها ــ لتعيش مدة مع جدتها ومن ثم لتعود الى لتشفيلد ٠٠ بعد زواج أبيها للمرة الثانية ٠

ولقد حاولت الزوج الجديدة للسيد بيتشر أن تكون أما ثانية للصغار، ونجحت بأن تكون محبوبة لديهم مكرمة ٠ غير أن هارييت لم تحس نحوها بذلك الانعطاف الخاص ٠

في سن السابعة برهنت هارييت على أنها تملك ذاكرة ومواهب ساطعة ، اذ أصبحت تحفظ أجزاء من التوراة وعددا كبيرا من الأناشيد الدينية ، كما كانت مولعة بقراءة وتحصيل المعرفة الى حد بعيد فقد كانت مكتبة والدها مقصدها للبحث عن هذا الغذاء الفكرى وكان البحث عن هذا الغذاء واكتشافه يشبه لديها اكتشاف جزيرة فى المحيط ٠

★★★

حينما بلغت هارييت الثانية عشرة من عمرها التحقت بمدرسة السيد « جون دريس » وكان مربيا ذا شهرة ومكانة وفضل فتبدت براعتها وذكاؤها فى التعبير والدقة فى الانشاء ٠ وفى يوم الاحتفال بانتهاء العام الدراسى كانت الفائزة الأولى ٠ ولم يكن فوزها هذا عامل فرح واعجاب لأبيها وللمدرسة فحسب ، بل كان مستهل حياة جديدة تطلعت هارييت لبنائها بعزيمة وروح لا يقهر ٠

وتنسج الأقدار خيوطها لدفعها الى تلك الحياة ، وخطيب شقيقتها « كاترين » يغرق فى حادثة مركب ، فتفتح تلك الشقيقة مدرسة للفتيات تعلم فيها هارييت،فتستطيع بهذه الطريقة تأمين نفقات دراستها فى الجامعة٠

وحينما تبلغ هارييت الخامسة والعشرين من عمرها سنة ١٨٣٦ ، ينتقل والدها الى « أوهايو » ليصبح رئيسا لأبرشية « لين » فى مدينة « سينسناتى » ٠ وتذهب معه ابنتاه كاترين وهارييت ، وهناك تؤسسان معا مدرسة جديدة فى ضاحية المدينة ٠ وتلتقى هارييت هناك بأستاذ جامعى لامع يدعى « كالفن ستو » فتتزوج منه ٠

★★★

فى ذلك الوقت كانت قضية الرق تهز النفوس فى كافة أرجاء القارة٠ وبما أن مدينة « سينسناتى » كانت تقع بقرب حدود « كينتاكى » ــ الولاية الجنوبية للعبيد ــ فقد أصبحت مرفأ للأفكار التحررية العاصفة وكان العبيد يهربون الى الولاية الحرة فى « أوهايو » وتمد لهم يد المساعدة فى كندا عن طريق رجال عرفوا بعطفهم على قضايا الحرية ٠ فى تلك البيوت الكريمة الواقعة فى الشمال كان العبيد يجدون الحماية فى النهار الى حين ينقلون خلال الليل الى تلك الولاية ٠

★★★

وأضحى ساحل تلك الولاية مقرا للجدل العنيف ، ولتأييد قضية تحرير الانسان ٠ ولقد ساعد الكثيرون من طلبة الولايات الشمالية على تحرير عبيدهم وعلى تأسيس مدارس للطلبة الملونين فى « سينسناتى » رغما عن نظرية العداء التى ورثها هؤلاء عن أهلهم ٠

وحينما حاولت الصحافة المحلية إن تلجأ إلى المنـاداة بحل عادل للقضية تعرضت مطابعها للكسر مرتين وقذفت الى البحيرة ، كما تعرض الكثير من بيوت الملونين للحرق وقتل البعض منهم . واضطرت هارييت وأسرتها بسبب هذا الى النوم متسلحين لحماية أنفسهم . وحذر البحث فى هذه القضية . وكنتيجة لهذا التقييد أوشكت المدرسة على التوقف عن التدريس بعد أن هجرهـا أكثر أسـاتذتها وطلابها وبعد أن بذل السيد بيتشر مع أبنائه فى سبيلها أقوى الكفاح .

وفتحت هارييت بيتها للأطفال الملونين الذين كانت تعلمهم . وحينما اعتقل واحد منهم ، تولاها أسى عميق فبادرت الى افتدائه بكل ما كانت تملك من مال . حينذاك أنذرت عائلة ستو بالخطر : فهاجرت الى الشمال فى عام ١٨٥٠ ، وشرع زوج هارييت فى التدريس فى كلية برانسويك فى ولاية مين كما أخذت هى فى الكتابة للصحف ، لتعاون على كسب العيش .

***

ديكنز : قصة جديرة بكل عقل وكل قلب !!

والآن وفى سن الأربعين ، ومع تبعـات بيتية مرهقة وتربية لطفل ، كان من غير المتوقع أن تستطيع هارييت انتاج أى أثر أدبى بارز . ولكنها وهى على حساسية عميقة بالمأسـاة الإنسانية الدامية وبالمعركة التى تثور وتندلع نيرانها فى الولاية ، الى ذلك الاضطهاد السافر للرقيق ، اذ أبيحت مطاردة الملونين واعادتهم ثانيـة الى العبودية والموت ـ فقد كانت هارييت أقدر من يتولى اثارة هذه المأساة ، اذ لم يكن الناس قد أثيروا أو حركوا الى الدرجة الكافية لمعارضة أو مقاومة الرق بعد . هنا ، نرى هارييت تود من الأعماق أن لو استطاعت اثارة هذه المعانى السامية فى النفوس ، ودفعها الى تحرير اخوتها فى الانسانية من الاذلال والعبودية والاضطهاد .

ولاح لها هذا الرجاء أو تمثل فى ذهنها فى شخصـية « العم توم » بينما كانت تجلس على مائدة القربـان فى كنيسة برنسويك الصغيرة فى يوم أحـد .

وعادت هارييت الى البيت، يتملكها ايمان جارف بتنفيذ هذا القصد . وبدأت الكتابة . كتبت بادىء ذى بدء فصلين أو ثلاثة من قصة كوخ العم توم ، وقدمتها الى الدكتور « بيلى » صاحب جريدة الأحرار سـابقا فى

سينسناتي ، وزارت بوسطن ، وفى قاعات انسيليبرى لمقاومة الرق ، استعارت الكثير من المراجع لدعم كتابها بالوثائق والحقائق ٠٠ وحين كتبت القصة نفسها ملأت كل صفحة وسطر فيها بالرأفة والعاطفة ٠٠ تلك العاطفة التي انبثقت من اختباراتها فى مشكلة الرق والاضطهاد البشرى ٠

ونشرت هارييت القصة ، وكان التجاوب معها فى كافة أنحاء العالم قويا عاصفا تبدى فى فيض من رسائل التشجيع والتقريظ من ملوك وأمراء وكتاب وأدباء ، فقد كتب لها « ديكنز » قائلا :

« ان كتابك لجدير بكل عقل وكل قلب » كما قرظه كنجسلي وجورج اليوت وغيرهما ، وفي السنة التالية قامت هارييت وزوجها برحلة الى أوربا ، فكانت تقابل فى كل مدينة تزورها بحماسة مقدسة اذ كانت جموع الشعب توقف مركبتها فى الشوارع لتحييها وتملؤها بالزهر ٠

وافتتح اكتتاب عام تحرير العبيد حيث قدم لها مبلغ ألف جنيه استرلينى على صينية فضة ، كما دعتها احدى الدوقات الى حفل فى بيتها كان من شهوده لورد بالمرستون وماركونى وجلادستون قدمت لها خلاله سوارا ذهبيا على شكل قيد لعبد رقيق نقش على الحلقة الأولى منه : « اننا نؤمن بأنه رمز لقيد سوف يتحطم عاجلا » ٠ كما نقش على الحلقة الثانية منه تاريخ الغاء تجارة الرق فى أمريكا عام ١٨٠٧ وفى بريطانيا عام ١٨٤٣، وعلى الثالثة : تاريخ تحرير العبيد فى مقاطعة كولمبيا الى اعلان الرئيس ابراهام لنكولن لالغاء العبودية فى الوثيقة الدستورية فى الولايات المتحدة، والى الأبد سنة ١٨٣٦ ٠

وعادت هارييت وزوجها الى أمريكا من رحلتها فى أوربا لتكتب المذكرات الشائقة وتؤلف قصصا قوية أخرى ٠

واستمر بيع قصة « كوخ العم توم » بارتفاع ، وترجم الى تسع عشرة لغة مختلفة أخرى٠ وكان تأثيره فى كافة أنحاء العالم عظيما ، اذ حرر الكثيرون عبيدهم بعد قراءته ، كما ازداد بيع كتب التوراة فى فرنسا ، لأن الشعب هناك أحب أن يقرأ الكتاب الذى أحبه العم توم كثيرا ٠

وأخيرا ، وبعد الحرب الأهلية مباشرة استطاعت هارييت أن تشترى بيتا بين بساتين البرتقال فى فلوريدا من النقود التى ادخرتها من التأليف كما بنت كنيسة لزوجها ظل يعظ فيها حتى موته سنة ١٨٨٦ ٠

***

في عيد هارييت الواحد والسبعين ، أقام ناشر قصصها حفلة كبرى على نخب مؤلفة القصة الانسانية العالمية ، دعا اليها الشعراء والفنانين والسياسيين ورجال الاصلاح . وتحت منصة في خيمة عظيمة جلست هارييت لتصغى بتواضع الى قصائد الشعراء والخطب التى كانت تمجد كفاح امرأة واحدة رقيقة حيية ، وفى سمو ظاهر يدل على أنها أتمت هدفا عظيما .

★★★

وطوى الموت هارييت بيتشر ستو سنة ١٨٩٦ اثر مرض عضال « الشلل » ودفنت في مقبرة متصلة بالكنيسة ، بين قبر ابنها وزوجها فى « أندرفر » وقال التاريخ :

لقد كافحت هارييت بقلم أكثر مما كافحت بسلاح ، وعاشت لترى معركتها ضد العبودية .. تنتصر ...

الكتاب .. وثيقة انسانية عظمى !!

اتفق نقاد «كوخ العم توم» ، من مادحين وقادحين ، فى نقطة واحدة. فقد اعترفوا جميعا ، بغير استثناء ، بالأثر الهائل لذلك الكتاب على عصره ، وبنفوذه القوى فى التحريض على الحرب الأهلية . وقد وصف أحد المعلقين المعاصرين القادحين ، هذا المؤلف بأنه : « تشويه وحشى أوحى به التعصب لالغاء الرق ، وأنه موضوع لاثارة الشقاق بين الأقسام » . وأبدى أحد مشاهير المحاضرين والكتاب ، فى أوائل القرن الحالى ، ملاحظته بقوله : « أحدث كتاب، كوخ العم توم ، ضررا للعالم يفوق ما فعله أى كتاب آخر » .

وعلى نقيض هذين ، عبر عدد كبير من المعجبين ، عن عاطفتهم بخطاب جاء من لونجفلو يصف كتاب كوخ العم توم ، بأنه : « أحد الانتصارات العظمى التى سجلها تاريخ الأدب علاوة على أثره الأخلاقى » . وقرظ آخرون ذلك الكتاب على أنه « انتصار للحقيقة » و « خالد » وأن المؤلف « سيدة نابغة بدون جدال » .

ما من كتاب آخر كان أكثر موضوعية ولا أحسن توقيتا وظيفيا .. زادت حدة النضال من أجل مسألة الرقيق . وزاد فى حدتها التصديق على قانون العبيد الهاربين — ظل المطالبون بالغاء الرقيق عشرين سنة يصعدون من اثارة الرأى العام ضد الرق ، وانقسم الكونجرس من الوسط قسمين ، يتزايد المعارضين للرق من رجال الدين — من الشمال والجنوب — وهم يصيحون من منابرهم بالآيات المقدسة المحرمة (بتشديد وكسر الراء) استخدام العبيد وامتلاكهم . بلغ الجو الثائر ذروته ينتظر شرارة فحسب لحدوث انفجار يهز العالم كله ، وقد زودهم كتاب كوخ العم توم بهذه الشرارة .

لم يكن الوقت مناسبا فقط ، بل ظلت الوراثة والبيئة تشكلان الشخص الملائم بالضبط لاثارة المغامرة ضد استرقاق البشر .

واذ كانت هارييت بيتشر ستو ابنة رجل من أشهر الناس قداسة فى القرن التاسع عشر ، وهو لايمان بيتشر وشقيقة واعظ أكثر عاطفة من أبيه

وهو هنرى وارد بيتشر وزوجة واعظ ، وشقيقه ووالدة وعاظ آخرين ، قضت حياتها كلها فى جو دينى بحت · وزيادة على ذلك ، كان تعليمها الدينى كلفينيا (٨١) متعصبا ، متمسكة بروح جوناثان ادواردز ، وصموئيل هوبكنز وغيرهما من متصوفى نيو انجلاند ، كما أحاطت بها باستمرار منذ نعومة أظفارها تعاليم لاهوتية « كالنار والكبريت » ·· فلما كانت هارييت لا تستطيع الا أن تكون واعظة – ان لم يكن من منبر ، فعلى الأقل بالقلم · تجلى الأساس الدينى فى جميع مؤلفاتها المتنوعة ومنها كوخ العم توم ، يحفزها الى الحماس الانجيلى وفصاحة التعبير بالآيات المقدسة ·

وفى السنوات التى قضتها هارييت ستو فى سنسناتى ، لم تكن من محبذى الغاء الرق المتحمسين ، وربما شاركت أهلها رأيه فى أن الالغاء يتكون من « الخل وحامض التنويك وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) مع الكبريت وملح البارود والفحم النباتى ، ليفجر فتات المادة الأكالة » · والواقع أن مسز ستو كانت متطرفة أكثر منها بطلة عاملة فى معركة الرقيق ، حتى عادت الى نيوانجلاند اذ عين كالفين ستو أستاذا بكلية بودوين بولاية مين فانتقل اليها مع أسرته فى سنة ١٨٥٠ ·

كانت نيوانجلاند كلها ثائرة حنقا على اقرار قانون العبيد الهاربين وخصوصا ضد أحداث ذات صلة بتطبيق ذلك القانون فى بوسطون · فأصحاب العبيد فى الجنوب يمكنهم مطاردة العبيد الهاربين داخل الولايات الحرة مع الزام موظفى هذه الولايات بمساعدتهم فى استعادة مملوكيهم · وزيادة على ذلك ، فان الزنوج الذين نعموا بالحرية قانونا منذ مدة طويلة ، جمعوا وأعيدوا الى أصحابهم السابقين ، وغالبا ما انفصلوا عن عائلاتهم فى هذه العملية ·

تسلمت هارييت ستو خطابا من زوجة أخيها مسز ادوارد بيتشر ترجوها فيه « أن تكتب شيئا يجعل أمة بأسرها تشعر بفظاعة الرق » · وتبعا لتقاليد أسرة ستو ، قالت هارييت : « بمساعدة الرب سأكتب شيئا ان أحيانى الله » · بينما يعقد أخوها الآخر هنرى وارد ، مزارات فى كنيسة بوسطون · وفى تلك الأثناء كان أخوها ادوارد ثائرا ضد الرق فى كنيسة مدينة بروكلين لتخليص العبيد من رقهم ومنحهم الحرية ·

كان القسم الأول من كتاب « كوخ العم توم » ، الذى كان ما يزال فى طور التأليف هو غاية الموضوع ، ويصف موت توم · وبينما كانت مسز ستو حاضرة فى كنيسة برنسويك أثناء توزيع الذبيحة المقدسة ، استرجعت كافة المناظر المتجمعة فى عين ذهنها ، وفى مساء ذلك اليوم نفسه ذهبت

الى حجرتها واقفلت بابها وطفقت تكتب رؤيتها حتى نفد ما لديها من ورق الكتابة فاستعملت ورق اللف البني اللون واكملت فيه قصتها . وعلى ذلك كونت هذه القصة الباب الذى عنوانه « الشهيد » فى كتاب « كوخ العم توم » . ولما قراته لأولادها وزوجها تاثروا جميعا تاثرا عميقا . ويقال ان كالفين ستو ، صاح يقول : « أى هاتى ، هذه ذروة قصة الرق التى وعدت شقيقتي ايزابيل بكتابتها . ابدئى من البداية حتى تصلى الى هذه ، تحصلى على كتابك » .

بعد أسابيع قليلة ، كتبت هارييت ستو الى جاماليل بايلى محرر صحيفة « العصر القومى » وهى جريدة مناصرة لالغاء الرق تصدر فى واشنطون ، وكان بايلى يعرف أسرة بيتشر فى سنسناتى حيث كان يصدر جريدة أخرى مناهضة للرق عنوانها « الخير » ، حتى طرد من هناك فى كثير من العنف . ذكرت مسز ستو فى خطابها أنها تعتزم كتابة قصة اسمها « كوخ العم توم » عن « الرجل بين المساكين » فى صورة حلقات تصل الى ثلاث أو أربع . فعرض عليها بايلى ثلثمائة دولار لحقوق النشر ، وبدأت صحيفة « العصر القومى » تنشر الحلقات فى شهر يونية سنة ١٨٥١ .

توقعت مسز ستو أن ينتهى ذلك المؤلف فى شهر ، ولكنه امتد باستمرار فى مناظر وأحداث وشخصيات ومحادثات كانت مكدسة فى ذاكرتها من تجاربها السابقة أو قراءة ما جاءها بالاكوام بينما كانت قوى خيالها وابتكارها تتأجج حماسا . امتدت الحلقات الأسبوعية لمدة سنة تقريبا قبل أن تتمكن المؤلفة المتعبة من الوصول الى خاتمة كتابها . بعد ذلك ، أصرت على « أن الله نفسه هو الذى كتبه ، ولم أكن أنا سوى أداة فى يده » .

لم تكن الخطة الأصلية لقصة « كوخ العم توم » معقدة ولو أنها تتضمن عدة شخصيات . ففى المنظر الافتتاحى : لكى يسدد المستر شلبى ، وهو صاحب عبيد خير من كنتكى ، ديونه ، اضطر الى أن يبيع بعضا من خيرة عبيده ، ومنهم العم توم ، الى نخاس فى نيو أورليانز اسمه هيلى . فاسترقت السمع فتاة نصف زنجية اسمها اليزا فعرفت أن طفلها هارى سيباع أيضا . وفى ديجور الظلام ليلا ، هربت مع ابنها وعبرت نهر أوهيو المتجمد طلبا للحرية فى كندا . وكان زوجها جورج هاريس عبدا فى مزرعة قريبة ، فهرب هو أيضا ولحق بها . وأخيرا وبعد عدة مغامرات مع قوات القبض على العبيد الهاربين التى طاردتهم ، وبمساعدة أعضاء جمعية الأصدقاء التى أسسها جورج فوكس ، وغيرهم من البيض المشفقين عليهم ، على طول الطريق ، وصلوا الى كندا ، ثم بعد ذلك الى أفريقيا .

أما العم توم فكان سيىء الحظ ، اذ رفض الهروب لئلا يربك سيده ، وفصل عن زوجته وأولاده • وابان الرحلة الى نهر المسيسبى الى نيو أورليانز ، أنقذ توم حياة الصغيرة ايفا ولكى يعبر أبوها سانت كلير عن شكره لتوم ، اشتراه من النخاس •• كانت السنتان التاليتان مدة سعادة لتوم كخادم فى بيت سانت كلير المنيف فى نيو أورليانز مع الطفلة القديسة ايفا ورفيقها الزنجى الصغير توبسى • ثم ماتت ايفا ، وفى ذكراها ، اعتزم سانت كلير أن يعتق توم وزملاءه العبيد الآخرين ، ولكن سانت كلير قتل فجأة وهو يحاول أن يفرق بين اثنين من المتشاجرين فأمرت زوجته بارسال توم الى سوق الرقيق ليباع بالمزاد العلنى ، فاشتراه مزارع متوحش سكير من منطقة النهر الأحمر اسمه سيمون لجرى • وعلى الرغم من سلوك توم المسالم وبذله كل جهد لارضاء سيده القاسى ، فان لجرى سرعان ما بدأ يمقت توم ، وكان يسوطه كثيرا • وحدث أن اعتزمت اثنتان من الاماء ، كاسى واملين ، الهرب من المزرعة والاختباء فى مكان ما • فاتهم لجرى توم بمساعدتهما واشتبه فى أنه يعرف أين تختبئان • وعندما رفض توم الافضاء بأية معلومات ظل لجرى يسوطه حتى فقد وعيه • وبعد ذلك بيومين ، جاء جورج شلبى الصغير ابن صاحب توم السابق ليشتريه ويستعيده ولكن بعد فوات الأوان ، اذ مات توم متأثرا بجراح ضربه الوحشى القاتل • فما كان من جورج الا أن ضرب لجرى فطرحه أرضا ، ثم عاد الى كنتيكى فأعتق جميع العبيد باسم العم توم ، واعتزم تكريس بقية حياته لقضية الغاء الرق •

رغم أن توزيع صحيفة « العصر القومى » لم يكن ضخما ، فقد حظى كتاب « كوخ العم توم » باقبال حماسى فى خلال بضعة أشهر • وقبل ظهور الباب الأخير أخرج وليد أفكار مسز ستو من المطبعة فى صورة كتاب • تعهدت مؤسسة جون ب• جيوبت فى بوسطن بهذا العمل فى خوف عظيم بسبب طوله ، من جهة ، وكون مؤلفته امرأة ، من جهة أخرى وعدم شعبية موضوعه • ولكى يحتاط جيوبت ضد أى خسارة مالية ، عرض على مسز ستو ٥٠٪ من الأرباح نظير أن تدفع نصف تكاليف الانتاج • ولكن بدلا من ذلك ، اختارت أسرة ستوى أن تحصل على ١٠ ٪ من ثمن النسخ المبيعة — فأضاع عليهم هذا القرار ثروة •

لم يكن كل من الناشر والمؤلفة متفائلا من نجاح « كوخ العم توم » • فعبرت مسز ستو عن أملها فى أن يأتيها ذلك الكتاب بما يكفى لشراء ثوب جديد من الحرير • كانت الطبعة الأصلية ٥٠٠٠ نسخة من جزءين ، وقد رسم على وجه الغلاف صورة كوخ زنجى •

بيعت ٣٠٠ نسخة في اليوم الأول للنشر ، وبيع الباقي كله في اليوم التالي ، بينما تدفقت الطلبات • وفي خلال أسبوع بيعت ١٠٠٠٠ نسخة ، وفي نهاية السنة الأولى كانت المبيعات ٣٠٠٠٠٠ نسخة في الولايات المتحدة وحدها• كانت ثماني آلات طباعة آلية تعمل ليل نهار لسد المطلوب، وتحاول ثلاثة مصانع للورق توريد الورق اللازم • ورغم هذا ، كان الناشر ما يزال في حاجة الى ألوف النسخ لسد الطلبات » • ويبدو أن كل شخص يعرف القراءة والكتابة في الدولة قد قرأ هذا الكتاب •

كانت شهرة « كوخ العم توم » في الخارج تزيد عن المبيعات في الولايات المتحدة نفسها • أرسل موظف صغير لدى بوتنام نسخة الى ناشر انجليزي ، فنال خمسة جنيهات نظير أتعابه فظهرت عدة طبعات مسروقة ، اذ لم تكن هناك حماية دولية لحق التأليف • وسرعان ما كانت هناك ثماني عشرة مؤسسة انجليزية تمد السوق بالنسخ المطلوبة بأربعين طبعة مختلفة • وقدر أنه في خلال سنة بيع مليون ونصف مليون نسخة في بريطانيا العظمى والمستعمرات • ولم تحصل مسز ستو على أي شيء من ثمن كل هذه المبيعات وفي الوقت نفسه ، كان الناشرون الأوروبيون مشغولين بجني ثمار ذلك المحصول الذهبي • فقد ترجم هذا الكتاب الى اثنتين وعشرين لغة على الأقل ، ولقي النجاح في فرنسا وألمانيا والسويد وهولندا والدول الأخرى بمثل النجاح الذي لقيه في الدول المتكلمة بالانجليزية •

وزيادة على ذلك ، حولت هذه الرواية الى مسرحية وصارت واحدة من أشهر المسرحيات التي مثلت في المسارح الأمريكية ، وظهر منها عدد لا يحصى من الطبعات قامت بها جماعات مسرحية عديدة طافت حول العالم خلال القرن الماضي • ومرة أخرى ، لم تكسب مسز ستو شيئا ماليا ، اذ أن قانون حقوق الطبع والنشر والتأليف الذي كان سائدا في سنة ١٨٥٢ لم يعطها اشرافا على تحويل روايتها الى مسرحية • وعلى أية حال، لم تستحسن مسز ستو تحويلها الى مسرحية ، ورفضت أن تطلب تصريحا بتحويل كتابها الى مسرحية •

عواصف من الغضب !!

وبالجملة ، فان ما أحرزه كتاب « كوخ العم توم » من شهرة وربح ، لم يحرزه أي كتاب آخر في تاريخ النشر ، فيما عدا التوراة الذي ضرب الرقم القياسي في المبيعات • صار هذا الكتاب ملكا للملايين في شتى

صوره : الخيالية والمسرحية والشعرية والموسيقية ، كما طاف حول الكرة الارضية ٠

كان تاثير كتاب (كوخ العم توم) على الرأى والعواطف المعاصرة هائلا مثل ضخامة مبيعاته ٠ وفيما بعد وصف ابن مسز ستو وحفيدها اقبال الناس ، بقولهما : (كان مثل اشعال حريق ضخم ، عمل على تألق السماء كلها بطوفان العواطف الجارف الذى اكتسح أمامه كل شيء وعبر المحيط الشاسع نفسه ، حتى بدا أن العالم كله قلما كان يفكر فى شيء أو يتحدث عن شيء سواه) ٠

بيد أنه جاءت من الجنوب عاصفة هوجاء من الغضب والانكار والقدح ، انصبت على مؤلفه (كوخ العم توم) ٠ وسرعان ما وضع اسمها بين قوسين مع أمير الشرور ، وامتلأت أعمدة فى الصحف من النقد المفصل بقصد اظهار أخطاء ومغالطات تصوير مسز ستو للرق ٠ ومن التعليقات النموذجية ، تقرير صحيفة (الرسول الأدبى الجنوبى) القائل بأن ذلك الكتاب «بغاء اجرامى لوظائف الخيال السامية» ، وان مسز ستو ، اذ اقترفت اثما بتأليفه ، « فقد وضعت نفسها خارج نطاق العلاج الطيب على يد النقد الجنوبى » ٠ وتسلمت مسز ستو شخصيا ، ألوفا من الخطابات الغاضبة وخطابات السباب ٠٠ وفى البداية ، انتشر توزيع كتاب « كوخ العم توم » فى الجنوب بحرية ، غير أنه بعد رد الفعل العنيف المرير ، صار مجرد حوزة نسخة من هذا الكتاب ، خطرا أى خطر ٠

ومن قبيل التهكم ، كانت مسز ستو تأمل وتؤمن بأن روايتها قد تكون وسيلة لحل نزاع الرق الذى طال أمده ، وبعد أن قرأ أحد الأصدقاء الجنوبيين هذا الكتاب ، كتب اليها يقول : « سيكون كتابك مصلحا عظيما يوحد بين الشمال والجنوب » ٠٠ حاولت مسز ستو فى الكتاب أن تقدم فى عدل طرفى النزاع فى جدال الرق — التصورى والدينى من ناحية ، والقاسى المتشائم من جهة أخرى ٠ صور اثنان من أصحاب العبيد فى ذلك الكتاب ، هما المستر شلبى وأوجستين سانت كلير ، وهما أخوان من الجنوب عظيما الفضل ٠ وربما كانت ايفا الصغيرة ، ابنة سانت كلير أكثر الأطفال ملائكية فى الأدب كله ٠ أما الوغد الأعظم سيمون لجرى فهو رجل ملحد من ولاية فيرمونت ٠ كما يتحدث كثير من كوميدية الكتاب عن شخصيتين أخريين من نيو انجلاند هما مس أوفيليا وماركس ٠ وقد أبانت مسز ستو بوضوح أن أهالى الشمال ينقصهم الوعى الكافى بصفة قاطعة عن الزنوج ، ومع ذلك فقد يعطفون عليهم فى شيء من الغموض ٠

بيد أن هذه الاعترافات لم تكن كافية لارضاء استياء الجنوب . فقد توالت الهجمات العنيفة من كل جانب واتهمت مسز ستو بتشويه الحقائق. مثال ذلك : أشير الى أن قوانين الجنوب صارمة وملزمة ازاء قتل العبيد مثلما هي صارمة ازاء قتل البيض ، وتحرم اللوائح عادة فصل الأطفال ، الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات، عن أمهاتهم . هذا، والعبيد كممتلكات بالغو القيمة فلا يجب اساءة معاملتهم اساءة خطيرة .

أما في الشمال، فاستقبل كتاب « كوخ العم توم » استقبالا مختلطا : فحتى البعض ، الذين يمقتون الرق ، يتهمون هذا الكتاب لخوفهم من أن يثير حربا أهلية . كما ذمه أهل الشمال المستثمرون أموالا في أعمال قطن الجنوب خشـية أن يعرض استثماراتهم للخطر . وعبرت صحيفة التجارة النيويوركية عن وجهة نظرهم هذه في نشرة معادية تتساءل عن مدى صدق مسز ستو . ومع ذلك ، فعموما ، تقبل القراء الشماليون « كوخ العم توم » على أنه اتهـام حق لنظـام الرقيق . ولما لم يعمل شيء غير ذلك ، تحرك الضمير القومي والغرائز الانسـانية فأثارت هذه القصـة وأصابت نغمات عباراتها الدينية القوية هدفها من أن الرق يتناول أرواحا بشرية .

ومن الآثار المباشرة لكوخ العم توم ، استحالة التصديق على قانون العبيد الهاربين فكان عدم التعاون مع القـانون اجماعيا خارج الجنوب . والأشد من ذلك ، أن ذلك الكتاب ألهب مجموعة ضخمة من العاطفة ضد الرق ، وربما جعل من المحتم نشـوب حرب أهلية وبالتأكيد ، كان هذا الكتاب السبب الأكبر في ذلك الالتحام المنتهي بكارثة ، كما أدرك ابراهام لنكولن وهو يصافح مسز ستو عندما زارت البيت الأبيض في سنة ١٨٦٢، وقال عنهـا انهـا « السـيدة الصغيرة التي كتبت ذلك الكتاب المسبب لهذه الحرب الكبيرة » . وأبدى تشارلز سمنر ملاحظته بأنه « اذا لم يؤلف كتاب (كوخ العم توم) ، فما كان لابراهام لنكولن أن ينتخب رئيسا للولايات المتحدة » .

القيمـة الأدبيـة للكتاب

أما القيمة الأدبية لكوخ العم توم ، فلم تلق الا اهتماما سـطحيا في بادىء الأمر ، رغم أن النقاد جميعـا ناقشوها فيما بعد . ولاحظ المؤرخ جيمس فورد رودز أن « الأسلوب عادى ، واللغة في أغلب الأحوال ، مبتذلة وغير أنيقة ، وتنقلب أحيانا الى اللغة العامية ، والدعاية متكلفة » . وناقش أحد النقاد الجنوبيين وهو ستارك ينج استخدام مسز ستو للهجة الزنوج ،

فيقول : « رأيت كثيرا من السود ، ولكنها لم تجعلهم يتكلمون . أذنها مستحيلة ، ليس لديها احساس بوقع لغتهم أو حيويتها » . ويشير فان ويك بروكس الى « عيوب الكتاب الواضحة من حيث التركيب والعاطفية » . ورغم هذا ، يصفه بأنه « وثيقة انسانية عظمى » . وتعتقد معلقة حديثة أخرى هي كاثارين أنتوني أن « كوخ العم توم قصة وصورة للأخلاق الأمريكية .. وتستحق التقدير السامي بغير ما ريب . ومن الجلي أن مسز ستو مولعة بالجنوب . فبينما هي تمقته لأنه في جانب الرق ، نراها تصور جوه بحرارة وعطف . كانت طليعة الكتاب الأمريكيين فى تناول مسألة الزنوج بجدية ، وتتخيل قصة بطلها رجل أسود . ورغم انها كتبت لغرض أخلاقي ، فقد نسيت المؤلفة الغرض الأصلي أحيانا فى متعة انسياقها فى سرد قصتها » . أما من حيث الوجهة التاريخية فبالطبع لهذه الرواية أهمية عظمى كوثيقة اجتماعية أكثر منها عملاً فنيا أدبيا أو كلاسيكيا . وبالتأكيد هي أكثر من مجرد قصة ، كما وصفها قلم « كاو » فيقول انها : « مفعمة بالقتل والشهوة والحب المحرم والانتحار والتعذيب البالغ القسوة والنجاسة والسكر وشجار الحانات » .

أكسب كتاب « كوخ العم توم » مسز ستو ، فى الحال ، شهرة عالمية . ففى السنة التالية لنشر هذه الرواية قامت مسز ستو بثلاث رحلات الى الخارج . زارت فيها انجلترا واسكتلندة حيث التقى ورحب بها مئات من النبلاء وأفراد العائلة الملكية وعلية القوم ومن بينهم الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت وديكنز وجورج اليوت وكنجزلى ورسكين وماكولى وجلادستون فى رحلتها المظفرة هذه ، استقبلها ، بحماس بالغ ، عامة الشعب الذين الذين رأوا فيها بطلة المساكين وفى ادنبره قدموا لها هدية بنسا قوميا حصيلته ألف جنيه ذهبى لمساعدتها فى محاربة الرق .. لم يسبق قط أن مؤلفا أمريكيا خلق مثل هذه الاثارة البالغة ، ولا استقبل بمثل ذلك الاستقبال الحار فى الجزر البريطانية .

وقد حاولت مرارا البرهنة على أن صورة الرق المرسومة فى كتابها ليست فيها أية مبالغة ، ولا هى « وليدة الأكاذيب » كما اتهمها البعض بأنها كدست تلك الأكاذيب لتجعل منها مفتاحا لكوخ العم توم ، التى قالت انها « ستضم جميع الحقائق الأصلية والوقائع والوثائق التى ستبنى عليها القصة مع بعض القصص الممتعة والمؤثرة الملائمة لقصة العم توم » . وينقسم هذا المؤلف الى أربعة أقسام تبدأ بوصف الشخصيات ، لتثبت أنهم أشخاص حقيقيون من الحياة الواقعية . ويشمل القسم الثانى قوانين العبيد مبينا أن اللوائح لا تحمى العبيد ، ثم يأتى سرد حياة العبيد كأفراد، واخفاق الرأى العام فى حماية العبيد ومناقشة الأثر غير الأخلاقى للرق على

الأعمال الحرة في الجنوب . وأخيرا ، وجه اتهام للكنائس لموقفها المنقسم وغير الفعال حيال الرق .

كتبت مسز ستو بقلمها الكثير التصانيف ، مؤلفا آخر عن الرق ، هو رواية « دريد » وهي « قصة المستنقع العظيم المشئوم » ، التي نشرت في سنة ١٨٥٦ ، وبيعت منها مائة ألف نسخة في أربعة أسابيع ، رغم أنها لم تصل الى شعبية « كوخ العم توم » كانت فكرة المؤلفة في « دريد » هي الأثر السيىء لنظام الرق على الرجل الأبيض — كل من المالك ، ومستأجر المزارعي الأبيض الفقير . كان الخلط بين الجنسين ونتائجه السيئة على كل الأشخاص ، مسرحيا .. ورواية « دريد » هذه غزيرة بتصوير البيض الفقراء ، والوعاظ المطالبين بانعاش الفقراء ، وحياة المزارع ولكن ليست بها شخصية أساسية واحدة ، مثل العم توم ، لتحظى بعطف القارىء .

أنتجت مسز ستو ، منذ ذلك الوقت حتى آخر عمرها وهو خمس وثمانون سنة ، سيلا لا ينتهي من الروايات والقصص وتواريخ الحياة والمقالات والمواضيع الدينية . ولمدة ثلاثين عاما تقريبا . كان متوسط انتاجها كتابا واحدا في كل عام . ولكنها تركت موضوع الرق في معظم انتاجها . وفي أثناء الحرب الأهلية ، كان أهم ما أسهمت به خطابا الى نساء انجلترا تذكرهن باستجابتهن الشاملة والمحبذة لكتاب (كوخ العم توم) ، والحادثة قبل ذلك بثمانية أو تسعة أعوام ، وتلومهن على تعاطفهن مع الجنوب ، وأعمالهن بعد نشوب الحرب . ونتيجة لذلك الخطاب ، عقدت اجتماعا كبيرا في الجزر البريطانية بقصد تغيير الرأى الانجليزى الحاكم نحو قضية الاتحاد . وعلى هذا ، فربما لعب خطاب مسز ستو دورا مهما في منع التدخل الانجليزى ،في وقت كان يمكنه فيه تعريض الجانب الشمالي للخطر .

عند تقدير مركز هارييت بيتشر ستو في التاريخ ، قال كيرك مونرو : « انها لا تقف فقط في مقدمة الصف الأمامي بين نساء العالم ، بل وفي تشكيل مصير الشعب الأمريكي ، في فترة حرجة أشد الحرج في تاريخهم . كان نفوذها أقوى من نفوذ أى فرد آخر ... وبالطبع لا يمكن لأى فرد انجاز منع الرق وحده ، ولا يمكن أن يقوم به أى شخص واحد » . وأشار مونرو وهو يستعرض العناصر التي حققت النصر النهائي . قائلا : « ولكن أعظم هذه العناصر كلها ، وأقواها تأثيرا هو « كوخ العم توم » .

ربما كان التقدير النهائي لكتاب (كوخ العم توم) ، والذى أمكن ذكره بعد قرن ، هو ما قررته مؤلفة أخرى اسمها كونستانس رورك ، اذ قالت : « ولو أنه تهشم من فرط الهياج الذى صاحب حياته المستقبلية ،

ورغم عيوبه فى بعض الأمور الأساسية ، فمازال يحتفظ بصفات ترفعه فوق مركزه المعاصر كرسالة ، صفات تفند التهمة السهلة العادية، وهى المبالغة. والواضح أن هذا الكتاب يفتقر الى الواقعية الحقيقية ، ولكن ربما كان من الواجب ألا نحكم عليه بالواقعية اطلاقا . ومن الجلى أنه تنقصه الصلابة ووضوح الرؤية الخاصان بالكتابة العظيمة . ليست عاطفيته حرة قط ، ولكنها صلبة وجامدة من الناحية العقلية ومريضة وعاطفية بحسب الاختيار انها تجرى فى سباق لا نهاية له . ويبدو أن الهستيريا قد خلقت هذا السباق . بيد أن القوة السليمة لتلك العاطفة أنتجت اتساعات فى امتدادها ، واتزانات غير محسوبة ، ويذكر امتصاصها المتدفق للنتيجة الضخمة للعمل ،ومجموعاتها المفككة للأقدار المتشابكة ، يذكران على الأقل بمعنى يميز شعر الملاحم . كما أنها تتصف ، قبل كل شيء ، بالحركة المؤثرة نحو أهداف مجهولة على مسافات طويلة تغدو الفكرة التي لا تقاوم للسرد الأعظم ، المذكور هنا بالعواطف العميقة ، لأن المغامرة ليست حرة أبدا ، وانما تقطع عند نهايتها ، أو تساق الى الخطر .

وقد أكد فان ويك بروكس أن (كوخ العم توم) قد نقل من الجو الذى كتب فيه ، ورغم ذلك بقى صورة شعبية عظمى لعصر ولأمة » .

المراجـــــع

١ ـ تاريـخ العلـم	سارتـــون
٢ ـ أعلام الجغرافيين العرب	د٠ عبد الرحمن حميدة
٣ ـ دائرة معارف الشعب	دار الشعب
٤ ـ قصة الأدب فى العالم	د٠ أحمد أمين
٥ ـ قصـــة الحضـــارة	ول٠ ديورانت
٦ ـ مصر والشرق الأدنى القديم	د٠ نجيب ميخائيل ابراهيم
٧ ـ ابن ماجـد المـلاح	د٠ أنور عبد العليم
٨ ـ معجم أعلام الفكر الانسانى	نخبة من الأساتذة المصريين
٩ ـ الجمال والفـن	د٠ ماهر كامـــل
١٠ ـ الآداب العربية وتاريخها	جرجس كنعـــان
١١ ـ المرأة فى ميادين الكفاح	فايزة عبد الحميد
١٢ ـ فلاسفة أيقظوا العالم	د٠ مصطفى النشـــار
١٣ ـ الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب	سامى اليـــافى
١٤ ـ الغرب والحضارة ٠٠ تاريـخ الحضـــارة	كافيين رايـــلى
١٥ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	فاضل أحمد الطائى
١٦ ـ نظرات فى فكر العقاد	عثمان أمـــين
١٧ ـ الجاحـــظ	حنـــا الفاخورى
١٨ ـ مع بخلاء الجاحظ	فـاروق ســـعد
١٩ ـ الملاحـة وعلوم البحار عنـد العرب	د٠ أنور عبد العلـيم

٢٠ ـ الشعر الاغريقى تراثا انسانيا وعالميا	د· أحمد عثمان
٢١ ـ فلسفة ابن رشد وأثرهما فى التفكير الغربى	محمود قاسم
٢٢ ـ فى فلسفة ابن رشد	محمد بيصار
٢٣ ـ الخالدون العرب	قدرى حافظ طوقان
٢٤ ـ ماهية الجمال والفن	عبد الله عويضة
٢٥ ـ شرح المعلقات السبع	الزوزنى
٢٦ ـ فى الأدب المصرى القديم	د · أحمد عبد الحميد يوسف
٢٧ ـ البخارى	المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
٢٨ ـ أعلام فى الأدب الانسانى	ابراهيم المصرى
٢٩ ـ تاريخ آداب اللغة العربية	جرجى زيدان
٣٠ ـ رحلة التراث العربى	د· سيد حامد النساج

الهوامش

(١) صفحة ٢ : الردن : كم القميص ٠

(٢) صفحة ٥١ : الوركاء : مدينة قديمة من مدن بابل على ضفة الفرات ٠

(٣) صفحة ١٦ : « حمبابا : فى النص الاشورى هو « خوواوا » فى التصبين السومرى والاكدى ٠

(٤) صفحة ٢٠ : « نيسابا » : الهـة الحبوب ٠

(٥) صفحة ٢٠ : (سوموقان) : الهة الماشية ٠

(٦) صفحة ٢٢ : ربما كان هذا خطأ فى الكتابة فالمقصود (انكيدو) وليس جلجاميش٠

(٧) صفحة ٢٣ : كلمة « طبل » هنا غامضة المعنى ٠

(٨) صفحة ٢٧ : (ايرنينى) : صورة من عشتار ٠

(٩) صفحة ٣٤ : (اتيانا) : ملك لحبش الأسطورى الذى حمله نسر فى السماء ٠

(١٠) صفحة ٣٥ : « أوتنا بشتيم » وهو « أوتانا بشتيم » فى البابلية القديمة ٠ بطل الفيضان الميزوبوتامى وهو « زيوسودرا » السومرى ٠

(١١) صفحة ٣٩ : « أورشنابى » : هو (سورسوليو) النص البابلى القديم ٠

(١٢) صفحة ٦٧ : « أهناسيا » : مدينة عند مدخل الفيوم كانت عاصمة الأسرتين التاسعة والعاشرة فى عصر الانتقال الأول ٠

(١٣) صفحة ٦٧ : وهى تذكرنا بقصة الفلاح الذى شكا عامل الخراج بقوله : « انه ما ترك لى ذهبا الا ذهبا به ، ولا فضة الا فضها ، ولا عرضا الا عرض له ولا مالا ولا مال به ، ولا ضيعـة الا أضـاعها ولا ماشـية الا امشقها واعجب به الأمير وانصفه ٠

(١٤) صفحة ٧٢ : « سخمت » : معبودة فى شكل لبؤة كانت موضوع أساطير قديمة ٠

(١٥) صفحة ٧٤ : « منتسو » : اله الحرب عند المصريين ٠

(١٦) صفحة ٧٥ : يذكرنا بقول هارون الرشيد وقد نظر الى سحابة فى السماء « اذهبى حيث شئت يأتنى خراجك) كناية عن اتساع سلطانه ، كما يذكرنا بمـا كانت توصف به الامبراطورية البريطانية بقولهم « لا تغرب عنها الشمس » ٠

(١٧) صفحة ٧٩ : المدن الايونية : ايونيا : الجزء الأوسط من شاطىء آسـية الصغرى الغربى والجزر المجاورة ٠

(١٨) صفحة ٧٩ : (الفيوس) : نهر بجنوب اليونان ٠

(١٩) صفحة ٩٩ : يعاظل : عاظل بالكلام : عقده وصعبه ٠

(٢٠) صفحة ١٢٩ : الكرتيين : كريت : أكبر جزيرة باليونان ·

(٢١) صفحة ١٧٨ : النزهة : القول الخالى من النفع ·

(٢٢) صفحة ١٨٦ : الصابئة : بياع الرقيق · والنخاسة : بيع الرقيق ·

(٢٣) صفحة ١٨٦ : الصابئة هم الذين تركوا التوحيد الى عبادة الأصنام · وقالوا انا نحتاج فى معرفة الله الى متوسطات اما روحانية وهى الكواكب واما جسمانية وهم بشر يأكلون ويشربون · وقد انتشرت الصابئة عند الآشوريين والبابليين ·

(٢٤) صفحة ١٨٦ : الزراتشتيون : هم أتباع زرادشت الذى ظهر بفارس فى القرن السادس قبل الميلاد ·

(٢٥) صفحة ١٨٦ : « المانويون » : أصحاب مانى بن فاتك (القرن الثالث الميلادى) ظهر فى زمان سابور بن أردشير ، أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية ·

(٢٦) صفحة ١٨٧ : « الرافضة » : عدة فرق من غلاة الشيعة ·

(٢٧) صفحة ١٨٧ : « الجهمية » : مذهب أتباع الجهيم بن صفوان · ويقول بالجبر ونفى اختيار العباد لافعالهم ·

(٢٨) صفحة ١٨٧ : « التنويه » : مذهب القائلين بمبدأين أزليين هما النور والظلمة ·

(٢٩) صفحة ١٨٧ : « الدهرية » : مذهب من يقولون بقدم العالم وتدبيره للعالم وتأثيره فيه ·

(٣٠) صفحة ١٨٧ : المرجئة : فرقة من المتكلمين اختلف فى سبب تسميتهم فقيل لقولهم بتأخير العمل عن الايمان ، فلا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع من الكفر طاعة · وقيل سميت كذلك لانهم يرجئون أمر أهل الكبائر الى الله تعالى ·

(٣١) صفحة ١٨٨ : ابن الأعرابى : هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى أبو عبد الله (١٥٠ ــ ٢٣١ هـ) · وهو راوية وعلامة باللغة من أهل الكوفة ·

(٣٢) صفحة ١٩١ : « المسجديون » : هم قوم اتخذوا من المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له فعرفوا به ونسبوا اليه ·· ويظهران هؤلاء المسجدين كان لهم أثر كبير فى التوجيه الأدبى لكثير من ادباء ذلك العهد ·

(٣٣) صفحة ١٩١ : « أيفع الغلام » : ترعرع وناهز البلوغ فهو يفع ويافع ·

(٣٤) صفحة ١٩١ : المربد : سوق قرب البصرة كان يختلف اليه الشعراء والخطباء ·

(٣٥) صفحة ١٩١ : يكترى : يستأجر ·

(٣٦) صفحة ١٩٢ : حفائظهم : الحفاظ جميع حفيظة : الغضب والحمية فيما يحفظ ·

(٣٧) صفحة ١٩٣ : ساجة واحدة الساج : شجر عظيم صلب الخشب جمعه سيجان ويطلق الساج على الخشب مطلقا ·

(٣٨) صفحة ١٩٤ : منقرص : اى مصاب بالنقرس ·

(٣٩) صفحة ١٩٤ : ابو بكر احمد بن على المعروف بابن الاخشيد من أفاضل المعتزلة وزهادهم ·

(٤٠) صفحة ١٩٤ : النظام : هو أبو اسحق ابراهيم بن سيار بن هانى البصرى (١٨٥ ـ ١٢١) عالم وفيلسوف من كبار ائمة المعتزلة .

(٤١) صفحة ١٩٥ : « الشك أساس البحث » كان مذهب النظام ، وهو المذهب الذى نادى به الفيلسوف الفرنسي ديكارت بعد النظام بـثمانية قرون .

(٤٢) صفحة ٢٠٢ : أشكنج : قطع الطوب والآجر المكسرة . فارسية أصلها أشكنك .

(٤٣) صفحة ٢٠٨ : قصاف : اسم الجارية .

(٤٤) صفحة ٢٠٨ : نشوار : ما تبقيه الدابة من العلوفة .

(٤٥) صفحة ٢٠٨ : الكساحه : مثل الكناسـة .

(٤٦) صفحة ٢١١ : الغموس : اليمين الكاذبـة ، لانهـا تغمس صاحبهـا فى الاثم .

(٤٧) صفحة ٢١٢ : حزق بهم ، شـدد عليهم .

(٤٨) صفحة ٢١٢ : الشقيص : النصيب .

(٤٩) صفحة ٢١٢ : ساجها : خشبها .

(٥٠) صفحة ٢١٢ : مواضع الغرر : الخطر .

(٥١) صفحة ٢١٢ : يشغف : ينقص .

(٥٢) صفحة ٢١٣ : الحشوة : بكسر الحاء وضمها : رذال الناس .

(٥٣) صفحة ٢١٣ : مسكه : أى ما يمسك الرمق من طعـام وشراب .

(٥٤) صفحة ٢١٣ : النسولتين : الابل والغنم . وقلتهما اولادهما .

(٥٥) صفحة ٢٢٤ : الحـيرة : معناها فى اللغة السريانية الحصن . وهى مدينة بالقرب من الكوفة .

(٥٦) صفحة ٢٢٤ : يوحنا بن ماسويه : هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه ، كان عالما وطبيبا مقدما عند الملوك وله مؤلفات ذات قيمة طبية عظيمة .

(٥٧) صفحة ٢٢٤ : متى بن يونس : هو أبو بشر متى بن يونس القنائى ، وهو يونانى واليه انتهت رياسة المنطقيين فى عصره ، وعليه قرأ الفارابى كتب المنطق وله كتب كثيرة فى تفسير الفلسفة اليونانية .

(٥٨) صفحة ٢٢٥ : الرها : ادسا باليونانية ، وأرهونى بالارامية ، ومنه الاسم العربى الرها ، وهى مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام وكان لها شهرة عظيمة فى الحضارة .

(٥٩) صفحة ٢٢٥ : نصيبين مدينة من مدن الجزيرة كان بها قبل الاسلام مدرسـة نسطورية نالت تأييد الساسانيين من ملوك الفرس فانتشرت بذلك العقائد النسطورية والمعـارف اليونانية فى بلاد الفرس .

(٦٠) صفحة ٣٢٥ : انطاكية : مدينة بالشـام كان لها شهرة عظيمة أيام الحروب الصليبية .

(٦١) صفحة ٢٣٠ : المجريطي : عالم رياضي وكيميائي أندلسي توفي عام ١٠٠٧ م .

(٦٢) صفحة ٢٣٣ : الاقرباذي : هو بيع الأدوية ويقصد به الصيدلاني في الوقت الحاضر .

(٦٣) صفحة ٢٣٦ : الغنوسطية : أو الغنوصية : نسبة الى الغنوص وهي كلمة يونانية معناها في الأصل المعرفة ، ولكن معناها الاصطلاحي هو النزعة الى ادراك كنه الاسرار الربانية .

(٦٤) صفحة ٢٤٣ : ديمقريطس : فيلسوف يوناني ولد ٤٧٠ ق.م .

(٦٥) صفحة ٢٥١ : ميجيل اسين بلا سيوس : (١٨٧١ - ١٩٤٤) اكبر المستشرقين الاسبان . وهو من رجال الدين كان عضوا في الاكاديمية الاسبانية واستاذ اللغة العربية بجامعة مدريد . له مؤلفات عدة عن الثقافة العربية في اسبانيا .

(٦٦) صفحة ٢٦٠ : اية ٢٢ من سورة الانبياء .

(٦٧) صفحة ٢٦٠ : اية ٩١ من سورة المؤمنون .

(٦٨) صفحة ٢٦١ : اية ٤٢ من سورة الاسراء .

(٦٩) صفحة ٢٦٤ : اية ٥ من سورة السجدة .

(٧٠) صفحة ٢٦٥ : اية ١٠٣ من سورة الانعام .

(٧١) صفحة ٢٦٥ : اية ١٤٣ من سورة الاعراف .

(٧٢) صفحة ٢٦٦ : اية ٤٦ من سورة فصلت .

(٧٣) صفحة ٢٦٦ : اية ٤٠ من سورة النساء .

(٧٤) صفحة ٢٦٧ : اية ٣٠ من سورة البقرة .

(٧٥) صفحة ٢٧٣ : بلخ : احدى مقاطعات خوارزم ببلاد الفرس .

(٧٦) صفحة ٢٧٣ : جهان : احدى مقاطعات بلاد الفرس .

(٧٧) صفحة ٢٩٦ : انجم بنات نعش : نجوم ملاحية مشهورة .

(٧٨) صفحة ٣٠٢ : المقريزي : مؤرخ مصري (١٣٦٤ - ١٤٤٢ م) .

(٧٩) صفحة ٣٠٦ : راجع الفصل العاشر من الجزء الخامس من هذا الكتاب .

(٨٠) صفحة ٣٤٢ : العمارة القوطية : طراز معماري استخدم في أوربا الغربية منذ القرن ١٢ واستمر حتى بداية عصر النهضة .

(٨١) صفحة ٣٦١ : جون كلفن : (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م) لاهوتي فرنسي بروتستانتي من رجال الاصلاح . كان ضليعا في اللاهوت والقانون . تحول عام ١٥٣٣ عن الكثلكة ، وصار من قادة البروتستانت المرموقين . وبدأ ينشر مذهبه الديني ويعتبر كتابه (انظمة الدين المسيحي) واضع مبادىء اللاهوت الكلفني الأساسية .

الفهرس الشامل للأجزاء السبعة
مرتبا ترتيبا زمنيا **

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٢٨	المحاورات	باركلى	٨٠٠ م	٦	٩٦
٢٩	الرسالة	الشافعى	٨١٥ م	٣	١٤٣
٣٠	صحيح البخارى	أبو عبد الله محمد بن اسماعيل	٨٢٠ ـ ٨٦٠ م	٧	١٣٦
٣١	البخلاء	الجاحظ	٨٦٤ م	٧	١٦٤
٣٢	الرسائل الفلسفية	الكندى	٨٢٥ ـ ٨٦٦ م	٦	١١٤
٣٣	مصنفات جابر بن حيان الكيميائية	جابر بن حيان	٨٥٠ ـ ٩١٠ م	٧	٢٠٤
٣٤	الأغانى	الأصفهانى	٨٨٥ م	٣	١٦٥
٣٥	الجامع لصناعة الطب (الحاوى)	الرازى	٩٠٠ م	٥	٨٣
٣٦	ديوان المتنبى	أبو الطيب المتنبى	٩٠٠ ـ ٩٦٥ م	٥	١٠٥
٣٧	تاريخ الأمم والملوك	الطبرى	٩٢٠ م	٥	١٤٣
٣٨	العقد الفريد	ابن عبد ربه	٩٣٠ م	٤	٦٣
٣٩	احصاء العلوم	الفارابى	٩٤٠ م	٣	١٨٣
٤٠	الامتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيد	٩٨٠ م	٦	١٤٢
٤١	رسائل اخوان الصفا	اخوان الصفا	٩٨٣ م	٥	١٦٩
٤٢	القانون فى الطب	ابن سينا	١٠١٠ م	١	٧٥
٤٣	الشاهنامة	الفردوسى	١٠١٠ م	٥	١٩٣
٤٤	تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق	ابن مسكويه	١٠٢١ م	٢	٥٥
٤٥	طوق الحمامة فى الألفة والايلاف	ابن حزم	١٠٢٦ م	٦	١٦٦
٤٦	القانون المسعودى	البيرونى	١٠٣١ م	٣	٢٠٧
٤٧	رسالة الغفران	أبى العلاء المعرى	١٠٣١ م	٢	٧٣
٤٨	الرباعيات	عمر الخيام	١٠٨٠ م	٢	٩٧
٤٩	احياء علوم الدين	الغزالى	١١٠٠ م	٢	١١٩
٥٠	نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق	الادريسى	١١٥٤ م	٥	٢١٧

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٥١	حى بن يقظان	ابن طفيل	١١٨٤ م	٦	٢٩٠
٥٢	الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة	ابن رشد	١١٨٥ م	٧	٢٢٦
٥٣	معجم البلدان	ياقوت الحموى	١٢٠٠ م	٥	٢٣٥
٥٤	الفتوحات	ابى عربى	١٢٣٨ م	٢	١٣٩
٥٥	ديوان المثنوى	جلال الدين الرومى	١٢٧٣ م	٧	٢٤٨
٥٦	شرح تشريح القانون	ابن النفيس	١٢٨٠ م	٣	٢٢٣
٥٧	تحفة النظار	ابن بطوطة	١٣٢٤_١٣٥٤ م	٦	٢١٠
٥٨	وغرائب الأمصار				
٥٩	المقدمة	ابن خلدون	١٤٠٠ م	١	٩٥
	حياة الحيوان الكبرى	الدميرى	١٤٠٠ م	٥	٢٥٧
٦٠	الكوميديا الالهية	دانتى	١٤٧٢ م	٤	٨١
٦١	الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد	ابن ماجد	١٤٩٠ م	٧	٢٦٨
٦٢	الأمير	ميكافيلى	١٥١٣ م	١	١١٧
٦٣	حركات الكرات السماوية	كوبرنيكوس	١٥٤١ م	٥	٢٧٧
٦٤	دون كيشوت	سرفانتيس	١٦٠٥ م	٤	٩٩
٦٥	مسرحيات شكسبير	شكسبير	١٥٩٠_١٦١٦ م	٣	٢٥١
٦٦	الأورجانون الجديد والأوهام	فرنسيس بيكن	١٦٢٠ م	٧	٢٨٦
٦٧	حركة القلب والدم	وليم هارفى	١٦٢٨ م	٥	٢٩٥
٦٨	التأملات	ديكارت	١٦٤١ م	١	١٤٣
٦٩	الفردوس المفقود	جون ملتون	١٦٦٧ م	٦	٢٣٤
٧٠	البخيل	موليير	١٦٦٨ م	٥	٣١٣
٧١	علم الأخلاق	اسبينوزا	١٦٧٧ م	٢	١٥٧
٧٢	الف ليلة وليلة	مجهولة المؤلف	مجهولة التاريخ	٢	١٨١
٧٣	المبادىء	نيوتن	١٦٨٧ م	١	١٦٣

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٧٤	مبحث العقل الانسانى	لوك	١٦٩٠ م	٦	٢٥٢
٧٥	الحكايات	لافونتين	١٦٩٤ م	٧	٣٠٤
٧٦	تحليل الجمال	وليم هوجارث	١٧٠٤ م	٧	٣٢٠
٧٧	روبنسون كروزو	ديفو	١٧١٥ م	٣	٢٧٩
٧٨	روح القوانين	مونتسكيو	١٧٤٨ م	١	١٧٧
٧٩	دائرة المعارف الكبرى	ديدرو	١٧٥١ م	٢	١٩٧
٨٠	العقد الاجتماعى	جان جاك روسو	١٧٦٢ م	٢	٢٢٧
٨١	ثروة الأمم	آدم سميث	١٧٧٦ م	١	٢٠١
٨٢	فاوست	جوته	١٨٢٥ م	٤	١١٧
٨٣	فى قانون الاسكان	مالتوس	١٨٣٠ م	٦	٢٧٤
٨٤	فلسفة التاريخ	هيجل	١٨٣٢ م	٢	٢٧١
٨٥	فى التربية الجمالية للانسان	شيلر	١٨٣٧ م	٢	٢٥١
٨٦	الكون	هومبولت	١٨٤٥ م	٢	٣٠٣
٨٧	كوخ العم توم	هارييت بيتشر ستو	١٨٥٥ م	٧	٣٤٢
٨٨	أصل الأنواع	داروين	١٨٥٩ م	١	٢٢٣
٨٩	عن الحرية	جون ستيوارت مل	١٨٥٩ م	٤	١٣٣
٩٠	الاخوة كرامازوف	دوستويفسكى	١٨٦٠ م	٦	٢٩٦
٩١	الحرب والسلام	ليو تولستوى	١٨٦٤ م	٤	١٥٣
٩٢	رأس المال	كارل ماركس	١٨٦٧ م	١	٢٤٣
٩٣	تحرير المرأة	قاسم أمين	١٨٩٤ م	٤	١٦٩
٩٤	قواعد المنهج فى علم الاجتماع	دوركايم	١٨٩٥ م	٤	١٩٥
٩٥	اشعار طاغور	طاغور	١٨٩٠ ـ ١٩٤١ م	٤	٢٠٩
٩٦	رسالة التوحيد	محمد عبده	١٨٩٧ م	٦	٣٢٤
٩٧	الشوقيات	أحمد شوقى	١٩٠٠ ـ ١٩٣٢ م	٤	٢٣١
٩٨	تفسير الاحلام	سيجموند فرويد	١٩٠٠ م	٤	٢٥٩
٩٩	النظرية النسبية	أينشتين	١٩٠٥ م	١	٢٥٩
١٠٠	تدهور الغرب	اشبنجلر	١٩١٨ م	٥	٣٢٥

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احـلام الاعلام وقصص اخرى	برتداند رسـل
الالكترونيـات والحيـاة الحـديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيـا فى مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايمـوند وليـامز
تاريخ العـلم والتكنولوجيـا (٢ جـ)	ر٠ج٠ فوربس
الأرض الغـامضـة	ليسترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الـن
المرشـد الى فن المسـرح	لويس فارجاس
آلهـة مصـر	فرانسوا دوماس
الانسـان المصرى على الشـاشة	د٠ قدرى حفنى وآخرون
القـاهرة مدينة الف ليلة وليـلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمي ـ ومنطـق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النـوع الأدبى	د٠ محسـن جاسـم الموسوى
ديـلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسـان ذلك الـكائن الفـريد	جـون لويس
الـرواية الحـديثة	جـول ويست
المسـرح المصـرى المعـاصر	د٠ عبـد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهرام	يـل شـول وأدبنيت
فـن الترجمـة	د٠ صـفاء خـلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	هادى نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب في الكيمياء	د٠ فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٩٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن التشكيلى	د٠ غريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين أحمد حسين
نظرية الفيلم الكبرى	ج· داdلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د· جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د· السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د· مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	داويت سوين
الزمن وقياسه	زافيلكسكى ف · س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س· م· بورا
مركز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د· سميسون
الشارع المصرى والفكر	د· أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون يوركهارت
التذوق السينمائى	الآن كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ساسينج
دراما الشاشة	حسين حلمى المهندس

الهيـــروين والايـــدز	روى روبرتســـون
نجيب محفـــوظ على الشـــاشة	هاشـــم النحـــاس
صـــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتـــوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـر لـــورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهنـــدسة الوراثيـــة	ويليـــام بينـــز
تربيـــة أســماك الزينـــة	ديفيـــد الدرتون
الفلســفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جـــون ر · بورر وميلتون جـــولد ينجـــر
الفكر التـــاريخى عنـــد الاغريق	أرنولد توينبى
قضـــايا وملامح الفن التشكيلى	د· صـــالح رضـــا
التغـــذية فى البلـــدان النامية	م · هـ · كنـــج وآخـــرون
بـــداية بلا نهـــاية	جـــورج جامـــوف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو ســديرة
حـــوار حـــول النظـــامين الرئيســيين للكـــون	جاليـــليو جاليليـــه
الارهـــاب	اريك موريس وآلان هـــو
اخنـــاتون	ســيريل الـــدريد
القبيـــلة الثـــالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـــوافق النفسى	توماس ا· هاريس
الدليـــل البيليـــوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغـــة الصـــورة	روى أرمـــز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجـــاى متشـــيو
العـــالم الثـــالث غـــدا	بـــول هاريســـون
الانقـــراض الكبيـــر	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتـــور مورجـــان
التحليل والتوزيع الأوركســترالى	اعداد محمـــد كمال اسماعيل
الحيـــاة الكريمـــة (٢ ج)	بيـــرتون بورتر

الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / مونى براخ وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	نادين جورديمر وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى	آدامز فيليب
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى اوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بيير براير
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج . بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى الف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لمويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ . ج . ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد بيرتون
الطفل (٢ ج)	أدمز متز
الحضارة الاسلامية	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقي	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتوميم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ ج)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ه ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف . م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكي	بول وارد
بين تولستوي ودستويفسكي (ج ٢)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى . ناش
أنواع الفيلم الأميركي	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف (٢ ج)	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة في الصين	جوزيف نيدهام

المرأة الفرعونية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السى	روبرت لافو
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجمل تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	ديفيد بوشبندر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت . ج . هـ . جميز
البرنامج النووى الاسرائيلى	د . ممدوح حامد عطية
بحثا عن عالم افضل	كارل بوبر
العلم وآفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوننا المتمدد	ايفري شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نومان كلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/١١٠٧٤

ISBN — 977 — 01 — 5000 — 2